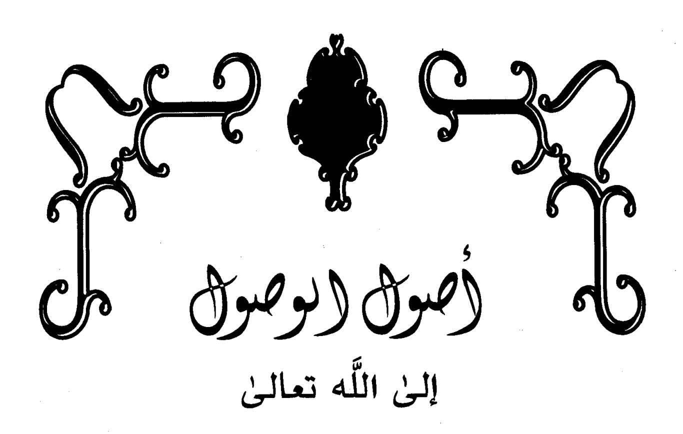
أُصُولُ الوُصُولِ
إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ

رقــم الإيــــداع : ٢٠٠٥/٢٠٧٧٩
I.S.B.N : 977- 6092- 88 – 8

دار التقــوى
للطبـــع والنشـــر والتوزيـــع
٥ ش مايو – منشية الحرية – شبرا الخيمة
الإدارة: ٤٧١٥٥٠٦ – ٤٧٩٣٩٣١ – ٠١٠١٥٩٢٢٧١
المكتبة: ٢٢٣١١٠٣ – ٤٧٣١٨٢٤



أصول الوصول

إلى الله تعالى

لفضيلة الشيخ

محمد بن حسين يعقوب

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

طبعة جديدة منقحة مزيدة

١٤٢٤هـ = ٢٠٠٤م


بسم الله الرحمن الرحيم

نبض الكتاب

إلهي وسيدي

أنا الصَّغيرُ الذي ربَّيتَه ؛ فلكَ الحمد
وأنا الضَّعيفُ الذي قوَّيتَه ؛ فلكَ الحمد
وأنا الغريبُ الذي وصَّيتَه ؛ فلكَ الحمد
وأنا الصُّعلوكُ الذي موَّلتَه ؛ فلكَ الحمد
وأنا العَزَبُ الذي زوَّجتَه ؛ فلكَ الحمد
وأنا السَّاغِبُ الذي أشبعتَه ؛ فلكَ الحمد
وأنا العارِي الذي كسوتَه ؛ فلكَ الحمد
وأنا المُسَافِرُ الذي صحِبتَه ؛ فلكَ الحمد
وأنا الغائِبُ الذي رَدَدْتَه ؛ فلكَ الحمد
وأنا الرَّاحِلُ الذي حملتَه ؛ فلكَ الحمد
وأنا المريضُ الذي شفيتَه ؛ فلكَ الحمد
وأنا السَّائِلُ الذي أعطيتَه ؛ فلكَ الحمد
وأنا الدَّاعِي الذي أجبتَه ؛ فلكَ الحمد
فلكَ الحَمْدُ رَبَّنَا حَمْدًا كثيرًا علىٰ حَمْدِي لك

الفقير إلىٰ اللّٰه

محمد حسين يعقوب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ شَيْخِي وَأُسْتَاذِي وَحَبِيبِي فِي الله

فَضِيلَةُ الشَّيخِ / مُحَمَّدُ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ المُقَدِّمَ

الحمدُ لله ذِي الطَّوْلِ وَالنَّعْمَاءِ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَىٰ خَاتَمِ الرُّسُلِ وَالأَنْبِيَاءِ، وَعَلَىٰ آلِهِ الأَتْقِيَاءِ، وَأَصْحَابِهِ نُجُومُ الاهْتِدَاءِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ مِنَ الأَئِمَّةِ العُلَمَاءِ.

أَمَّا بَعْدُ :

فَقَدْ جَعَلَ الله تَعَالَىٰ تَزْكِيَةَ النُّفُوسِ، وَإِصْلاحَ القُلُوبِ مِنَ المُهِمَّاتِ الجَلِيلَةِ التِي مِنْ أَجْلِهَا أَرْسَلَ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ، فَقَالَ عَزَّ مَنْ قَائِلٍ : ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وأَقْسَمَ عَزَّ وَجَلَّ أَحَدَ عَشَرَ قَسَمًا عَلَىٰ حَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ فِي سُورَةُ الشَّمْسِ : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠].

وَبَيَّنَ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ زَكِيَّةٌ طَاهِرَةٌ طَيِّبَةٌ ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

فَمِنْ ثَمَّ رَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ شَأْنَ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ ، فَقَالَ ﷺ : « **ثَلَاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ طَعِمَ طَعْمَ الإِيمَانِ : مَنْ عَبَدَ اللهَ وَحْدَهُ ، وَأَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَأَعْطَىٰ زَكَاةَ مَالِهِ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ ، رَافِدَةً عَلَيْهِ كُلَّ عَامٍ ، وَلا يُعْطِي الهَرِمَةَ ، وَلا الدَّرِنَةَ ، وَلا المَرِيضَةَ ، وَلا الشَّرَطَ اللَّئِيمَةَ ، وَلَكِنْ مِنْ وَسَطِ أَمْوَالِكُمْ ، فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَسْأَلْكُمْ خَيْرَهُ ، وَلَمْ يَأْمُرْكُمْ بِشَرِّهِ** »[1] ، **زَادَ البَيْهَقِيُّ فِي رِوَايَتِهِ** : « **وَزَكَّىٰ نَفْسَهُ** » ، فَقَالَ رَجُلٌ : وَمَا تَزْكِيَةُ النَّفْسِ ؟ فَقَالَ ﷺ : « **أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مَعَهُ حَيْثُ كَانَ** »[2] .

فَعُلِمَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ تَزْكِيَةَ النُّفُوسِ مِنْ أَهَمِّ المَقَاصِدِ الشَّرِيفَةِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَصْرِفَ العَبْدُ هِمَّتَهُ إِلَيْهَا ، وَأَنْ يَبْحَثَ عَنْ كُلِّ سَبِيلٍ يُوَصِّلُ إِلَيْهَا مِنْ صُحْبَةِ الصَّالِحِينَ ، وَمُطَالَعَةِ سِيَرِ الأَسْلَافِ الأَخْيَارِ ، وَحُضُورِ دُرُوسِ العُلَمَاءِ الرَّبَّانِيِّينَ ، وَالدُّعَاةِ المُرْشِدِينَ .

وَإِنَّ مِنَ الدُّعَاةِ المُجْتَهِدِينَ السَّائِرِينَ عَلَىٰ نَهْجِ السَّلَفِ الصَّالِحِينَ ، المُرْشِدِينَ الشَّبَابَ إِلَىٰ سُلُوكِ سَبِيلِهِم ، وَالاقْتِدَاءِ بِهَدْيِهِم ، أَخِي فِي اللهِ فَضِيلَةَ الشَّيخِ / **أَبِي العَلاءِ مُحَمَّدِ بْنِ حُسَيْنِ بْنِ يَعْقُوبَ** - لازَالَ سَعْيُهُ مَشْكُورًا ، وَعَمَلُهُ فِي الدَّارَيْنِ مَبْرُورًا - الَّذِي يَسُدُّ بِجُهُودِهِ المُبَارَكَةِ ثُغَرًا طَالَمَا أَعْوَزَ النَّاسَ سَدُّهَا ، وَيُحْيِي سُنَنًا عَزَّ فِينَا مَنْ يَحْفَلُ بِهَا ، وَيَنْتَصِبُ لإِحْيَائِهَا ، مُوَظِّفًا مَوْهِبَتَهُ فِي القُدْرَةِ عَلَىٰ تَبْسِيطِ العِبَارَاتِ ، وَإِيضَاحِ الإِشَارَاتِ ، مِمَّا جَعَلَ لِكَلامِهِ قَبُولاً ، وَلِوَعْظِهِ نَفَاذًا إِلَىٰ القُلُوبِ .

---

(١) أخرجه البيهقي في سننه (٧٠٦٧) ، وصحَّحَهُ الألبانيُّ في « الصحيحة » برقم (١٠٤٦) .

(٢) يَعْنِي : أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ عِلْمُهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ مَكَانٍ ، وَاللهُ عَلَىٰ العَرْشِ ، كَمَا فَسَّرَهُ بِذَلِكَ مُحَمَّد بن يَحْيَىٰ الذُّهْلي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ .

وَإِنَّ هَذَا الكِتَابِ الذِي بَيْنَ أَيْدِينَا إِسْهَامٌ طَيِّبٌ فِي تَقْرِيبِ عِلْمِ تَزْكِيَةَ النُّفُوسِ بِلُغَةٍ سَهْلَةٍ خَالِيَةٍ مِنْ تَعْقِيدَاتِ الاصْطِلاحَاتِ الصُّوفِيَّةِ ، وَبِأُسْلُوبٍ تِلْقَائِيٍّ يَخْلُو مِنَ التَكَلُّفِ وَالتَّصَنُّعِ ، وَبِمَنْهَجٍ سَلَفِيٍّ نَقِيٍّ يَقْتَفِي خُطَى أَئِمَّةَ هَذَا الفَنِّ مِنْ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ .

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَتَقَبَّلَهُ أَحْسَنَ القَبُولِ ، وَيَنْفَعُ بِهِ مَنْ وَصَلَ إِلَيْهِ ، وَمَثُلَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَيَجْعَلَهُ حَجَّةً لَهُ لا حُجَّةً عَلَيْهِ ، وَيُثِيبُ جَامِعُهُ الأَجْرَ الجَزِيلَ ، وَالذِّكْرَ الجَمِيلَ ، وَيَجْعَلُهُ دَوْمًا مِفْتَاحَ خَيْرٍ ، مِغْلَاقَ شَرٍّ ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ ، وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ .

وَكَتَبَ

مُحَمَّدُ بنِ أَحْمَدَ إِسْمَاعِيلَ المُقَدِّمَ

الإِسْكَنْدَرِيَّةِ فِي الأَرْبِعَاءِ ٥ ذِي القِعْدَةِ ١٤٢٦ هـ

المُوَافِقِ ٧ دِيسَمْبِرَ ٢٠٠٥ م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

الحمدُ للّه رَبِّ العَالَمِين ، والصَّلاةُ والسَّلامُ علىٰ أشرفِ المرسلين سيِّدِنا مُحَمَّدٍ وعلىٰ آلِهِ وصحبِهِ أجمعين .

رَبِّ يَسِّرْ وأَعِنْ وتَمِّمْ بِخَيْرٍ يَاكَرِيمُ

إخوتي في اللّه ، والذي فَلَقَ الحَبَّةَ وبَرَأَ النَّسْمَةَ إني أُحِبُّكُم في اللّه .

أخي في اللّه ، أين أنت من اللّه ؟ . . أين أنت في الطريق إلىٰ اللّه ؟

هذا السؤال وإن كان واردًا علىٰ الجميع ؛ إلَّا أنَّ أكثر الناس يجهلونه . . ببساطة : أخي ، كم سنة مرت علىٰ التزامك ؟ ، كم سنة مرت منذ تُبْتَ ؟ . . بعد مرور هذه السنة أو حتىٰ الشهور أو قل الأيام كيف سرتَ إلىٰ اللّه ؟ . . إلىٰ أين سرت؟ . . أين بلغتَ ؟ . . متىٰ تصل ؟

بالتأكيد كل هذه الأسئلة ليس لها عند كثير منا إجابة ؛ فإنه لم يعرف الطريق أصلًا ، وإنما هو التزمَ كما التزمَ الناس . . وهذه عادة المسلمين في حياتنا . . يتوضئون كما يتوضأ الناس ، ويُصَلُّون كما يصلِّي الناس ، ويُزكُّون كما يُزكِّي الناس ، ويَحُجُّون ويعتمرون كما يَحُجُّ ويعتمرُ الناس . .

إنما هي عادات تَلَقَّوْها بالوراثة ، بلا فَهْمٍ لأسرارِها ، ولا إدراكٍ لمعناها ، ولا حِرْصٍ علىٰ ثمرتِها ونتائِجها .

هكذا أخي الحبيب - ولا تغضب من خُشونةِ كلامي - التزمتَ بمعنىٰ أقلعتَ عن بعض المعاصي أو أكثرها وخصوصًا الظاهرة منها ، ودخلتَ المسجدَ وحضرتَ درسًا أو درسين ، أو سَمِعْتَ شريطًا وشريطين ، وقرأتَ صفحاتٍ من كتابٍ أو كتابين ، وتقرأُ القرآنَ أحيانًا ، وتذكرُ اللّٰهَ في بعض الأحيان ، إلىٰ جوار اللِحْيَة . . ثم تظنُّ أنك ملتزمٌ بدينِ اللّٰه ، وتنظرُ إلىٰ أصحابِ المعاصي الظاهرة علىٰ أنهم من الفُجَّار !!

بِاللّٰهِ عليك ، أليسَ هذا وصفُ حالك ؟

إنني أدعوك إلىٰ فَهْمِ الدِّينِ ومعرفةِ الطريقِ للوصولِ إلىٰ رضا اللّٰه - سبحانه وتعالىٰ . . يقول ابنُ القيِّم - عليه رحمةُ اللّٰه - :

الناسُ قسمان : عِلْيَةٌ وسَفَلَة ؛ فالعِلْيَةُ مَنْ عرفَ الطريقَ إلىٰ ربه وسلكها قاصدًا الوصولَ إليه ، وهذا هو الكريم علىٰ ربه . والسَّفَلَة مَنْ لَمْ يعرف الطريق إلىٰ ربه ولم يتعرَّفها ، فهذا هو اللئيمُ الذي قال اللّٰه- تعالىٰ- فيه : ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨][(١)] .

لذا كان هذا الكتاب - أيها الحبيب - للتعرف علىٰ معالم الطريق إلىٰ اللّٰه - تعالىٰ . . وهذه هي الطبعة الثانية من الكتاب .

---

(١) طريق الهجرتين (١٨١) .

وأنا أستغفرُ اللَّهَ العظيمَ الحيَّ القيومَ الذي لا إله إلا هو ، وأتوبُ إليه من أخطاءٍ وقعتْ في الطبعةِ الأولىٰ ، وأعتذِرُ لإخواني وأحبَّتي في اللَّه عن سوء إخراج هذا الكتاب في طبعته الأولىٰ ، ولعلَّهم يَقْبَلُونَ عُذري ؛ فهذا من شِيَمِ الكرام .

ولِلْمُصَالَحَة . . فإنَّ هذه الطبعة غيرُ سابقتها تمامًا ؛ فَقَدْ أُعِيْدَ ضَبْطُهَا كَلِمَةً كَلِمَة ، وتَمَّتْ زيادةُ نصوص ومواقفَ وتنقيحاتٍ في بعضِ أُصُولِها . . كما تمَّ توثيقُ النصوصِ وعَزْوُهَا إلىٰ مصادِرِها الأصليَّة .

وقُمْنَا كذلك بتخريج الأحاديث مرَّةً أخرىٰ بهذه الصورة . . صورة الاختصار في التخريج والاقتصار في الإحالات ؛ وذلك لأنَّ المهتمِّين بعلم المعاملة مع اللَّهِ - عزَّ وجلَّ - وقُرَّاءَ هذا الكتاب المُحِبِّينَ لأمرِ التزكية لا يهتمون كثيرًا بتطويلِ التخريج ؛ فليس يَهُمُّهُم كثرةُ الإحالات علىٰ الكتب . . يكفي طمأنينةُ القلب إلىٰ صِحَّةِ الحديث . . فاكتفينا لهم بذكرِ صِحَّتِهِ ، وتأكِيدِه لِإحالةٍ واحدة . . والرَّائِدُ لا يَكْذِبُ أهلَه .

ثُمَّ مقدمة لابُدَّ منها ، وهي التمهيد الذي استغرق أكثر من سِتِّينَ صفحة . . فقد رأيتُ أنه لا يَصْلُحُ أن ندخلَ في أصول الوصول مباشرةً دون توضيحٍ لأهمِّ الإشارات والتنبيهات ، والنصائح والتوجيهات التي لابد للسائرين منها ؛ فقدَّمتُ وَمَضَاتٍ في طريق السير ، وآفاتٍ علىٰ الطريق ، ثم انتهيتُ باستراحةِ المسافر . . فخذها علىٰ بركةِ اللَّه .

إخوتي في اللّٰه، إني - واللّٰهِ - أحبكم في اللّٰه، وأسألُ اللّٰه - جَلَّ جَلالُه - أن يجمعنا بهذا الحُبِّ في ظِلِّ عرشه يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّه، وأن يجعلَ عملنا كُلَّهُ صالحًا، وأن يجعلَه لوجهِهِ خالصًا، وألا يجعلَ فيه لأحدٍ غيرِهِ شيئًا، وأن ينفعَنا بما علَّمَنا، ويجعلَنا أوَّلَ العاملينَ به.. وأستغفرُ اللّٰهَ لي ولكم.

وصَلَّىٰ اللّٰهُ وسَلَّمَ وباركَ علىٰ سيِّدنا مُحَمَّدٍ
وعَلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ أجمعين
وَالحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ العَالَمِين

وكتب

الفقير إلىٰ عفو ربه

محمد بن حسين يعقوب

ليلة النصف من ذي القَعْدَة ١٤٢٤ هجرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الأولىٰ

إنَّ الحمد للَّه ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده اللَّه فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله .

اللهم صلِّ علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد ، كما صليت علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد ، كما باركت علىٰ آل إبراهيم إنك حميد مجيد .

أما بعد :

فإخوتي في اللَّه ، أوَّلًا - وقبلَ كلِّ شيءٍ - : إني واللَّهِ أحبكم في اللَّه .

وأصلُ هذا الكلام بسيط جدًّا ، خطبةٌ مختصرة في مسجد الفتح بالمعادي - عمَّره اللَّه بأهل الإيمان .

عنوانها : قواعد للسير إلىٰ اللَّه .

عناصرها : خمسة .

ثم تُنوقلت العناصر في مجالس ؛ فإذا بها تَربو علىٰ العشرين .

سَافرتُ سَفْرةً إلىٰ بلاد الغرب ، وفي وحشةِ السفر آنستُ نورًا يهدي ، وبصائرَ تدلُّ علىٰ المسير ؛ فزدتها فتجاوزت السبعين !

ثم في خَلوة جميلة في رحاب البيت الحرام في مكة ، ومع منبع النور فيوضات وبركات ؛ فبلغت المِئَة .

وكانت هذه الأصول :

«أصول الوصول إلىٰ اللّٰه تعالىٰ»

أسألُ اللّٰه أن يجعلها مناراتِ هدًى ، ومشاعلَ نورٍ تحدو السائرين إلىٰ اللّٰه ، وأن يجعلها بركةً علينا وعلىٰ أمة محمد ﷺ .

والكتابُ الذي بين يديك هو طليعةُ الأصول ، يحمل سبعةً وعشرين أصلًا ، كُتب شرحه علىٰ عُجالة ، ورُوجع في عُجالة ؛ لندرك به المؤمنين قبل رمضان يحدوهم إلىٰ اللّٰه ، تُعتَق به رقابُهم من النار .

فنسألُ اللّٰه المسامحةَ علىٰ أخطاءٍ أو هفوات - إن وجدت - ، ونرجو من أحبتي في اللّٰه الدعاء ؛ لعل اللّٰه أن ينفعنا بدعوةِ رجلٍ صالحٍ بظهر الغيب .

أسألُ اللّٰه أن يرزقنا الإخلاصَ في القولِ والعمل ، في السرِ والعلن ، وأن يتقبّلَ منا أعمالنا ويُثَقِّلَ بها موازيننا يوم نلقاه .

وكتب

الفقير إلىٰ عفو ربه

محمد بن حسين يعقوب

٢٧ من شعبان ١٤٢٤ هجرية

تمهيد

وَمَضَاتٌ علىٰ طريقِ السَّيْرِ إلىٰ اللَّه

اعلم - أخي الحبيب - أن للسير إلىٰ اللَّه أصولًا وضوابط . . وثَمَّةَ أمرٌ مهم . . وهو أن السائرين إلىٰ اللَّه هم المصطفون من خلق اللَّه ؛ قال - تعالىٰ - : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢] . . فكُلُّهم مصطفون مختارون لسلوك هذه الطريق . . فإنَّ سلكت فأبشِرْ ؛ ولكن انضبط واشكر كي لا تُطْرَد .

ومِنْ سُنَّةِ البشر في حياتهم ، أنَّ الطُّرُقَ لا يمكن أن تُسْلَك إلا بعلاماتٍ للاهتداء ، وإشاراتٍ للمَسِير ، توضِّح المراحل ، وتَدْفَعُ المخاطر ، وتُسَهِّل اجتياز العقبات ، وتُيَسِّر قطعَ الفَلَوَات ، وقد تكون هذه العلامات سمعية أو بصرية ، كما أنَّها قد تكون للتوضيح والإرشاد ، أو للتنبيه والاعتراض ، وهكذا فإنَّ المسافرَ في طريقِ الوصولِ إلىٰ اللَّه يحتاجُ إلىٰ التوعية والتنبيه بمواعظ هي إشارات ساطعة في دربِهِ الطويل ، وتنبيهات تَقِيْهِ شَرَّ المنعطفات (١) .

وهذه الطريق - أيها الأخُ الكريم - تحتاج إلىٰ علمٍ مهمٍّ جدًا

(١) انظر : مسافر في قطار الدعوة ، للشُّويخ (٢١١) .

وخطير . . هو علم السُّلوك . . يقول ابن القيِّم - عليه رحمةُ اللَّه - في «طريق الهجرتين» :

«السائر إلىٰ اللَّه - تعالىٰ - والدار الآخرة ، بل كل سائر إلىٰ مقصد ، لا يتم سيره ولا يصل إلىٰ مقصوده إلا بقوتين : قوة علمية ، وقوة عملية . فبالقوة العلمية يبصر منازل الطريق ومواضع السلوك فيقصدها سائرًا فيها ، ويجتنب أسباب الهلاك ومواضع العَطَب وطرقَ المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل . فقُوَّتُهُ العلمية كنُورٍ عظيمٍ بيده يمشي به في ليلة مظلمة شديدة الظلمة ؛ فهو يبصر بذلك النور ما يقع الماشي في الظلمة في مثلِهِ من الوِهادِ والمتالف ، ويعثر به من الأحجار والشوك وغيرِه ، ويبصر بذلك النور أيضًا أعلامَ الطريق وأدلتَها المنصوبة عليها فلا يضلُّ عنها ، فيكشفُ له النور عن الأمرين : أعلامِ الطريق ، ومعاطبِها . وبالقوة العملية يسير حقيقةً ؛ بل السيرُ هو حقيقة القوة العملية ؛ فإن السير هو عمل المسافر . وكذلك السائر إلىٰ ربه إذا أبصر الطريقَ وأعلامَها وأبصر المعاثرَ والوهادَ والطرق الناكبة عنها ؛ فقد حصل له شطرُ السعادة والفلاح ، وبقِيَ عليه الشطرُ الآخر وهو أن يضعَ عصاه علىٰ عاتقه ويُشَمِّرَ مسافرًا في الطريق قاطعًا منازلها منزلةً بعد منزلة ، فكلما قطع مرحلة استعدَّ لقطع الأخرىٰ ، واستشعرَ القُرْبَ من المنزل فهان عليه مشقةُ السَّفر»[(١)] .

نعم - أيُّها الحبيبُ المُحِبّ - : إنَّ الطريق إلىٰ اللَّه - تعالىٰ - تُقطَع بالقلوب لا بالأقدام . . نعم : هي طريق طويلة ، ونعم : هي مأهولة ؛ فقد

(١) طريق الهجرتين (١٨٧) .

سارها قبلك المصطفَوْن الأخيار من خِيرة خلقِ اللَّهِ علىٰ مدارِ العصور . . ولكنَّ هذه الطريق في عصرنا صارت مجهولة لأكثر الناس ؛ وذلك لإعراض الناس عنها بل وتَنَكُّبُهَا .

فلذا أنتَ تحتاجُ إلىٰ علم . . علم حقيقي بهذه الطريق ، وهمَّةٍ عالية تقطعُ بها هذه الطريق . . وكما ذكر ابن القيِّم - عليه رحمةُ اللَّه - أنك تحتاج إلىٰ قوة علمية ؛ يعني أن تتعلم . . ولا يظننَّ ظانٌّ أنَّ السائرَ إلىٰ اللَّه لا علاقة له بطلبِ العلم . . فما له والعقيدة أو الفقه أو المصطلح أو الأصول ؛ بل وما أشغله عن الدعوة إلا اللَّه .

وقع هذا الظن من أحوال الصوفية ؛ فقد اعتقد أكثرُ الناس أن معنىٰ «سائر» و«الطريق» وغيرها من هذه الكلمات هي الصوفية ، وهي مرتبطة بالابتداع . . وما حصل هذا الابتداع إلا بسبب الجهل والانصراف عن العلم والاكتفاء بمجرد الرياضات الروحية .

ولكن عندنا وفي منهجنا أنَّ طلبَ العلم أصل الوصول وهو لا يفارق السائر أبدًا . . فلابد أوَّلًا من منهج علمي منضبط[١] ذي مراحل في كل فروع العلم : عقيدة وفقه وتفسير وسيرة وحديث . . العلمَ قبل القول والعمل وإلا ضللت ولم تصل . . لابد من قوة علمية ، ثم القوة العملية : أن تبدأ تنفيذ هذا العلم في الواقع . . أن تسير حقيقةً .

وإنني أطالبك - أيها الحبيب - أن تستشعر هذا المعنىٰ : أنك سائر . .

---

(١) راجع هذا المنهج مُفَصَّلًا في كتابنا «منطلقات طالب العلم» (٣٦٧ - ٣٨٥) .

أنك مسافر .. أنك راحل .. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦] .. «مالي وللدنيا إنما أنا كراحل» .. هذا شعارُك في هذه الدنيا .. ولابد أن تتوازىٰ وتتوازن القوتان العلم والعمل؛ وإلا فهلاكٌ آخرَ وضلالٌ من نوع آخر، والجنون فنون؛ يقول ابن القيِّم – عليه رحمةُ الله – :

«ومن الناس من يكون له القوة العلمية الكاشفة عن الطريق ومنازلها وأعلامها وعوارضها ومعاثرها، وتكون هذه القوة أغلب القوتين عليه، ويكون ضعيفًا في القوة العملية؛ يبصر الحقائق ولا يعمل بموجبها، ويرىٰ المتالف والمخاوف والمعاطب ولا يتوقاها، فهو فقيهٌ ما لم يَحْضُر العمل، فإذا حضر العملُ شارك الجهالَ في التخلف وفارقهم في العلم، وهذا هو الغالب علىٰ أكثر النفوس المشتغلة بالعلم، والمعصوم من عصمه الله ولا قوة إلا بالله.

ومن الناس من تكون له القوة العملية الإرادية وتكون أغلب القوتين عليه، وتقتضي هذه القوة السير والسلوك والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة والجد والتشمير في العمل، ويكون أعمىٰ البصر عند ورود الشبهات في العقائد والانحرافات في الأعمال والأقوال والمقامات كما كان الأوَّل ضعيفَ العقل عند ورود الشهوات، فداءُ هذا من جهلِه، وداءُ الأوَّلِ من فسادِ إرادتِهِ وضعفِ عقلِه، وهذا حال أكثر أرباب الفقر والتصوف السالكين علىٰ غير طريق العلم، بل علىٰ طريق الذوق والوجد والعادة، يُرىٰ أحدُهم أعمىٰ عن مطلوبه لا يدري من يعبد ولا بماذا

يعبده ، فتارة يعبده بذوقه ووجده ، وتارة يعبده بعاده قومه وأصحابه من لُبْسٍ مُعيَّن أو كشفِ رأس أو حَلْقِ لِحْيَة ونحوها ، وتارة يعبد بالأوضاع التي وضعها بعض المتحذلقين وليس له أصل في الدين ، وتارة يعبده بما تحبُّه نفسُه وتهواه كائنًا ما كان . وهنا طرق ومتاهات لا يحصيها إلا ربُّ العباد . فهؤلاء كُلُّهم عُمْيٌ عن ربهم وعن شريعته ودينه ؛ لا يعرفون شريعته ودينه الذي بعثَ به رسله وأنزلَ به كتبه ولا يقبل من أحد دينًا سواه ، كما أنهم لا يعرفون صفات ربهم التي تعرَّف بها إلى عباده على ألسنةِ رسلِه ودعاهم إلى معرفته ومحبته من طريقها ، فلا معرفة له بالرب ولا عبادة له .

ومن كانت له هاتان القوتان استقامَ له سيْره إلى الله - تعالى - ورُجِيَ له النفوذ ، وقويَ على ردِّ القواطع والموانع بحول الله وقوَّته»[1] .

وهكذا - أخي الحبيب - فهمتَ أن بعض الناس له قوةٌ عِلْمِيَّة . . يعني تعلَّمَ العلمَ وعَرَفَ الطريقَ ثم لم يسلكْها ، فهو منافقٌ عليمُ النفاق ؛ قال - سبحانه - : ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الجمعة : ٥] .

والذي عنده قُوَّةٌ عَمَلِيَّة بدون علم . . يعني هو نشيطٌ في العبادة جدًّا ، مُتَحَمِّسٌ للدينِ جدًّا ؛ فإنه بلا شك سيُخْطِئ ويبتدع . . ولذلك فلابد في هذا الطريق أيها - الأخُ الكريم - أن تتوازن القوتان العلمية والعملية ، وأن

(١) «طريق الهجرتين» (١٨٨ - ١٨٩) .

يكون لك منهج للعلم ومنهج للعبادة والعمل[١] ويسير المنهجان في ذات الوقت ، وتتم المتابعة عليهما ، ويكون التدرج فيهما حتىٰ يتم الوصول .

وثَمَّة شروطٌ أُخَر . . هذه الشروط هي أُوْلىٰ الوَمَضَات التي تُنيرُ لكَ الطريق فيُشْرِقُ بها . . فيَسْهُلُ المَسِيْرُ إلىٰ اللّٰه . . إن شاءَ اللّٰه

*** الوَمْضَةُ الأولىٰ : شُرُوطُ الطَّرِيق :**

أوّلًا : الدَّلِيل . . وهو الشيخ المربِّي والعالم العامل والأستاذ السابق والخبيرُ المُجَرِّب . .

إنكَ تحتاجُ في طريقكَ إلىٰ شيخٍ ذي بصيرةٍ نافذة . . يَدُلُّ وينصح . . يُهَذِّب ويتابع . . يستشِفّ ويستنتج . . يلحظ ويعرف . . إنه مُجَرِّبٌ خِرِّيت . .

إنه ليس دليلَك على الطريق فقط ؛ إنما هو دليلُك علىٰ نفسِكَ ماذا تصلُح وكيف تصلح . . يصحبُكَ في سيرِكَ ويربِّيك بالمعاشرة .

أيها الإخوة ، إنَّ الطريقَ هذه طريقٌ واسعة . . وهذا شرطٌ في صفةِ الصراط ؛ أن يسعَ جميعَ السائرين . . وليس كُلُّ السائرين علىٰ طبيعةٍ واحدة ؛ فاللّٰه - عز وجل - خلق الخلق فتفاوتت همَمُهم وتنوَّعت مواهبُهم واختلفت طاقاتُهم وقدراتُهم . . ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

---

(١) راجع أيضًا منهج العمل والعبادة بتفصيل في «منطلقات طالب العلم» (٣٤٧ - ٣٦٦) .

فأين تسير؟.. وكيف تسير؟.. ومن أين تبدأ؟.. وفيمَ تستمر؟.. ومتى تتوقف وإلى متى؟.. هذا عملُ الدليل ووظيفتُه.. ماذا تَصْلُح وبماذا تهتم وفيمَ تتخصَّص؟

*** طبيعة الطريق:**

ولكي يتضح كلامُنا في حاجتِكَ إلى هذا المُرَبِّي؛ فلابُدَّ أن تعرفَ أوَّلًا طبيعةَ الطريق.. فاقرأ معي ما قاله ابن القيِّم - عليه رحمةُ الله وبركاتُه -(١):

«الطريق إلى الله في الحقيقة واحد لا تعدد فيه، وهو صراطه المستقيم الذي نَصَبَهُ موصِّلًا لمن سلكه إليه، قال الله - تعالى -: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]؛ فوحَّدَ سبيله لأنه في نفسه واحد لا تعددَ فيه، وجمعَ السُّبُلَ المخالفة لأنها كثيرةٌ متعددة، كما ثبت أنَّ النبيَّ ﷺ خطَّ خطًّا ثم قال: «**هذا سبيل الله**». ثم خطَّ خطوطًا عن يمينه وعن يساره ثم قال: «**هذه سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**»، ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾(٢).

ومن هذه قول الله - تعالى -: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ

---

(١) طريق الهجرتين (١٨١ - ١٨٤).

(٢) أخرجَهُ: أحمد (١/ ٤٣٥، ٤٦٥)، والحاكم (٢/ ٣٨١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. وهو حديث صحيح: صحَّحهُ الحاكم ووافقه الذهبيُّ وأحمد شاكر - رحمة الله عليهم.

ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، فوَحَّد النور الذي هو سبيلُه، وجمع الظلمات التي هي سُبُلُ الشيطان، ومن فَهِمَ هذا فَهِمَ السر في إفراد النور وجمع الظلمات في قوله - تعالى - : ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: ١]؛ مع أن فيه سرًّا ألطف من هذا يعرفه من عرف منبع النور ومن أين فاض وعمَّاذا حصل وأنَّ أصلَه كُلَّه واحد، وأما الظلمات فهي متعددة بتعدد الحُجُب المقتضية لها. وهي كثيرةٌ جدًّا؛ لكل حجاب ظلمة خاصة، ولا ترجع الظلمات إلى النور الهادي - جَلَّ جلالُه - أصلًا : لا وصفًا ولا ذاتًا ولا اسمًا ولا فعلًا؛ وإنما ترجع إلى مفعولاته - سبحانه -، فهو جاعِلُ الظلمات، ومفعولاتها متعددة متكثرة، بخلاف النور فإنه يرجع إلى اسمه وصفته - جل جلاله -، تعالى أن يكون كمثله شيء، وهو نور السموات والأرض. قال ابن مسعود : «ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السموات والأرض من نورِ وجهِه»، ذكره الدارمي عنه. وفي «صحيح مسلم» عن أبي ذر قلت: يا رسول اللّه، هل رأيت ربك؟ قال: «**نورٌ، أنَّى أراه!**»[1].

والمقصود أن الطريق إلى اللّه - تعالى - واحد، فإنه الحقُّ المبين، والحقُّ واحد، مرجعه إلى واحد. وأما الباطل والضلال فلا ينحصر، بل كل ما سواه باطل، وكل طريق إلى الباطل فهو باطل. فالباطل متعدد، وطرقه متعددة. وأما ما يقع في كلام بعض العلماء أن الطريق إلى اللّه

---

(١) أخرجَهُ: مسلم (١٧٨).

متـ... متنوعة ، جعلها اللّٰه كذلك لتنوع الاستعدادات واختلافها رحمةً منه وفضلًا ، فهو صحيح لا ينافي ما ذكرناه من وحدة الطريق . وكشفُ ذلك وإيضاحُه أنَّ الطريق وهي واحدة جامعة لكل ما يرضي اللّٰه . وما يرضيه متعدد متنوع ؛ فجميع ما يرضيه طريق واحد ، ومراضيه متعددة متنوعة بحسب الأزمان والأماكن والأشخاص والأحوال ، وكُلُّها طرق مرضاته . فهذه التي جعلها اللّٰه - سبحانه - لرحمته وحكمته كثيرة متنوعة جدًّا لاختلاف استعدادات العباد وقوابلهم ، ولو جعلها نوعًا واحدًا مع اختلاف الأذهان والعقول وقُوَّة الاستعدادات وضعفها لم يسلكها إلا واحد بعد واحد ؛ ولكن لمَّا اختلفت الاستعدادات تنوَّعت الطُّرُق ؛ ليسلكَ كُلُّ امرئ إلى ربه طريقًا يقتضيها استعدادُه وقُوَّتُه وقَبُولُه .

ومن هنا يُعلم تنوعُ الشرائع واختلافُها مع رجوعِها كلِّها إلى دينٍ واحد ؛ بل تنوع الشريعة الواحدة مع وحدة المعبود ودينه ، ومنه الحديث المشهور «**الأنبياء أولاد عَلات دينهم واحد**»[(١)] ؛ فأولاد العلات أن يكون الأب واحدًا والأمهات متعددة ، فشبَّه دين الأنبياء بالأب الواحد ، وشرائعهم بالأمهات المتعددة ؛ فإنها وإن تعددت فمرجعها كُلُّها إلى أبٍ واحد .

١- وإذا عُلِمَ هذا ؛ فمن الناس من يكون سيدُ عملِه وطريقُه الذي يعد سلوكه إلى اللّٰه طريق العلم والتعليم ، قد وفر عليه زمانه مبتغيًا به وجه اللّٰه ، فلا يزال كذلك عاكفًا على طريق العلم والتعليم حتى يصل من تلك

(١) **متفق عليه** : البخاريُّ (٣٤٤٢) ، ومسلم (٢٣٦٥) .

الطريق إلىٰ اللَّه ويُفتحَ له فيها الفتحَ الخاص ، أو يموت في طريق طلبه فيُرجىٰ له الوصول إلىٰ مطلبه بعد مماته ؛ قال- تعالىٰ- : ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء : ١٠٠] .

وقد حُكِيَ عن جماعةٍ كثيرة ممن أدركه الأجل وهو حريصٌ طالبٌ للقرآن أنه رُؤي بعد موته وأخبر أنه في تكميل مطلوبه وأنه يتعلم في البرزخ ، فإن العبد يموت علىٰ ما عاش عليه .

٢- ومن الناس من يكون سيد عمله الذكر ، قد جعله زاده لمعادِه ورأسَ مالِه لمآله ، فمتىٰ فَتَرَ عنه أو قصَّر رأىٰ أنه قد غَبِنَ وخَسِر .

٣- ومن الناس من يكونُ سيدُ عملِه وطريقُه الصلاة ، فمتىٰ قصَّر في وِرْدِه منها أو مضىٰ عليه وقتٌ وهو غير مشغول بها أو مستعدٌ ؛ لها أظلم عليه وقتُه وضاق صدرُه .

٤- ومن الناس من يكون طريقه الإحسان والنفع المتعدِّي ؛ كقضاءِ الحاجات وتفريجِ الكربات وإغاثةِ اللهفات وأنواع الصدقات ، قد فُتح له في هذا وسلكَ منه طريقًا إلىٰ ربه .

٥- ومن الناس من يكون طريقه الصوم ، فهو متىٰ أفطر تغيَّر عليه قلْبُه وساءت حالُه .

٦- ومنهم مَنْ يكونُ طريقُهُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قد فَتح اللَّه له فيه ونفذ منه إلىٰ ربه .

٧- ومنهم من يكون طريقه الذي نفذ فيه الحَجَّ والاعتمار .

٨- ومنهم من يكون طريقه قطعَ العلائقَ، وتجريدَ الهمة، ودوامَ المراقبة ومراعاةَ الخواطر، وحفظَ الأوقات أن تذهب ضائعة.

٩-ومنهم جَامِعُ المَنْفَذ، السالك إلى اللّه في كُلِّ واد، الواصِلُ إليه من كل طريق؛ فهو جعل وظائف عبوديته قِبلةَ قلبِه، ونَصَبَ عينَه يؤمُّها أين كانت ويسير معها حيث سارت، قد ضرب من كُلِّ فريقٍ بسَهْم، فأين كانت العبوديةُ وجَدْتَهُ هناك: إن كان علم وجَدْتَهُ مع أهله، أو جهادٌ وجدتَه في صفِّ المجاهدين، أو صلاةٌ وجدتَه في القانتين. أو ذكرٌ وجدتَه في الذاكرين، أو إحسانٌ ونفع وجدتَه في زُمْرَةِ المحسنين، أو مراقبةٌ ومحبةٌ وإنابة إلى اللّه وجدتَه في زمرة المحبِّين المنيبين، يَدِينُ بدين العبودية أنَّى استقلتْ ركائبُها، ويتوجَّهُ إليها حيثُ استقرت مضاربُها، لو قيل له: ما تريد من الأعمال؟؛ لقال: أريد أن أُنفِّذَ أوامرَ ربِّي حيثُ كانت وأين كانت، جالبةً ما جَلَبَتْ مقتضيةً ما اقتضت جَمَّعَتْنِي أو فَرَّقَتْنِي، ليس لي مرادٌ إلا تنفيذُها والقيام بأدائها مراقبًا له فيها، عاكفًا عليه بالروح والقلب والبدن والسر، قد سَلَّمْتُ إليه المَبيع منتظرًا منه تسليمَ الثَّمن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

فهذا هو العبدُ السالك إلى ربه النافُذ إليه حقيقةً، ومن النفوذ إليه أن يتصلَ به قلبُه ويَعْلَق به تَعَلُّقَ المُحِبِّ التامِّ المَحَبَّةِ بمحبوبه؛ فيسلوَ بِهِ عن جميع المطالب سواه، فلا يبقى في قلبه إلا محبةُ اللّه وأمرُه وطلبُ التقريب إليه.

فإذا سلك العبدُ على هذا الطريق عَطَفَ عليه ربُّه فقرَّبه واصطفاه،

وأخذ بقلبه إليه، وتوّلاه في جميع أمورِه في معاشه ودينه، وتوَلّى تربيته أحسن وأبلغ مما يُربّي الوالد الشفيق ولدَه؛ فإنه - سبحانه - القيُّوم المُقِيمُ لكُلِّ شيءٍ من المخلوقات طائِعِها وعاصِيها، فكيف تكون قيُّوميَّتُه بمن أحبَّه وتوَّلاه وآثره على ما سواه، ورَضِيَ به من الناس حبيبًا وربًّا ووكيلًا وناصرًا ومعينًا وهاديًا!!، فلو كشفَ الغطاءَ عن ألطافِهِ وبرِّهِ وصُنْعِهِ له من حيثُ يَعْلمُ ومِن حيثُ لا يعلم؛ لذَابَ قلبُه حبًّا له وشَوْقًا إليه ولتَقَطَّعَ شُكْرًا له؛ ولكنْ حَجَبَ القلوبَ عن مشاهدةِ ذلك إخلادُها إلى عالَمِ الشهوات والتعلُّقِ بالأسباب، فصُدَّتْ عن كمالِ نعيمِها، وذلك تقديرُ العزيز العليم. وإلا فأيُّ قلبٍ يذوقُ حلاوةَ معرفةِ اللَّه ومحبَّتِهِ ثم يركنُ إلى غيرِه ويَسْكُنُ إلى ما سواه؟! هذا ما لا يكون أبَدًا» اهـ.

استبانتِ الطريقُ.. رَحِمَكَ اللَّهُ يا شيخ الإسلام ويا عَلَمَ الأعلام ابنَ القيِّم، فيا لكَ من علامَةٍ مُرَبٍّ.. ورأيتَ تَنَوُّعَها فإلى أين تذهب، وكيف تذهب؟.. ومَنِ الذي يُوَجِّهُكَ ويَحُثُّك؟.. ويُرْشِدُكَ ويستثيرُكَ غيرُ المُرَبِّي؟!.. قالوا: واللَّهِ لولا المُرَبِّي ما عَرَفْتُ رَبِّي.

إذًا فوظيفةُ هذا المُرَبِّي أن يختارَ لك، وأن يقترحَ عليك؛ بل قد يُلزِمُكَ أحيانًا بما يُخالِفُ هَواك وتظنُّ أنَّكَ لا تُفلِحُ فيه وأنتَ لا تَصْلُحُ إلا له.

وقد تَصيحُ - أيها الأخُ الشَّابُّ الكريمُ المِفْضَال - وتَرفعُ عَقِيْرَتَكَ سائلًا: أين المُرَبِّي؟ أين المُرَبِّي؟.. وأنا أقولُ لك: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢-٣].

إنَّك - أيُّها الطيِّب - تبحثُ عن المشاهير الأعلام وتظنُّ أنه لا يَصْلُحُ لتربيتِكَ إلا هؤلاء . . وهذا من الغرورِ والسَّفَه ؛ فالمشاهير من الدُّعاةِ والعلماءِ والأركانِ وطلبةِ العلم ، يدفعون ضريبةَ الشُّهْرَة ؛ فلا وقتَ عندهم لأحد . . تكفيهم همومُهم ومشاغِلُهم . . وهُمْ معذورون - غفرَ اللَّهُ لنا ولهم .

فتواضَعْ - أَخي الكريم - وابحث عن هذا المُرَبِّي . . أخٍ مغمور لا يُعرَف . . لا يُؤْبَهُ له ؛ ولكنه قديم . . يبدو في وجههِ سَمْتُ الصَّالحين . . عابدٌ قلما تراه يخالطُ الناس فيما يخوضون فيه . . سابقٌ بالخيرات . . التزم مُنْذُ سنين وسَبَرَ أغوارَ الطريق .

قل لي : لن أجد . . وأنا أقول لك : سوف تجد ؛ قال - سبحانه - : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] . . وهذه أيضًا من قوانين هذا الطريق . . أنه لا يُعْطَي مِنحَةَ السيرِ فيه إلا مَنْ حَرِصَ وبذلَ وضحَّىٰ . . ابحثْ واصدُقْ واحرصْ واصبرْ تُعطَ . . تلك أصولُك يا مسكين .

ثانيا : الصَّاحِبُ . . في الهجرة دروسٌ وأسرار . . لمَّا أراد رسولُ اللَّه ﷺ أن يهاجر اصطحبَ رجلين . . رجلين فقط . . دليلًا وصاحبًا . . الدليلُ كان خِرِّيتًا بصيرًا بالطرق ، وهذا مهمته تنتهي عند ذلك . . أن يَدُلَّ علىٰ الطريق . . أمَّا الصَّاحِب فكانت الشُّرُوطُ فيه كثيرةً جدًّا . .

لكَ أن تتساءل لِمَ لمْ يصطحب عُمر وهو أشجع ، وسَفْرةٌ مِثْلُ هذه يُحتاجُ فيها إلىٰ الشجاعة ، أو لِمَ لَمْ يصطَحب عليًّا وهو أشَبّ ومن الأهل ، والتَّضحيةُ به أسهل ؛ بدليلِ أنه نامَ في فِراشِه .

لِمَ اختار أبا بكر دون الناس؟.. إنَّ الصُحْبَةَ في طريق السفر تحتاجُ إلىٰ شخصٍ علىٰ المنهج؛ لذا اختار رسولُ اللّٰه رجلًا قلبُهُ قريبٌ من قلبِه فلم يختلفا مرَّة.. انظر معي إلىٰ حادثة الغار:

لمَّا قال أبو بكر: لو نظر أحدهم تحت قَدَمَيْهِ لرآنا؛ فقال له ﷺ: «**لا تحزن، إنَّ اللّٰهَ معنا**»، فماذا كان ردُّ أبي بكر أو تعليقُهُ علىٰ هذه المقولة؟.. بالتأكيد لا شيء.. انتهت القضية.. سَلَّم.

وأنا متأكدٌ أنه لو كان غيرَ أبي بكر لظلَّ قَلِقًا وأعادَ المسألة؛ ولكن لمَّا كان قلبُهُ علىٰ قلبِه سلَّمَ.. واستراحَ الرسول واستراحَ أبو بكر.

الخُلَاصَة: إنني أقول لك: لابُدَّ من صاحبٍ في هذا الطريق علىٰ نفس المنهج قلبُهُ كقلبِك؛ لأنني أراك - أيها الحبيبُ المُحِبّ - قد خدعوك.. فقالوا: ابحث عمَّن يشدُّك.. وتُفَاجَأ بأنَّ كُلَّ الناس يبحثون عمَّن يشدُّهُم هذه الأيام.. وتفاجأ أنَّ الشدَّ إلىٰ أسفل لا إلىٰ أعلىٰ.

إنني أريد - أيها الحبيب - أن تبحث عن مسكينٍ مثلِك يبحثُ عن الطريقِ إلىٰ اللّٰه ويريدَ أن يصلَ إلىٰ اللّٰه.. هذا شَرْطُه.. إنه حريصٌ علىٰ طاعةِ اللّٰه يريد الوصول إلىٰ اللّٰه.. ابحث عنه وارضَ به ولا تشترطْه من الكُمَّل؛ فمن لم تكْمُلْ نفسُه لا ينبغي له أن يبحثَ عن الكمالِ عند الآخرين.

قال الفضيل بن عياض: من طلبَ أخًا بلا عيب؛ صارَ بلا أخٍ.

إذًا لا ينبغي أن يزهدَ السائرُ إلىٰ اللّٰه في أخيه السائر معه علىٰ الطريق لخُلُقٍ أو خُلُقين يُنكرهما فيه، إذا رَضِيَ سائرَ أخلاقِه؛ لأن اليسيرَ مغفور والكمال مستحيل.

ومَنْ ذا الذي تُرضىٰ سجاياهُ كُلُّها كفىٰ المرءَ نُبْلًا أن تُعَدَّ معايبُه

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : معاتبةُ الأخ خيرٌ لك من فقدِه .

وقال بعض الحكماء : طلبُ الإنصاف من قِلَّةِ الإنصاف .

وقال بعض السَّلف : «لا يُزْهِدَنَّكَ في رجلٍ حَمِدْتَ سيرتَه ، وارتضيتَ وتيرتَه ، وعرفتَ فضلَه ، وبَطَنْتَ عقلَه ، عيبٌ خفيٌ ، تُحيطُ به كثرةُ فضائِلِه ، أو ذنبٌ صغيرٌ تَستغفِرُ له قُوَّةُ وسائِلِه»(١) .

ولا أعْدِمُكَ (أحْرِمُكَ) النصيحة . . قد يكون هذا الصاحب زوجتَك أو والدَك أو شقيقك أو شقيقتك حتىٰ وإن كان ابنك أو بنتك . . وعندها يصيرُ الأمرُ أقوىٰ . . لأن المعاشرةَ وطولَ الصحبة والتطبع بطباع السفر من لوازم هذا الطريق . . ولكن كما ذكرت لك علىٰ قلبٍ واحد ؛ لأن الخلافَ كُلَّه شرّ ، والطريق مَشْغَلَة ، والانشغالُ عنها مَهْلَكَة - ؛ فلا تصاحبْ إلا موافقًا كي لا يزيدَ الجدل ويَكْثُرَ الخلاف ويضيعَ الطريق .

*** رُفْقَةُ الطَّريق :**

قد ذكرتُ لك أنه صاحب . . ولم لا يكونون صُحْبَة ؟ . . قال - سبحانه - : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ [الفتح : ٢٩] .

---

(١) أدب الدنيا والدين ، للماوردي (١٧٤) .

نعم : لابُدَّ لك - أيها الحبيبُ السائرُ إلىٰ اللّٰه - من رُفْقَةٍ وصُحْبَة في هذا الطريق . . لابُدَّ لك من مجموعةٍ تأنسُ بها ؛ لتُذهبَ عنكَ وحشةَ التَّفرُّد ، وتصحِّح لك الأخطاء ، وتوضِّح لك عقباتِ الطريق .

وإذا كانت الرُّفْقَة مُهِمَّة ومطلوبة في سفر الدنيا ، فكيف بأسفار الآخرة ، التي يكونُ فيها المؤمنُ أشدَّ حاجةً إلىٰ المُعِينِ الصالح ، والمشارِكِ الموافِق ، الذي يكون مع شريكه كاليدين تَغْسِلُ إحداهُمَا الأخرىٰ . . فالْزَم الرَّكْبَ - أيُّها الحبيب - ؛ فلِلرَّكْبِ خيريَّة .

«وإنَّ لِرُفَقَاءِ دَرْبِ الآخرةِ خصائصَ ومواصفات لابدَّ منها ؛ فرفقاءُ الطريق إلىٰ اللّٰهِ - تعالىٰ - هُمُ الذين عَلَتْ هِمَمُهم ، وصَفَتْ نيَّاتُهم ، وصَحَّ سلوكُهم ، حتىٰ سبقوا الناس وتركوا السُّكون ، وتزاحموا علىٰ ركوب القافلة رَكْضًا إلىٰ اللّٰه - تعالىٰ - ، وتَسَارُعًا إلىٰ مرضاته ، ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤] ؛ فلم يوقف لهم علىٰ رسم ، ولم يلتزموا باسم ، ولم ينتظروا أن يشار إليهم بالأصابع ، أو تُرفعَ لهمُ الأعلام ، فقد علت منهم الهِمَّة التي لا تَقِفُ دونها حركةُ السفر ، ولا يرضىٰ صاحبُها بغير الخالق عِوَضًا ، كما صفا منهم القصدُ الخالص من الشَّوائب حتىٰ لا تَعُوقَ عن المقصود ، وكان منهم التَّجَرُّدُ التامُّ للمعبود ، وعلامةٌ أُخرىٰ لرفقاء الطريق هؤلاء ، ألا وهي صحة السلوك السالم من الآفات والعوائق والقواطع والحُجُب»(١) .

(١) مسافر في قطار الدعوة ، للشُّويخ (٨١) بتصرف يسير .

وصِحّةُ السُّلوكِ السَّالم هذه لا تكونُ إلَّا بثلاثةِ شروطٍ هي تَمَامُ خصائص إخوانِ الدَّرْب وخِلَّانِ الطريق :

« **أحدها** : أن يكون الدَّرْبُ الأعظمُ الدَّرْبَ النبويَّ المحمديّ ، لا على الجوادِّ الوضعية . . **الثاني** : أن لا يُجيبَ على الطريق داعيَ البطالةِ والوقوفِ والدَّعَة . . **الثالث** : أن يكون في سلوكِه ناظرًا إلى المقصود . . فبهذه الثلاثة يَصِحُّ السُّلوك ، والعبارةُ الجامعةُ لها أن يكونَ واحدًا لواحد ، في طريقٍ واحد »(١) .

*** الوَمْضَةُ الثَّانية : حَدِّدْ هَدَفَك :**

تُرى كيف يسافر المسافر وهو بلا مقصد؟ . . فبالنيَّةِ يتحدَّدُ السفر وتتوضَّح الوِجهة وعلى أساسها يُخَطَّطُ منهجُ الرحلة طالت أم قَصُرَتْ ، وعلى صِدْقها يُحملُ الزَّاد . . وهكذا سفرُ المؤمن لابد له من النية الصادقة ؛ قال رسول الله ﷺ : « **إنَّمَا الأَعْمَالُ بالنِّيَاتِ ، وَإنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصيبُهَا ، أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجرَ إِلَيْه** »(٢) .

فحدِّدْ هدفَك - أخي الكريم . . ماذا تريد بهذا الطريق . . تحديدًا واضحًا لا لَبْسَ فيه ؛ حتى تستطيعَ الوصولَ إلى ما حَدَّدْتَه .

آلتزمتَ لتكون شيخًا مشهورًا أو زعيمًا متبوعًا . . آلتزمتَ وسلكتَ هذا

---

(١) تهذيب مدارج السالكين (٢/٩٠٦) .

(٢) **متفق عليه** : البخاريُّ (١) ، ومسلم (١٩٠٧) .

الطريق لفشلك في الحصول علىٰ الدنيا ، فأردتَ أن تحصل عليها بزَغْم الآخرة . . حدِّد هدفَك أيُّها المسكين ، واعلم أنَّ العليمَ الخبيرَ بالنوايا بصير .

لمَّا ذهب أعرابيٌّ مع رسولِ اللَّه ﷺ في الجهاد فقَسَمَ له قَسْمًا من الفَيء ؛ قال الرجل : «ما علىٰ هذا تَبِعْتُكَ !» . . فحَرِّرْ نِيَّتَك : عَلَامَ اتبَعْتَنَا ؟!

«والنِيَّةُ - أيها الحبيب - أصل العبادات ، وبها يتميز الصحيح من السقيم ، والخالص من غيره ، وبالنية تتحدَّد منازل السالكين ، ووجهة القاصدين ، ومن يريد بها وجه اللَّه - تعالىٰ - ، أو يريد السفر بأي نوع كالهجرة ؛ إذ إنها قد تكون لمصلحة دنيوية ، أو دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، وبهذه النية يتحدَّد الإخلاص الذي به يؤجر المرء علىٰ متاعبِ الطريق ، وبه يَستعذِب العذاب ، وبه تَهُونُ مَشَاقُّ الطريق .

والإخلاصُ وحدَهُ يقودُ إلىٰ شفافيةِ القلب ، وصَفَاءِ الوِجْدان ؛ لأن المؤمن لا يفكِّر بعده إلا في عظمةِ ربه ولا يتوجَّه إلا إلىٰ خالقه . . فلا يُضِيْرُه متاعبُ المثبِّطين ، ولا نداء المرجفين ، ولا يُقْعِدُهُ فُتورُ الهابطين»[1] .

يقول ابن القيِّم - عليه رحمةُ اللَّه - :

«فالإخلاصُ سبيلُ الخَلَاص ، والإسلامُ هو مرْكِبُ السَّلامة ، والإيمان شاطِئُ الأَمَان»[2] .

---

(١) مسافر في قطار الدعوة (٢٢) بتصرف يسير .

(٢) مفتاح دار السعادة (٧٢) بتصرف يسير .

فإذا تحدَّدَتْ وِجهَتُك - أيُها السائر - وعُلِمَ مقصِدُكَ بتوحيدين : هما توحيد القصد وتوحيد المقصود ؛ فالمقصود هو اللّه - سبحانه وتعالىٰ - ، والقصد إرادة وجهه الكريم . . إذا تحدَّدتْ وِجْهَتُك هذه وعُلِمَ مقصِدُكَ هذا ؛ فقد استرحت في هذه السَفرة . . وسيتبيَّنُ لكَ ذلكَ حين نذكر فيما بعد أنَّ المُشَغِّبين كثير ، والسُّبُلُ مُدْلَهِمَّة ، والعوارضُ تُفَتِّرُ العزائم . . فإذا حَصَلَ توحيدُ القصد وتوحيد المقصود لم يُلْتَفَتْ إلىٰ الأغيار .

فالنيَّةَ - أخي السافرُ - النيَّةَ . . النيةُ بِدَايةُ الطريق . . فطَهِّرْ قلبَكَ لتستعِدَّ للسَّفَر .

*** الوَمْضَةُ الثَّالثة : مُقَوِّمَاتُ السَّفَر :**

إذا كنتَ - أخي السالك - لازِلْتَ مُصِرًّا علىٰ الإتمام ؛ فاعلم أنَّ من مقومات السفر : المنهج ، واعلم أنّ منهجنا معصْوم ؛ فلا مجال لنا للاجتهاد فيه ؛ إذ اتفق العلماء علىٰ أنَّ أعمال العبادات توقيفية ؛ الظاهر منها والباطن ، ولذا فقد تكفَّل الشرعُ - كتابًا وسُنَّةً - بوصف المنهج في هذا الطريق وصفًا لا يَزِيْغُ عنه إلاهالك .

قال - سبحانه - : ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [الليل: ١٢] . . وإذا قال : ﴿عَلَيْنَا﴾ فقد وَجَبَتْ . . وقال - سبحانه - : ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، وقال - سبحانه - حاكيًا عن موسىٰ لمَّا سُئل عن ربِّه أنه عرَّفه فقال : ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وقال - سبحانه - : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٥]، وقال- سبحانه- : ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ

إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [فاطر: ٣١].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**تركتكم علىٰ المَحَجَّةِ البيضاء**»، وفي رواية «**بيضاء نقيَّة كالشمسِ لا يَزِيغُ عنها إلا هالك**»(١).

وقال ﷺ: «**تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدًا كتابَ اللَّهِ وسُنَّتِي**»(٢) وقال ﷺ: «**إنه من يعش بعدي فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين عَضُّوا عليها بالنواجِذ، وإيَّاكم ومحدثاتِ الأمور؛ فإنَّ كُلَّ محدثةٍ بدعة، وكُلَّ ضلالةٍ في النار**»(١).

بهذه النصوص وإجماع الأمة يتبين لنا يقينًا لا شكَّ فيه أنَّ الدين كَمُل.. والطريقَ وُصِفَتْ.. والمَعَالمَ نُصِبَتْ.. والأصولَ وُضِعَتْ.

فلا مجال لهَرْسِ الهرائسة، ولا لِقَرْمَطَةِ القرامطة.. لا مجال لفَزْلَكَةِ المتفزلِكين، ولا مَنْظَرَةِ المغرورين المُعْجَبين.. لا مجالَ لتحديثِ الدين، ولا للفَهْمِ المستنير - زعموا -، ولا لِبِدَعِ أهلِ الأهواء.. الدينُ دينُ مُحَمَّد وما كان عليه وأصحابُه.

قال رسول اللَّه ﷺ: «**افترقت اليهود علىٰ إحدىٰ وسبعين فرقة وافترقت النصارىٰ علىٰ اثنتين وسبعين فرقة، وستفرق أمتي علىٰ ثلاثِ**

(١) أخرجَهُ: أحمد (١٢٦/٤)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذيُّ (٢٦٧٦) وقال: حسنٌ صحيح، وقال الألبانيُّ - رحمه اللَّه -: صحيح.

(٢) أخرجَهُ: أحمد (٥٩/٣)، والترمذيُّ (٣٧٨٦) وقال: حسنٌ غريب، وانظر «الصحيحة» (١٧٦١).

وسبعين فرقة كُلُّها في النار إلا واحدة ؛ ما أنا عليه وأصحابي ، وليَكونَنَّ من أمتي أقوامٌ تَتَجَارىٰ بهم تلكَ الأهواء كما يتَجَارىٰ الكَلَبُ بصاحِبِهِ لا يبقىٰ منه عِرْقٌ ولا مِفْصَل إلا دَخَلَه »[1] .

وإنَّ هذا الحديث وأمثالَه ليَزيدُ المؤمن إيمانًا - واللّهِ - حين يرىٰ تَجَارِيَ الأهواءِ بالقوم . . فيا أيُّها السائرُ الكريم ، المنهجُ معصوم لا مَجَالَ للاجتهاد فيه . . عَلِمْتَ هذه أوَّلًا فخذِ الثانية .

إذا كان المنهجُ معصومًا فلابد من المنهج ؛ فالبداية - بدايةُ السير - غيرُ المنهجية تؤدِّي إلىٰ الفتور وتقودُ إلىٰ الانتكاس ، ثم تُكْثِرُ الشَّكوىٰ ولا سَميعَ ولا مُجيب .

لابد من منهج حقيقي في السير إلىٰ اللّه - سبحانه وتعالىٰ - ، وفي أصول التعبد : الصلاة والزكاة والصيام والحج والعمرة ونوافلها . . أقصِدُ أن تُحَدِّدَ لنفسِكَ منهجًا : ماذا ستفعل ، وكم ، ومتىٰ ، وكيف ؟ ، وتلتزم بهذا المنهج وتُتَابَعُ عليهِ محاسبةً شديدة .

مثلًا . . كان رسولُ اللّه ﷺ يُصَلِّي في اليوم أربعين ركعة ؛ سبعةَ عَشْرَةَ فرائض ، واثْنَتَيْ عَشْرَةَ رواتب ، وإحدىٰ عَشْرَةَ تَهَجُّدًا وكان إذا فاته شيءٌ منها قضاه . . حتىٰ ثَبَتَ أنه قضىٰ سُنَّةَ الظهر بعد العصر . . فإن كنتَ تُطِيقُ هذا وتلتزمُه فالْتَزِمْ ولا تُفَرِّط ، وإيَّاك وإسهالَ الاستسهال .

---

(١) أخرجَهُ : أحمد (٤/ ١٠٢) ، وأبو داود (٤٥٩٧) ، وصحَّحه الألبانيُّ - رحمه اللّه - في « الصحيحة » (٢٠٣ ، ٢٠٤) .

ومثلًا آخر . . كان الصحابةُ يُحَزِّبُونَ القرآن ؛ أي يختمون كُلَّ جُمُعَة مرَّة . . يبدأون من عصرِ الجُمُعَة ويختمون عصرَ الخميس بمعدَّل خمسةِ أجزاء يوميًا . . أفتطيقُ هذا؟ . . التزمْ ولا تفرّطْ . . وإيَّاك وإسهالَ ولا استهسال .

علىٰ هذين المثالين فقِسْ في أجنحةِ المنهج الثلاثة : طلب العلم ، والعبادة ، والدعوة إلىٰ اللّه . . اجعلْ لكَ منهجًا واضحًا . . كم ركعةً ستُصَلِّي في اليوم؟ ، وكم يومًا ستصوم في الأسبوع؟ ، وكذلك وِزْدُكَ في الذكر . . وكذا العلم والدعوة . . حَدِّدْ ماذا ستفعل لتحاسِب علىٰ ما حدَّدتَ ولا تتركْ الأمورَ مبهمة . . ولا تنسَ : المنهجُ معصوم . . كن سلفيًا علىٰ المنهج .

*** الوَمْضَةُ الرَّابعة : وتزوَّدوا :**

قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللّهُ :

«إنَّ لِكُلِّ سفرٍ زادًا لا مَحَالة ، فتزوَّدوا من الدنيا للآخرة ، وكونوا كمن عَايَنَ ما أعدَّ اللّه - تعالىٰ - من ثوابه وعقابه ، ترغبون وترهبون ، ولا يطولَنَّ عليكم الأمدُ فتقسو قلوبكم ، وتنقادوا لعدوِّكم ، فإنه - واللّه - ما بسط أملُ من لا يدري ، لعله لا يصبح بعد مسائه ، ولا يمسي بعد صباحه ، وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا ، فكم رأينا ورأيتم من كان بالدنيا مغترًّا ، وإنما تَقَرُّ عينُ من وَثِقَ بالنَّجاة من عذاب اللّه ، وإنما يفرح مَنْ أمِنَ من أهوالِ القيامة»[1] .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز (٢٥٨) .

وقالَ ابنُ الجَوْزِيّ - رَحِمَهُ اللَّه - :

«عجبًا لراحلٍ ماتَ وما تزوَّدَ للرِّحْلَة ، ولمسافرٍ ماجَ وما جمعَ للسَّفَرِ رَحلَه ، ولمنتقلٍ إلى قبرهِ لم يتأهَّبْ للنَّقْلَة ، ولمُفَرِّطٍ في أمرِهِ لم يستثِرْ عَقْلَه . . إخواني ، مَرَّ الأقرانُ على مَدْرَجَة ، وخيولُ الرَّحيلِ للباقين مُسْرَجَة ، سارَ القومُ إلى القبورِ هَمْلَجَة ، وباتتْ أرواحٌ من الأشباحِ مُسْتَخْرَجَة ، إلى كم هذا التسويف والمَجْمَجَة ، بضائِعُكُم كُلُّها بَهْرَجَة ، وطريقُكُم صَعْبَةٌ عَوْسَجَة ، وستعرفون الخبرَ وقتَ الحَشْرَجَة»(١) .

إيْ - واللَّهِ - صدقتَ يا ابنَ الجوزي . . وسبحانَ المَلِك ! ، كم فضلُ علمِ السَّلف على علمِ الخلف . . انظر إلى كلام الرجل ترى رجلًا خَبَرَ وسَبَرَ ، فتكلَّمَ عن رؤيةٍ ونظر .

فانطلِقْ في رحلتك على بصيرة وكفاكَ مَجْمَجَة ولَجْلَجَة وعَوْجَجَة .

واعلمْ - أخي الحبيب - أنَّ من بركات السفر إلى اللَّه - تعالى - ما يُتِمُّ به من إسباغِ النعمةِ على العبد ، وما قد يفتحُ اللَّه على عباده من أبواب وخزائن النعم ، وما يتفضل به على عبادِهِ من الرحمة التي لا تخطر على بالِ بشر إلا من عاشَ لَذَّتَهَا وارْتَشَفَ من مَعِيْنِهَا .

*** سَبِيلُ التَّزَوُّد :**

١- التَّوحِيدُ والإِيمَان :

إنَّني - أيُّهَا الحَبِيبُ - حِينَ طالبتُكَ بالتزوُّدِ والْتَفَتَّ عني بزَعْمِ أنَّكَ

---

(١) المُدْهِش (٢١١) .

لا تَملِكُ ، وفَتَّرَكَ الشيطانُ بالفَتِّ في عَضُدِكَ بادِّعاء أنّك للّه عاصٍ . . لم أطالِبْكَ حين طالبتُكَ من الزّاد غير : التوحيد والإيمان . . ثم يُعْطِي اللَّهُ البركةَ فيهما للمسافرين ، ويمحقُ البركةَ من الجَهَلةِ البطّالين .

إنَّ حلاوةَ الإيمان أعظمُ زادٍ في هذه الرحلة ، ولا يتذوَّقُ حلاوةَ السيرِ ولذةَ هذا العيش إلا من كان له نصيبٌ بمعرفة اللَّه وتوحيدِه وعاشَ حقائقَ الإيمان ، وجرَّبَ هذه اللذة . .

«فإن اللذةَ والفرحةَ والسرورَ وطِيْبَ الوقت والنعيم الذي لا يمكن التعبيرُ عنه ؛ إنما هو في معرفةِ اللَّه – سبحانه وتعالىٰ – وتوحيدِه والإيمانِ به ، وانفتاح الحقائقِ الإيمانية ، والمعارفِ القرآنية ، كما قالَ بعضُ الشيوخ : لقد كنت في حالةٍ أقولُ فيْهَا : إنْ كانَ أهلُ الجَنَّةِ في هذهِ الحَال إنهم لفي عيش طيّب ، وقال آخر : لَتَمُرُّ علىٰ القلب أوقاتٌ يَرْقُصُ فيها طَرَبًا»[1] ، ويقولُ الآخَرُ مع فقرِهِ : لو عَلِمَ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ما نحنُ عليه لجَالَدُونَا بالسُّيوف . . اللهمَّ لا تحرمنا لَذَّةَ الإيمان وطعمَ الإيمان وحلاوةَ الإيمان . . آمين .

٢- اليقين :

وأنا إنما أقْصِدُ – أيُّها الحبيب – أنه في البداية يكفي من الزاد اليسير ثم ببركة اللَّه – تعالىٰ – يبارك في القليل فيصيرُ كثيرًا . . فتزوَّد لهذا السفر ابتداءً بِعُدَّةٍ هي اليقين . . يقول ابن القيِّم – عليهِ رحمةُ اللَّه – :

---

(١) الفتاوىٰ ، لابن تيميّة (٢٨/ ٣١) .

«وفي الطريقِ أوديةٌ وشُعُوب ، وعقباتٌ ووُهُود ، وشَوْكٌ وعَوْسَج ، وعُلَّيق وشَبْرق ، ولصوصٌ يقتطعون الطريقَ علىٰ السائرين . ولا سِيَّمَا أهلِ الليل المُدْلِجين . فإذا لم يكن معهم عُدَدُ الإيمان ، ومصابيحُ اليقين تَتَّقِدُ بزَيْتِ الإخبات ؛ وإلا تَعَلَّقَتْ بهم تلكَ الموانع . وَتشَبَّثَتْ بهم تلكَ القواطِع . وحَالتْ بينهم وبينَ السَّيْر»(١) .

فلابُدَّ ابتداءً من يقينٍ يُنيرُ لكَ الطريق . . فاليقينُ نور . . هذه هي العُدَّة الثانية من الزَّاد . . اليقينُ في اللَّه - تعالىٰ - ، واليقينُ في رسولِ اللَّه ﷺ دليلًا ، واليقينُ في المنهجِ مُوَصِّلًا .

«ومتىٰ وصَلَ اليقينُ إلىٰ القلب امتلأ نورًا وإشراقًا . وانتفىٰ عنه كُلُّ رَيْبٍ وسَخَطٍ ، وهَمٍّ وغَمٍّ . فامتلأ محبةً للَّه ، وخوفًا منه ، ورضًا به ، وشكرًا له ، وتوكُّلًا عليه ، وإنابةً إليه . فهو مادةُ جميع المَقَامَات والحاملُ لها»(٢) .

٣- التقوىٰ :

وتزوَّدْ - أيُّهَا السَّائرُ - أيضًا بتقوىٰ اللَّه في السرِّ والعلانية ؛ فإنها السبيلُ الأَوْحَد للإخلاص . . وهي : طاعةُ اللَّه ؛ بِلُزُوم الأمرِ والنهي . . قال - سبحانه - : ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧] .

تزوَّدوا - أيُّها السَّائرون - كُلَّ ساعة ؛ فإنَّ «الدنيا ليست بدار قرار ، دارٌ كتبَ اللَّهُ عليها الفناء ، وكتبَ علىٰ أهلِها منها الظَّعَن ، فكم عامرٍ

(١) مدارج السالكين (٢/٨) بتصرف يسير .
(٢) تهذيب مدارج السالكين (٢/٧٢٧) .

موثق عمَّا قليلٍ يخرب ، وكم مقيم مغتبط عما قليلٍ يظعن ، فأحسنوا - رحمكم الله - منها الرحلة ، فأحسِنُ ما يحضر بكم من النِقلة ، وتزوَّدوا فإن خير الزاد التقوىٰ ، إنما الدنيا كفَيْءِ ظلالٍ قَلُصَ فذهب ، بينما ابنُ آدم في الدنيا منافس . . إن الدنيا لا تَسُرّ بقدرِ ما تَضُرّ ، إنَّها تَسُرُّ قليلًا ، وتَجُرُّ حزنًا طويلًا »[1] . . إخوتاه ، هنيئًا لمن تزوَّد من الدنيا إلىٰ الآخرة ، ومن المحطةِ العاجلة إلىٰ المحطةِ الآجلة ، ومن ضيقِ المَعَاش إلىٰ سَعَةِ المَعَاد ، ومن دار الرحيل إلىٰ دار البقاء .

٤- الإخلاص :

أما الإخلاص ؛ فنبأهُ عجيب وخطرُهُ عظيم . . وهو زادُك الرابع الذي لا يَصْلُحُ هذا الطريقُ إلا به وهو أساسُ التزوُّد ومُنْتَهَاه . . وحُصِرَ الوصول في المخلصين ؛ قال - سبحانه وتعالىٰ - : ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣].

ومعلومٌ أنَّ الإغواءَ للغاوين الذين عرفوا الطريق فلم يسلكوها . . فالناسُ ثلاثة : راشدٌ وضالٌّ وغاوٍ ؛ فالراشدُ مَنْ عَرَفَ الطريقَ وسلكها ، والضالُّ مَنْ لم يعرف الطريق فضلَّ عنها ، والغاوي هو الذي عَرَفَ الطريق ولم يَسْلُكْهَا . . فالإخلاصُ زادٌ خَطِر . . فتزوَّدْ أيُّها السائر .

٥- الخَبِيئَة :

ومِنَ الزَّادِ خَبِيئَة . . خبيئةٌ مِنْ عملٍ صالح لم يطَّلِعْ عليه بشر ، يصلح

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي (٢٥٨) .

للتوسل به في مَحَطَّاتِ الطريق ومَطَبَّاتِه ، كما توسَّل الذين أَوَوْا إلى الغار– فانطبقتْ عليهمُ الصَّخْرَة – بخبايا أعمالهم الخالصة .

٦- الصبر :

وآخرُ الزادِ الصَّبْر . . الصَّبْرُ في الطريق . . قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : «**السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ العَذَاب**»[1] . . فإذا كان سَفَرُ الدنيا يُسَبِّبُ المَشَقَّةَ والتَّعَب ؛ فكيف بسفر الآخرة الذي فيه الْلَأْوَاءُ والنَّصَب ! !

قال – تعالى–: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤].

قال الفخرُ الرَّازي : في الكَبَدِ وُجوه :

أَمَّا الأوَّل : أي خلقناه أطوارًا كُلُّها شدة ومَشَقَّة ؛ تارةً في بطنِ الأم ، ثم زمان الإرضاع ، ثم إذا بلغ ففي الكَدِّ في تحصيلِ المَعَاش ، ثم بعد ذلك الموت .

وأَمَّا الثَّاني : وهو الكَبَدُ في الدين ؛ فقال الحسن : يكابد الشكرَ على السَّرَّاءِ ، والصبرَ على الضَّرَّاء ، ويكابد المحن في أداء العبادات .

وأَمَّا الثَّالث : وهو الآخرة ؛ فالموت ومسألة الملَك وظلمة القبر ، ثم البعث والعرض على اللَّه إلى أن يستقرَّ به القرارُ إما في الجنة وإما في النار .

وأَمَّا الرَّابع : وهو أن يكون اللفظ محمولًا على الكُلّ فهو الحق ، وعندي فيه وجه آخر ، وهو أنه ليس في هذه الدنيا لذة البتَّة ؛ بل ذاك يظن أنه لذة فهو خَلَاص عن الألم ؛ فإن ما يُتخيَّل من اللَّذة عند الأكل فهو

---

(١) **متفق عليه** : البخاريُّ (١٨٠٤) ، ومسلم (١٩٢٧) .

خَلَاصٌ عند ألم الجوع ، وما يُتخيَّل من اللذات عند الملبس فهو خَلَاصٌ عن ألم الحَرِّ والبرد ؛ فليس للإنسان إلا ألمٌ أو خَلَاصٌ عن ألم وانتقالٌ إلىٰ آخر ، فهذا معنىٰ قوله : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤] اهـ[١] .

فَاعْلَمْ - أيُّهَا الحَبِيب - أنَّ اللّٰه يختبرُ عَبيدَه بالصبر ؛ حتىٰ تَظْهَرَ جواهِرُهُم ، كما حَصَلَ للأنبياء . . « وهذا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ يُضرَب حتىٰ يُغشَىٰ عليه ، ثم بعدَ قليل ينجو في السفينة ويهلَك أعداؤه ، وهذا الخليل يُلْقَىٰ في النار ثم بعدَ قليل يخرج إلىٰ السلامة ، وهذا الذبيح يضَّجع مُسْتَسْلِمًا ثم يَسْلَم ويبقىٰ المدح ، وهذا يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ يذهب بصرُهُ بالفِراق ثم يعودُ بالوصول ، وهذا الكليمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يشتغل بالرَّعي ثم يُرْقَىٰ إلىٰ التكليم »[٢] .

والصبر دواء . . وقد قال العلماء في تعريفِه : حبسُ القلبِ عن التَّسَخُّط ، وحبسُ اللِّسانِ عن الشَّكْوَىٰ .

فالطريقُ طويلة والمآسي علىٰ الطريق كثيرة والعلاجُ الصبر ؛ فإنَّ المُنْبَتَّ لا أرضًا قَطَع ولا ظَهْرًا أَبْقَىٰ . . وما تباينتْ منازلُ أصحابِ الهمم إلا بتباينهم بطول الصبر حتىٰ نهاية الطريق . فتزوَّدْ أيها السائر .

وبعدُ : فيا سَعَادةَ مَنْ استفادَ من هذه البروق والأنوار ، واستهلمَ من تلك الإشارات والتنبيهات ، فعرفَ الطريق ، وأبصرَ المَسَار ، وكان نعمَ المسافر في قافلةِ المؤمنينَ .

* * *

(١) التفسير الكبير (٣١/ ١٦٥) .
(٢) صيد الخاطر ، لابن الجوزي (١٦٣) .

آفات علىٰ الطَّريق

أخي السَّائر إلىٰ اللَّه ، الطَّريقُ إلىٰ اللَّه كالطَّريق الحِسِّيَّة تَمَامًا . . تَجِدُ فيها أنفاقًا مُظْلِمَة ، ومُنْحَنَيَاتٍ خطيرة ، ومَطَبَّاتٍ مُرْهِقَة ، وكباريَ عُلْوِيَّة . . كما تجدُ أحيانًا علىٰ جَنَبَتَيْ الطريق حدائقَ فاتِنَة وسُبُلًا مُتَفَرِّعَة . . ومَنْ لم ينتبه لمثلِ هذا ولم يَقُدْهُ للخروجِ منها خبيرٌ بصيرٌ ضَلَّ ولابد في الطَّريق أو انقطع .

أخي الكريم ، إنَّ معرفة آفات الطَّريق من المهماتِ التي تنبغي للسَّائر .

قال ابنُ القيِّم – رحمه اللَّه تعالىٰ – :

«ولا يتمُّ المقصود إلا بالهداية إلىٰ الطريق ، والهداية فيها ، وأوقات السير من غيره ، وزاد المسير ، وآفات الطريق ؛ ولهذا قال ابن عباس في قوله – تعالىٰ – : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] – قال : سبيلًا وسُنَّة . وهذا التفسير يحتاجُ إلىٰ تفسير ؛ فالسَّبيلُ : الطريق ، وهي المنهاج . والسُّنَّة : الشِّرْعَة ، وهي تفاصيلُ الطريق ، وحُزُوناتِه ، وكيفية المسير فيه ، وأوقات المسير ، وعلىٰ هذا ، فقولُهُ : «سبيلًا وسُنَّة» يكون السبيل : المنهاج ، والسُّنَّة : الشِّرعة ، فالمُقَدَّم في الآية للمؤخَّر في التفسير ، وفي لفظٍ آخر : سُنَّةً وسَبِيْلًا ؛ فيكون المُقدَّم للمُقَدَّم ، والمؤخَّر للمؤخَّر»[1] .

---

(١) شفاء العليل (٨٢) .

فجعلَ من الهدايةِ في الطريق التخلُّصُ من آفات الطريق وحُزُوناتِه[1] . . ومعرفة تفاصيل تلك الحُزُونات . .

فانتبه مَعِي لأخطرِ هذهِ الآفات - عافانا اللّٰهُ وإيَّاكَ منها - :

*** الآفَةُ الأولىٰ : الخَوْفُ مِنْ وَحْشَةِ التَّفَرُّد :**

قال بعضُ السَّلف : عليكَ بطريقِ الهُدىٰ ولا يَضُرَّنَّكَ قِلَّةُ السَّالكين ، وإيَّاكَ وطُرُقَ الضَّلَالَة ولا يَغُرَّنَّكَ كَثْرَةُ الهالكين .

ومن سُنَن اللّٰهِ الرَّبانيةِ الكونيَّة أنَّ أهلَ الحقِّ دائمًا قِلَّة . . هذا أصلٌ ينبغي ألا يفوتَك ؛ قال - سبحانه - : ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤] ، وقال - سبحانه وتعالىٰ - : ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

وعلىٰ العكس : تجِدُ وَصْفَ الكَثْرَةِ دَوْمًا مع أهلِ الباطل ؛ قال - سبحانه - : ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢]، وقال - سبحانه - : ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال - سبحانه وتعالىٰ - : ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال - سبحانه وتعالىٰ - : ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].

فإذا تبيَّن لك ذلك ؛ فإيَّاك أن تستوحِشْ من قِلَّةِ السَّائرين معكَ علىٰ الطريق ؛ فإن أكثرَ السَّائرين نَكَصُوا علىٰ أعقابِهم حينَ رَأَوْا الجَمْهَرَةَ الغالبةَ

(١) الحُزُونة : الخشونة ، والحَزْن : المكان الغليظ الخَشِن .

علىٰ عكس طريقِ السَّير أو علىٰ جَنَبَاتِ هذا الصِّرَاط . . فاثْبُتْ ولا تحزن .

*** الآفَةُ الثَّانية : فُضُولُ الكَلامِ والْخُلْطَة :**

وهذه أخطر تلك الآفات . . فضول الكلام والخُلطة أكثر من الحاجة . . أن يصيرَ لقاءُ الناس شَهْوَةً وعادةً ينقطعُ بها عن المقصود . . وقد قيل : إذا رأيتَ نفسَكَ تأنسُ بالخَلْقِ وتستوحِشُ مِنَ الخَلْوة ؛ فاعلم أنك لا تَصْلُحُ لِلَّه . . وإنَّ من علاماتِ الإفلاس الاسْتئناسُ بالناس .

وَلِلْعُزْلَةِ - أَيُّها الأَخُ الكريم - مزايا ؛ فإن الاجتماعَ بالناس لا يخلو من آفات أهونُها أن تتزيَّنَ للخَلْق . . وقد ذُكِرَ عن بعض أهل الحديث أنه قال لِأَنْ أَلْقَىٰ الشيطان أحبُّ إليَّ من أنْ ألقىٰ حُذَيْفَةَ المَرْعَشِيّ ؛ أخشىٰ أن أتَزيَّنَ له فَأَسْقُطَ من عَيْنِ اللَّه .

*** الآفَةُ الثَّالثة : النَّفَقُ المُظْلِم :**

قد يُصَادِفُ السَّائرُ في طريقه نفقًا مظلمًا لا يستطيعُ أن يُمَيِّزَ فيه طريقَه من الطُرُقِ الأخرىٰ ؛ ما لم تكن أضواءُ اليقينِ كاشفة ، ومسالكُ الطريق معروفة ؛ كيلا يُضَيِّعَ السَّائرُ مَسَارَه ، أو يتناثَرَ أشلاءً تحت وَقْعِ الكارثة ، أو يُسْرِفَ في التفاؤل عندما يُبصرُ نُورًا في آخرِ النَّفَق قد يكونُ وَهْمَ سَرَاب .

إنَّ مَثَلَ هذا النفق كفتن الخلاف بين المسلمين ؛ إذ بينما يسير السَّائر في ركبه الميمون ، والطريقُ سالكة وهو ينتظر الوصولَ إلىٰ المحطة التالية ؛ فجأة يُظلِمُ الطريقُ تمامًا كالذي يدخل النفق . . يفاجأ بالظلام الدامس بعد النور المُبهر . . اصطدمَ بعضُ المسلمين فيما بينهم ، وبغىٰ بعضهم علىٰ بعض ؛ فالْتَفَّتِ الظُّلُمَات ، وانطفأتِ الأنوار .

ويضطرُ السائر المِسكين إلىٰ ركوبِ الظُّلمة ودُخُوْلِ النَّفَق، فإذا لم تكنِ البصائرُ علىٰ يقينٍ والأبصارُ علىٰ وضوح؛ فالكارثة ستقع لا محالة، ويكونُ التِّيهُ الذي لا يُدْرَىٰ فيه ما المَخْرَج.

ولذا فالأنوارُ الكاشفة في هذا النفق تتمثل في الاستمساك بوضوح المنهج: الكتاب والسنة بِفَهْمِ سَلَفِ الأُمَّة؛ قال اللَّه - سبحانه -: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

لابُدَّ أن تنتبه إلىٰ ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾؛ فالإحسان: الرؤية، ليس مجرد الاتباع؛ وإنما إحسانُ الاتِّباع.. والإحسانُ أن ترىٰ؛ قال ﷺ: «**الإحسانُ أن تعبدَ اللَّهَ كأنَّك تراه**»(١).. هذا أَوَّلُ مَخْرَجٍ من النَّفق.

أما النُّور الثاني لِلْمَخْرَج من هذا النفق المظلم فهو ألا تَشْغَل نفسَك بالمنافشات والجدال والرُّدود؛ وإنما ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤].. اعرف طريقك وامضِ، فإن كان ولابد فألقِ النصيحةَ وانْطَلِقْ.. فأخسرُ النَّاس صَفْقَةً مَنْ انشغلَ بالناسِ عن نفسِه، وأخسرُ منه صَفْقَةً مَنْ انشغلَ بنفسِهِ عنِ اللَّه.. فاعرفْ كواشِفَ الأنفاق.. لتخرجَ من هذا الظلام بسَلام.

*** الآفَةُ الرَّابعة: جِسْرٌ علىٰ الطَّريق:**

وفي الطريق - أيُّهَا السَّائرُ الحَبِيب - جِسْرٌ لابُدَّ من تجاوزِهِ وعبورِه؛

---

(١) **متفق عليه**: البخاريُّ (٥٠)، ومسلم (٩).

إذ إنَّ هذا شأن السالكين إلى اللّه – تعالى – في كلّ زمانٍ ومكان ؛ بل وإنه من شأن الأنبياءِ والمرسلين . . ذلكمُ الجسرُ هو الابتلاءُ والمِحَن التي تُصِيبُ السَّائر .

فلابُدَّ في هذا الطريق أن يَصْقِلَهُ الابتلاء وأن تُظْهِرَ مَعْدِنَه المِحْنَة ؛ قال اللّه – تعالى – : ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢-٣] . . وكان أوَّلُ تبشيرِ الرسولِ ﷺ بالنبوة إنذارُهُ بالإخراج . . قال وَرَقَة : ما أَتَىٰ رجلٌ بِمِثْلِ ما أُوتيتَ به إلا عُودِي . . وقال الرَّاهب للغلام : أنت اليومَ أفضلُ مني وإنك ستُبْتَلَىٰ . . وقيل للشَّافِعيِّ : أحبُّ إليكَ أن يُمَكَّنَ الرجلُ أو يُبتَلَىٰ ؛ قال لا يُمكَّن حتىٰ يُبتَلَىٰ .

فالجِسْرُ إلى التميكن في هذا الطريق هو الابتلاء . . ولابُدَّ مِنَ الصبر فيه والاحتساب ، والرضا عن اللّه – تعالىٰ – وبه ؛ فإنه جِسْرُ الوصول . . وقد حُفَّتِ الجَنَّةُ بالمكارِه . . يقولُ ابنُ القيِّم :

«وإن تأملتَ حكمتَهُ – سبحانه وتعالىٰ – فيما ابتلىٰ به عباده وصفوته بما ساقهم به إلىٰ أَجَلِّ الغايات ، وأكملِ النهايات التي لم يكونوا يعبرون إليها إلا علىٰ جِسْرٍ من الابتلاء والامتحان ، وكان ذلك الجسر لكماله ، كالجسر الذي لا سبيلَ إلىٰ عبورهم إلىٰ الجنة إلا عليه ، وكان ذلك الابتلاء والامتحان عينَ المنحة في حقِّهم ، والكرامة ، فصورتُهُ صورةُ ابتلاء وامتحان ، وباطنُهُ فيه الرحمةُ والنِّعمة ، فكمْ لِلّهِ

من نِعْمَةٍ جسيمة ، ومِنَّةٍ عظيمة ، تُجْنَىٰ من قُطُوفِ الابتلاء والامتحان »[١] .

وللمِحَنِ في هذا الطريقِ خصائصُ ومميزات ، فكما أن المسلم يجب ألا ينفكَّ عن عبادةٍ ما . . ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]؛ فلابد أن يكونَ شعورُهُ بالابتلاء هكذا : أنهُ في عبادة ، يدومُ معه في كُلِّ حركاتِهِ وسكناتِهِ ؛ حتىٰ يستصحبَ نِيَّةَ العبد على البلاء ، واحتساب الأجر عند السميع البصير ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨-٢١٩] .

وهذا الجسر خطير . . جسرُ الابتلاء . . فإن كثيرًا من السَّالكين ضَعُفَتْ قُوَّتُه عن عبورِه فرجعَ القَهْقَرَىٰ وتُرَكَ الطريق .

ثم يطالِعُكَ جِسْرٌ آخر علىٰ الطريق . . وهو النفس – نعوذُ باللّه تعالىٰ – من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئَاتِ أعمالِنا . . يقول ابن القيِّم في المدارج :

« فالنفسُ جَبَلٌ عظيمٌ شاقٌّ في طريقِ السَّيْرِ إلىٰ اللّه – عز وجل . وكُلُّ سائرٍ لا طريق له إلا علىٰ ذلك الجبل . فلابد أن ينتهيَ إليه ، ولكن منهم من هو شاقٌّ عليه . ومنهم من هو سَهْلٌ عليه . وإنه ليسيرٌ علىٰ من يَسَّرَهُ اللّهُ عليه .

وفي ذلك الجبل أوديةٌ وشُعُوب ، وعَقَبَاتٌ ووُهُود ، وشَوْكٌ وعَوْسَج ، وعُلَّيق وشَبْرَق ، ولصوص يقتطعون الطريق علىٰ السائرين . ولا سِيَّمَا أهلِ الليلِ المُدْلِجين . فإذا لم يكن معهم عُدَدُ الإيمان ، ومصابيحُ اليقين تَتَّقِدُ

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٩٩) .

بزيتِ الإخبات ؛ وإلا تَعَلَّقَتْ بهم تلكَ الموانع . وَتَشَبَّثَتْ بهم تلكَ القواطع . وحالت بينهم وبين السَّيْر .

فإنَّ أكثرَ السَّائرين فيه رجعوا علىٰ أعقابِهم لمَّا عجزوا عن قطعِهِ واقتحامِ عقباتِه . والشيطان علىٰ قُلَّةِ ذلك الجبل . يُحَذِّرُ النَّاسَ من صعودِهِ وارتفاعِه . ويُخَوِّفُهم منه . فيتَّفِقُ مَشَقَّةُ الصعودِ وقُعُودُ ذلكَ المُخَوِّف علىٰ قُلَّتِه ، وضعفُ عزيمةِ السَّائرِ ونيتُه . فيتولَّد من ذلك : الانقطاعُ والرُّجوع . والمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَه اللَّه .

وكُلَّمَا رَقَىٰ السَّائرُ في ذلكَ الجبل اشتدَّ به صِيَاحُ القاطِع ، وتحذيرُه وتخويفُه . فإذا قطعَهُ وبلغَ قُلَّتَه ؛ انقلبتْ تلكَ المخاوِفُ كُلُّهُن أَمَانًا . وحينئذ يَسْهُلُ السير ، وتزولُ عنه عوارضُ الطَّريق ، ومشقةُ عقباتِها . ويرىٰ طريقًا واسِعًا آمِنًا . يُفْضِي به إلىٰ المنازِلِ والمناهل . وعليه الأعلام . وفيه الإقامات ، قد أُعِدَّتْ لِرَكْبِ الرَّحْمٰن .

فبَيْنَ العبدِ وبينَ السَّعادةِ والفلاح : قُوَّةُ عزيمة ، وصبرُ ساعة ، وشجاعةُ نفس ، وثباتُ قلب . والفضلُ بيدِ اللَّهِ يؤتيهِ من يشاء . واللَّه ذو الفضل العظيم »[(١)] .

فالنَّفسُ أَمَّارةٌ بالسُّوء ، داعيةٌ إلىٰ المهالك ، طامحةٌ إلىٰ الشهوات ؛ ولذا فهي أيضًا جِسْرٌ لابُدَّ من عبورِه . . أتىٰ رجلٌ إلىٰ أبي علي الدَّقَّاق فقال : قطعتُ إليك مسافة ؛ فقال : ليس هذا الأمر بقطعِ المسافات ، فارِقْ

---

(١) مدارج السالكين (٢/٨) .

نفسَكَ بخُطْوَة تَصِلْ إلىٰ المطلوب . فلابد من عبور جسر النفس . . شهواتِها . . وملذَّاتِها . . أهوائِها . . وآمالها . . لابد أن تعبر مرحلة «نفسي وما تشتهي» ؛ لتصلَ عبر جسر نفسِكَ إلىٰ ما يُرضِي ربَّك .

ويَزِيدُكَ بصيرةً في الأمر قولُ ابن القيِّم – رحمه اللّه في طريق الهجرتين – :

«وكُلَّمَا سَكَنَتْ نفسُهُ من كَلَالِ السَّير ومواصلةِ الشدّ والرّحيل ؛ وَعَدَها قُرْبَ التَّلاقي وبَرْدَ العيش عند الوصول ، فيُحْدِثُ لها ذلك نشاطًا وفَرَحًا وهِمَّة ، فهو يقول : يا نفس أبشري فقد قرب المنزل ودنا التَّلاقي ، فلا تنقطعي في الطريق دون الوصول فيحالَ بينكِ وبينَ منازلِ الأحِبَّة . فإن صبرتِ وواصلتِ السَّيرَ وَصَلْتِ حميدةً مسرورةً جَزِلَة وتلقَّتْكِ الأحِبَّةُ بأنواع التُّحف والكرامات ، وليس بينكِ وبينَ ذلك إلا صبرُ ساعة ؛ فإن الدنيا كُلُّها لساعة من ساعاتِ الآخرة وعُمُرُكِ درجة من دَرَجِ تلكَ السَّاعة ؛ فاللَّهَ اللَّهَ لا تنقطعي في المفازة ؛ فهو – واللّه – الهلاكُ والعَطَب لو كنتِ تعلمين .

فإنْ استصعبتْ عليهِ فليُذَكِّرْها ما أمامها من أحبابِها ، وما لديهم من الإكرامِ والإنعام . وما خلفها من أعدائها ، وما لديهم من الإهانةِ والعذابِ وأنواع البلاء ، فإن رجعتْ فإلىٰ أعدائها رجوعُها ، وإن تقدَّمت فإلىٰ أحبابها مصيرُها ، وإن وقفتْ في طريقها أدركها أعداؤها ؛ فإنهم وراءها في الطلب . ولابد لها من قسم من هذه الأقسام الثلاثة فلتختزْ أيُّها شاءت .

ولْيَجْعَلْ حديثَ الأحِبَّةِ وشأنَهم حاديَهَا وسائِقَهَا. ونورَ معرفتِهم وإرشادِهم هاديَهَا ودليلَهَا، وصِدقَ وِدَادِهم وحُبِّهم غِذَاءَهَا وشَرَابَهَا ودواءَهَا، ولا يُوْحِشُهُ انفرادُهُ في طريقِ سَفَرِه. ولا يغْتَرّ بكثرةِ المنقطعين، فألَمُ انقطاعِهِ وبِعَادِه واصِلٌ إليهِ دُوْنَهم، وحَظُّهُ من القربِ والكرامةِ مُخْتَصٌّ بهِ دُوْنَهم، فما معنىٰ الاشتغال بهم والانقطاع معهم؟، ولْيَعْلَمْ أنَّ هذه الوحشة لا تدوم بل هي من عوارض الطريق، فسوف تبدو له الخيام، وسوف يخرج إليه المتلقون يهنئونه بالسَّلامة والوصول إليهم، فيا قُرَّةَ عينهِ إذ ذاك، ويا فرحتَه إذ يقول: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦-٢٧].

ولا يستوحش مما يجده من كثافةِ الطبع وذَوْبِ النفس وبُطْءِ سيرِها؛ فكلما أدمن على السَّير وواظبَ عليه غُدُوًّا ورَوَاحًا وسَحَرًا؛ قَرُبَ من المنزل، وتَلَطَّفَتْ تلكَ الكثافة، وذَابَتْ تلك الخبائث والأدران؛ فظهرتْ عليهِ هِمَّةُ المسافرين وسِيْمَاهُم؛ فتبدَّلت وَحْشَتُهُ أُنْسًا وَكَثَافَتُهُ لَطَافَةً ودَرَنُهُ طَهَارَةً»[1].

هذا هو جِسْرُ النفس.. البلاءُ الأكبر.. والعائِقُ الأشدّ.. يُشْبِهُ الجِسْرَ المُعَلَّق الذي لا جوانبَ له يستنِدُ عليها السَّائر.. فهو خَطَرٌ جدًّا لابُدَّ عند المرورِ عليه من التركيز والهدوء.. والتَّيَقُّظ والانتباه لكُلِّ حركةِ يد ونَقْلَةِ رِجْل.. وإلَّا.. فالسُّقُوط.

نعم: إنَّهُ جِسْرٌ واهِنٌ.. من كثرةِ الذنوبِ والمعاصي.. ولذا كان

(١) طريق الهجرتين (١٨٧ - ١٨٨).

علىٰ السَّائر أن يأخُذَ حَذَرَه . . ويتدرَّب المرَّةَ بعدَ المرَّة . . ويُحاول ويُعِيد ، ثُمَّ يحاول ويُعيد حتىٰ ينجحَ فِيْ ترويضِ نفسِه علىٰ عبورِ تلك الجسورِ .

وبعدُ – أيُّها السَّائرُ الحبيب – : **فيا سَعَادةَ مَنْ جَاهَدَ تلكَ الآفات . . نعم : إنَّها أشواك ؛ لكنها أشواق . . يستشعر فيها السائرُ لذَّةَ الألمِ للّٰه . . واحتسابَ الأجرِ من اللّٰه . . فَدُسِ الشَّوكَ وسِرْ إلىٰ اللّٰه . .**

فقد اقتضت سُنَّةُ الخالق أنَّ العَسلَ لا يُحْصَلُ عليه إلا بلسع النحل . . فما كان للمسافرِ إلىٰ اللّٰه أن يَحْصُل علىٰ ما يُفيدهُ في طريقِ وصولِه إلَّا بشيءٍ من المكابدةِ والعُسْر .

يقولُ ابن القيِّم – عليه رحمةُ اللّٰه – :

«وما أقدمَ أحدٌ علىٰ تحمُّلِ مشقَّةٍ عاجلة إلا لثمرةٍ مُؤَجَّلة ، فالنفسُ مُوْكَلَةٌ بحُبِّ العاجل ، وإنما خاصَّةُ العقل : تَلَمُّحُ العواقب ، ومُطَالَعَةُ الغايات ، وأجمعَ عقلاءُ كُلِّ أُمَّة علىٰ أنَّ النعيمَ لا يُدْرَك بالنعيم ، وإنَّ مَنْ رافقَ الرَّاحة حصل علىٰ المشقَّة وقت الرَّاحة في دار الرَّاحة ؛ **فإنَّ علىٰ قدْرِ التَّعَب تكونُ الرَّاحة**»[1] .

* * *

(١) تهذيب مدارج السالكين (١/ ٣٥٩) .

اسْتِرَاحَةُ المُسَافِر

وبعد أن قطعنا شَوْطًا في التعرف علىٰ معالم لطريق وعقباتِه . . وبعد أن تعلمنا كيف يكونُ العبورُ علىٰ الجسور ؛ آنَ لنا أنَ نأخذَ قِسْطًا من الرَّاحة . . فالمسافر إلىٰ اللَّه - تعالىٰ - لابُدَّ له من الاستجمام ؛ ليستعينَ به علىٰ إتمامِ المسير ، وإكمالِ الشَّوْط ، لِتَتِمَّ النُّفْرَة ، ويتنشَّط البدن ، ويتروَّح القلب . . فيكونُ ذلك تقويَةً للانطلاق في قطعِ مرحلةٍ تالية .

إذًا فلابد للمسافر من وقفاتٍ علىٰ الطريق . . وقفات ترويحية علىٰ جَنَبَاتِ الطريق . . يستروحُ فيها إلىٰ بعضِ المباحات من لَهْوٍ ومِزاح وانبساط ، وما يتبع ذلك من لينِ القول ، والتَّبَسُّم ، وانشراح الصَّدْر . . وكُلُّ ما يؤدِّي من مُبَاحٍ إلىٰ تطييبِ النَّفس ومؤانَسَتِها فهو سُنَّةٌ مستحبَّة .

يقولُ ابنُ القيِّم - عليه رحمةُ اللَّه - في «زاد المعاد» :

«وكانت سيرتُهُ ﷺ مع أزواجِهِ حُسْنَ المعاشرة ، وحُسْنَ الخُلُق .

وكان يُسَرِّبُ إلىٰ عائشةَ بناتِ الأنصار يلعبن معها . وكان إذا هويت شيئًا لا محذورَ فيه تابعها عليه ، وكانت إذا شربت من الإناء أخذه ، فوضع فمه في موضع فمها وشرب ، وكان إذا تعرَّقت عَرْقًا - وهو العَظْمُ الذي عليه لحم - أخذه فوضع فمه موضع فمها ، وكان يتكئ في حَجْرِها ، ويقرأ القرآن ورأسُهُ في حَجْرِها ، وربما كانت حائضًا ، وكان يأمرها وهي حائض فَتَتَّزِرُ ثم يُباشرها ، وكان يُقَبِّلُهَا وهو صائم ، وكان من لطفهِ وحسنِ

خُلُقه مع أهله أنه يمكِّنُها من اللَّعب ، ويُريها الحبشةَ وهم يلعبون في مسجده ، وهي متكئة علىٰ مِنكبيه تنظر ، وسَابَقَهَا في السفر علىٰ الأقدام مرتين ، وتدافعا في خروجهما من المنزل مرة»[١] .

فقد يحتاجُ الأمر إلىٰ ملاعبةِ الزوجة ، أو إرضائها بنزهةٍ لا تخلو من ذِكْرٍ وتأمُّلٍ في بديعِ صُنْعِ اللّٰه . . وملاعبةٍ للأولاد لا تخلو من تعَبُّدٍ في التربية . . وسَمَرٍ سريعٍ لطيف مع صُحْبَةٍ صالحة . . بذكر جميلِ الشِّعْر ونوادر الطَّرائف والحكَايات ، بعيدًا عن الماجريات[٢] .

قالَ أبو الدَرْدَاء رضي الله عنه ورُوِيَ عن عليّ رضي الله عنه أيضًا : «رَوِّحُوا القلوبَ سَاعَةً بعدَ سَاعة ؛ فإنَّها تَمَلُّ كما تَمَلُّ الأبدان» .

هذه الاستراحة يجري فيها أيضًا شيءٌ من التَّلَطُّف بالنَّفس وسياسَتِها ؛ لكي تَنْقَادَ بعد ذلك أَسْهَل وأَيْسَر . . فالاستلقاء مثلًا معَ إعمالِ الفِكْرِ والنَّظَر : نوعٌ من أنواعِ التَّرويحِ المأجورِ عليه إنْ أَحْسَنَ المسافرُ النيَّة . . قال معاذ بنُ جبلٍ رضي الله عنه : إنِّي لأَحْتَسِبُ نَوْمَتي ، كما أَحْتَسِبُ قَوْمَتي .

ولكنَّ الشَّأنَ في المِزاح فيمن يُحْسِنُه ويَضَعُهُ مواضِعَه . . فيضبِطُهُ بضوابطِهِ الشرعية . . فما رافقَهُ أو نتجَ عنه استهزاءٌ أو سخريةٌ أو استخفافٌ أو تهكُّمٌ أو كَذِب . . فهو المنهيُّ عنه شرعًا . . وما كان عن تعَجُّبٍ أو إعجابٍ أو ملاحظةٍ وتحبُّب ، أو إدخالٍ للسُّرور علىٰ قلبٍ آخر . . فهو المُبَاحُ شرعًا .

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٥٦) .

(٢) الماجريات : التَّحَدُّث بما جرىٰ وما يجري من أخبار السياسة والفن والكرة رغير ذلك .

ولَعَلَّ القاعدة الجامعة ، ما حدَّدها الإمامُ النوويُّ بقوله :

«المِزاحُ المنهيُّ عنه هو الذي فيه إفراط ويُداوم عليه ، فإنَّه يورث الضحك وقسوة القلب ، ويشغل عن ذكر اللَّه – تعالىٰ – ، والفكر في مهمات الدين ، ويؤول في كثيرٍ من الأوقات إلىٰ الإيذاء ويورث الأحقاد ، ويُسْقِطُ المهابة والوقار ، فأما ما سَلِمَ من هذه الأمور فهو المباح الذي كان رسول اللَّه ﷺ يفعله ، فإنَّه ﷺ إنما كان يفعله في نادرٍ من الأحوال لمصلحة ، وتطييب نفس المخاطَب ومؤانسته ، وهذا لا مَنْعَ منه قطعًا ، بل هو سُنَّةٌ مستحبَّة إذا كان بهذه الصفة . . فاعتمد ما نقلناه عن العلماء وحقَّقناه ؛ فإنه مما يَعْظُمُ الاحتياجُ إليه ، وباللَّهِ التوفيق»[١] .

وانظرْ أيضًا إلىٰ الميزانِ الدقيق . . الذي وضعه سعيدُ بن العاص حين قال لابنه :

«اقتصِدْ في مِزَاحِكَ ؛ فإنَّ الإفراطَ فيه يُذْهِبُ البهاء ، ويُجَرِّئُ عليك السُّفَهاء ، وإنَّ التقصيرَ فيه يَفُضُّ عنك المؤانسين ويُوحِشُ منك المصاحبين» .

«وقد سُئِلَ ابنُ عمرَ – رضي اللَّه عنهما – : هل كان أصحابُ رسول اللَّه ﷺ يضحكون ؟ ؛ قال : نعم ، والإيمانُ في قلوبهم مثلُ الجبل . وقال بلال بن سعد : أدركتهم يشتدون بين الأغراض ، ويضحكُ بعضهم إلىٰ بعض ، فإذا كان اللَّيلُ كانوا رهبانًا»[٢] .

---

(١) الأذكار (٢٧٩) .

(٢) شرح السُّنَّة ، للبغوي (٢/ ٣٨١) .

وفي استراحةِ المسافر يمكن أن نَجِدَ بعضَ الألعاب والمسابقات ، كما نَجِدُ بعضَ المُسَامِرَات : كالحكمةِ والطُّرْفَة والفكاهةِ والمَثَلِ والشِّعْرِ والقِصَّة . . وغيرِ ذلك . . **وهَاكَ طَرَفًا مِنْ تِلْكَ التَّرْوِيحَات :**

تَرْوِيحَةٌ علىٰ الطَّريق : **علومٌ ليست في الكتب**

من العلومِ علوم لا تكونُ في الكتب :

منها من لا يُتَعَلَّم إلا من الفقر

ومنها ما لا يُتَعَلَّم إلا من البلاء

ومنها ما لا يُتَعَلَّم إلا من المرض

ومنها ما لا يُتَعَلَّم إلا من القهرِ والإذلال

ومنها ما لا يُتَعَلَّم إلا من الهمومِ والمشاكل

ترويحةٌ علىٰ الطَّريق : **اختبارات**

قال بعضهم : يُمْتَحنُ الذَّهبُ بالنار

والمرأة بالذَّهب

والرَّجلُ بالمرأة

ترويحةٌ علىٰ الطَّريق : **المُدَارَأة . . والسَّتْر**

قال الخطَّابيُّ :

ما دُمْتَ حيًّا فدَارِ النَّاسَ كُلَّهُمْ   فإنَّما أنتَ في دارِ المُداراةِ
مَنْ يَدْرِي دَارَي ومَنْ لم يَدْرِ سوفَ يَرىٰ   عمَّا قليلٍ نديمًا لِلنَّدَامَاتِ

وقال آخَر :

لا تلْتَمِسْ من مساوِي الناسِ ما ستروا فيكْشِفُ اللَّهُ سِتْرًا مِن مساويكا
واذكرْ محاسنَ ما فيهم إذا ذُكِروا ولا تَعِبْ أحدًا منهم بما فيكا
واستغنِ باللَّهِ عن كُلٍّ فإنَّ به غِنًى لكُلٍّ وثِقْ باللَّهِ يكفيكا

ترويحةٌ علىٰ الطَّريق : **البَلاءُ مُوَكَّلٌ بالمنطق**

اجتمع الكِسائيُّ واليزيديُّ عند الرَّشيد، فحضرتْ صلاةُ المغرب، فقدَّموا الكِسائيَّ «أحدَ القُرَّاء السَّبعةِ المشهورين» فصلَّىٰ بهم فارتُجَّ عليه في قراءة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١] - أخطأ أو نَسِيَ في الحفظ -، فلما سلَّمَ؛ قال اليزيديُّ : قارئ وإمامُ أهلِ الكوفةِ يُخطأ وينسَىٰ ويُرْتَجُّ عليه في سورة الكافرون؟؟!!.. فحضرتْ صلاةُ العشاء، فتقدَّمَ اليزيديُّ فصلَّىٰ بهم فارْتُجَّ عليه وأخطأ ونَسِيَ في سورة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، فلمَّا سَلَّمَ قال الكِسائيُّ له :

احفظْ لِسَانكَ لا تقولَ فتُبْتَلَىٰ إنَّ البَلاءَ مُوَكَّلٌ بِالمَنْطِقِ

ترويحةٌ علىٰ الطَّرقِ : **التَّمَلُّق**

قال ذو النُونِ المِصْرِيّ : أوْحَىٰ اللَّهُ إلىٰ يعقوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : يا يعقوب، تمَلَّقْ لي.. قال : يا رب، كيف أتَمَلَّقُ لك؟

قال : قل : يا قديمَ الإحسان

يا دائمَ المعروف

يا كثيرَ الخير

فقالها . . فأوْحَىٰ اللَّهُ إليه : وعِزَّتِي وجَلَالي ، لو كانَ يُوسُفُ ميِّتًا لأحييتُهُ لك .

تَرويحةٌ علىٰ الطَّريق : **«ولِتَكُونَ من المُحْسِنِين»**

قال يحيىٰ بنُ معاذ : حَظُّ المؤمنِ مِنْكَ ثلاثةُ خِصَالَ ؛ لتكونَ من المحسنين :

أحدُها : إن لم تنفعْه فلا تَضُرَّه

والثاني : إن لم تَسُرَّه فلا تَغُمَّه

والثالث : إن لم تَمْدَحْه فلا تَذُمَّه

تَرويحةٌ علىٰ الطَّريق : **وَيْحَكَ . . ويْحَك**

ويَحْكَ : رمَيْتَ يُوسُفَ قلبِكَ في جُبِّ الهوىٰ ،

وجِئْتَ علىٰ قميصِ الأمانة بِدَمٍ كَذِب .

ويْحَك : كلما أوغلتَ في الهوىٰ زادَ التَّعَرْقُل .

ويْحَك : إنَّ قعْرَ جَهَنَّمَ لَبَعِيد ، ولكنْ يَظْهَرُ

أنَّ هِمَّتَك أسفلُ منه .

ويْحَك : قنديلُ الفكرِ في مِحْرَابِ قلبِك مُظْلِم ؛

فاطلبْ لهُ زيتَ خَلْوَة وفتيلةَ عَزْم .

تَرويحةٌ علىٰ الطَّريق : **من أقوال ابن تيميَّةَ :**

والفقرُ لي وصفُ ذاتٍ لازِمٌ أبدًا كَما الغِنَىٰ أبدًا وصفٌ له ذاتي

ترويحةٌ علىٰ الطَّريق : **مَجْلِسُنَا**

مجلسُنا بحرٌ يَرِدُه الفيلُ والعُصْفور
نحن في روضة طعامُنَا فيها الخشوع
وشرابُنَا فيها الدُّمُوع
ونَقْلُنَا هذا الكلامُ المطبوع
نُداوِي أمراضًا أعجزتْ بختيشُوع
نَرْقِي الهاوِي ونُداوِي الملسُوع
فلَيْتَهُ كانَ كُلَّ يومٍ لا كُلَّ أسبوع

ترويحةٌ علىٰ الطَّريق : «**ألكم الذكرُ وله الأنثىٰ تلك إذًا . .**»

الخوفُ ذَكَر والرَّجَاءُ أنثىٰ
ومُخَنَّثُ البَطَالةِ إلىٰ الإناثِ أمْيَل

من زرعَ بِذْرَ العمل في أرجاءِ الرَّجاء نبت فيها الخوف من «ألَّا تُقْبَل»

الجاهل ينامُ علىٰ فراش الأمن فَيَثْقُلُ نومُه فتَكْثُرُ أحلامُ أمانيه ، والعالم يضطجعُ علىٰ مِهَادِ الخوفِ وحارسُ اليقظةِ يُوقظُه .

ترويحةٌ علىٰ الطَّريق : **أَدْمَىٰ دِينَه بأظفارِ شكواه**

جاء رجلٌ إلىٰ فُضَيْل يشكو الحاجة ، فقال له فضيل : يا هذا ، أمُدَبِّرًا غيرَ اللَّهِ تُرِيد؟!!

ومَرِضَ ابنُ أدهمَ فجعلَ عند رأسِه ما يأكُلُه الأصِحَّاء؛ لئلا يتشبَّهَ بالشَّاكين.. هذه - واللّهِ - بَهْرَجَةٌ أَصَحُّ من نَقْدِك.

ترويحةٌ علىٰ الطَّريق: **لا تُنَازِعُوا أَهْلَ الدُّنْيا**

قال عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ:

لا تُنَازِعُوا أَهْلَ الدُّنْيَا في دُنْيَاهُم؛ فيُنَازِعُوكم في دِينكُم؛

فلا دُنْيَاهم أَصَبْتُم ولا دِينَكم أَبْقَيْتُم.

ترويحةٌ علىٰ الطَّريق: **ما أَسْوَأَ السَّوْء**

السُّلْطَانُ السَّوْء: يُخيفُ البريءَ ويصطنِعُ الدنيء

والبَلَدُ السَّوْء: يجمعُ السُّفَل ويورِّثُ العِلَل

والوَلَدُ السَّوْء: يُشين السَّلَف ويَهْدِمُ الشَّرَف

والجَارُ السَّوْء: يُفْشِي السِّر ويَهْتِكُ السِّتر

ترويحةٌ علىٰ الطَّريق: **سِيَاطُ المواعظ**

* البلايا ضُيُوفٌ فأحِسنْ قِرَاها؛ لترحلَ عنكَ إلىٰ بَلَدِ الجزاء مَادِحَةً لا قَادِحَة.

* في كل يوم تَرْهَنُ قلبَك علىٰ ثَمَنِ شَهْوَة، فيستعمِلُهُ المُرْتَهِن.. فقد أخلقَ.

* أتبكي علىٰ معاصيك، والإصرارُ يضحك!!

* القواطِعُ مِحَنٌ يتبيَّنُ بها الصادِقُ من الكاذب ، فإذا خُضْتَها انقلبتْ أعوانًا تُوصِّلُكَ إلىٰ المقصود . . فهي إذًا أَغْرَبُ الأَعْوَان .

ترويحةٌ علىٰ الطَّريق : **عَجِبْتُ لهذا الَّذِي**

قال بعضهم : عجبتُ لمن يبكي علىٰ موتِ غيرِه دُمُوعًا

ولا يبكي علىٰ موتِ قلبِهِ دَمًا

وأعجبُ من ذا أن يَرَىٰ عيبَ غيرِهِ عظيمًا وفي عينيهِ عن عيبِهِ عَمَىٰ .

ترويحةٌ علىٰ الطَّريق : **اطْلُبُونِي في المقَابِر**

قال بعض السَّلف : إذا سمعتم : حيَّ علىٰ الصَّلاة ولم تَرَوْنِي في الصَّفّ ؛ فاطْلُبُونِي في المَقَابِر .

ترويحةٌ علىٰ الطَّريق : **أَصْنَافُ النَّاس**

أَضْعَفُ النَّاسِ مَنْ ضَعُفَ عن كِتْمَانِ سِرِّه

وأقواهم من قوِيَ علىٰ غَضَبِه

وأَصْبَرُهُم من سَتَرَ فَاقَتَه

وأغناهم من قَنَعَ بما تيسَّرَ له

ترويحةٌ علىٰ الطَّريق : **دَرَجَاتُ الزَّلَل**

بدايةُ الزَّلل : ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ﴾ [الأعراف: ٢٠١]

ووسطُ الزَّلل : ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ [المطففين: ١٤]

وآخرُ الزَّلل : ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]

ترويحةٌ علىٰ الطَّريق : **مِنْ شِعْرِ العَصْرِ الذَّهَبِيّ**

قالَ أبو الطَّيِّبِ المُتَنَبِّي :

إذا غَامَرْتَ في شَرَفٍ مَرُومِ فلا تَقْنَعْ بما دُونَ النُّجُومِ
فَطَعْمُ المَوْتِ في أَمْرٍ حَقِيرٍ كَطَعْمِ المَوْتِ في أَمْرٍ عَظِيمِ

وقالَ :

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا صحيحًا وآفَتُهُ من الفَهْمِ السَّقِيمِ

وقالَ أيضًا :

ومِنَ البَلِيَّةِ عَذْلُ مَنْ لا يَرْعَوِي عن جَهْلِهِ وخِطَابُ مَنْ لا يَفْهَمُ

وقالَ أبو العَتَاهِيَةِ شَاعِرُ الزُّهْد :

أَرَىٰ الدُّنْيَا لِمَنْ هِيَ في يَدَيْهِ عَذَابًا كُلَّمَا كَثُرَتْ لَدَيْهِ
تُهِينُ المُكْرِمِينَ لها بِصُغْرٍ وتُكْرِمُ كُلَّ مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ
إذا اسْتَغْنَيْتَ عَنْ شَيْءٍ فَدَعْهُ وخُذْ ما أَنْتَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ

ترويحةٌ علىٰ الطَّريق : **عَلَامَاتُ السَّعَادَة**

قالَ الفُضَيْلِ بْنُ عِيَاض : عَلَامَاتُ السَّعادَةِ خَمْسٌ :

اليقيـــنُ في القلـــب
والـــوَرَعُ في الدِّيـــن
والزُّهْــدُ في الدُّنْيَـــا
والحَيَـاءُ في العَيْنَيْـن
والخَشْيَةُ في البَــدَن

ترويحةٌ على الطَّريق : **الأَخْطَر**

أَخْطَرُ شَيْءٍ في عَصْرِ التكنولوجيا

ليسَ في إيجادِ آلاتٍ تُفَكِّرُ كالإنسان

بل في إيجادِ ناسٍ يُفَكِّرُونَ كالآلات

ترويحةٌ على الطَّريق : **قِصَّةُ الحيَّة والسَّكْرَان**

عن يوسفَ بنِ الحسين يقول : كنت مع ذي النُّونِ المِصْرِي على شاطئ غدير فنظرتُ إلى عقرب أعظم ما يكون على شَطِّ الغدير واقفةٍ ، فإذا بِضُفْدَعٍ قد خرجتْ من الغدير ، فرَكِبَتْها العقربُ ، فجعلت الضُّفْدَع تَسْبَحُ حتى عَبَرَت ، فقال ذو النون : إنَّ لهذه العقرب لشأنًا فامضِ بنا ، فجعلنا نقفو أَثَرَها ؛ فإذا رَجُلٌ نائمٌ سَكْرَان ، وإذا حَيَّةٌ قد جاءت فَصَعَدَتْ من ناحيةِ سُرَّتِه إلى صَدْرِه وهي تطلب أُذُنَهُ ، فاستَحْكَمَتْ العقربُ من الحَيَّة فَضَرَبَتْها : فانْقَلَبتْ وانْفَسَخَتْ ، ورجعتْ العقربُ إلى الغدير ، فجاءت الضُّفْدَع فركبتها فعبرت ، فَحَرَّكَ ذو النُّونِ الرَّجُلَ النَّائِمَ ، ففتحَ عينيه ، فقال : يا فتى ، انظر مما نجّاكَ اللَّه ! ، هذه العقرب جاءت فقَتَلَتْ هذه الحَيَّة التي أرادَتْك ، ثم أَنْشَأَ ذو النُّونِ يَقُول :

يا غافِلًا وَالجَليلُ يَحرُسُهُ ... مِنْ كلِّ سُوءٍ يَدِبُّ في الظُّلَمِ
كيْفَ تَنَامُ العُيُونُ عَنْ مَلِكٍ ... تَـأْتيـهِ مِـنْـهُ فـوائـدُ الـنِّـعَـمِ

فَنَهَضَ الشَّابُّ وقال : إلهي ، هذا فِعْلُكَ بِمَنْ عصاكَ ! ، فكيفَ رِفْقُكَ بِمَنْ يُطيعُك ؟ ! ، ثم وَلَّى ، فقلت : إلى أين ؟ ؛ قال : إلى طاعةِ اللَّه .

ترويحةٌ علىٰ الطَّريق : **دِيك سهل بن هارون**

أوردَ الجاحظ «زعيمُ البيانِ العربيّ» - كما يقولُ عنه الشيخ عبد السلام هارون - هذا الموقفَ السَّاخِر في كتابه «الحيوان» ، فقال :

«قال دِعبلٌ الشاعر : أقمنا عند سَهل بن هارون فلم نبرحْ ، حتَّىٰ كِدنا نموتُ من الجوع ، فلما اضطررناه قال : يا غلام ، ويَلَكَ غَدِّنا !

قال : فأُتينا بقصعةٍ فيها مَرَقٌ فيه لحمُ ديكٍ عاسٍ هَرِمٍ(١) ليس قبلها ولا بعدها ، لا تَحِزُّ فيه السكّين ، ولا تؤثّر فيه الأضراس ، فاطَّلَع في القصعة وقلَّبَ بصره فيها ، ثمَّ أخذ قِطعةَ خُبزٍ يابسٍ فقلَّب جميعَ ما في القصعة حتّىٰ فقد الرأسَ من الدِّيك وحدَه ، فبقِيَ مُطْرِقًا ساعة .

ثمَّ رفع رأسَه إلىٰ الغلام فقال : أين الرأسُ ؟، فقال : رميتُ به . قال ولِمَ رميتَ به ؟، قال : لم أظنّك تأكلُه !، قال : ولأيِّ شيءٍ ظننتَ أنّي لا آكلُه ؟، فواللّه إنّي لأمقُتُ مَنْ يَرمي برجليه ، فكيف من يَرمي برأسه ؟!

ثم قال له : لو لم أكره ما صنعتَ إلّا للطِّيَرة والفأل لكرهتُه !. الرأسُ رئيسٌ وفيه الحواسُّ ، ومنه يَصْدَحُ الدِّيك ، ولولا صوتُه ما أُرِيدَ ، وفيه فَرْقُهُ الذي يُتَبَرَّكُ به ، وعينُهُ التي يُضرَبُ بها المَثَل ، يُقال : «شرابٌ كعينِ الدِّيك» .

ودماغُهُ عجيبٌ لوجعِ الكُلْيَة . ولم أرَ عَظْمًا قطُّ أهشَّ تحتَ الأسنانِ

(١) العاسي : الذي أَسَنَّ حتىٰ صَلُبَ وجَفَّ .

من عَظْمِ رأسِه ، فهلَّا إذْ ظننتَ أنِّي لا آكلُه ، ظننتَ أنَّ العيالَ يأكلونه؟! وإن كانَ بلغ من نُبلِكَ أنّك لا تأكلُه ، فإنَّ عندنا مَن يأكله .

أوَ ما عَلِمْتَ أنّه خيرٌ من طَرَفِ الجَنَاح ، ومن السَّاقِ والعُنُق ! ، انظر أين هو؟ ، قال : واللّهِ ما أدري أين رميتُ به ! ، قال : لكنّي أدري ، إنّكَ رميتَ بهِ في بَطْنِك ، واللّهُ حسيبُك ! »[1] .

تعقيب :

وبعدَ هذه الاستراحة التي كان لابُدَّ للمسافر منها ؛ ليدفعَ عن نفسِهِ السَّأَمَ والمَلَلَ والفُتُور ، ويَسْتَنْهِضَ بها الهِمَّة في القيام بواجِبِ السَّيرِ إلىٰ اللّه . . وبعد هذه الترويحات الكثيرة . . آنَ له التَّأَهُّبُ للسَّيرِ مرَّةً أُخْرَىٰ . . والاستعدادُ للانطلاقِ في طريقِ الوُصُولِ إلىٰ اللّه . . حاملًا زادَه ومَتَاعَه . . ومُتَوَكِّلًا علىٰ اللّه . . ومُسْتَعِينًا بهِ وَحْدَهُ في قَطْعِ المراحلِ التَّالية . . مُتَذَكِّرًا قَوْلَ ربِّهِ - سبحانه وتعالىٰ - : ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] .

* * *

(١) تهذيب «الحيوان للجاحظ» ، لشيخ المحقِّقين الأستاذ عبد السلام محمد هارون - رحمه اللّهُ رحمةً سابغة - (٦٧) .

كَلِمَةٌ أَخِيرَة

إذا تبيَّن لكَ - أيُّها الأخُ الكريمُ الحبيبُ - ما ذكرتُ . . وأردتَ أن تنطلقَ في هذا الكتاب «**أصولَ الوصول إلىٰ اللّٰه تعالىٰ**» ؛ فاعلم - أخيرًا - أنها سَفْرة .

سَفَرٌ حقيقيٌّ . . ليست رمزية بعيدة . . إنما هي حقيقةُ الحياة ونَقْلَتُها . . والإنسان حتىٰ في حياتِهِ الاعتيادية ما هو إلا بين سَفَرٍ وسَفَر طالَ أو قَصُر ؛ ليُنَبِّهَنا اللّٰهُ بالصغيرِ علىٰ الكبير ، وبالتافهِ علىٰ المهمّ ، وبالطارئ علىٰ المُسْتدِيم . . وقد كان ﷺ يَذْكُرُ أنه في الدنيا كراكبٍ استظلَّ بظلِّ شجرةٍ ثم رَاحَ وتركها(١) .

والمؤمن مع سَفْرتِه الطويلة ؛ فدونها أسفار . . فبعد أن قطع سَفرته من الجاهلية إلىٰ الإسلام ، ثم تسامىٰ بنفسه من المعاصي إلىٰ الطاعات شمَّر عن ساعد الجِدّ حتىٰ سافر من السُّفُوحِ الهابطة إلىٰ القممِ السَّامقة وكان من السابقين بالخيرات . . وهو مِنُ هؤلاءِ الذين ندعوهم إلىٰ هذه السَفْرة .

إنه السَّفرُ الأهم المُوْصِلُ إلىٰ طريق النَّجاة إلىٰ رضا اللّٰه .

«واعلم أيضًا أَنَّ السَّائر إلىٰ اللّٰه لا ينقطِعُ سيره إليه ما دامَ في قيد الحياة ، ولا يصلُ العبد ما دام حَيًّا إلىٰ اللّٰه وُصُولًا يستغني به عن السير

---

(١) أخرجَهُ : أحمد ، وصحَّحه الألبانيُّ - رحمه اللّٰه تعالىٰ - في «الصحيحة» برقْم (٤٣٨) .

إليه ألبتَّة وهذا عينُ المحال ؛ بل يشتدُّ سيرُه إلىٰ اللَّه كلما زادت ملاحظته لِتوحيده ، وأسمائه وصفاته . ولهذا كان رسولُ اللَّه ﷺ أعظمَ الخلق اجتهادًا وقيامًا بالأعمال ، ومحافظةً عليها إلىٰ أن توفَّاه اللَّه ، وهو أعظمُ ما كان اجتهادًا وقيامًا بوظائف العبودية ، فلو أتىٰ العبدُ بأعمال الثقلين جميعها لم تُفارقه حقيقة السير إلىٰ اللَّه ، وكان بعدُ في طريقِ الطلب والإرادة »[١] .

ولا يزالُ الرَّسُولُ ﷺ يُوْصِي بسؤالِ اللَّهِ - تعالىٰ - الهدايةَ . . وما الهدايةُ إلا لمن وجدَ الطريقَ بعد الضَّلال . .

يقولُ ابنُ القيِّم :

«حيث أَمَرَهُ أن يذكرَ إذا سأل اللَّه الهدىٰ . إلىٰ طريق رضاه وجنَّتِهِ ، كأنهُ مسافرٌ ، وقد ضَلَّ عن الطَّريق . ولا يدري أين يتوجَّه ، فَطَلَعَ له رجُلٌ خبيرٌ بالطريق عالمٌ بها ، فسأله أن يَدُلَّهُ علىٰ الطريق ، فهكذا شأنُ طريق الآخرة ، تمثيلًا لها بالطريق المحسوس المسافَر ، وحاجةُ المسافر إلىٰ اللَّه - سبحانه - إلىٰ أن يهديَه تلكَ الطريق أعظمُ من حاجةِ المسافر إلىٰ بلدٍ إلىٰ من يدلُّه علىٰ الطريق الموصل لها»[٢] .

فلابُدَّ لكَ - أيُّها السائرُ الحبيبُ - في هذا الطريق من صِدْقِ اللُّجْإِ إلىٰ اللَّه . . أن يهديَكَ ويأخذَ بيديكَ في طريقِ الوُصُولِ إليه . . فدَوْمًا

(١) تهذيب مدارج السالكين (١/١٤٨ - ١٤٩) .
(٢) إغاثة اللَّهفَان (١/٥٧) .

تدعو وتَتَضَرَّع وتفتقِرُ إليه - سبحانه - تَمَامَ الافتقار في كُلِّ خُطْوَةٍ وفي كُلِّ مرحلةٍ تقطَعُهَا علىٰ هذه الطريق .

«فالفَقْرُ الحقيقيُّ : دوامُ الافتقارِ إلىٰ اللّٰهِ في كُلِّ حالٍ ، وأَنْ يشهدَ العبدُ - في كُلِّ ذَرَّةٍ من ذَرَّاته الظاهرةِ والباطنةِ - فاقةً تامَّةً إلىٰ اللّٰهِ - تعالىٰ - من كُل وَجْهٍ»(١) .

فاللَّهُمَّ . . إنا نفتقرُ إليك ونستهديك ؛ فاهدنا لصالح الأعمال والأخلاق ؛ فإنه لا يَهدي لصالِحِها ولا يصرِفُ سيِّئَها إلا أنت . . **اللَّهُمَّ** اهدني صِرَاطَ الوُصُولِ إليك . . يا مُنْجِيَ الهَلْكَىٰ ويا مُنقِذَ الغَرْقَىٰ . . يا عظيمَ الإحسان .

إلهي . . إنْ كانت ذنوبي قد أخافتني ؛ فإنَّ محبَّتي لك قد أجارتني ، فتولَّ من أمري ما أنت أهلُه ، وعُدْ بفضلِكَ علىٰ مَنْ غَرَّهُ جَهْلُه .

إلهي . . لو أردتَ إهانتي لَمَا هديتني ، ولو أردتَ فضيحتي لَمْ تستُرْني ؛ فمتِّعْني بما لهُ هَدَيْتَني ، وأدِمْ لي ما بهِ سَتَرْتَني .

إلهي . . وسيِّدي ومولاي . . اعْقِدْ قلبي بحبلِ محبَّتِك ، واستدْرجني إلىٰ أقصى مُرَادِك ، واسْلُكْ بي مَسْلَكَ أصفيائِك ، واكْشف لي عن مكنونِ عِلْمِك ؛ حتىٰ أَصِلَ إلىٰ رياض قُدْسِك ، وأجتنيَ من ثمارِ الشَّوقِ إليك ، وأتَشرَّبَ من حِيَاضِ معرفتِك ، وأتنزَّهَ في بساتينِ آلائِك ، وأستنقِعَ في غُدْرَانِ ذِكْرِ نعمائِك .

(١) تهذيب مدارج السالكين (٢/ ٧٤٩) .

اللَّهُمَّ . . اجعلِ قلبيَ من القلوبِ التي سافرتْ إليك ، وأَنِسَتْ بك ، واجعلْ نفسيَ من النُّفوسِ التي زالتْ عن اختيارِها لهَيْبَتِك ، وأَطْلِقْها من الأَسْرِ لِتَجُولَ في خِدْمَتِكَ مع الجوَّالين .

اللَّهُمَّ . . آتِ نفوسَنَا تقواها ، وزَكِّهَا أنتَ خيرُ من زكَّاهَا ، أنتَ وَلِيُّها ومولاها .

اللَّهُمَّ . . إنَّا نعوذُ بكَ من عِلْمٍ لا يَنْفَع ، ومن قلبٍ لا يَخْشَع ، ومن نفسٍ لا تَشْبَع ، ومن دَعْوَةٍ لا يُسْتَجابُ لها .

آمين . . آمين . . آمين

وصَلَّىٰ اللَّه وسَلَّمَ وبارِكَ علىٰ نبيِّنا مُحَمَّدٍ وعلىٰ آلِهِ وصحبِهِ
والتابعينَ لهم بإيمانٍ وإحسانٍ إلىٰ يومِ الدِّين
والحمدُ لِلَّهِ ربِّ العالمين

❊ ❊ ❊

أصول الوصول

إلى

الله تعالى

وَمِنَ العَجَائبِ، وَالعَجَائبُ جَمَّةٌ ... قُرْبُ الحَبِيبِ وَمَا إِلَيْهِ وُصُولُ
كَالعِيسِ فِي البَيْدَاءِ يَقْتُلُهَا الظَّمَا ... وَالمَاءُ فَوْقَ ظُهُورِهَا مَحْمُولُ

الأصل الأول

عليكَ البداية وعليهِ التَّمام

اعلم حبيبي في اللَّه الكريم السائر إلىٰ اللَّه :

أنَّ اللَّه – تعالىٰ – أراد برحمته – سبحانه – وهو الحكيم العليم والخبير البصير أن يحكم هذا الكون بسنن ربانية غاية في الدقة والثبات ؛ ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣] . . تلكم الأولىٰ . .

وأما الثانية : فإن الإنسان خلق مبتلًى في هذه الدنيا ؛ ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾ [الملك: ٢] .

وثالثها : أن اللَّه العزيز الكريم خلق الخلق وهو أعلم بهم ؛ قال سبحانه : ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال – سبحانه – : ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ [الإسراء: ١٧] .

وقد أراد اللَّه ابتلاءً وإصلاحًا ؛ أن يبتلي عباده بتكليفٍ هو غايةٌ في الخطورة ، وهو أنه – سبحانه – أناط بهم البداية ، فأحال عليهم بدايةَ الشروع إليه والقصدَ نحوه ؛ قال – سبحانه – في الحديث القدسي : «**عبدي قم إليَّ أمشِ إليك**» ، وهذا رعاية لجلال العزة وحماية لجناب العظمة : أن يُكلَّفَ العبدُ أن يأتيَ سيدَه ثم يكونُ من السيد القَبولُ والإكرام .

قال - سبحانه وتعالى - : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال - تعالى - : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال - تعالى - في الحديث القدسيّ : «**يا ابن آدم ، قُم إليّ أمشِ إليك ، وامش إليّ أهرولْ إليك**»(١) . وقال - سبحانه - أيضًا : «**مَن تَقَرَّبَ منِّي شبرًا تَقَرَّبتُ منه ذراعًا ، ومن تقرَّبَ مني ذراعًا تقرَّبتُ منه باعًا ، ومن أتاني يمشي أتيتُه هرولة**»(٢) . إذًا فابدأ . . ابدأ فبدايةُ الطريق خُطْوَة، ابدأ خطوةً إلىٰ الله واللَّهُ يباركُ ويتمُ ؛ فهو- سبحانه- كريم . . ابْدَأْ ولا تشتكِ .

إنَّ كثيرًا منَّا يشكو الفتورَ وينام . . إذا أُصبتَ بالفتور فعليك بالتفكير فورًا في عملٍ تقومُ به . . اعملْ واللَّهُ يرفعُ عنك البلاء . . ابْدَأْ واللَّهُ يأخذُ بيدك . . اعملْ . . تحرَّكْ .

إنَّ كثيرًا من الإخوة ينتظرُ نصرَ اللَّه بمعجزة ، ينتظرُ إصلاحَ فساد قلبه بمعجزةٍ في لحظةٍ دون أن يصنعَ شيئًا . . وهذا لا يكون .

أخي ، إنَّ القضيةَ تحتاج إلىٰ عمل؛ قال رسولُ اللَّه ﷺ : «**بلِ اعْملوا فكل ميسَّرٌ لما خُلق له**»(٣) . . اعْمَلوا . . لابدَّ من عملٍ .

إنَّ بعضَ الناسِ يعيش هذه الدنيا علىٰ أنَّها «ضربةُ حظٍّ»، يعيش

(١) أخرجَهُ : أحمد (٣/٤٧٨) ، وصحَّحَهُ الألباني - رحمه اللَّه تعالىٰ - في السلسلة الصحيحة برقْم (٢٢٨٧) .

(٢) **متفق عليه** : البخاريُّ (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) .

(٣) **متفق عليه** : البخاريُّ (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٦) .

الحياةَ علىٰ أنها «ظُروف» ، فيعيش كيفما اتفق ، تمامًا كالذي يدخل إلىٰ الصلاة ولا يدري ماذا صلّى؛ لأنه في الأصل لا يعبأُ بالخشوع ، يترك نفسَه هكذا ، فالمهمُّ عنده أنه أدّىٰ الصلاة وفقط . . المهم عنده أن يعيشَ ، والأمرُ ليس كذلك .

وتأملْ معي قصة عُكَّاشةَ بنِ مِحْصَن في حديث السبعين ألفًا ، قال رسول اللّه ﷺ : «**عُرضتْ عليَّ الأممُ؛ فرأيت النبيَّ ومعه الرَّهطُ ، والنبيَّ ومعه الرجلُ والرجلانِ ، والنبيَّ وليس معه أحدٌ ، إذ رُفِع لي سوادٌ عظيم فظننت أنهم أمتي ، فقيل لي : هذا موسىٰ وقومُه ، فنظرت فإذا سوادٌ عظيم ، فقيل لي : هذه أُمَّتُك ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنةَ بغير حسابٍ ولا عذابٍ**» ، ثم نَهضَ فدخل منزلَه؛ فخاضَ الناس في أولئك . فقال بعضُهم : فلعلَّهم الذين صحبوا رسول اللّه ﷺ ، وقال بعضُهم : فلعلَّهم الذين وُلِدوا في الإسلام فلم يُشركوا باللّه شيئًا ، وذَكَروا أشياء ، فخرج عليهم رسول اللّه ﷺ فأخبروه؛ فقال : «**هم الذين لا يَسْتَرْقُون ولا يَكْتَوونَ ولا يَتَطَيَّرون ، وعلىٰ ربهم يتوكلون**» . . فقام عُكَّاشة فقال : يا رسولَ اللّه ، ادعُ اللَّهَ أنْ يجعلني منهم ؛ قال : «**أنتَ منهم**» . قال : ثم قام رجلٌ آخر فقال : ادعُ اللّه أن يجعلني منهم ، فقال : «**سَبَقَكَ بها عُكَّاشة**»[1] .

قد يبدو للناظر أنَّ عكَّاشة خَطَفَ «الجنة» بغير حساب أو أدركها بكلمةٍ بضربة حظ ؛ ولكنك - أُخيَّ - تنظر إلىٰ التشطيباتِ النهائيةِ

(١) **متفق عليه** : البخاريُّ (٥٧٥٢) ، مسلم (٢٢٠) .

ولا ترىٰ ما وراء ذلك، إنك تنظرُ إلىٰ اللَّقطةِ الأخيرة ولمْ ترَ أصل الموضوع وتقديرَ الأرزاق.

إنَّ عكَّاشة سارَ إلىٰ اللّه طويلًا وعمِلَ كثيرًا حتىٰ بَلغ هذه المنزلةَ. فلما بلغها أوحىٰ اللّهُ إلىٰ رسولهِ ﷺ بقَبولِ عُكَّاشةَ في رَكبِ السبعين المُفرَّدين، وأجرَىٰ علىٰ لسانِه ﷺ الذي لا ينطقُ عن الهَوَىٰ هذا الكلام، ثم أنطق عكَّاشةَ بالطلب في لحظتها، وهذا دليل ترقِّيهِ لها فأُعْطِيَهَا.. هذه حقيقةُ الأمر.. فليس عكَّاشة قد خَطَفَها في لحظة.. لا.. اللّهُ عليمٌ حكيم.. عليمٌ يعلم أنَّ عكَّاشةَ تعِبَ في السيرِ إليه؛ فكان الأَوْلىٰ بها أحقَّ بها وأهلِها، ولما فُتِح الباب وقلَّده آخرون مُنعوا، ولا يظلم ربُّك أحدًا؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

إنَّ عُكاشةَ بدأ السيرَ إلىٰ اللّه في هذه الطريق، فلمَّا وصل تلك المنزلةَ وأراد اللّهُ أنْ يمنَحه إيَّاها؛ أجرَىٰ اللّه هذا الكلام علىٰ لسانِ رسولِ اللّه ﷺ وأحضرَه في المكانِ فأَسْمَعه ثم أَنْطقه فبشَّره.. هذه هي القضية.. فليست خَطْفَةً في لحظة.. افهم ذلك جيدًا.

موقفٌ آخر يفسِّر لك الموضوع:

أمسكَ جعفرُ الصادق بغلامٍ له ليعاقبَه، فقال الغلامُ: يا سيِّدي، أتعاقبُ مَن ليس له شفيعٌ عندَكَ غيرُك؟!، فقال: انطلِقْ إذًا، فلما انطلقَ الغلامُ الْتفتَ إليه وقال: يا سيِّدي، اعلم أنكَ لستَ الذي أطلقْتَني؛ إنما أطلقني الذي أجراها علىٰ لساني، فقال: اذهب فأنتَ حُرٌّ لوجه اللّه.

وقفتُ - أيها الإخوة - مع هذا الموقفِ مليًّا أقول: سبحانَ اللّه! هذا

كلام عبدٍ لعبد ، فأَعْتقَ العبدُ عبدَه ، فكيف إذا جرىٰ هذا الكلام مع السيدِ الكريمِ اللَّه ؟! . . اللَّهم أعتق رقابنا من النار . . آمين .

نعم : لو جرىٰ هذا الكلامُ علىٰ لسانِك لربِّك لتحرَّرْتَ من العبوديةِ لغيرِه ، ولكنْ مَنْ الذي يُجريه علىٰ لسانِك ، وماذا قدَّمتَ لكي يُجريَه؟! . . لابد أنْ تبدأَ أنت أوَّلًا . . إن اللَّهَ إذا أراد عبدَه لأمرٍ هيَّأه له وأجراه علىٰ لسانِه؛ فهو - سبحانَه - الذي يُنطق لسانَه؛ قال - تعالى - : ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١] . . أنطقَ كلَّ شَيء . . سبحانه وتعالى .

ولذلك قال اللَّه - تعالى - : ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة : ٣٧]، فاللَّهُ - تعالىٰ - هو الذي أجرىٰ علىٰ لسان آدمَ كلماتِ التوبةِ ثم مَنَّ بقَبولها ، فكان الفضلُ منه أوَّلًا وآخرًا . نعم : وفَّقه للتوبة فتاب ، وقبِلَ توبتَه؛ لأنه - تعالىٰ - توَّابٌ رحيم .

أيها الإخوة ، إنَّ هذه القضيةَ تحتاجُ إلىٰ وقفةٍ كبيرة ، فالإيمانَ لا يأتي طَفْرةً ؛ وإنما له مقدماتٌ وتمهيدات تحتاج منك إلىٰ استعانةٍ باللَّه وعملٍ ، اللَّهم ثبِّت علىٰ الإيمان قلوبنا ، وارزقنا فهمًا في الدين يُرضيكَ عنا . . آمين .

إنَّ الذي ينظر في قصة السَّحَرة ، سحرةِ فرعون مع موسى ، هؤلاءِ الذين آمنوا في لحظةٍ وتعرَّضوا لأقصىٰ أنواع التهديدِ : لأُقَطِّعَنَّ ولأُصَلِّبَنَّ ولأَفْعَلنَّ ولأَفعلنَّ ، فثبَتوا وقالوا : ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢] - إن الناظرَ إلىٰ هؤلاء يظن أنهم حصَلوا علىٰ الإيمانِ في لحظةٍ؛ لم ينظرْ لقدَرِ اللَّه كيف عَمِل في هؤلاء السحرة سنين ليعدَّهم لتلك اللَّحظة . . لِمَ اختيرَ هؤلاءِ السحرةُ بالذَّات؟ ، ولِمَ وُجدوا في هذا المكان بالذَّات؟! ، والجواب : لأنهم سَعَوْا . . نعم - أُخَيَّ - : إنَّ القضيةَ تحتاجُ منك إلىٰ سعي .

وفي قصةِ الثلاثة أصحابِ الغار ، لمَّا نزلتْ صخرة فسدَّت عليهم بابَ الغار؛ توسَّل الأوَّلُ بعملٍ صالح فانفرجَت الصخرةُ شيئًا يسيرًا حتىٰ رأَوْا النور ، فلمَّا توسَّل الثاني انفرجَتْ أكثر حتىٰ رأوا السماء ، فلمَّا توسَّل الثالث انفرجت الصخرةُ حتىٰ خرجوا يمشون؛ فعلىٰ قدرِ عطائِك تُعطَى ، وعلىٰ قدرِ سعيك تُمنَح .

كان رسولُ اللَّه ﷺ يجلسُ في حَلْقة من أصحابِه فدخل ثلاثةٌ ، أما الأوَّلُ : فوجد فُرجةً فجلس فيها ، وأما الثاني : فاستحيىٰ فجلس خلفَ الحلْقة ، وأعرضَ الثالثُ فمشَى؛ فقال رسول اللَّه ﷺ : « **أوَ أُخْبركم بِخَبَرِ الثلاثة نفرٍ ، أمَّا الأوَّل : فأوىٰ إلىٰ اللَّهِ فآواه اللَّهُ ، وأمَّا الثاني : فاستحيىٰ فاستحيىٰ اللَّهُ منه ، وأما الثالثُ فأعرضَ فأعرضَ اللَّهُ عنه** »[١] .

فإنْ أويتَ إلىٰ اللَّه آواك ، وإن أعرضتَ عنه أعرضَ عنك وطردَك وألْقَاك . قال اللَّه - جلَّ جلاله - عن يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣-١٤٤] . . مع أنه نبيٌّ . . نعم : فلا أحدَ عزيزٌ علىٰ اللَّه - مهما بلغت منزلته - إنْ لم يَئُوِ إلىٰ اللَّه . . فائْوِ إلىٰ اللَّه ولا تُعْرِضْ .

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ : « وأيُّما جِهَةٍ أعرضَ اللَّه عنها أظلمتْ أرجاؤُها ودارتْ بها النُّحوسُ » اهـ .

ائْوِ إلىٰ اللَّهِ وابدأ . . ابدأ خُطْوَةً . . اعمَلْ . . اتعَبْ . . تحرَّكْ . . اسْعَ وسوف يُتِمُّ عليكَ بخير .

(١) **متفق عليه** : البخاريُّ (٦٦) ، ومسلم (٢١٧٦) .

ودائمًا معلومٌ أنَّ نقطةَ البداية هي الأشقّ، وانطلاقةُ البداية هي الأصعب، وهذا هو عينُ الابتلاء من اللَّه - سبحانه وتعالىٰ . . أن يجعلَ البدايةَ عليك . . يقولُ ابنُ القيِّم - عليه رحمةُ اللَّه - :

«ليسَ للعبدِ شيءٌ أنفع من صدقِهِ ربَّه في جميعِ أمورِه، مع صدق العزيمة، فيصدُقهُ في عزمهِ وفي فِعْلِه؛ قال - تعالىٰ - : ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١]؛ فسعادتُهُ في صدقِ العزيمة وصدق الفعل؛ فصدقُ العزيمة جَمْعُها وجَزْمُها وعدمُ التردُّد فيها؛ بل تكون عزيمةً لا يشوبُها تردُّدٌ ولا تَلَوُّم.

فإذا صدقتْ عزيمتُه بَقِيَ عليه صِدْقُ الفعل، وهو استفراغ الوُسْع وبذلُ الجُهْدِ فيه، وأن لا يتخلَّفَ عنه بشيءٍ من ظاهرِهِ وباطنِه، فعزيمةُ القصد تمنعُهُ من ضعفِ الإرادة والهِمَّة، وصدقُ الفعلِ يمنعُهُ من الكسلِ والفتور. ومَنْ صَدَقَ اللَّهَ في جميعِ أمورِه صنعَ اللَّهُ له فوقَ ما يصنعُ لغيرِه. وهذا الصدقُ معنًى يَلْتَئِمُ من صِحَةِ الإخلاص وصدقِ التوكُّل، فأصدق الناسِ من صحَّ إخلاصُهُ وتوكُّله»(١).

فأخي الحبيب، أنتَ مُبْتَلًى بأن تبدأ، ومُمْتَحَنٌ بأن تَصْدُق، فإذا بدأتَ كما يُحِبّ أتمَّ لكَ كما تُحِبّ . . والانقطاعُ سببُه البدايةُ الضَّعيفة . . فإنَّ السَّائر إنْ فترَ عزمُه استمرَّ سيْرُه بِقُوَّة الدَّفْع الأولىٰ . . فأينَ بدايتُكَ أيُّها الحبيب؟ . . أعْطِنِي الدُّفْعَةَ الأُوْلىٰ واتْرُكِ الأَقْسَاطَ علىٰ اللَّه .

* * *

---

(١) الفوائد (٣٢٧ - ٤٣٨).

الأصل الثاني

كن واحدًا لواحد علىٰ طريقٍ واحد

هذا الأصلُ هو خلاصةُ الكلام في أمر السيرِ إلىٰ اللَّه ، والوصولِ إليه سبحانه وتعالى . . كنْ واحدًا لواحد علىٰ طريقٍ واحدٍ ؛ تَصِلْ .

كن واحدًا . . ما معناها؟

أُخَيَّ ، هل تعرف في زماننا رجلًا بوجهين؟ . . أنا لا أعرف!! ، فأكثر الناس اليوم بعشرةِ وجوهٍ ليس بوجهينِ فقط؛ بل بعشرين ، بخمسين ، بمئة . . حتىٰ ذي الوجهين قلَّمَا تجده!! . . فأين المخلص الذي لا يُعرَف لَه إلا وجهٌ واحد؟! ، اللَّهم اجعلنا من عبادِك المخلصين .

نعم – إخوتاه – : كثيرًا ما تجدُ إنسانًا معك في المسجد ، قدَمُهُ في قدمِك ، وكَتِفُهُ في كتفك ورأسُهُ بجوار رأسِك في السجود ، يبتهلُ إلىٰ اللَّه ويدعوه ، ويُتمْتِمُ بأطيب الكلماتِ ، ثم إذا خرج من المسجد فبوجهٍ آخر ، فإذا دخل بيته مع زوجته وأولاده فبوجهٍ ثالثٍ ، وفي العمل بوجهٍ رابع ، فإذا تعامل مع النساء الأجنبيات فرقيقٌ طيّب وليّن بوجهٍ خامس ، وإذا تعامل مع الرجال فبوجهٍ سادس ، فإذا تعامل مع الأكابر أو مَن هم أعلىٰ منه اجتماعيًّا كمديرهِ أو رؤسائه في العمل؛ فبوجهٍ سابع ، وإذا تعامل مع من هم أدنىٰ منه كالفقراء والضعفاء فبوجهٍ ثامن ، وتاسعٍ وعاشر . . من أنت؟؟!! ، من أنت يا عبدَ الوجه؟! ، أيُّ الوجوه وجهُك الحقيقيّ ؟!

إلى متى ستظل تَخْلَعُ وجهًا وتَلبَسُ آخر؟! ، إلى متى ستظل غشَّاشًا؟! ألا تعلم أنَّ اللَّهَ يرى كلَّ هذه الوجوه؟! . . يراك هنا ويراك هناك . . يراك الآن ويراك غدًا .

تجدُ ذا الوجوه إذا مرض فبوجه ، وإذا صحَّ بوجهٍ آخر ، وإذا افتقر بوجه ، وإذا اغتنى وامتلك فبوجه آخر ، تجده إذا تولى سعى في الأرض ليفسدَ فيها ويُهلِك الحرثَ والنسل ، وإذا رُئِسَ فذليلٌ مهانٌ منافق . . تجد ذا الوجوه لا يستحي من اللَّه وهو يراه .

مَنْ أنتَ أُخَيَّ؟ . . أجبْ عن هذا السؤال . . من أنتَ وأيُّ الوجوهِ وجهُك ، وأيُّ الأشخاص شخصُك ، وأيُّ الطُرُق طريقتُك؟ ، لماذا تعيشُ بعشرين وجهًا ، وعشرين لونًا ، وعشرين طريقةً؟!! . . ألا تستحي من اللَّه وهو يراك؟!

أُخَيَّ ، كن واحدًا ، كن صاحبَ وجهٍ واحد ، يمشي بطريقةٍ واحدة .

أُخَيَّ ، أيُّ الوجوه أريدُك؟ . . أريد لك وجهَ العبد . . أن تظلَّ عبدًا . . العبدَ الذي يركعُ ويسجد ويتلو القرآن؛ ويبتهلُ ويتبتل ويتفرَّغ . هذا العبد كُنْهُ في البيت مع الزوجة والأولاد ، وكُنْهُ في الشارع مع الناس . . كُنْهُ كيف كنتَ ، ومتى كنتَ ، وأين كنت . . كن عبدًا في كلِّ أحوالك .

أُخَيَّ ، إذا جاءتك امرأةٌ متبرجة لتقضيَ منك حاجةً نراك تتعامل معها برقّةٍ ولطافة ، أرأيت رِقَّتَك؟ ، أرأيت جمالَك؟ ألا يكون هذا مع زوجتك؟ . . وهي أَوْلى . . لماذا لا تتعاملُ بمثل هذا مع شريكةِ حياتِك وأمِّ عيالِك؟!! . . نعم : العبدُ هو الذي يتعاملُ بالرِّقَّةِ والجمالِ والحنانِ

والتودد مع الزوجةِ ، أمّا الشدة والوجه الغليظ فمعَ الأجنبيةِ . . هذا هو المطلوبُ وبهذا تكونُ عبدًا للّٰه .

أخي في اللّٰه ، حبيبي في اللّٰه ، إنني أريدُك عبدًا للّٰهِ في البيتِ ، وعبدًا للّٰه في المسجدِ ، وعبدًا للّٰه في الشارعِ ، وعبدًا للّٰه في العملِ ، عبدًا للّٰه وحده هنا حيث يعرفك الناسُ ، وعبدًا للّٰه هناك حيث تخلو فلا يعرفُك أحد إلا اللّٰه ، فاللّٰه الذي يراك هناك هو الذي يعرفُك هنا ؛ فاستحِ أن يراك علىٰ غير ما يعرفُك .

كن واحدًا ، ولا تكن عشرةً ، لا تكن اثنين ، كن عبدًا للّٰه وحده ، ولست أقصدُ أن تكون دومًا ذليلًا ؛ بل العبد علىٰ مقتضىٰ العبودية : في البيت رجلٌ له القِوامَةُ والتربية ، وفي العمل تراه مخلصًا وإن لم يره أحد ، وفي الشارع مراقبًا لمولاه .

كن عبدًا للّٰه وحده مع الرجالِ والنساءِ ، والأغنياء والفقراء ، والصغار والكبارِ . . كن عبدًا وضَعْ يدَيك ورجليك في قيودِ الشريعةِ الفِضيَّة لتتحررَ من العبوديةِ لغير اللّٰه . . الْزَمْ الأمرَ والنهي ، وكن كما يريدُ اللّٰه . . عِشْ علىٰ مرادِ اللّٰهِ منك لتكونَ عبدًا .

فكن واحدًا : أي كن عبدًا . .

لواحد :

أي للّٰهِ وحدَه ؛ قال رسول اللّٰه ﷺ : «**تَعِسَ عبدُ الدرهم ، تعس عبدُ الدينار ، تعس عبدُ القطيفةِ والخميصة ، تعس عبدُ المرأةِ ، تعس وانتكَس ، وإذا شِيكَ فلا انتقَش**»[1] .

(١) هذا الحديث أصْلهُ في البخاريّ (٢٨٨٧) .

أسألُك باللَّه ، واصدُقْ يا عبدَ اللَّه : أنت عبدٌ لمَن؟ للَّه وحدَه أم عبدٌ للظُّروفِ أيضًا؟ أم عبدٌ للبيئةِ والمجتمع؟! عبدٌ للْعاداتِ والتقاليد؟! أم عبد للمهنةِ والوظيفة والراتبِ الشهري ، عبدٌ لصاحبِ العمل ، أم عبدٌ لزوجتِك وأولادك واحتياجاتِهم ومطالبهم؟! . . عبدُ مَن أنت؟ .

كثير من الناس عبيدٌ لأشياءَ كثيرة ، فمنهم من عبَد بطنه ، ومنهم من عبَد شهوتَهُ وفَرْجَه ، ومنهم من عبَدَ بيتَه وفراشه ، ومنهم من عبَد رصيدَه وماله ، ومنهم . . ومنهم . . فكنْ أنت عبدًا للَّه .

إنَّ المتأملَ - إخوتاه - في تاريخ العقيدة الإسلامية الطويل ، ليدرك مدىٰ العناد والتكذيب الذي واجهه أنبياء اللَّه ورسله في تعبيدِ القلوب لإلهٍ واحدٍ هو اللَّه ؛ فقوم نوحٍ كذبوا المرسلين ، وكذبت ثمودُ وعادٌ بالقارعة ، وكذبَّ بنو إسرائيل موسىٰ وجحدوا ما جاء به ، وعاند المشركون رسولَ اللَّه ﷺ . . ومع كلِّ هذا صبرَ هؤلاءِ الأنبياءُ والمرسلون ؛ لعلمهم بعظمةِ وأهميةِ ما يَدْعُونَ إليه . . وهو التوحيد .

فالتَّوحيدُ نظامُ الكون ، ولا يَصْلُحُ في الطريقِ إلىٰ اللَّه إلا التوحيد ؛ توحيدُ القصد وتوحيدُ المعبود ؛ ولذلك إذا أردت - أيها الحبيب - أن تسيرَ إلىٰ ربِّكَ سيرًا حسنًا فالزم التوحيد . قال - سبحانه - : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣] .

ولابُدَّ أن تعلمَ أنَّ اللَّه - سبحانه وتعالى - هدَّدَ أنبياءه ورسلَه بحبوطِ الأعمال - وإن كَثُرَت - إن فاتها التوحيد ؛ فقال بعد أن ذكرَ جملةً كثيرةً

منهم في سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]؛ بل قال مخاطبًا نبيَّهُ مُحمَّدًا ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥-٦٦].

ومِنْ خطورةِ أمرِ التوحيد أنَّ الشركَ في هذه الأُمَّة أخفى من دَبِيْبِ النَّمْلِ؛ لذا علَّمك النَّبيُّ ﷺ أنْ تقولَ كُلَّ يوم مرارًا: «**اللهم إني أعوذُ بكَ أن أُشرِكَ بكَ شيئًا أعْلَمُه وأستغفِرُكَ لما لا أعلَمُه**»[1].

ومِنْ خطورةِ أمرِ التوحيد الخوفُ على التوحيد؛ قال اللَّه - سبحانه وتعالى - حاكيًا عن إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ دعوته: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].. فهذا إبراهيم خليلُ اللَّه يخافُ على توحيدِه؛ فيطلبُ التثبيتَ عليه ويطلبُ لِبَنِيْهِ ألَّا يَحِيْدُوا عنه.

ومِنْ خطورةِ التوحيد أنَّهُ قد يَلْتَبِسُ على العبد؛ قال ابنُ القيِّم - رحمه اللَّه تعالى - في «الفوائد»:

«التوحيدُ ألطفُ شيءٍ وأنزَهُهُ وأنظفُهُ وأصفاه، فأدنى شيءٍ يَخْدِشُهُ ويُدنِّسُه ويؤثِّرُ فيه، فهو كأبْيَضِ ثوبٍ يكون، يؤثِّرُ فيه أدنى أثر، وكالمرآة الصافية جدًّا، أدنى شيءٍ يؤثِّر فيها. ولهذا تُشَوِّشُهُ اللَّحظة واللَّفظة والشَّهْوَةُ الخفيّة، فإنْ بادَرَ صاحبُهُ وقلعَ ذلك الأثرَ بضدِّه؛ وإلا استحكم وصار طبعًا يتعسَّرُ عليهِ قَلْعُه.

---

(١) أخرجَهُ: البخاريُّ في «الأدب المفرد» (٧١٧)، وصحَّحهُ الألبانيُّ - رحمه اللَّه تعالى - في «صحيح الأدب المفرد».

وهذه الآثار والطُّبُوع التي تَحْصُلُ فيه : منها ما يكونُ سريعَ الحصولِ سريعَ الزوال ، ومنها ما يكون سريعَ الحصول بطيء الزوال ، ومنها ما يكون بطيءَ الحصول سريعَ الزوال ، ومنها ما يكون بطيء الحصول بطيء الزوال .

ولكن مِنَ الناسِ مَنْ يكونُ توحيدُهُ كبيرًا عظيمًا ، ينغمِرُ فيه كثيرٌ من تلك الآثار ، ويستحيلُ فيه بمنزلة الماء الكثير الذي يخالطُهُ أدنىٰ نجاسة أو وَسَخ ، فيغترُّ به صاحبُ التوحيد الذي هو دونَه ، فيخلط توحيده الضعيف بما خلط به صاحب التوحيد العظيم الكثير توحيده ، فيظهرُ من تأثيره فيه ما لم يظهر في التوحيد الكثير .

وأيضًا فإنَّ المَحَلَّ الصافي جدًّا يظهر لصاحبه مما يدنِّسه ما لا يظهر في المحل الذي لم يبلغ في الصفاء مبلغه ، فيتداركه بالإزالة دون هذا ، فإنه لا يشعر به .

وأيضًا فإنَّ قُوَّةَ الإيمانِ والتوحيدِ إذا كانت قويَّةً جدًّا أحالت الموادَّ الرديئة وقَهَرَتْهَا ، بخلاف القوة الضعيفة »[١] .

فانظر - رحمكَ اللَّه - إلىٰ توحيدِك : هل ما زالَ علىٰ صفائه وطهارته ونقائه أم أنَّهُ تلَّوث من مخالطة البشر ومعاملاتهم ، وغيابِ العلم عن القلب ، ونسيانِ الذِّكرِ وكثرة الكلام والجدال المَقِيت ، وحُبِّ العُلُوِّ والغَلَبَة ، وتعلُّقِ القلبِ بمدحِ الناس ودفعِ ذمِّهم ، والشهواتِ المركبةِ في

---

(١) الفوائد (٣٣٩) .

الأنْفُس . . . هذه كلُّها - واللَّهِ - إن وقعتْ في القلب سقطت سماءُ توحيدك علىٰ أرضه ، فلا تقومُ لقلبِكَ قائمة . . فيا أخي الحبيب ، كن لواحدٍ تسترح .

قال اللَّه - تعالىٰ - : ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر : ٢٩] .

«يضربُ اللَّه المثَل للعبدِ الموحِّد والعبدِ المشرك : بعبدٍ يملكُه شركاءُ يخاصمُ بعضُهم بعضًا فيه ، وهو بينهم موزَّعٌ ؛ ولكلٍ منهم فيه توجيهٌ ، ولكلٍ منهم عليه تكليفٌ ؛ وهو بينهم حائرٌ لا يستقرُّ علىٰ نهجٍ ولا يستقيمُ علىٰ طريق ؛ ولا يملك أن يُرضِيَ أهواءَهم المتنازعةَ المتشاكسةَ المتعارضةَ التي تمزِّقُ اتجاهاتِه وقواه! وعبدٍ يملكُه سيدٌ واحد ، وهو يعلَمُ ما يطلبُه منه ، ويكلِّفُه به ، فهو مستريحٌ مستقرٌّ علىٰ منهجٍ واحد صريح . . ﴿هل يستويانِ مثلًا﴾ . . إنهما لا يستويان . فالذي يخضع لسيدٍ واحد يَنْعَمُ براحةِ الاستقامةِ والمعرفة واليقين . وتجمُّع الطاقة ووَحْدةِ الاتجاه ، ووضوحِ الطريق . والذي يخضع لسادةٍ متشاكسين معذَّبٌ مُقَلْقَلٌ ، لا يستقر علىٰ حالٍ ، ولا يُرضي واحدًا منهم فضلًا علىٰ أن يُرضي الجميع!

وهذا المثل يصوِّر حقيقةَ التوحيد وحقيقةَ الشرك في جميع الأحوالِ . فالقلب المؤمن بحقيقة التوحيد هو القلبُ الذي يقطع الرحلةَ علىٰ هذه الأرضِ علىٰ هدى ؛ لأنّ بصرَه أبدًا معلَّقٌ بنجم واحدٍ علىٰ الأفقِ فلا يلتوي به الطريقُ . ولأنه يعرف مصدرًا واحدًا للَّحياةِ والقوة والرزقِ ، ومصدرًا واحدًا للَّنفع والضُّر ، ومصدرًا واحدًا للمنحِ والمنع ، فتستقيمُ خطاه إلىٰ

هذا المصدرِ الواحد، يستمدُّ منه وحدَه، ويعلّقُ يديه بحبلٍ واحد يشد عُرْوتَه. ويطمئن اتجاهُه إلىٰ هدفٍ واحد لا يزوغ عنه بصرُه. ويخدم سيِّدًا واحدًا يعرف ماذا يرضيه فيفعلُه وماذا يغضبه فيتَّقيه.. وبذلك تتجمّع طاقتُه وتتوحَّد، فينتج بكلِّ طاقتِه وجهده وهو ثابتُ القدمين علىٰ الأرض متطلعٌ إلىٰ إلهٍ واحدٍ في السماءِ.. ويُعَقِّبُ - سبحانه - علىٰ هذا المثل الناطق الحي، بالحمدِ للّٰه الذي اختارَ لعباده الرَّاحةَ والأمن والطمأنينةَ والاستقامة والاستقرار. وهم مع هذا ينحرفون، وأكثرُهم لا يعلمون..»[1]. فهل أنتَ منهم؟.. هل أنت لواحد؟، أم أنك لشركاءَ متشاكسين؟!

نعم: إن أكثر الناس اليوم منحرفون عن التوحيد، ويعيشون في شتاتٍ، فتجد قلوبهم معلقة بالمالِ والزوجة والولدِ والبشَر، فيعيشون مهمومين محزونين مشَّتتين مضيَّعين.. ولا يمكن أن يتعلقَ القلبُ باللّٰه وحده إلا بأن يكون في قلبِك همٌّ واحد: هو طلب رضا اللّٰه والاستعانةِ به، فهمُّك وهِمَّتُك وتفكيرُك دائرٌ في تحصيل رضا اللّٰه؛ ساعتَها تكون عبدًا للّٰه وحدَه.. تكون واحدًا لواحدٍ بحق، ومنها تنطلق علىٰ طريق الوصول إلىٰ اللّٰه - تعالىٰ.

علىٰ طريق واحد:

إذا كنتَ واحدًا لواحد فلكي تصل لابد من أن يكونَ لك طريق واحد إلىٰ اللّٰه - تعالىٰ -، فهما توحيدان: توحيد القصد وتوحيد المعبود.

---

(١) في ظلال القرآن (٥/٣٠٤٩ - ٣٠٥٠).

هو طريق واحد لا يتعدد ولا يتغير ؛ كما قال ربنا - جل وعلا - : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فوحَّدَ سبيلَه لأنه في نفسه واحد لا تعدد فيه ، وجمع السُّبُل المخالفة لأنها كثيرة ومتعددة .

فكن على طريق واحد تصل وهو الطريق إلى الله - سبحانه - وأصله : الكتاب والسنة ، وقال فيه رسول الله ﷺ : «**إنه من يعش بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين عَضُّوا عليها بالنواجذ ، وإيَّاكم ومحدثاتِ الأمور ؛ فإن كلَّ مُحْدَثَةٍ بدعة وكلَّ ضلالةٍ في النار**»(١) ، وقال ﷺ : «**تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدًا كتابَ اللَّهِ وسُنَّتي**»(٢) . فاسلك الطريق الواحد وإذا سلكته فلا تغيَّرْ ولا تبدِّلْ لئلا تُطْرَد . . لا تتلوَّنْ ولا تتَّبعِ الهوى فيضلك عن سبيل الله . . اللهم نَجِّنا من مُضِلَّاتِ الفتن .

لمَّا جاءَ حذيفةَ بنَ اليمانِ الموتُ جلسَ عبدُ الله بنُ مسعودٍ عند رأسه وقال له : أوْصِني ، فقال له : ألم يأتك اليقينُ ، قال : بلى وعزة ربي ، فقال حذيفة : إياك والتلوُّنَ ، فإن دين الله واحد .

ومن التلون : استحلال الحرام ؛ قال العلماء : الفتنةُ أن تستحلَّ ما كنتَ تراه حرامًا .

---

(١) أخرجَهُ : أحمد (٤/١٢٦) ، وأبو داود (٤٦٠٧) ، والترمذيُّ (٢٦٧٦) وقال : حسنٌ صحيح ، وقال الألبانيُّ : صحيح .

(٢) أخرجَهُ : أحمد (٣/ ٥٩) ، والترمذي (٣٧٨٦) وقال : حسنٌ غريب ، وانظر «الصحيحة» (١٧٦١) .

يمشي الشاب في الطريق إلى اللَّه سنين واعتقادُه : حُرمةُ التلفاز ، ثم تُفاجأ بالتَّلوُّن . . نعم : لقد دخل التلفاز بيوت كثير من الملتزمين . . أدخلَه لأنه مفتون . . قد تلَّون؛ فصار الطريقُ عنده عدةَ طرق .

فبعد أن كان يعتقد أنَّ صلاة الجماعة في المسجد فرضُ عين؛ صار يقول : هناك مذاهب أخرى فيمكن أن أُصلِّيَ في البيت . . تلونٌ وفُتور . . بعد أن كان يعتقدُ أن طلبَ العلم لازمٌ له ، وبعد أن كان يعتقد أن الدعوةَ إلى اللَّه أمانةٌ في عنقِه؛ تخلَّى وانشغل بدنياه؛ فتشعبَتْ به الطُّرق .

أيها المفتونُ : ستموت ، وستحاسبُ على آرائِك القديمة لِمَ غيَّرْتَها . . لِمَ بدَّلت . . لِمَ تلوَّنت . . لِمَ الْتفَتَّ؟ . . كان راضيًا بالقليل؛ فإذا به يستشرفُ لحياةِ المترفين والأغنياءِ . . لِمَ يا عبدَ اللَّه؟ ، لِمَ غيَّرتَ طريقَك؟ ، إنها سِكَّةٌ واحدة ومنهجٌ واحدٌ هو الصحيحَ ، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢] . . أخي ، الحقُّ واحدٌ لا يتعدد ، فعلى منهجِك فاثبُتْ . ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت: ٦] .

كن على طريقٍ واحد ، واعلم أن الكتابَ والسنة بفهمِ سلفِ الأُمَّة منهجٌ معصوم ، ليس لأنني أقول ذلك؛ بل لأنّ اللَّهَ - تعالى - أمر بذلك؛ قال - تعالى - : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال - سبحانه - : ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾ [البقرة: ١٣٧] .

سُئل أبو علي . . الحسنُ بن علي بن الجوزجانيُّ : كيف الطريقُ

إلىٰ اللَّه؟، فقال : الطرقُ إلىٰ اللَّه كثيرة ، وأوضحُ الطرقِ وأبعدها عن الشبه : اتّباعُ السُّنّة قولًا وفعلًا وعزمًا وعقدًا ونيّةً ؛ لأنّ اللَّه يقول : ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور : ٥٤]. فقيل له : كيف الطريقُ إلىٰ السُّنة ، فقال : مجانبةُ البدع ، واتباع ما أجمع عليه الصدرُ الأول من علماءِ الإسلام ، والتباعدُ عن مجالسِ الكلام وأهله ، ولزومُ طريقة الاقتداءِ ، وبذلك أُمرَ النبي ﷺ بقوله - سبحانه تعالى - : ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [النحل : ١٢٣].

وقال أبو الحسنِ الورّاق : لا يصل العبدُ إلىٰ اللَّه إلا باللَّه وبموافقة حبيبه ﷺ في شرائعه ، ومن جَعَلَ الطريقَ إلىٰ الوصول في غير الاقتداءِ ، يضلُّ من حيث يحسب أنه مهتد .

وقال أبو بكر الطمستانيُّ : الطريق واضحٌ ، والكتاب والسنة بين أظهرنا ، وفضل الصحابة معلومٌ لسبقهم إلىٰ الهجرة ولصحبتهم ، فمن صحِبَ منّا الكتابَ والسُّنّة وتغرّب عن نفسه والخلق ، وهاجر بقلبه إلىٰ اللَّه ؛ فهو الصادقُ المصيب .

وعن طريق البدع يقول الحسن : صاحبُ البدعة لا يزدادُ اجتهادًا ؛ صيامًا وصلاةً ؛ إلا ازداد من اللَّه بُعْدًا .

وعن أبي إدريس الخَوْلانيِّ أنه قال : لأَنْ أرىٰ في المسجد نارًا لا أستطيع إطفاءَها أحبُّ إليَّ من أن أرىٰ فيه بدعةً لا أستطيع تغييرها .

فتمسَّكْ - أُخَيَّ - بما كان عليه سلفك الصالح ، وابْتَعِدْ عن البدع وأهلِها وكن علىٰ طريق واحد «طريق السُّنّة» ولا تلتفت .

قال بِنْدار بن الحسين : صحبةُ أهلِ البدع تورث الإعراضَ عن الحق .

وقال حَمْدون القصَّار : من نظر في سِيَرِ السلف ، عرف تقصيرَه وتخلُّفَه عن درجاتِ الرجال . قال الشاطبيُّ : «وهذه - واللَّه أعلم - إشارة إلىٰ المثابَرَةِ علىٰ الاقتداءِ بهم؛ فإنهم أهلُ السنّة»[1] .

إخوتاه : الطريق إلىٰ اللَّه واحدة لا تتغيَّرُ أبدًا ، فلسنا نجدِّد في منهجنا أو نغيِّره أو نبدِّلُه أو نعدِّله . . هو منهجٌ واضح ، والثباتُ عليه هو سرُّ الوصولِ إلىٰ اللَّه ، فإن غيَّرتَ أو بدَّلت أو جدَّدتَ أو التفتَّ ضِعْتَ .

قال ابنُ القيِّم : «لو أنَّ عبدًا أقبلَ علىٰ اللَّه ألفَ سنةٍ ، ثم التفتَ عن اللَّه لحظةً واحدة؛ لكان ما خسِرَ في هذا أعظم مما حصَّله في الألف سنة» اهـ .

فَسِرْ - أُخيَّ - ولا تلتفتْ . . انطلقْ علىٰ طريق واحدٍ . . انطلقْ وكن واحدًا لواحد علىٰ طريقٍ واحد؛ تصلْ بإذن اللَّه .

* * *

---

(١) الاعتصام (١/ ٩٥) .

الأصل الثالث

ما لا يكونُ باللَّه لا يكون
وما لا يكونُ للَّه لا ينفعُ ولا يدوم

تدبَّر هذه القاعدةَ ؛ فالزمْ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .. وهاكَ بيانَها :

ما لا يكون بالله لا يكون :

العبد ضعيف .. خُلِق في الأصل محتاجًا فقيرًا؛ قال اللَّه : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وقال – تعالى – : ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] .. بأصلِ خِلْقَتِكَ ضَعفٌ؛ انظر قولَ اللَّه عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣]، وقال – تعالى – : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١].

وقال – سبحانه وتعالى – : ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ١٨-٢١].

«كُلًّا نُمدُّ» . . من الْمُمِدُّ؟ اللّه ، ومن المستعان؟ اللّه . . اللّه هو المُمِدُّ المُعطي المستعان . . اللّه هو الموفِّق المسدِّد . . اللّه هو الذي يصطفي ويختارُ . . فالسيرُ في الطريق إلىٰ اللّه مَبْنيٌّ علىٰ الاصطفاءِ والاختيار ، فإذا اختارَك واصطفاك هيَّأك .

قال اللّه - تعالىٰ - في حق يُونُس عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القلم: ٥٠] . . اجتباهُ فجعلَه . . فأنت ضعيفٌ لا طاقةَ لك . . أنت ضعيف لا قُوَّةَ ولا قدرةَ ولا حولَ لك إلا أن تكونَ باللّه ، فما لا يكونُ باللّه لن يكونَ ، فالذي أتىٰ بك إلىٰ المسجد ، اللّهُ ، والذي أنطق فأسمعَ ، اللّه . . اللّه هو الذي اجتباك وجعلك من الملتزمين .

أخي في اللّه ، حبيبي في اللّه علىٰ طريق الحقّ للوصولُ إلىٰ اللّه ، الْزَمْ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، تبرَّأ من حولِك وقوتِك والْجَأْ إلىٰ حولِه وقوته واستعِنْ به ، استعنْ به وتوجَّهْ إليه واطلبْ منه . . استعن به وحده يكن لك . . كما قال العلماء : كُنْ للّهِ كما يريدُ؛ يكن لك فوق ما تريدُ .

قال رسول اللّه ﷺ : «**احفظ اللّه يَحْفَظْكَ ، احفظ اللّه تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل اللّه ، وإذا استعنتَ فاستعن باللّه ، واعلمْ أنَّ الأمَّة لو اجتمعَتْ علىٰ أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه اللّه لك ، وإن اجتمعوا علىٰ أن يضرُّوك بشيءٍ لم يضرُّوك إلا بشيء قد كتبه اللّهُ عليك رُفعت الأقلام وجفَّت الصُّحف**»[1] .

---

(١) أخرجَهُ : أحمد (١/ ٢٩٣) (٢٦٦٩)، والترمذيُّ (٢٥١٦) وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وصحَّحَهُ الألبانيُّ - رحمه اللّه تعالىٰ .

«احفظ الله يحفظك»، والأعجب منها: «احفظ الله تجده تجاهك»، احفظ الله تجده معك، في اتجاهك، في الاتجاه الذي تريده تجده - سبحانه - تجاهك.

إنَّ كثيرًا منا حين يسيرُ في الطريق إلىٰ الله فيصيبُه الفتور أو يُفتن فيتراجع؛ يظل طِيلةَ الوقت يسألُ عن السبيلِ إلىٰ الرجوع، ويُعَلِّم أسبابَ الرجوع ويأخذُ بالأسباب وينسىٰ الله، فلا تُؤتي الأسبابُ ثمرتَها.. تقول له: افعلْ كذا، يقول: فعلتُ ولم أجد فائدةً، افعل كذا.. فعلت ولا فائدة.. افعلْ، فعلتُ.. وفعلتُ.. وفعلت.. نعم: فَعلَ ولم يستعِنْ بالله فلم توجد ثمرةٌ، ولا توجدُ ولن توجدَ إلا بالله.

وتأمل معي هذا الحديث العظيم ليثبتَ يقينُك في هذه القاعدة: ما لا يكون بالله لا يكون، وأضف إليها القاعدة الأولىٰ والأصل الأول: عليك البداية وعليه التمام:

يقول الله - تعالىٰ - في الحديث القدسي: «**يا عبادي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلا مَنْ هدَيْتُهُ فاسْتَهْدُوني أَهْدِكُم، يا عِبادي كُلُّكم جائعٌ إلا مَنْ أطْعَمْتُهُ، فاسْتَطْعِموني أُطْعِمْكُمْ، يا عبادي كُلُّكُمْ عَارٍ إلا من كَسَوْتُهُ، فاسْتكْسُوني أكْسُكُمْ، يا عبادي إنَّكم تُخْطِئُونَ باللَّيْلِ والنَّهار، وأنا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَميعًا؛ فاسْتَغْفِروني أَغْفِرْ لكم..**»[١].

هكذا: «**كُلُّكُم**»؛ إلا من سأل الله فأعطاه.. فلن تُؤْتَىٰ شيئًا إلا

---

(١) أخرجَهُ: مسلم (٢٥٧٧).

وعند اللَّه خزائنه ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]. فاستعن باللَّه تُعَنْ واستهده تُهْدَ . . وهكذا: ما لا يكونُ باللَّه لا يكون . . فكن للَّه يكن لك . وإلا فالضياع والتيه ثم الهلكة عياذًا باللَّه - تعالىٰ . . ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

وما لا يكون للَّه لا ينفع ولا يدوم:

إخوتي في اللَّه، ما كان لغيرِ اللَّه اضمحلَّ . . يضمحلُّ . . يتلاشَىٰ كالرُّسوم علىٰ رِمالِ الشاطئ؛ تَمحوها أمواجُ البحر . . نعم: ما كان للَّه دامَ واتصل، وما كان لغير اللَّه انقطعَ وانفصل.

شجرة الصَّفْصَاف تقطع في ثلاثةِ أشهر ما تقطعه شجرة الصنوبر في ثلاثين سنة، ثم تقولُ لها: ما قطعتيهِ في ثلاثين سنة قطعْتُهُ في ثلاثةِ أشهر ويُقَال لي شجرة ولك شجرة؛ فتقولُ لها الصنوبرة: اصبري حتىٰ تَهُبَّ رياحُ الخريف فإن ثبتٌّ لها تمَّ فخرُك،

وعندما ثبتت دودةُ القزِّ تَنْسِج، قامت العنكبوت تنسِج وقالت لها: لكِ نسجٌ ولي نسج، فقالت دودة القزِّ: أما نسجُك فمصايدُ الذباب، وأما نسجي فأَرْدِيَةُ المُلُوك، وحالَ اللَّمْس يَبِينُ الفرق.

نعم: هكذا - أُخَيَّ - إذا هبَّتْ رياحُ الابتلاء فَثَبَتَّ لها تَمَّ فخرُك. فليست القضية بصورة العمل؛ فقد تتساوىٰ الأشجار في المناظر ويسمىٰ الكل نسْجًا، ولكنَّ البَهْرَجَ لا يدوم، قال اللَّه - سبحانه وتعالىٰ -: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]

فهؤلاء الذين يدخلون الطريقَ إلىٰ اللَّه لشهوةٍ أو لهوىٰ أو لحظِّ نفس لا ينفَعون ولا ينتفِعون ، ولا يستطيعُ أحدهم أن يُتمَّ عملًا ولو كان بسيطًا ، وحين يبدأُ في مشروعِ خيرٍ كطلب علم أو عبادةٍ أو دعوة إلىٰ اللَّه ؛ تجده ينقطع ولا يداوم عليه ، ونسأل : ما السر؟!!

إنَّ السرَّ الدفين - إخوتاه - لعدمِ القَبول هو وجودُ حظٍّ للَّنفس في العملِ ؛ فالذي يأتي إلىٰ صلاة الجُمُعةِ - ليس للَّه - ، والذي يقوم اللَّيلَ ، أو يصوم النهارَ ، أو يحفظُ القرآنَ أو يتعلّمُ العلمَ ، أو يَؤُمُّ الناسَ ، أو يخطبُ الجُمُعةَ ، أو يعطي درسًا ، أو . . أو . . وفي العملِ شائبةٌ من حظِّ النفس ؛ فعملُه باطلٌ باطلٌ . . أحبَطَه حين عمِله لحظِّ نفسِه[1] .

نعم : سَلْ نفسَك : عملُك لمن؟ ، واصدقْ ولا تتهربْ فالأمر جِدُّ خطير . . ألا تخافُ من هذه الكلمةِ التي تَقُضُّ المضاجع : «**عملتَ ليقال وقد قيل ؛ فلا أجرَ لك عندي ، ثم يُسْحَب علىٰ وجهه إلىٰ جهنم**»[2] .

اعلمْ - أُخَيَّ - أنك إذا صليتَ ثم خرجت فلم تنهكَ صلاتُك عن الفحشاءِ والمنكر - اعلم أنك ما صلَّيتَ للَّه ، فلو صلَّيتَ له لأعطاك الثمرةَ ، وإذا حفظتَ القرآن فلم تزجُرْكَ نواهيه ولم تُلْزِمْكَ أوامرُهُ ؛ فاعلم أنك لم تحفظْه للَّه . فاللَّه شكورٌ . . يشكرُ علىٰ القليلِ . . إذا عَمِلْتَ له عملًا لابد أن يُثيبَك ، ويشكرَك عليه ، ويعطيَك منه ، فإذا لم تُعْطَ فاتَّهم عملكَ . . اتَّهِمْ عملَك فإنَّ المعبودَ كريمٌ .

---

(١) سيأتي الحديث بتفصيل عن السر الدفين لعدم القبول في الأصل الخامس عشر .
(٢) جزء من حديث «**أوّلُ من تُسعَّرُ بهمُ النار ثلاثة**» . أخرجَهُ : مسلم (١٩٠٥) .

فالإخلاصَ الإخلاصَ - إخوتاه.. الإخلاصَ وإلا الضياعَ.. الإخلاصَ وإلا الشرودَ عن طريقِ اللّه.. الإخلاصَ حتىٰ لا تضِلُّوا السبيلَ.. الإخلاصُ نورُ الطريقِ.

كان الفضيلُ بن عياض يقول: إذا كانَ يسألُ الصادقين عن صدقِهم، مثل إسماعيل وعيسىٰ - عليهما الصلاة والسلام -؛ فكيف بالكذابين من أمثالِنا؟!، وكان رَحِمَهُ اللّه إذا قرأ: ﴿ونَبْلُوَ أَخْبَارَكم﴾ يقول: اللّهم إنَّك إن بلوْتَ أخبارَنا، فضحْتَنا وهتكتَ أستارَنا، عافيتُك هي أوسعُ لنا، وأنت أرحمُ الراحمين.

قال أبو عثمانَ المغربيُّ: الإخلاص نسيانُ رؤيةِ الْخَلْقِ بدوامِ النظر إلىٰ الخالق.

وقال سهلُ بن عبد اللّه التُسْتُريّ: نظرَ الأكياسُ في تفسيرِ الإخلاصِ فلمْ يجدوا غيرَ هذا: أن تكونَ حركتُه وسكونُه في سرِّه وعلانيتِه للّه تعالى، لا يمازجُه شيء؛ لا نفْسٌ، ولا هَوًى، ولا دنيا.

وقيل لحَمْدون بنِ أحمد: ما بالُ كلام السلف أنفعُ من كلامنا؟، قال: لأنهم تكلموا لعزِّ الإسلام ونجاةِ النفوس، ورضا الرحمن، ونحن نتكلمُ لعزِّ النفوس، وطلب الدنيا، ورضا الخلقِ.

يقول أخي الشيخ سيد العفَّانيّ - حفظه اللّه تعالىٰ -: «فاعقلْ درجتَك، ولا تَزْهُ عند الخلق، وجوهرُك جوهرُ الفضائح، وسِيْماك سِيْما الأبرارِ، وعُدَّ نفسَك مع أنفُسِ الكذابين، وروحَك مع أرواح الهَلْكى،

وبدنَك مع أبدانِ المذنبين . وأقبلْ علىٰ تعلُّمِ الإخلاص ، فواللَّهِ إنَّ علمَه خيرُ العلم ، وفقهَه الفقهُ كلُّ الفقه .

يا إخوتاه ، الإخلاص مِسْكُ القلب ، وماءُ حياته ، ومدار فلاحه كلِّه عليه . . نعم : بضاعة الآخرة لا يرتفع فيها إلا مخلصٌ صادق .

ولا نجاةَ ولا فقهَ إلا مع سيرِ السلفِ الصالحين . . فقد كان الشيوخ في قديم الزمان أصحابَ قَدَم . . والطلابُ أصحابَ ألَم ، فذهب القدمُ والألمُ ، اليومَ غُصَّة ولا قِصَّةَ ، وإن التربيةَ بالقدوةِ خيرُ وسائِل التربية . والحكاياتُ عن سَلفِنا جُندٌ من جنودِ اللَّه - تعالى - يُثَبِّتُ اللَّهُ بِهَا قلوبَ أوليائِه »[1] .

قال الإمامُ أبو حنيفةَ : الحكاياتُ عن العلماء ومحاسِنهم أحبُّ إليَّ من كثيرٍ من الفقهِ؛ لأنها آدابُ القوم وأخلاقُهم . قال - تعالى - : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١]. وقال - تعالىٰ - لنبيه : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] .

وانطلاقًا من هذا الكلامِ الطيِّب؛ فإن الحديثَ عن الإخلاصِ والمخلصين يَزيد الإخلاصَ ، وهاكَ طَرَفًا منه :

الصلاة :

قال أبو تَميم بن مالك : كان منصورُ بن المعتمر إذا صلَّىٰ الغداةَ؛ أظهرَ النشاطَ لأصحابِه ، فيحدِّثُهم ويكثرُ إليهم ، ولعلَّه إنما باتَ قائمًا علىٰ أطرافِه ، كلُّ ذلك يُخْفِي عليهم العملَ .

---

(١) صلاح الأمة في علو الهمّة (١/ ١٠٦ ، ١٠٨) .

قال أبو إسحاقَ كعبُ الأحبار صاحب الكتب والأسفار : من تعبّد للّه ليلةً حيث لا يراه أحدٌ يعرفُه؛ خرجَ من ذنوبِه كما يخرجُ من ليلتِه .

صَدَقةُ السرّ :

وهذا زينُ العابدين عليُّ بن الحسينِ : يحمل جِرابَ الخبز علىٰ ظهرِه باللّيل ، فيتصدقُ به ، ويقول : إنَّ صدقةَ السرِّ تطفئ غضبَ الربِّ عَزَّوَجَلَّ . ولمّا مات وجدوه يقوتُ مئةَ أهلِ بيت بالمدينة . ولما جاءوا يُغسّلونَه وجدوا بظهره آثار سوادٍ ، فقالوا : ما هذا؟ ، فقيل : كان يحملُ جِرَبَ الدقيق ليلًا علىٰ ظهرِه يعطيه فقراءَ أهلِ المدينة .

الصوم :

وإذا ذُكَر الصوم وإخفاؤه ، فاذكر داودَ بن أبي هند . . صام أربعين سنة لا يعلمُ به أهلُه ولا أحد ، وكان خزّازًا ، يحمل معه غذاءَه من عندهم ، فيتصدَّقُ به في الطريقِ ، ويرجع عشيًّا فيُفطرُ معهم ، فيظنُّ أهلُ السوقِ أنه قد أكل في البيت ، ويظنُّ أهلُه أنه قد أكل في السوق .

قال إبراهيمُ بن أدهم : لا تسألْ أخاكَ عن صيامِه ، فإن كان قال : أنا صائمٌ فَرِحَتْ نفسُه ، وإن قال : أنا غير صائم حزنَتْ نفسُه ، وكلاهما من علاماتِ الرياء ، وفي ذلك فضيحةٌ للمسئولِ ، واطّلاعٌ علىٰ عوراتِه من السائل .

الذِّكْرُ وقراءةُ القرآن :

قال ابنُ الجوزيّ : كان إبراهيمُ النَخَعِيُّ إذا قرأَ في المصحفِ فدخل داخلٌ ؛ غطّاه .

وكان الإمامُ أحمد يقول : أشتهي ما لا يكون . . أشتهي مكانًا لا يكون فيه أحدٌ من الناس .

البكاء :

قال الثوريُّ : البكاءُ عشرةُ أجزاء؛ تسعةُ لغير اللّٰه ، وواحدٌ للّٰه ، فإذا جاء الذي للّٰهِ في السنَةِ مرةً فهو كثيرٌ .

قال ابن الجوزيّ : كان ابنُ سِيرينَ يتحدثُ بالنهارِ ويضحك ، فإذا جاء اللَّيلُ فكأنهُ قَتلَ أهلَ القرية .

حَالَتْ لفقدِكمُ أيامُنا فغدَتْ سُوْدًا وكانت بِكُم بِيضًا ليالينا
مَن مُبلِغُ المُلْبِسينا عَنَّا بانتزاحهمُ حزنًا مع الدهرِ لا يَبلَىٰ ويُبلينا
أنَّ الزمانَ الذي قد كانَ يُضحِكُنا أُنسًا بقربِهِمُ قد عادَ يُبكينا
لِيُسْقَ عهدُكمُ عهدُ السرورِ فما كنتم لأرواحِنا إلا رياحينا

قال محمدُ بن واسع : إنْ كانَ الرجلُ لَيبكي عشرين سنةً وامرأتُهُ معه في لِحافِهِ لا تعلمُ به .

وقال سفيانُ بن عيينةَ : أصابتني ذاتَ يومٍ رِقَّةٌ فبكيت ، فقلت في نفسي : لو كان بعضُ أصحابِنا لرقَّ معي ، ثمَّ غفوت ، فأتاني آتٍ في منامِي ، فرفسَني ، وقال : يا سفيانُ ، خذ أجرَك ممَّن أحببتَ أن يراك!!

العِلْم :

قال الشافعيُّ : ودِدْتُ أنَّ الخلقَ تعلَّموا هذا (يعني علمَه) ، علىٰ أن لا يُنسبَ إليَّ حرفٌ منه .

وقال عَونُ بنُ عمارة: سمعت هشامًا الدُستُوائيّ يقول: واللّهِ ما أستطيعُ أن أقولَ: إنّي ذهبتُ يومًا قطُّ أطلبُ الحديثَ أريدُ بهَ وجهَ اللّه عَزَّوَجَلَّ. قال الذهبيُّ: «واللّهِ ولا أنا!!».. فاللّهم اعفُ عنا!

أصحاب السرائر والخوفُ من الشهرة:

قال ابنُ المبارك عن إبراهيمَ بنِ أدهم: صاحبُ سرائر، وما رأيتُهُ يُظهِرُ تسبيحًا، ولا شيئًا من الخير، ولا أكلَ مع قومٍ إلا كان آخرَ من يَرفعُ يدَه.

يقول إمامُ الوعّاظ ابنُ الجوزي: اشتهر ابنُ أدهم ببلد، فقيل: هو في البستانِ الفلانيّ، فدخل الناس يطوفون ويقولون: أين إبراهيمُ بن أدهم؟، فجعل يطوفُ معهم ويقول: أين إبراهيم ابن أدهم؟!

وانظرْ إلىٰ العلاءِ بن زياد العدويّ الذي قال فيه الحسنُ البصريُّ: إلىٰ هذا واللّه انتهىٰ استقلالُ الحزن.. قال له رجل: رأيتُ كأنك في الجنّة، فقال له: ويْحَك!! أما وجد الشيطانُ أحدًا يسخرُ به غيري وغيرَك.

قال الإمامُ أحمد: كان سفيان الثوري إذا قيل له: رُئِيتَ في المنام؛ يقول: أنا أَعْرَفُ بنفسي من أصحاب المنامات.

وإبراهيمُ النَخَعِيُّ الإمامُ الفقيه: كان لا يجلس إلىٰ الساريةِ في المسجد؛ توقّيًا للشهرة. وكان يقول: تكلّمتُ، ولو وجدت بُدًّا ما تكلمت، فإن زمانًا أكون فيه فقيه الكوفة لزمانُ سوء.

وكان يقول :

خَلتِ الديارُ فسُدْتُ غيرَ مُسوَّدِ ومن البلاءِ تفرُّدِي بالسُّؤْدُدِ

وكان محمدُ بن يوسفَ الأصبهانيُّ (عروسُ الزهاد) لا يشتري زاده من خبازٍ واحد . قال : لعلهم يعرفوني فيحابوني ، فأكونَ ممّن أعيشُ بديني .

وسفيانُ الثوريُّ الذي قال عنه الإمامُ أحمد : أتدري من الإمامُ ؟ ، الإمام سفيانُ الثوريُّ ، لا يتقدمُه أحدٌ في قلبي . . كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يتركُ أحدًا يجلسُ إليه ، إلا نحو ثلاثةِ أنفُس ، فغفل يومًا ، فرأىٰ الحلْقةَ قد كبُرت ، فقام فَزِعًا ، وقال : أُخذنا واللّٰه ولم نَشعرْ ، واللّٰه لو أدرك أميرُ المؤمنين عمرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مثلي وهو جالسٌ في هذا المجلس ؛ لأقامَه ، وقال له : مثْلُك لا يصلُحُ لذلك .

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا جلس لإملاءِ الحديث ؛ يجلسُ مرعوبًا خائفًا ، وكانت السحابةُ تمرُّ عليه ، فيسكت حتىٰ تمر ، ويقول : أخافُ أن يكونَ فيها حجارةٌ تَرجُمنا بها .

وكان يقول : كلُّ شيء أظهرتُه من عملي فلا أعدُّه شيئًا ؛ لعجزِ أمثالِنا عن الإخلاصِ إذا رآه الناس . . رحمك اللّٰه يا سفيانُ ، وللّٰه درُّك يا إمامُ ، فكم علَّمتَنا أن نكونَ للّٰه .

مرَّ الحسن البصريُّ علىٰ طاوسَ وهو يُملي الحديثَ في الحَرَم في حلْقةٍ كبيرة ، فقَرُبَ منه ، وقال له في أُذنِه : إن كانتْ نفسُك تعجبُك فقُمْ من هذا المجلس ، فقام طاوسُ فورًا .

وقال بِشْرٌ : لا ينبغي لأمثالِنا أن يُظهرَ من أعمالِه الصالحةِ ذرَّةً ، فكيف بأعمالِه التي دخلها الرياءُ؟! ؛ فالأَوْلىٰ بأمثالِنا الكتمانُ!

وكان مالكُ بنُ دينارٍ يقول : إذا ذُكر الصالحون فأُفٍّ لي وتُفٍّ .

وقال الفُضَيل : مَن أرادَ أن ينظرَ إلىٰ مُراءٍ فلينظرْ إليّ .

إخوتاهُ ، أطَلْنا الكلامَ مع المخلصين لأهميته(١) ؛ فبدون الإخلاص لا يكون للأعمال أيُّ قيمة ، ولن تصلَ إلىٰ اللّه علىٰ الإطلاقِ ما دُمْتَ مرائيًا . . فابدأ مِن الآن وكنْ بكُلِّك للّه . . أخلِصْ وإلا فلا تَتَعَنَّ . . أخلِصْ وإلا فالخَسَار والدَّمَار وخَرَابُ الديار .

إخوتاه ، ما لا يكونُ باللّهِ لا يكونُ ، وما لا يكونُ للّهِ لا ينفعُ ولا يدومُ . . فاستعينوا باللّهِ وأخلِصوا للّه ، والزَموا ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ ؛ تصِلُوا إلىٰ اللّهِ – تعالىٰ – بأَمانٍ واطمئنان .

* * *

---

(١) راجع مزيدًا من الكلام عن الإخلاص والمخلصين في كتابنا «**منطلقات طالب العلم**» ، الباب الأول «**الإخلاص**» ؛ **فهو مهم** .

الأصل الرابع

الشكرُ أساسُ المزيد

إنَّ من أخطرِ أصولِ الوصولِ إلى اللَّهِ - تعالى - شُكْرُ نعمة اللَّه عَزَّوَجَلَّ على أن هيَّأكَ ويسَّرَ لك وحبَّبَ إليك أن تسْلُكَ سبيلًا إليه . . وإنَّ اختيارَ هذا الطريق رغبةً ورهبةً، وطلبًا لرضا اللَّه وخوفًا من عذابِهِ . . نعمة .

وإنَّ معرفة الطريق إلى اللَّه عَزَّوَجَلَّ ، والشَّغف بالسيرِ فيها، والحرصَ على التقدم . . نعمة . . والأعمالُ الصالحة من تلاوةٍ وذِكْرٍ وصيامٍ وقيامٍ وتَبَتُّلٍ وتَهَجُدٍ وإحسانٍ وبِرّ وغيرها؛ هي حواملُ الوصول في هذا الطريق . . وهي نعمة . . وهذه النِّعَمُ إنْ لم تَدُمْ وتَزِدْ وتُبَارَك كان النُّكُوصُ والارتدادُ والسَّلبُ والحِرْمَان . . ولا سبيلَ قطُّ إلى حراسةِ النِّعَم وحمايتِها وزيادتِها إلا بالشكر .

جاء وفدُ اليمنِ إلى رسولِ اللَّه ﷺ، وكان فيهم رجلٌ يُسمَّى حُديرًا، فلمّا أرادوا الانصرافَ - وكان من سُنَّةِ رسول اللَّه ﷺ أن يعطِيَ كلَّ ضيفٍ جائزتَه - أعطى لكل فردٍ منهم هديَّة، وكان حُديرٌ مشغولًا بذكرِ اللَّه بعيدًا عن عينِ رسول اللَّه ﷺ، فاستحيى حُديرٌ أن يطلبَ جائزتَه، فانطلقوا وانطلق معهم حُديرٌ، وبعد أن انصرفوا إذ بجبريلَ ينزلُ على رسول اللَّه ﷺ ويقول: ربُّك يقرئُك السلامَ، ويذكُرك بحُديرٍ - يذكُرُك أنك نسيتَ حديرًا -، فطلب رسول اللَّه ﷺ فارسًا وأعطاه هدية، وقال: «**الْحَقْ**

القومَ فاسأل عن حُدير ، وأعطِه هديتَه ، وأقرِئه منّي السلامَ » ، فلمّا أدركَهم قال : أين حُديرٌ؟ ، قالوا له : هذا ، فقال له : رسولُ اللّه يقرئُك السلامَ ويقول لك : « **إنّه نَسِيَك فذكَّره بك اللّهُ** » ، فقال حُديرٌ : « **اللّهمَّ كما لم تنسَ حُديرًا ، فاجعلْ حُديرًا لا ينساك** » ؛ فكان أكثرَ الناس ذكرًا للّه .

« اللّهمَّ كما لم تنس حُديرًا ، فاجعل حُديرًا لا ينساكُ » . . هذا هو مَوطِنُ الشاهد ، وهو شُكر النعمة علىٰ مقتضاها وهو طلب الزيادة من خير الآخرة .

أيها الإخوة ، ابتُلي أحدُ الإخوة بمرضِ السكر فقال لي : استفدتُ من هذا المرض فائدة : ما عرفت نعمةَ اللّه في أن أنامَ ثلاثَ ساعاتٍ متواصلةٍ إلا بعد المرض ، فكل ساعةٍ أقوم لأدخلَ الحمّام!! . . فهل نِمْتَ أنتَ ثلاثَ ساعاتٍ متواصلةٍ؟! . . هل شكرتَ هذه النعمةَ؟ . . إذا ابتُليتَ - نسألُ اللّه لنا ولك العافيةَ - ستعرفُ هذه النعمةَ وتُقدِّرُها .

هذا الرجلُ المكسورُ يقول : أودُّ أن أتقلَّبَ علىٰ جنبي!! ، فهل تتقلَّبُ علىٰ جنبَيك وأنت نائمٌ؟! ، هل شكرتَ هذه النعمةَ؟ ، هل فكّرتَ مرةً أن تذهبَ إلىٰ المستشفياتِ لترىٰ المُقْعَدين الذين لا يملِكون حِراكًا؟ ، لترىٰ في قسمِ الحرائقِ ما فَعَلتْهُ النيرانُ في الوجوهِ الجميلة؟ ، ولترىٰ في قسم العيونِ مَن فقدوا نورَ أعينِهم؟!

كان بكرُ بنُ عبدِ اللّه المُزَنيُّ رحمه الله يقول : يا ابنَ آدم ، إذا أردتَ أن تعلمَ قدر ما أنعمَ اللّه عليك ، فغمِّضْ عينيك .

هل رأيتَ أصحابَ المحاليل المُعلّقةِ؟!! ، وهل رأيتَ من عاشوا حياتَهم في المستشفياتِ ثم ماتوا؟! . . كلُّ هذه النعمِ التي فقدَها الآخرون وملكْتَها أنت؛ هل شكرتَ اللّه عليها؟!!

وأنتَ أيها المريضُ المبتَلىٰ، هل شكرتَ النعمَ التي أنت غارقٌ فيها؟!، هل نظرتَ إلىٰ مَن هم أشدُّ منك بلاءً؟! . . وإن كنتَ أنت أشدَّ المرضىٰ ألمًا؛ فهل شكرتَ اللّٰه علىٰ أن ابتلاك في جسدِك، وحفِظَ لك قلبَك فملأه بالإيمان؟! . . هل شكرتَ هذه النعمة: نعمةَ الإيمان والتوحيد التي هي أعظمُ النعم.

عن مُجاهد في قوله - سبحانه تعالى -: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، قال: لا إلهَ إلا اللّٰهُ.

وعن سفيانَ بن عُيينة قال: ما أنعم اللّٰه ﷻ علىٰ العباد نعمةً أفضلَ من أن عرَّفهم: أنْ لا إلهَ إلا اللّٰهُ. قال: وإن «لا إلهَ إلا اللّٰهُ» لهم في الآخرة كالماء في الدنيا.

لقد كان من هَدْيِ رسول اللّٰه ﷺ تذكُّرِ فاقدِ النعمة؛ ليعظم عنده شكرُها؛ فكان ﷺ إذا أوىٰ إلىٰ فراشه يقول: «**الحمدُ للّٰهِ الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا، وكم ممن لا كافيَ له ولا مأْوَىٰ**»[1]. فِدَاك أبي وأمي ونفسي يا رسول اللّٰه ﷺ.

قال سلامُ بن أبي مطيعٍ: دخلتُ علىٰ مريضٍ أعودُه، فإذا هو يَئِنُّ، فقلت له: اذكرْ المطروحينَ في الطريقِ، اذكر الذين لا مأْوَىٰ لهم، ولا لهم مَن يخدمُهم. قال: ثم دخلت عليه بعد ذلك فلم أسمَعْه يئنُّ. قال: وجعلَ يقول: اذكر المطروحين في الطريقِ، اذكر مَن لا مأوىٰ له ولا له مَن يخدمه.

---

(١) أخرجَهُ: مسلم (٢٧١٠).

إخوتاه، شكرُ النعمِ أصلٌ؛ قال الملك: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

قال ابنُ القيِّم – رحمه اللَّه تعالى –: «مَنْ أُنعم عليه بنعمةٍ فلم يشكرْها؛ عُذِّب بتلك النعمةِ ذاتها ولابُدّ» اهـ.

عرفتَ – أخي الملتزم – ما سبب الفتور؟؛ لأنك لم تشكرْ نعمةَ الالتزام، فلو شكرتَ هذه النعمةَ لزادك اللَّهُ التزامًا؛ قال – تعالى –: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].. لكن لمَّا لم تشكرْ نعمةَ الالتزام فَتَرْت؛ وتراجَع التزامُك.

قال الحسنُ: إنَّ اللَّه عَزَّوَجَلَّ ليُمَتِّعُ بالنعمةِ ما شاء، فإذا لم تُشْكَرْ، قَلَبها عليهم عذابًا.

نعم: كل مَن أُعطِيَ أولادًا فلم يشكرْ نعمةَ الأولاد يُعذَّبُ بهم، ومن أنعم اللَّه عليه بزوجةٍ فلم يشكرْ نعمةَ الزوجة عُذِّبَ بها، ومن أعطيَ مالًا فلم يشكره؛ عُذِّب به ولابدّ.. وهكذا: كل نعمةٍ لا تشكرُها تُعذَّب بها.. وسِرُّ الشكر استخدامُ النعمة في طاعةِ المُنعم.

شَكَرَ حُديرٌ النعمةَ وسأل اللَّه ألا يُنسيَه ذِكْرَه، ولو أنَّني أنا الذي جاءوني بالهدية لشغلني فرحي بالهديَّة عن ذكرِ اللَّه.. واقعٌ مُرّ.. كثيرٌ من المسلمين مشغولٌ بالنعمةِ عن المُنعِم، مشغولٌ بالبليَّةِ عن المبتلي، مشغولٌ عن اللَّه بغير اللَّه، ناسٍ له، غافلٌ عنه.

إخوتاه، سليمانُ بن داودَ، هذا النبيُّ الصالح ابنُ النبيِّ الصالح –

عليهما السلام - ؛ ما شغله المُلْك - الذي ما آتاه اللَّهُ أحدًا من العالمين قبلَه ولا بعدَه - عن الشكر والتحدُّثِ بنعمِ اللَّه عليه .

قال - تعالى - : ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٦-١٩] .

ولما حُمل إليه عرشُ بلقيس قال : ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠] .

عن الحسنِ قال : قال نبيُّ اللَّهِ داودُ : « إلهي ؛ لو أنَّ لكل شعرةٍ مني لسانين يسبحانِك اللَّيل والنهارَ والدهر ، ما وفَّيتُ حقَّ نعمةٍ واحدة »(١) .

قال ابنُ القيِّم : « حبَس السلطانُ رجلًا فأرسل إليه صاحبُه : اشكر اللَّهَ فضُرب ، فأرسل إليه : اشكر اللَّهَ . فجيء بمحبوسٍ مجوسيٍّ مبْطُونٍ ، فقيِّد وجعل حلقةً من قيده في رجله وحلقةً في الرجُلِ المذكور ، فكان المجوسيُّ يقوم باللَّيل مرات ، فيحتاج الرجل أن يقف على رأسه حتى يفرغ ، فكتب إليه صاحبه : اشكر اللَّه . فقال له : إلى متى تقول : اشكر اللَّه ، وأيُّ بلاءٍ فوق هذا؟ ، فقال : ولو وُضِع الزُّنَّار الذي في وَسِطه في

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، لابن القيِّم (١٢١) .

وسطك، كما وُضِع القيدُ الذي في رجلِه في رجلِك؛ ماذا كنتَ تصنعُ؟؛ فاشكر اللَّه»[(١)].

ودخل رجلٌ علىٰ سهلِ بن عبد اللَّه فقال: اللِّصُّ دخل داري وأخذَ متاعي، فقال: اشكر اللَّهَ، فلو دخل اللِّصُّ قلبَك - وهو الشيطان - وأفسد عليك التوحيدَ، ماذا كنتَ تصنع؟»[(١)].

سُئِلَ بعضُ الصالحين: كيف أصبحت؟، فقال: أصبحتُ وبنا من نعم اللَّه ما لا يُحصىٰ، مع كثيرٍ ما يُعصى، فلا ندري علىٰ ما نشكر: علىٰ جميلٍ ما نَشَر، أو علىٰ قبيح ما ستر؟

وقال آخَر: أصبحت بين نعمتين لا أدري أيتهما أعظم: ذنوبٌ سترها اللَّه عليَّ؛ فلا يقدر أن يعيِّرَني بها أحد، ومحبةٌ قذفها اللَّه في قلوبِ الخَلْق؛ لا يبلغها عملي.

نعم - إخوتي في اللَّه - : من أصولِ السيرِ إلىٰ اللَّه: كلَّما أنعمَ اللَّهُ عليكَ بنعمةٍ فاشكرْها.. إذا حفظت آيةً فاشكرْها، إذا ذكرتَه لحظةً فاشكرْها، إذا أعفيت لِحيتَك اشكرْها، إذا صلَّيتَ جماعةً اشكرْها، إذا تعلَّمتَ مسألةً اشكرْها، إذا قمتَ ليلةً اشكرْها، اشكُر اللَّهَ علىٰ نعمتِه؛ لأنك إن لم تشكُره تُعذَّب.. تلك سُنَّةٌ ربانية؛ فلذلك انشغِلْ بشكرِ النعمة.

ولكن كيف يكون شكرُ النعمة؟

الشكُر يقوم علىٰ خمسةِ أركان:

١- الإقرارُ بالنعمة.
٢- الثناءُ علىٰ اللَّه بالنعمةِ.

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (١٤٤ - ١٤٥).

٣- الخضوعُ للّه بالنعمة . ٤- حبُّ المُنعِم .

٥- استعمالُ النعمةِ في شكرِ المُنعِم .

عن عَنْبَسَةَ بن الأزهرِ قال : كان محاربُ بن دِثار - قاضي الكوفةِ - قريبَ الجوار منّي ، فربما سمعتُه في بعضِ اللّيل يقول :

«أنا الصغيرُ الذي ربَّيتَه فلك الحمد ، وأنا الضعيفُ الذي قوَّيتَه فلك الحمدُ ، وأنا الفقيرُ الذي أغنيتَه فلك الحمدُ ، وأنا الغريبُ الذي وصيتَه فلك الحمدُ ، وأنا الصُعلوكُ الذي مَوَّلتَهُ فلك الحمد ، وأنا العَزَبُ الذي زوَّجتَه فلك الحمد ، وأنا الساغِبُ (الجائع) الذي أشبعتَه فلك الحمدُ ، وأنا العاري الذي كسوتَه فلك الحمد ، وأنا المسافِرُ الذي صاحبتَه فلك الحمد ، وأنا الغائبُ الذي ردَدْتَه فلك الحمدُ ، وأنا الراحلُ الذي حمَلْتَه فلك الحمد ، وأنا المريضُ الذي شفيتَه فلك الحمد ، وأنا السائل الذي أعطيتَهَ فلك الحمد ، وأنا الداعي الذي أجبتَه فلك الحمد؛ فلك الحمد ربَّنا ، حمدًا كثيرًا على حمدِي لك» اهـ .

لِلَّهِ ما أحلىٰ هذا الكلام!! . . نعم - واللَّهِ - : كانَ كلامُهم دواءً للخطَّائين .

يَا رَبّ

«تَمَّ نُورُكَ فهديت ؛ فلك الحمد ، عَظُمَ حِلْمُكَ فغفرت ؛ فلك الحمد ، بَسَطْتَ يدَكَ فأعطيت ؛ فلك الحمد ؛ ربَّنَا وجهُكَ أكرمُ الوجوه ، وجاهُك أعظمُ الجاه ، وعَطِيَّتُكَ أفضلُ العَطِيَّة وأَهْنَاهَا ، تُطَاعُ ربَّنَا فتَشْكُر ، وتُعْصَىٰ فَتَغْفِر ، وتُجِيبُ المضطَر ، وتَكْشِفُ الضُر ، وتَشْفِي السَّقِيم ،

وتَغْفِرُ الذنب ، وتَقْبَلُ التَّوْبَة ، ولا يَجْزِي بِآلَائِكَ أحدٌ ، ولا يَبْلُغُ مِدْحَتَكَ قولُ قائِلٍ» . . فلك الحمد .

إخوتاه ، الشكرُ أساس المزيد . أحبتي في اللّه ، يا مَنْ عزمْتُم السيرَ إلىٰ اللّه ، اشكروا اللّه . . اشكروا اللّه . . اشكروا اللّه يزدْكم . .

عن عليٍّ رضي الله عنه أنه قال لرجلٍ من أهل همدان : «إنَ النِّعمةَ موصولةٌ بالشكر ، والشكرُ متعلقٌ بالمزيد ، وهما مقرونان في قرن؛ فلن ينقطعَ المزيدُ من اللّه - عَزَّ وجَلَّ - حتىٰ ينقطعَ الشكرُ من العبد» اهـ .

فإذا رأيتَ إيمانَك - أخي في اللّه - لا يَزِيدُ فارجعْ إلىٰ الشكر . . اشكرْ تَزْدَدْ إيمانًا؛ فإنَّ الشكرَ أساسُ المَزيد .

* * *

الأصل الخامس

امْلُكْ عصا التَّحويلة

بعضُ الناس يركَبُ القطارَ ويظنُّ أنَّ السائقَ هو الذي يقودُه، وينسَىٰ أنَّ هناك عاملًا بسيطًا بيده عصًا صغيرةٌ يُحوِّل بها مجرىٰ القطارِ كلِّه رغمَ أنف السائق.. فعصا تحويلةِ قلبِك في يد مَن؟!

أيها الإخوةُ: الصراطُ مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ، تَزِلُّ عنه الأقدام، فمعَ طولِ السفر قد تتحوَّلُ الأقدامُ عن الطريقِ دون شعورٍ؛ ولذا ينبغي أن تَمْلِكَ عصا التحويلةِ فلا تُسْلِمْها لأحدٍ يتحكمُكَ بها غيرَ اللَّه الذي يَهديك الصراطَ المستقيم، صراطَ الوصول إليه - سبحانه.

فكم منَّا من سلَّم العصا لزوجتِه فحَّولتْه من طالبِ علمٍ إلىٰ طالبِ دنيا، وكم منَّا مَن سلَّمها لأولادِه فحوَّلوا همَّه من طالبِ جنةٍ إلىٰ طالبِ مالٍ.. عصا تحويلة قلبِك في يد مَن؟، أسلمْتَها لمن؟، لصاحبٍ.. لزميل.. لشيخٍ.. لمديرٍ؟!!

أخي في اللَّه، سَلْ نفسَك مَن المتحكمُ فيك، ومن الذي يُسيِّرُ قلبَك، هل اللَّهُ وحده؟، أم أشياءُ أُخَر؟.. قف مع نفسك وقفة لتُسَلِّمَ قلبَك للَّه يقودُك كيف شاء.

أخي في اللَّه، اسْتسلِم للَّهِ.. سلِّم قلبَك للَّه؛ قال رسولُ اللَّه ﷺ:

«ألا إنَّ السلطانَ والقرآنَ سيَفْترِقان ، فدُوروا مع القرآن حيث دار»[1] .

نعم : إنَّنا نحتاج أنْ نَملكَ عصا التحويلةِ لنَدورَ مع القرآنِ ، لنَدورَ مع الشرعِ ، لندورَ مع الدين ، مع الأمرِ والنهي ، فلا نثبُتُ علىٰ الباطل .

أخي ، عصا التحويلة خطر؛ فأيُّ لَعِبٍ بها قد يتسبَّبُ في أنْ يحيدَ القطار عن طريقِ الوصول ، وربَّما اصطَدم فانقلبَ ، فتحكَّمْ - أُخيَّ - في كل ذرةٍ من قلبِك ، ووجِّهْهَا إلىٰ اللَّهِ وحدَه ، حرِّك قطارَ نفسِك في طريقٍ واحد . . طريق الوصولِ إلىٰ اللَّه .

أخي ، سِرْتَ إلىٰ اللَّه سِنينَ ثم تحوَّلتَ ، فما الذي حوَّلك؟! ، مَنْ الذي حوَّلك؟! ، لِمَ تغيَّرتَ فغيَّرتَ اتجاهَك؟! ، لِمَ انزلقَتْ رجلُك فخرجَتَ عن طريقِ السير إلىٰ اللَّه؟!

إنَّنا بحاجةٍ - إخوتاه - لأن نَمْلِكَ عصا التحويلة؛ لكي نُعيدَ السيرَ إلىٰ الطريق مرةً أخرى ، حتىٰ وإن حِدْنا أو تُهنا أو خُضنا أو ضلَلْنا أو أخطَأْنا أو أذنبْنا . . لابُدَّ مِن العَوْد . . ارجعْ واللَّه عَزَّ وَجَلَّ كريمٌ يقبل توبةَ العبدِ إذا تاب؛ قال الملكُ جَلَّ جَلَالُهُ : ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠] . . فعُدْ إلىٰ اللَّهِ واتَّجِهْ إلىٰ اللَّهِ ، وقفْ علىٰ طريقِ السيرِ إلىٰ اللَّهِ .

فبعصا التحويلةِ غيِّر اتجاهَك ، وحوِّل قلبَك إلىٰ الصراطِ المستقيم . . عدِّل طريقَك ، وانْظمْ سيرَك ، ووجِّه قلبَك تَجِدْ اللَّهَ غفورًا رحيمًا . . امْلُكْ عصا التحويلةِ تسلكْ طريقَ الوصولِ إلىٰ اللَّه .

* * *

(١) أخرجَهُ : الحاكم بلفظ : «**دوروا مع كتاب اللَّه حيث ما دار**» (٢/١٤٨) وبهذا اللفظ ضعَّفَهُ الألبانيُّ - رحمَه اللَّه تعالىٰ - في السلسلة الضعيفة برقْم (٣٦٠٥) .

الأصل السادس

يَوْمَكَ يَوْمَك

أيُّهَا الإخوةُ، اللَّهُ - جلَّ جلالُه - حين خلقَ العبدَ ما خلقَه إلا ليعبدَه؛ قال - تعالىٰ - : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ثم أجرىٰ اللَّهُ اللَّطيفُ الرَّحيمُ تكاليفَه علىٰ العبدِ فكلَّفَهُ ما يُطِيقُ.

قال المَلِكُ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، يعني: ولو شاء اللَّهُ لأوقعكم في العَنَتِ والمشقَّةِ والتَّعَبِ؛ ولكنَّ اللَّهَ يقولُ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ويقول - سبحانه وتعالىٰ - : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

فمن رحمةِ اللَّهِ ولُطفِهِ بالعبدِ في التَّكاليفِ أنه كلَّفَكَ كُلَّ يوم علىٰ قدْرِ يومِك؛ لكي لا يُعْنِتَك؛ ولذا فإنَّ مِن ظُلْمِ العبدِ لنفسهِ أنْ يَحملَ همَّ غدٍ.. من رحمتِهِ - سبحانه - أنْ جعلَ التَّكاليفَ يومًا بيوم.. فلو صَلَّيتَ العِشاءَ لا يطالبُك اللَّهُ بشيءٍ أو فرضٍ حتىٰ أذان الفجرِ، فكلُّ وقتٍ له واجبٌ، واللَّهُ لا يطالبُك إلا بواجبِ الوقتِ.. لا يطالبُكَ - سبحانهُ - بواجبِ الغدِ.. أمَّا اليوم فنعم.

إنَّكَ لو مِتَّ الآن قبلَ صَلاةِ العشاءِ، لن يسألك اللَّهُ عن العِشاءِ.. لو مِتَّ قبلَ أن يَمُرَّ العامُ ويَحُولَ الحَوْلُ؛ لن تُسْأَلَ عن زَكَاةِ هذهِ السَّنَة.. لو

عشتَ عُمُرَك ولم يبلغ مالُك النصابَ لا يسألُك اللَّهُ عن الزكاةِ . . وهذا كله من رحمةِ اللَّهِ . . فمِن ظلِم العبدِ لنفسه حملُ همِّ غدٍ .

تجدُ الرجلَ اليومَ جالسًا يفكرُ : آخرُ الشهرِ من أين سنأتي بالنقودِ . . يا أخي ، أين أنتَ وأين آخرُ الشهرِ؟! . . تجدُه يتكلمُ ويقولُ : الأولادُ عندما يكبرون أين سيعيشون؟ . . يا أخي ، عندما يكبرون فلهم ربٌّ يتكفلُ بهم أَحَنُّ عليهم منك . . وهكذا يحملُ الهمَّ فينشغلُ به .

تجدُ الأبَ في زمانِنا - للأسفِ الشديد - مشغولًا بشراءِ قطعة أرضٍ ليبنيَ بيتًا للأولادِ . . مشغولًا بسعادتِهم الدنيويةِ وراحتهم البدنية ، فينسىٰ في خِضَمِّ المشاكلِ والظروفِ أن يعرِّفَهم طريقَ اللَّهِ .

سبحان اللَّهِ العظيمِ!! . . عمرُ بنُ عبدِ العزيز كان له أحدَ عشرَ ولدًا ذكرًا ، غير الإناثِ ، فلما جاءه الموتُ قال له كاتبُه رجاءُ بنُ حَيْوَةَ : لو أوصيتَ بهم أحدًا . . أوَصِ عليهم أحدًا يُنفِقْ عليهم . . قال له ذلك؛ لأن عمرَ بنَ عبد العزيزِ لم يتركْ وهو يموتُ إلا عشرةَ دراهمَ . . أحدَ عشرَ ولدًا ورَّثهم أحدَ عَشَرَ درهمًا . قال له عمرُ بن عبد العزيزِ : واللَّهِ لستُ أوصي بهم أحدًا إلا اللَّهَ ؛ إن يكونوا صالحين فاللَّهُ يتولىٰ الصالحين . ثم جمعهم فقال : إني أموتُ ولم أترك لكم شيئًا ، غيرَ أنكم ما مررتم بأحدٍ من المسلمين إلا وهو يعلمُ أنَّ لكم عليه حقًّا .

وهذه الكلمةُ الأخيرةُ كلمةٌ جميلةٌ . . أنك حين تتركُ أولادَك ويكونُ لك ذكرىٰ طيبةٌ عند الناسِ؛ تجدُهم كلما مرَّ عليهم الأولادُ يقولون : اللَّهم ارحمْ أباكم؛ لقد كان رجلًا صالحًا . . وهذه تكفي .

نعم، هذا هو الوالدُ الحقيقيُّ الذي عرفَ الطريقَ إلىٰ اللَّهِ فعرَّفَه لأبنائِه، لا ذلكم الأبُ الذي ضيَّعَ أيامَه وانشغلَ بالدنيا.. وتَعْجَبُ حين تعلمُ أن هذا الأبَ كلما انشغلَ بالأولادِ ليرضيَهم لا يرضَوْن؛ فتزدادُ المشاكلُ والهمومُ، ولو أنه شغَل نفسَه وعيالَه باللَّهِ لحُلَّت المشاكلُ.

إننا اليومَ ونحنُ ننظرُ في واقعِ المسلمينَ، لا نجدُ أحدًا يعيشُ يومَه، فالكلُّ ينظرُ للمستقبلِ وناسٍ أنه يمكنُ ألا يُكْمِلَ يومَه.. قال ابن عمر: «**إذا أصبحتَ فلا تنتظر المساءَ، وإذا أمسيتَ فلا تنتظر الصباح**»(١).

لقد تعجبتُ لبعضِ الأفكارِ والأخلاقياتِ التي وصلتْ إلىٰ القرى!!، وكيف لا أُدهشُ ونحن دائمًا نعُدُّ هؤلاء الفلاحينَ أصولَنا.. هؤلاء أولادُ الأصولِ.. هؤلاء هم الناسُ الذين يفهمونَ في الأصولِ، ألا لعنةُ اللَّهِ علىٰ الظالمين، الذين لوَّثوا صفاءَ الريفِ الروحيَّ.

أفسَد التلفازُ أخلاقياتِهم، فتجدُ الرجلَ يرسلُ ابنَته لتتعلمَ، وقد تسافرُ وحدها وترجعُ باللَّيلِ؛ فتقولُ له: لماذا تعلِّمُ البنتَ؟ فهي في النهايةِ ستتزوجُ وتجلسُ في البيت؛ يقولُ لك: حتىٰ يكونَ في يديها «سلاح». وتقول له: وإذا طُلِّقتْ بسبب السلاحِ أو لم تتزوج فما الحلُّ؟!.. وهل كان مع أمها سلاح؟، هل كان معها «بكالوريا»؟!.. وأُمُّكَ أنت ماذا كان معها؟! ماذا كان سلاحُهُم؟!!. إنَّ السِّلاحَ هو رضا اللَّه.

نعم: فهؤلاء الناسُ ينظرونَ إلىٰ المستقبلِ ولا يعيشون واقعَهم،

---

(١) هذا الجزء من الحديث موقوف علىٰ ابن عمر. انظر: «جامع الأصول»، لابن الأثير (ح ١٨٥).

لا يعيشونَ يومَهم . . وانظرْ حولَك لترىٰ الناسَ كيف يعيشونَ ، وكيفَ تعلقتْ قلوبُهم بالغد .

ولهذا؛ فلِكي تصلَ إلىٰ رضا اللَّهِ ، عِشْ يومًا بيوم ، فاجعلْ كلَّ يوم هدفًا تصلُ به إلىٰ أعلىٰ درجةٍ في الجنةِ . . ابدأ يومًا جديدًا من صلاةِ الفجرِ ، وضعْ في حسبانك أنه آخرُ يومٍ في عُمُرك؛ ولذا تسألُ نفسَك ماذا سأَفْعَلُ؟ . . أوَّلُ شيء : أتوبُ - اللَّهم تبْ علينا يا ربِّ .

إخوتاه ، هل فيكم أحدٌ يودُّ أن يتوبَ اليومَ؟ ، إذا قال : نعمْ تُبْتُ ، قلتُ : مِنْ ماذا؟ ، قال : من كل شيء ، قلت : لستَ صادقًا . . إنَّ الذي يقول : تُبْتُ من كلِّ شيءٍ يريدُ أن يخادعَ اللَّهَ . . أُخيَّ ، قل لي ، حدِّد لي من أي ذنبٍ تُبت؟ ، من النظرِ للنساءِ ، من الكذبِ ، من السجائرِ ، أم مِنَ النَّومِ عن صلاةِ الفجرِ ، أم مِن النفاقِ . . تُبت من ماذا؟! من أكلِ الحرامِ ، أم من حلقِ اللِّحيةِ . . من أيِّ شيءٍ تُبت؟!

سأعطيكَ فرصة أخرىٰ الآن - وسمِّها اختبارًا إن شئت - : استحضرْ في ذهنِك الآن ذنبًا ، ذنبًا ثقيلًا وتُبْ منه الآن . . إذًا هيًّا نتوبُ . . الآنَ الآن . . اللَّهم تبْ علينا يا ربِّ . . اللَّهم تقبلْ توبتَنا ، واغسلْ حوبَتنا ، وأجب دعوتَنا .

نعم - أيها الإخوة - تبدأُ اليومَ فتقولُ : اليومَ سأتوبُ من النظرِ إلىٰ النساءِ . . وَعْد يارب . . وعهدٌ بيني وبينك ، اليومَ لن أنظرَ وليكنْ ما يكون ، اليومَ تحدٌّ . . اليومَ سأحفظُ رُبعًا ، اليوم سأقرأ ثلاثة أجزاءٍ ، اليومَ سأصومُ ، اليوم سأتصدقُ بخمسةِ جنيهاتٍ ، . . وهكذا كلَّ يومٍ تسألُ

نفسَك : ماذا سأعملُ اليوَم؟ ، فيكونُ لك خُطَّةُ عملٍ واضحةٌ ، فَتُنجزُ كلَّ يومٍ شيئًا جديدًا ؛ فيصبحَ لحياتِك معنًى .

يقولُ ابنُ القيِّم : «العبد من حين استقرت قدمه في هذه الدار فهو مسافر فيها إلىٰ ربه ، ومدة سفره هي عمره الذي كتب له . فالعمر هو مدة سفر الإنسان في هذه الدار إلىٰ ربه - تعالىٰ - ، ثم قد جعلت الأيام والليالي مراحل لسفره ؛ فكل يوم وليلة مرحلة من المراحل فلا يزال يطويها مرحلة بعد مرحلة حتىٰ ينتهي السفر . فالكَيِّسُ الفَطِن هو الذي يجعلُ كُلَّ مرحلةٍ نُصْبَ عينيه ؛ فيهتمُّ بقطعها سالمًا غانمًا ، فإذا قطعها جعل الأخرىٰ نصب عينيه ولا يطول عليه الأمد فيقسو قلبه ويمتد أمله ويحضره بالتسويف والوعد والتأخير والمطْل ، بل يعدّ عمره تلك المرحلة الواحدة فيجتهد في قطعها بخير ما بحضرته ، فإنه إذا تيقن قِصَرَهَا وسرعةَ انقضائها هان عليه العمل وطوّعت له نفسه الانقياد إلىٰ التزود ، فإذا استقبل المرحلة الأخرىٰ من عمره استقبلها كذلك ، فلا يزال هذا دأبه حتىٰ يطويَ مراحل عمره كلَّها فيحمِدُ سعيه ويبتهج بما أعده ليوم فاقته وحاجته ، فإذا طلع صبحُ الآخرة وانقشع ظلام الدنيا ؛ فحينئذ يحمد سراه وينجلي عنه كراه ، فما أحسن ما يستقبل يومه وقد لاح صباحه واستبان فلاحه»(١) .

إذًا نريدُ أن نجعلَ كلَّ يومٍ وَحْدةً مستقلةً نعيشُها ونخططُ لها في حينِها ، أما «غدًا» فلا علاقةَ لنا به ، فحينما يأتي سنفكِّرُ له في حينِه ، وأما «أمس» فقد انقضىٰ وانتهىٰ فلا علاقة لنا به أيضًا ، نحن الآن في «اليوم»

(١) طريق الهجرتين (١٨٩) .

ماذا سنصنع به، هل سنضيِّعه بالتفكير في «أمسِ» و«غدٍ»، أم أننا سنجعلُ حياتنا وحدةً مستقلةً نعيشُها يومًا بيوم لنُريحَ ونستريحَ؟

أخي في اللَّه، فاتتك صلاةٌ بالأمسِ، فاعزم اليوم، علىٰ ألا تضيِّعَ فرضًا في جماعةٍ.. بالأمسِ لم يكن في القراءةِ خشوعٌ ولا فَهْمٌ ولا تركيزٌ، وكانت دماغُك مشغولةً، فتوكَّل اليومَ علىٰ اللَّه، وارم حمولَك عليه لتصلَ إليه، وعِش يومَك الذي أنتَ فيه.

ابْنِ يومَك وارفعْ بناءه بأداءِ ما يُرضي اللَّه، ويقرِّب إليه، بحيث إنك لو مِتَّ في هذا اليوم دخلتَ الجنة - اللَّهم ارزقنا الجنة يا رب.

ويقولُ ابنُ القيِّم أيضًا: «السَّنةُ شجرةٌ، والشهورُ فروعُها، والأيامُ أغصانُها، والساعاتُ أوراقُها، والأنفاسُ ثمرُها، فمن كانت أنفاسُه في طاعةٍ فثمرةُ شجرتِه طيبةٌ، ومن كانت في معصيةٍ فثمرتُه حنظلٌ، وإنما يكون الجدادُ يومَ المعادِ، فعند ذلك يتبين حُلْوُ الثمارِ من مُرِّها» اهـ.

البناتُ اللَّواتي كُنَّ يتزينَّ في «الكوافير» في دمياط وانهدم عليهن البيت مُتْنَ.. أربعُ عرائسَ والبناتُ اللَّاتي معهن مُتن جميعًا.. ولو كانت تلك البنت العروسُ تظنُّ أنها ستموت لَمَا دخلتْ، ولَمَا ذهبتْ، ولعمِلتْ بطاعةِ اللَّهِ في آخرِ يوم تفارقُ فيه الحياةَ استعدادًا للقاءِ اللَّهِ.. وهكذا يومُك، لابُدَّ أن تملأه بطاعةِ اللَّهِ معتقدًا أنه اليومُ الأخيرُ لك علىٰ الدنيا؛ وإلا فسيأتيك الموتُ كما أتىٰ العرائسَ، فتموتُ ولم تصِلْ إلىٰ اللَّه.

أخي في اللَّه، حبيبي في اللَّه، أوصيكَ بوصيةِ الإمام المُوَفَّقِ ابن قدامةَ رَحِمَهُ اللَّهُ إذ يقولُ: «فاغتنِمْ - يرحمُك اللَّهُ - حياتَك النفيسة، واحتفظ بأوقاتِك العزيزةِ، واعلم أنَّ مدةَ حياتِك محدودةٌ، وأنفاسَك معدودةٌ؛

فكلُّ نَفَسٍ يَنْقُصُ به جزءٌ منك . والعمرُ كله قصيرٌ ، والباقي منه هو اليسيرُ ، وكلُّ جزء منه جوهرةٌ نفيسةٌ لا عَدْلَ لها ولا خلفَ منها ، فإن بهذه الحياةِ اليسيرةِ خلودَ الأبدِ في النعيم أو العذابِ الأليم ، وإذا عادلتَ هذه الحياةَ بخلودِ الأبدِ؛ علمتَ أنَّ كلَّ نَفَسٍ يعادلُ أكثرَ من ألفِ ألفِ عام في نعيم ، وما كان هكذا فلا قيمة له ، فلا تضيِّعْ جواهرَ عُمُرِك النفيسةَ بغيرِ طاعةٍ أو قربةٍ تتقرب بها ؛ فإنك لو كان معك جوهرةٌ من جواهرِ الدنيا لساءك ذَهابُها ، فكيف تفرِّط في ساعاتِك ، وكيف لا تحزن علىٰ عمرِك الذاهبِ بغير عِوَضٍ؟!» اهـ .

وعن عمر بن ذر أنه كان يقول : «اعْمَلوا لأنفسكم - رحمَكم اللَّه - في هذا اللَّيلِ وسوادِه ، فإنَّ المغبونَ مَن غُبِنَ خيرَ اللَّيلِ والنهارِ ، والمحرومُ من حُرمَ خيرَهما ، إنما جُعلا سبيلًا للمؤمنين إلىٰ طاعةِ ربِّهم ، ووَبَالًا للآخرين للغفلةِ عن أنفسِهم ، فأحيُوا للَّه أنفسَكم بذكره؛ فإنما تحيا القلوبُ بذكرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ . كم من قائم للَّه - جلَّ وعلا - في هذا اللَّيلِ قد اغتبطَ بقيامِه في ظلمةِ حفرتِه ، وكم من نائم في هذا الليلِ قد ندمَ علىٰ طولِ نومتِهِ عندما يرىٰ من كرامةِ اللَّهِ للعابدين غدًا؛ فاغتنموا ممرَّ الساعاتِ واللَّيالي والأيامِ - رحمكم اللَّه - ، وراقبوا اللَّه - جلَّ وعلا - في كلِّ لحظةٍ ، وداوموا شكرَه» اهـ .

فلذلك أطالبُك - أخي في اللَّه - لكي تصلَ إلىٰ رضوانِ اللَّهِ تَعَالَىٰ بأمرٍ مهم : هو أنْ تَحْصُلَ لك عُزلةٌ شعوريةٌ تمامًا عن المستقبل وما يجري فيه؛ لأنك لا تعلمُ الغيبَ ؛ قال ربنا - جل جلاله - : ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: ٣٤]، ولا تَخَفْ من المستقبلِ فاللَّهُ معك بعونِه ، وهو - سبحانه - لا يضيِّعُ عبادَه الصالحين ؛ ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَٰبَ

﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، فدعْ عنك هَمَّ غدٍ لغدٍ، فرزقُ غدٍ عند ربك، ولربما جاء «غد» فلم يجدْك .. اللَّهم ارزقنا حسنَ الخاتمة.

فالزمْ يومَك الذي أنت فيه، وابذُلْ قُصَارىٰ جُهْدِك في أن تجعلَ من هذا اليوم مَطِيةً للوصولِ إلىٰ اللَّهِ - تعالىٰ -؛ فقد يكونُ آخرَ يوم لك في هذه الحياةِ .. فيومَك يومَك يا طالبَ الوصولِ.

يقولُ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هلمَّ إلىٰ الدخولِ علىٰ اللَّه ومجاورتِه في دار السلام بلا نَصَبٍ ولا تعبٍ ولا عناءٍ، بل من أقربِ الطرقِ وأسهلِهَا؛ وذلك أنك في وقتٍ بين وقتين وهو في الحقيقة عُمُرُك، وهو وقتُك الحاضرُ بين ما مضىٰ وما يُستقبَلُ؛ فالذي مضىٰ تُصلحه بالتوبةِ والندمِ والاستغفارِ، وذلك شيءٌ لا تَعَبَ عليك فيه ولا نَصَبَ ولا معاناةَ عملٍ شاقٍّ؛ وإنما هو عملُ القلبِ، وتمتنعُ فيما يُستقبلُ من الذنوبِ، وامتناعُك تركٌ وراحةٌ؛ ليس هو عملًا بالجوارحِ يشقُّ عليك معاناتُه، وإنما هو عزمٌ ونِيَّةٌ جازمةٌ تُريحُ بدَنك وقلبَك وسِرَّك، فما مضىٰ تصلحُه بالتوبةِ، وما يُستقبلُ تصلحُه بالامتناعِ والعزمِ والنيةِ، وليس للجوارحِ في هَذَيْنِ نَصَبٌ ولا تَعَبٌ؛ ولكنَّ الشَّأنَ في عُمُرك، وهُو وَقْتُك الذي بين الوقْتَيْنِ؛ فإن أَضَعْتَهُ أضعتَ سعادتَك ونجاتَك، وإن حفظْتَه مع إصلاحِ الوقتين الذي قبلَه وبعده بما ذكرت؛ نجوتَ وفزتَ بالرَّاحةِ واللَّذةِ والنَّعيم»[1].

هذه خلاصة الكلام أيُّها السَّائر: يومَكَ يومَك.

❊ ❊ ❊

(١) الفوائد (١٥١ - ١٥٢).

الأصل السابع

وَلْيَسَعْكَ بيتُك

قال رسول الله ﷺ لمن سأل عن النجاةِ: «**أمسكْ عليك لسانَك، وليسعْك بيتُك، وابْكِ على خطيئتِك**»[١]. قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «أخسرُ الناسِ صفقةً من انشغلَ بالناسِ عن نفسِه، وأخسرُ منه صفقةً من انشغل بنفسِه عن اللّهِ».

وقالَ بعضُ السّلفِ: «علامةُ إعراضِ اللّهِ عن العبدِ انشغالُه بما لا يعنيه»، وقال بعض السلف أيضًا: «علامةُ الإفلاسِ كثرةُ الحديثِ عن الناس».

وقال ابن الجوزيّ: «إذا رأيتَ نفسَك تأنسُ بالخلقِ وتستوحشُ من الخَلْوَةِ؛ فاعلمْ أنك لا تَصْلُحُ للّه».

وقال ابن قدامة: «إذا رأيتَ الناسَ يُعْجَبون بك؛ فاعلمْ أنهم إنما يُعجبون بسترِ اللّهِ عليك؛ فلا تَذُبَّ عن الناسِ الذبابَ وحِجرُك مملوءٌ بالعقارب».

مصيبةُ عصرِنا الانشغالُ بالناسِ، ومن الانشغالِ بغير اللّه الانشغالُ

---

(١) أخرجَهُ: الترمذيُّ: ك: الزهد، ب: ما جاء في حفظ اللّسان (٢٤٠٦) وقال: حديث حسن، وصحّحَهُ الألبانيُّ -رحمه اللّه تعالى.

بوسائل الإعلام والجرائد والمجلّات والتلفاز . . وللأسفِ الشديدِ بدأ بعضُ الإخوةِ يقتني التلفاز ، وهذه نَكْسَة . . نَكْسَة ؛ قال العلماء : الفتنةُ أن تستحلَّ ما كنت تراه حرامًا . . فالذي كان اعتقادُه أن التليفزيون حرام وبدأ اليومَ يُدخلُه بيتَه فهو مفتونٌ - كما ذكرنا .

وتجدُه يقول : أنا أدخلته بيتي لمتابعةِ نشرة الأخبار لأعرفَ أحداثَ العالمِ ، وأشاهدَ بعض القنوات المفيدة ، . . اعلمْ يا أخي ، أنَّ الجلوسَ اليومَ أمامَ نشراتِ الأخبار بغيرِ ضوابطَ فتنة . . نعم : فتنة ؛ لأنك قد تنشغلُ بالعالَم عن نفسِك .

إخوتاه ، إنَّ ما تشاهدونه في نشراتِ الأخبارِ من أحداثِ فلسطينَ - اللَّهم اكشفْ عنهم الكُربة ، اللَّهم انتقم من اليهودِ وعَجِّلْ بزوالهم - وكل ما حصل ؛ لا يساوي عُشر معشارِ واحدٍ علىٰ مِئَةِ ألفٍ بالنسبة لما حدثَ في أماكن أخرى ، لكنَّ الأماكنَ الأخرىٰ أعمَوْها عنكم وعتَّموا عليها ، وهذه فتحوها لكم تشاهدونها . . لماذا؟ . . ما السر؟! . . إن النيرانَ التي يؤججونها داخلَ النفوسِ لها عِلَّةٌ ، فتيقَّظْ حتىٰ لا تقعَ في الشَرَكِ .

إننا - إخوتاه - في زمنِ تصغيرِ الكبراءِ وتصغيرِ المسائلِ الكبيرةِ؛ ولذلك فإن القضيةَ التي تقلقكم دائمًا ، قضيةُ فلسطين . . هذه قضية كبيرةٌ جدًّا صغَّروها في فلسطين ، ثم قاموا بتصغيرها أكثر في القدسِ . . والقضيةُ أكبرُ من ذلك ؛ فلو أنَّ إسرائيلَ أعطت الفلسطينيين دولةً مستقلةً ذاتَ سيادةٍ وحدودٍ وكفَّتْ عن قتلِ المسلمين . . فهل عندها تنتهي القضيةُ؟ لا . . عندهم انتهتْ ولكنها عندنا لم تنتهِ ولن تنتهيَ . . القضيةُ

قضيةُ اليهودِ وليست فلسطين - اللَّهمَّ انتَقِمْ من اليهودِ . . هذا مثالٌ للإعلام في العالمِ ؛ فما الفائدةُ من تضييع طاقاتِ الشبابِ أمامَ هذه الشاشاتِ؟!

إنَّ الذين يجلسونَ اليوم أمامَ التفاز ويَودونَ أن يُنقذوا فلسطين تراهمْ أكثرَ الناسِ رُكودًا؛ فترىٰ الواحدَ منهم ينشغلُ بسماعِ الأخبارِ أكثرَ من الإمساكِ بالمصحفِ . . يظلُّ يتكلمُ في الأخبارِ وتنقُّلِها أكثرَ من ذكرِ اللَّهِ والدعاءِ . . إذًا فالتفرُّجُ والانشغال بهذه التُّرَهاتِ لا يُنقذُ المسلمينَ . . لابد أنْ تفهمَ الوضعَ . . نريدُ أنْ نوقفَ التفرُّجَ والانشغالَ بالناسِ؛ لأنه موقفُ الضعيفِ الذليلِ المتخاذل ، ولننشغلْ بأنفسِنا أوَّلًا قبلَ كلِّ شيء ، فبصلاح النفس تنصلحُ الأمةُ ويكونُ النصر .

ولذلك يقولُ العلماءُ عن هذه القضيةِ : الفتنةُ دوَّارةٌ ، ويُسَمُّون ما يجري الآن «دوَّامات الفتنِ» . . الدوامةُ هل رأيتَها؟ . . الفتنةُ مثلها دوَّارة ، فمن الممكنِ وفي دورانِ الفتنةِ أن تَطَالَنا . . فواردٌ جدًّا أن تجدَ الأعداءَ غدًا أمامَ بيتِك ، فيا تُرىٰ - ساعتَها - هل ستثبتُ أم ستبيعُ دينَك؟! وزوجتُك ستثبتُ أم تبيعُك؟! وأولادُك هل سيُثبُتُون علىٰ الدينِ أم أنهم سيتيهون ويتعلمنون ويتشردون؟!! . . تدبرْ ما أقولُ لك وقفْ مع نفسِك وقفةَ رجلٍ يريدُ لها النجاةَ . . انشغلْ بنفسِك وأهلِ بيتِك؛ قال اللَّه - تعالى- : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦].

نعم : إن انشغالَك بنفسِك هو الأصلُ؛ قال اللَّه : ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾ [النساء: ٨٤]، وقال - تعالى - : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ [الأنعام: ١٦٤] . . فالأصلُ في الإسلامِ : انْجُ بنفسِك أوَّلًا .

أيها الأخُ الكريمُ ، سؤالٌ واضحٌ ومحدَّدٌ وصريحٌ ويحتاج إلىٰ إجابةٍ قاطعةٍ : كيف حالُك مع اللَّهِ؟ . . أسألُك في التوِّ واللَّحظةِ : الآن ، هل اللَّهُ راضٍ عنك؟ أجبْ ولا تكن مغرورًا . . لو مِتَّ اليوم في لحظتِك هذه ، هل ستكونُ مع النبيِّ محمدٍ ﷺ في الجنة؟! . . هذه هي القضيةُ التي أقصِدُها . . أنْ تجعلَ نفسَك قضيَّتَك ، ورضَا ربِّك عنك هو موضُوعُك .

نعم يا شباب : كلنا مشغولون؛ ولكن ٩٩% من الشغلِ بالآخرين ، ٩٩% من الشغلِ بأنفسِنا ليس باللَّه . . حتىٰ الجزءَ اليسير الذي ننشغلُ فيه بأنفسِنا لنصلحَها لا يكونُ للَّه - ولا حول ولا قوة إلا باللَّه - ؛ فاللَّهم ارزقْنا الإخلاصَ واجعلنا من أهلِه ؛ لذلك لا تغترَّ بعباداتٍ تؤدِّيها ، وقُرُباتٍ تقومُ بها ، وطاعاتٍ تُقدِّمها ، وعباداتٍ تغترُّ بصورِها وهي في الحقيقة من الفتنةِ .

أيها الإخوةُ في اللَّه ، أحِبتي في اللَّه ، تأملوا معي هذه القصة : خرج رجلٌ من الصوفيةِ إلىٰ الخلاء يعبدُ اللَّهَ ، فوجد في الصحراء علىٰ الأرض غرابًا أعمىٰ مكسورَ الجَنَاحِ ، فوقف يتأمل ويقول : سبحان اللَّه! غرابٌ أعمىٰ مكسورُ الجَنَاحِ وفي صحراء! من أين يأكل ويشرب وكيف يعيش؟! فبينما هو ينظر إذ جاء غرابٌ آخر فوقف ففتح الغرابُ الأعمىٰ فمَه ، فأطعمه الغرابُ الآخر في فمه وسقاه حتىٰ شَبعَ .

تَعجَّبَ الرجلُ وقال : سبحان اللَّه! . . واللَّهِ لقد أراني اللَّهُ آيةً . . أَبَعْدَ هذا أسعىٰ من أجل الرزقِ . . وأوىٰ إلىٰ كهفٍ فأقام فيه ، فسمع به عالمٌ فسأل عن مكانِه ، فقالوا : أوىٰ إلىٰ كهفٍ يتعبد ، فمضىٰ إليه وقال له : ما الذي حَمَلَكَ علىٰ ما صنعت؟ ؛ فحكىٰ له قصةَ الغرابِ ؛ فقال له : سبحان اللَّه! ولِمَ رضِيْتَ أن تكونَ الأعمى؟!!

سبحان اللّٰهِ العظيم، كم في هذه القصةِ من فوائد!.. منها: تصديقُ حديثِ رسولِ اللّٰه ﷺ: «**نَضَّرَ اللّٰه امرءًا سَمِعَ مقالتي فوعاها فأدَّاها كما سمِعها، فرُبَّ مُبَلَّغٍ أوعَىٰ من سامعٍ**»(١).. فاللّٰهُ أرىٰ الآيةَ للرجلِ الأوَّلِ، وأما الثاني فسمع بها فقط ولكنه انتفعَ بها أكثر من الأوَّلِ؛ فكانَ أفضلَ من الأوَّلِ، فلمَ لا تكونُ الأفضلَ؟!..

لماذا ترضىٰ أن تكونَ الأعمى؟!، لِمَ لا تكون أنتَ المبصرُ وتُطعِمُ العُمْيَ؟!، لِمَ ترضَ الدَّنِيَّةَ؟!، لِمَ تُؤثِرُ النومَ والكسلَ؟!.. هذا هو الواقعُ الآن في الأمةِ، فشبابُها اليومَ يفضِّلون العَمَى، يريدون أن يناموا وغيرُهم يعملُ لهم، ينتظرون مَن يحملُ عنهم همومَهم، ويَحُلُّ لهم مشاكلَهم.

نعم - إخوتاه - : كثيرٌ منا يطالبُ دائمًا بحقوقِه ولا يلتفتُ إلىٰ واجباتِه.. فقبلَ أن تطالبَ بحقك أدِّ ما عليك من واجبٍ، ولا شكَّ أنَّ أوَّلَ الواجباتِ علينا أنفسُنا.. وللأسف الشديدِ تجلس مع بعضِ الإخوةِ فتجدُ أحدَهم يقول: أنا خائفٌ علىٰ الأخِ فلانٍ؛ لأنه ظلَّ أيامًا لم يُصلِّ الفجر.. أقول له: خَفْ أنتَ علىٰ نفسِك.

نعم: لا مانعَ مِن أنْ نخافَ علىٰ إخوانِنا؛ ولكنْ لا ينبغي أن ننشغلَ بعيوبِهم؛ قال رسولُ اللّٰهِ ﷺ: «**يرىٰ أحدُكم القَذَاةَ في عَيْنِ أخيه، ولا يرىٰ الجَذْعَ في عَيْنِ نَفْسِه**»(٢). فإذا كُنْتَ يا هَذَا صادقًا في كلمتِك

---

(١) أخرجَهُ: أحمد (٣/ ٢٢٥)، وابن ماجه (٢٣٦)، وصححه الألبانيُّ - رحمه اللّٰه تعالىٰ.

(٢) أخرجَهُ: ابن حبان (١٨٤٨)، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (٢٩٥) موقوفًا علىٰ أبي هريرة رضي الله عنه، وانظر «الصحيحة» (٣٣).

«أخافُ علىٰ فلانٍ» فاذهب إليه سرًّا ، وابحثْ عنه لعلَّهُ متورِّطٌ في مشكلةٍ ، لعلَّ له عذرًا ، اذهبْ إليه وساعِدْه علىٰ القيام للصَّلاة؛ وإلا فاكْفِهِ شرَّك ، ولا تُعنِ الشيطانَ عليه ، وانشغل بنفسِك فهذا أَوْلىٰ بك .

الزمْ نفسَك وأَلْزِمها طاعةَ اللَّهِ . . احملْ همَّ نفسِك ، فهذا أصلٌ مِن الأصولِ المهمةِ . . وليَسَعْكَ بيتُك . . انشغلْ بإصلاحِ قلبِك ، وأمرِ صلاتِك ، وذكرِك للَّهِ ، وحفظِك للقرآن ، وتعلُّمِك للعلمِ ، ودعوتِك إلىٰ اللَّهِ ، وتربيةِ أولادِكَ وأهلِ بيتِك علىٰ الكتابِ والسُّنَّةِ . . وليَسَعْكَ بيتُك .

* * *

الأصل الثامن

الصادِقُ حبيبُ الله

أريدُ أن أسألَكَ سؤالًا، وأجبني بصراحةٍ: باللَّهِ عليكَ، هلْ تريدُ أنْ تدخلَ الجنَّةَ أمْ تودُّ أنْ يكونَ معكَ اليومَ مليونًا من الجنيهاتِ؟!..

لا تُجبِ الآن لأنك ستكذبُ، ربما تقولُ: الاثنين، نجمع بين الخيرين.. أعطني المليونَ وأدخلني الجنةَ أيضًا؛ أقول: لا.. لا يكونُ؛ فالقضيةُ إما دنيا وإما آخرةٌ؛ قال رسول اللَّه ﷺ: **«إن الآخرةَ قدْ تولَّتْ مُقْبِلَةً، وإنَّ الدنيا قدْ تولَّتْ مُدْبِرةً، ولكلٍّ منهما بَنُونَ؛ فكونوا أبناءَ الآخرةِ ولا تكونوا أبناءَ الدنيا»**(١).

من انشغلَ بدنياه أضرَّ بآخرتِه ومن انشغل بآخرتِه أضرَّ بدنياه ولابُدَّ.

شُعْبَةُ بنُ الحجاجِ أميرُ المؤمنينَ في الحديث قال: «لازَمْتُ الحديثَ فأفلستُ، ولَزِمَ أخي فلانٌ دُكَّانَه فأنجحَ وأفلحَ».. قال: «فلان» ظلَّ يتاجرُ حتى أصبحَ صاحبَ ملايين، أمَّا أنا فطلبتُ العلمَ وليس عندي الآن أيُّ شيء..

---

(١) أخرجَهُ: ابن عدي في «الكامل»؛ لكن بلفظ: **«أيها الناس إن الدنيا عَرَضٌ حاضر يأكُلُ منها البرُّ والفاجر، وإن الآخرة وعدٌ صادق يحكمُ فيها ملك قادرٌ، يُحِقُّ فيها الحق ويبطل فيها الباطل أيها الناس، فكونوا أبناء الآخرة ولا تكونوا أبناء دنيا، فإن كل أم يتبعها ولدها»** (٤/ ٤٠٢).

ولذلك قال الإمامُ الشافعيُّ : «لا يصْلُحُ لطلبِ هذا العلمِ إلا رجلٌ ضربَه الفقرُ . قالوا : ولا الغنيُّ المُكفَّي؟ ؛ قال : لا . . يعني : حتىٰ مَن كان عندَه مالٌ يَكفيه لا يصلحُ لطلبِ العلمِ . . ولأجل ذلك أقول بدون مبالغة : كُلُّكم غيرُ صالحين لطلب العلم ؛ لأننا - يا شباب - أصحابُ دنيا . فلنكنْ صادقينَ وواضحينَ وصرحاءَ . . فلو كنا نطلبُ اللّهَ لرضينا بالكَفَافِ .

بَقِيُّ ابنُ مَخْلَدٍ . . ذلكمُ العالمُ تلميذُ الإمامِ أحمدَ ، لما اشتكىٰ إليه الطلبةُ الفقرَ ؛ قال : واللّهِ لقدْ جاءَ عليَّ يومٌ بِعتُ فيه سراويلي لأشتريَ الكاغِدَ - الوَرَقَ - ، وقال : ولقد كانت تمضي عليَّ أيامٌ لا أذوقُ فيها طعامًا ، فأنتقل بين المَزابلِ آكلُ ورقَ الكُرُنبِ الذي يلقيه الناسُ . . نعم : هذا هو طالبُ العلمِ . . وهذه هي الآخرةُ . . وهؤلاء هم الصادقونَ .

قال رسول اللّه ﷺ : «**طوبىٰ لِمنْ هُدِيَ الإسلامَ ، ورُزِقَ كَفَافًا ، وقَنَّعَهُ اللّهُ بما آتاه**»[1] : وقال ﷺ : «**اللّهم اجعلْ طعامَ آلِ محمَّدٍ قوتًا**»[2] ، وكان ﷺ لا يَدَّخِرُ لغدٍ .

إخوتاه ، ما المقصودُ بالصدقِ؟ . . لأنَّ الناسَ اليومَ قد صغَّروا قضيةَ الصدقِ جدًّا ، فعندما يأتي أحدٌ ليتكلمَ في الصدقِ تنصرفُ الأذهانُ إلىٰ قولِ الحقِّ وصِدقِ اللسانِ فقط ، والصدقُ معنىً أكبرُ مِنْ ذلك بكثيرٍ . .

---

(١) أخرجَهُ : الترمذيُّ (٢٣٤٩) ، وصحَّحَهُ الألبانيُّ - رحمه اللّه تعالى - في «صحيح الجامع» برقْم (٣٨٢٦) .

(٢) أخرجَهُ : البخاريُّ (١٠٥٤) .

نعم: فنحن في زمن تصغيرِ الكبيرِ.. تصغيرِ الأكابرِ والقضايا الكبيرة وتكبيرِ الأصاغرِ والمسائلِ الصغيرةِ.. والصدقُ أكبرُ مما تظنُّونَ.

الصِّدْقُ – إخوتاه – هو الإسلامُ؛ قال – سبحانه وتعالى –: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣]، وقال ربُّنا: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فبعد أن ذكر اللَّه أركان الإيمان وأركان الإسلام؛ قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾.. إذًا فالصدق هو الدين كله.. والتقوىٰ أيضًا تشملُ الدينَ كلَّه، فكلُّ طاعةٍ تقوى.

لكنَّ أعزَّ أنواعِ الصدقِ: صدقُ العزمِ؛ قال – تعالى –: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١].. هذه الآيةُ مُبهرةٌ.. اقرأها ثانيةً.. هل فَهِمْتَها؟.. أسألُك: لديك رغبةٌ في دخولِ الجنةِ؟.. لديك استعدادٌ لقيامِ اللَّيلِ اللَّيلةَ مِن أوَّلِها لآخِرِها، وتصبحُ صائمًا، وتتصدَّقُ بنصفِ ما تَمْلِكُ من مالٍ؟، تقول: نعم، إن شاء اللَّه.. وهذا ما يقولُه اللَّهُ في الآية.. ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾.. فترىٰ هذا الشخصَ يَسمعُ الكلامَ فيَتكلمُ كلامًا جميلًا، فإذا عزمَ الأمرُ.... أتدري ما معنىٰ هذه النقاط؟!؛ أي إذا عزمَ الأمرُ لم تجِدْ أحدًا، ﴿فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

يقول ربُك : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ [النور: ٥٣].

عندي كراسةٌ اسمُها «آياتٌ فاضحةٌ» . . أجمعُ فيها الآيات التي تفضح البواطن وتظهر الحقائق وتجلو الخفايا السيئة والرديئة ، آياتٌ تُحِسُّ حين تقرؤها أنها تتكلمُ عنك أنتَ وتُوجِّهُ أصابعَ الاتهامِ إليك ، وهذه الآيةُ منها ، آيةٌ فاضحةٌ فعلًا ؛ فَوْقَتَ الكلامِ تجدُهم ، لكنَّ وقتَ الجِدِّ والتنفيذِ ما تجدُ أحدًا على الإطلاقِ - اللَّهمَّ استرْنا ولا تفضحْنا ، اللَّهمَّ عافِنا ولا تبتَلِنا ، اللَّهم تُبْ علينا يا ربَّ العالمينَ ، اللَّهمَّ إنا نسألُك أنْ ترزقَنا الصدقَ والإخلاصَ ، اللَّهمَّ ارزقْنا صدقَ العزمِ معك يا اللّه . . آمين .

إخوتاه ، الصادقُ في عزمِه : هو الذي تُصادِفُ عزيمتُه في الخيراتِ كلها قوةً تامةً ليس فيها مَيْلٌ ولا ضعفٌ ولا تردُّدٌ ؛ بل يستحِثُّ نفسَه أبدًا بالعزمِ المصممِ الجازمِ على الخيراتِ

إخوتاه ، اصدُقوا في عزمكمْ معَ اللّهِ ، وكونوا على استعدادٍ للوفاءِ بهذا العزمِ ؛ فإنَّ النفسَ قد تَسخو بالعزمِ في الحالِ ؛ إذ لا مشقةَ في الوعدِ والعزمِ ، فإذا حُقَّت الحقائقُ ، وهاجت الشهواتُ ؛ انحلَّت العزيمةُ ولم يتحقق الوفاءُ بالعزم . قال - سبحانه تعالى - : ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

عن أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه : «عمِّي أنسُ بنُ النضرِ - سُمِّيْتُ به - لمْ يشهدْ بدرًا مع رسولِ اللّهِ ﷺ ، فكَبُرَ عليه ، فقال : أوَّلُ مَشهَدٍ قد شَهِدَه

رسولُ اللَّهِ ﷺ غِبْتُ عنه!! ، أَمَا واللَّهِ ، لئن أراني اللَّهُ مشهدًا مع رسولِ اللَّهِ ﷺ ليريَنَّ اللَّهُ ما أصنعُ ، قال : فهابَ أن يقولَ غيرها ، فشَهِدَ مع رسولِ اللَّهِ ﷺ يومَ أُحدٍ مِن العامِ المقبلِ ، فاستقبل سَعْدَ بن مُعَاذٍ ، فقال : يا أبا عمرو ، إلىٰ أين؟ - تنبيهًا علىٰ خطئه في الانهزام والفرار - ، ثم قال أنس : واهًا لريحِ الجنةِ!! أجدُها دونَ أُحُدٍ . فقاتلَ حتىٰ قُتِلَ ، فوُجِدَ في جسدِه بضعٌ وثمانون؛ مِن بين ضربة وطعنة ورمية . قالت عمَّتي الرُّبَيِّعُ بنتُ النضرِ : فما عرفتُ أخي إلا ببَنانِه . ونزلتْ هذه الآيةُ : ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣][١] . . للَّهِ دَرُّه مِن صادقٍ ربانيٍّ!! . . يجدُ حلاوةَ العملِ قبلَ الشروعِ فيه ، يجدُ ريحَ الجنةِ قبلَ أنْ يقاتَل! . . وما ذاك إلا لصدقِه في الوفاءِ بالعزمِ .

أيُّها الإخوةُ الأحباب ، من الشواهدِ القويةِ علىٰ الصدقِ في قصة أصحابِ الأخدود[٢] : أنَّ الولدَ حينما تعلَّمَ من الراهبِ التوحيدَ وتعلَّم من الساحرِ الكفرَ ؛ كان في داخلِ قلبه إرادةٌ صادقةٌ لمعرفةِ الحقِّ . . لديهُ ميُولٌ فطريةٌ للراهبِ لكنَّه يريدُ أن يكونَ لديه يقينٌ أنَّ ما هو عليه هو الصوابُ . . قال : حين رأىٰ دابة تقطع طريق الناس اللَّهمَّ إنْ كان أمرُ الراهبِ أحبَّ إليك فاقتل الدابة ودع الناس يمشون . . فلمَّا كان صادقًا في طلبِ الحقِّ أَراهُ اللَّهُ آيةً . . وهذه نقطةٌ مهمةٌ جدًا ، أنَّه صدقَ فعرَّفه اللَّهُ الحقَّ فعَرَفَه وسارَ عليه وثبتَ ، فشُقَّ شيخُه أمامَه نصفينِ وشُقَّ صديقُه أمامَه نصفينِ ،

---

(١) **متفق عليه** : البخاريُّ (٤٠٤٨) ، ومسلم (١٩٠٣) .
(٢) أخرجَهُ : مسلم (٣٠٠٥) .

وصُعِدَ به إلىٰ الجبلِ ، وأُدخلَ إلىٰ البحرِ وهو في منتهىٰ الثباتِ . وعلامةُ الصدقِ أنه دلَّ الملكَ كيف يقتُلُه!! . . قال الغلامُ للملِك : لستَ بقاتلي حتىٰ تفعلَ ما آمرُكَ به ، خُذْ سهمًا من كِنانتي وضعْه في كبدِ قَوسِك ثم قل : باسم اللَّهِ ربِّ الغلام ؛ حينذاك تقتلني . . إذًا فالغلامُ هو الذي دلَّ الملكَ كيف يقتله . . ولِمَ ضحَّىٰ بنفسِه في سبيلِ القتلِ؟! ؛ حتىٰ يسمعَ الناسُ كلمةَ : بسمِ اللَّهِ . . حتىٰ يعرفَ الناسُ أنَّ لهم معبودًا اسمُه اللَّهُ . . هذا هو الصدقُ .

شاهدٌ ثانٍ في الصدقِ من نفسِ القصة . . الراهبُ لمَّا جاءه الغلامُ وقال له : كانت دابةٌ تعترضُ طريقَ الناس فرميتُها فقتلتُها؛ قال له الراهبُ : أيْ بنيَّ ، أنت اليومَ أفضلُ مني . . صِدْق . . فلم يُخْفِ تلك الأفضليَّةَ .

حتىٰ الساحر كان صادقًا مع نفسه . . تعلمون أن الساحرَ كذابٌ كبيرٌ ، ولكنه كان صادقًا مع نفسه؛ حيث قال للملك : إني كَبرتُ ، فأبلغني غلامًا أعلِّمه السحرَ يكن لك مِن بعدي . . الساحرُ يقول : أنا سأموت . . لم يداهنْ نفسَه - وإن كان يداهنُ الناسَ .

إذًا فالغلامُ صدقَ فعرَف ، والراهبُ صدقَ فلم يُخْفِ ، والساحرُ صَدَق فلم يداهنْ نفسه .

وإن كنتَ تعجبُ من قولنا : صدقَ الساحرُ مع نفسه ، فالعجب أكثر لمن لم يَصِلوا حتىٰ إلىٰ تلك الدرجةِ «الصدق مع النفس» . . هؤلاء الذين يداهنون حتىٰ علىٰ الواقع . . إن بعضَنا - وللأسف الشديد - يكذبُ الكَذِبةَ فتكبُرُ فيصدِّقُها . . يلتزم بالكذبِ فتكبُرُ الكذِبةُ ، وينسىٰ أنه هو

الذي كذَبَها في الأصلِ ، فيعيش كذبةَ «شيخ» أو «ملتزم» . . تمامًا كالذي في يده بَعْرَةٌ يتأففُ منها؛ ولكنَّ الناسَ ظنوها تمرةً ، فقالوا : تمرةٌ . . تمرةٌ لذيذةٌ في يده . . فأكلها !!! . . نعم : أكلها لمهانةِ نفسِه .

قال محمد بن كعبٍ : إنما يَكْذِبُ الكاذبُ من مهانة نفسه عليه .

قال بعضهم : لا يشمُّ رائحةَ الصدقِ عبدٌ داهنَ نفسَه أو غيرَه .

أيضًا من القصص الطريفةِ ، أنه كان هناك رجلٌ أميٌّ لا يعرفُ القراءةَ ولا الكتابةَ ومعه خطابٌ ، فكان يمشي في الشارعِ فأعطى الخطابَ لرجلٍ يقرؤه له؛ لكن هذا الرجل كان ضعيفَ النظرِ ، فحاول أن يقرأَ فلم يستطع ، فأخرج نظارتَه وقرأه له وقعد يُفهمُهُ الموضوعَ . . فقال الأميُّ في نفسِهِ متعجبًا : النظارةُ فَعلت كلَّ هذا! . وقال للرجل : ما هذه النظارةُ العجيبةُ؟! ، قال له : هذه نظارةُ قراءةٍ ، فذهبَ واشترى نظارةَ قراءةٍ ولَبِسَها وأخذ ينظرُ بِها ولا يستطيع القراءة!! . . ونسيَ أنَّ القضيةَ ليست في النظارةِ . . القضيةُ في الدماغِ التي وراء النظارةِ . . فهِمْتَ ما أَقْصِدُ؟!

فبعضُ الناسِ يعتقدُ أنه طالما أطالَ لحيتَه ، وقرأَ كتابين ، واستمع لبعض الشرائطِ ، وحضر بعض الدروسِ قد أصبح «الإمام» . . لا يا بنيَّ ، القضيةُ في القلبِ الذي وراءَ النظارةِ . . في القلبِ الذي وراء المظهرِ . . نعم - إخوتاه - : لابُدَّ أَنْ يوافقَ المَظْهرُ المَخْبَرَ ؛ وإلا كُنَّا كذابينَ غشاشينَ مخادعينَ لأنفسنا قبل الناس .

قال عبد الواحدِ بنُ زيدٍ :كان الحسنُ إذا أمرَ بشيءٍ كان مِن أعملِ الناسِ به ، وإذا نهى عن شيءٍ كان من أتركِ الناسِ له ، ولم أرَ أحدًا قطُّ أشبهَ سريرةً بعلانيةٍ منه .

وكان أبو عبد الرحمنِ الزاهدُ يقول : إلهي ، عاملتُ الناسَ فيما بيني وبينهم بالأمانةِ ، وعاملتُك فيما بيني وبينك بالخيانةِ ، ويبكي .

وقال أبو يعقوب النَّهْرَجُورِيُّ : الصدقُ موافقةُ الحقِّ في السرِّ والعلانيةِ .

إخوتاه ، اصدُقوا في أعمالِكم مع اللَّهِ؛ «فمخالفةُ الظاهرِ للباطنِ عن قصدِ هي الرياءُ ، وإن كانت عن غيرِ قصدِ يفوتُ بها الصدقُ؛ فقد يمشي الرجلُ علىٰ هيئة السكون والوقار وليس باطنُه موصوفًا بذلك الوقار ، فهذا غيرُ صادقٍ في عملِه ، وإن لم يكن مرائيًا» .

سؤال : هل تحب أن ينصرَ اللَّهُ الإسلامَ؟ . . أرأيت أنَّ أمةَ محمدٍ ﷺ كلَّ أمةِ محمدٍ ﷺ مثلُك . . لو أنَّ الأمةَ كلَّها الصغارَ والكبار مثلُك بالضبط . . بذنوبِك وعيوبِك وإيمانِك وأعمالِك . . تُنصر الأمَّةُ؟! . . الأمةُ تُنصرُ بالخُلَّصِ . . اللَّهم اجعلنا من المخلصين . . هل تصلح أنت للنصرِ؟! . . لا يمكن؛ وإلا فلو قلت : نعم ، فأنت مغرورٌ جدًّا . . إذًا أقول لك : إن قولَك : إنك تحب أنْ ينصرَ اللَّهُ الإسلامَ كذبٌ . . أَوَّلُ نصرِ الدينِ أنْ تُصلحَ نفسَك . . من هنا البدايةُ .

ولذا؛ فحينما أقولُ لك : هل تَصْلُحُ أن تكونَ مجدِّدًا للإسلام؟ ، فلا تقلْ : اللَّه المستعانُ وتنصرف . . لا . . فكلمة «اللَّه المستعان» هذه تحتاج إلىٰ شغلٍ ، تحتاجُ إلىٰ علم وعبادةٍ ، تحتاج إلىٰ صلةٍ باللَّهِ ، تحتاج إلىٰ جهدِ ليلَ نهارَ . . فإنْ كنت صادقًا مع اللَّهِ فتعالَ إلىٰ هنا واحْفُرْ لنفسك خندقًا . . احفرْ بنفسك . . احفرْ واتعبْ ؛ فأمرُ الدينِ يحتاجُ إلىٰ شغلٍ وسَهَر وجهادٍ؛ فاصدقْ ولا تكن كذَّابًا .

الإمام النوويُّ لما جاءه الموتُ قالوا له : لِمَ لمْ تتزوجْ؟ ، قال : لو تذكَّرتُ لفعلتُ . . نسيتُ . . والإمامُ ابنُ تيميَّةَ أيضًا ماتَ ولم يتزوجْ . . أيضًا نسي . . سبحانَ اللّٰهِ العظيمِ! نسوا الزواجَ ، تلكمُ القضيةُ التي تكادُ تطيش بعقولِ الشبابِ اليومَ . . والملتزمُ منهم علىٰ الخصوص .

نعم : فمن يوم أنْ يلتزمَ الشاب لا تجد شيئًا في رأسِه يفكرُ فيه ليلَ نهارَ إلا الزواجَ ، فصارَ الزواجُ شغلَه الشاغلَ وهمَّه الدائمَ؛ ولذلك أصبحَ الزواجُ عقبةً . . فتراه إذا رأىٰ منتقبة قال : أتزوجُ هذه . . لا لا ، بل هذه . . وهكذا . . ليس هؤلاء المؤمَّلُ لهم أن يكونوا رجالًا . .

فهل هؤلاء هم الذين سيحملون الدينَ؟! . . هل هؤلاء هم الذين سينصرُ اللّٰهُ بهم الدينَ؟!! ، أين الرجالُ؟!! ، بل أين أنصافُ الرجالِ؟! ، بل أين أين أشباهُ الرجالِ؟!! . . يا حسرةً علىٰ الرجالِ!!

إخوتاه ، إنَّ اللّٰه ينصرُ الدينَ برجالٍ قضيتُهم الدينُ . . رجالٌ صدقوا ما عاهدوا اللّٰه عليه . . رجالٌ لا يعرفون إلا اللّٰهَ . . رجالٌ يحبون اللّٰه ويحبهم . . رجالٌ صادقون فعلًا .

إخوتاه ، اصْدُقوا اللّٰهَ في استقامتِكم . . استقيموا بصدقٍ ولا تلتفتوا إلىٰ غيرِ اللّٰهِ .

قال الشاعر :

أردنَاكمُ صِرفًا فلمَّا مَزجْتمُ ... بَعدتُم بمقدارِ التفاتِكمُ عنَّا

وقُلنَا لكم لا تُسكِنوا القلبَ غيرَنا ... فأسْكَنتمُ الأغيارَ ؛ ما أنتمُ منَّا

قال جعفرُ الصادقُ : الصِّدقُ هو المجاهدةُ ، وأن لا تختارَ علىٰ اللَّهِ غيرَه ، كما لم يخترْ عليك غيرَك ؛ قال - تعالى - : ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ [الحج : ٧٨] .

والصدقُ - إخوتاه - مِفْتاحُ الصِّدِّيقيةِ ، وأعلىٰ مراتبِ الصدقِ : الصدِّيقيةُ ، وأعلىٰ مراتبِ الصديقيةِ لأبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [١] :

كما جاء في الحديثِ : « **وإن الرجلَ ليَصْدُقُ حتىٰ يُكتبَ عند اللَّهِ صِدِّيقًا** »[٢] . فالصدقُ مِفتاح الصديقيةِ ، ومبدؤها وهي غايتُه ، فلا يَنال درجتَها كاذبٌ ألبتة ، لا في قولِه ، ولا في عملِه ، ولا في حالِه . . قال اللَّه - تعالىٰ - عن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر : ٣٣] .

قال عليُّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : والذي نفسي بيدِه ، إنَّ اللَّهَ سمَّىٰ أبا بكرٍ في السماءِ صِدِّيقًا .

فالذي جاء بالصدق : من هو شأنُه الصدقُ في قولِه وعملِه وحالِه . فالصدق : في هذه الثلاثةِ . فالصدقُ في الأقوال : استواء اللِّسانِ علىٰ الأقوالِ ، كاستواء السُّنبلةِ علىٰ ساقِها . والصدقُ في الأعمال : استواء الأفعالِ علىٰ الأمرِ والمتابعةِ ، كاستواء الرأسِ علىٰ الجسدِ . والصدقُ في الأحوالِ : استواءُ أعمالِ القلبِ والجوارحِ علىٰ الإخلاص ، واستفراغُ الوُسْعِ ، وبذلُ الطاقةِ ؛ فبذلك يكون العبدُ من الذين جاءوا بالصدق .

---

(١) انظر : صلاح الأمة (٥/ ٣٣ ، ٣٥ - ٣٦) .

(٢) **متفق عليه** : البخاريُّ (٦٠٩٤) ، ومسلم (٢٦٠٧) .

وبحَسْبِ كمالِ هذه الأمورِ فيه وقيامِها به؛ تكون صديقيتُه؛ ولذلك كان لأبي بكرٍ الصديقِ ﷺ ذِروةُ سَنام الصِّدِّيقِيَّةِ، سُمِّيَ: «الصِّدِّيقَ» علىٰ الإطلاقِ، و«الصِّدِّيقُ» أبلغُ من الصدوقِ، والصدوقُ أبلغ من الصادقِ. فأعلىٰ مراتبِ الصدقِ: مرتبةُ الصديقيةِ؛ وهي كمالُ الانقيادِ للرسولِ ﷺ، مع كمالِ الإخلاصِ للمُرسِلِ.

قال ابنُ القيِّم: «قال شيخُنا: والصِّديقُ أكملُ من المحدَّثِ؛ لأنه استغنىٰ بكمالِ صديقيتِه ومتابعتِه عن التحديثِ والإلهامِ والكشفِ؛ فإنه قد سلَّم قلبَه وسرَّه وظاهرَه وباطنَه للرسولِ ﷺ، فاستغنىٰ به عما منه. قال: وكان هذا المحدَّثُ يعرضُ ما يُحدَّثُ به علىٰ ما جاء به الرسولُ ﷺ؛ فإن وافقَه قبِلَه، وإلا ردَّه، فعُلم أن مرتبةَ الصديقيةِ فوقَ مرتبةِ التحديثِ»[(١)].

والفَهْمُ عن اللَّهِ ورسولِهِ ﷺ عنوانُ الصديقيةِ، ومنشورُ الولاية النبويةِ، وفيه تفاوتُ مراتبِ العلماءِ، حتىٰ عُدَّ ألفٌ بواحد.

أخي في اللَّه، حبيبي في اللَّه، الصادقُ حبيبُ اللَّهِ، فهل تريدُ اللَّهَ أم تريدُ الدنيا؟.. هل تريدُ الجنةَ أم تريدُ شهواتِك؟.. تريدُ الرِّفعةَ في الدنيا أم تريدُ المنزلةَ العليا في الجنةِ؟.. هذه قضيةٌ تحتاج منك أنْ تكونَ صادقًا فيها.. فاصدق اللَّهَ؛ فقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**اصدق اللَّهَ يصدقْك**»[(٢)].

---

(١) مدارج السالكين (١/٣٩ - ٤٠).

(٢) أخرجَهُ: النسائيُّ، وصحَّحه الألبانيُّ - رحمَهُ اللَّه تعالىٰ - في صحيح السنن.

قال أبو سليمانَ : اجعل الصدقَ مطيتَك ، والحقَّ سيفَك ، واللّهَ - تعالىٰ - غايةَ طُلْبَتِك .

وقال ذو النونِ المِصريُّ : الصدقُ سيفُ اللّهِ في أرضِه ، ما وُضع علىٰ شيءٍ إلا قطَعه .

وقيل : من طلبَ اللّهَ بالصدقِ؛ أعطاه اللّهُ مرآةً يُبصرُ منها الحقَّ والباطلَ .

وقال محمد بن سعيد المروزيُّ : إذا طلبتَ اللّهَ بالصدقِ ؛ آتاكَ اللّهُ تعالىٰ مرآةً بيدِك ، تُبصرُ كلَّ شيءٍ من عجائبِ الدنيا والآخرةِ .

وقال أبو سليمان : «من كان الصدقُ وسيلَته؛ كان الرضا من اللّه جائزتَه» . . فاصدُق اللّهَ - أُخَيَّ - ؛ فالصادقُ حبيبُ اللّهِ .

* * *

الأصل التاسع

دومًا في المعاملة السَّحبُ من الرصيد

في المعاملةِ مع اللَّهِ - جلَّ جلاله - دائمًا السَّحْبُ من الرَّصِيدِ.

قال اللَّهُ - تعالىٰ - : ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].

وأنت سائرٌ في طريقك إلىٰ اللَّه تُفاجأ بأنَّك قد تعسَّرتْ عليك طاعة.. لستَ قادرًا علىٰ قيام اللَّيل مثلًا.. ونسأل ما السبب؟!

قال سفيان: اغتبتُ إنسانًا فحُرِمتُ قيامَ اللَّيلِ شهرًا.. وقال بعضُهم: أصبتُ ذنبًا فأنا منذُ أربع سنين إلىٰ ورا.. أربع سنين في النازل بسبب ذنب.. قال اللَّه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: ١٥٥].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**احفظ اللَّهَ يحفظْك، احفظ اللَّهَ تجدْه تجاهك**[1].. **تعرَّفْ إلىٰ اللَّهِ في الرخاءِ يعرفْك في الشدةِ**».. هذا هو معنىٰ كلمةِ «السَّحبُ من الرصيدِ».

---

(١) أخرجَهُ: أحمد (١/٢٩٣، ٣٠٧)، والترمذيُّ (٢٥١٦) وقال: حديث حسنٌ صحيح، وصحَّحَهُ الألبانيُّ - رحمه اللَّه تعالىٰ - في صحيح السنن.

فلابد أن يكون لك عند اللَّه رصيدٌ سابقٌ من الخيرات يُثمر خيراتٍ جديدة يقبلك اللَّه بكلتيهما ويكونان رصيدًا لك في المستقبل.

وهكذا.. ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]؛ فكلما ازدادوا هدًى آتاهم تقوىٰ، وكلما ازدادوا تقوىٰ زادهم هدًى.

إنَّ التعامل مع رَّبنا الكريم عظيم، وكلما كان رصيدُكَ عنده أعلىٰ كان رزقك منه في الخيرات أوفر.

انظر إلىٰ الثلاثةُ الذين نزلتْ عليهم الصخرةُ في الغارِ لمَّا كانوا في الأصلِ وأوَّلِ الأمرِ مخلِصينَ، بدليلِ أنهم توسَّلوا بأعمالٍ كانوا فيها مخلِصين؛ وفقهم اللَّهُ للتوسلِ بها.. يعني: كي يوفقَك اللَّهُ فلابد أن يكون لديك عملٌ؛ قال - سبحانه تعالىٰ -: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٧]. فالولايةُ تحتاجُ للعملِ.. إذًا فحينما تأتي لتبدأَ في التعاملِ مع اللَّهِ فأنتَ تسحبُ من رصيدِك السابق.. من أعمال عنده، فتستجلبُ بها الزيادةَ والجديدَ.

والبدايةُ - لا شكَّ - تحتاج إلىٰ معاناةٍ؛ لذا يقول العلماءُ: «مَنْ كانت له بدايةٌ مُحْرِقةٌ؛ كانت له نهايةٌ مُشرقةٌ».. أن تكونَ الانطلاقةُ الأولىٰ قويةً ومؤثرةً وصحيحةً.. قال أحد السلفِ: عالجتُ قيام اللَّيلِ عشرين سنةً ثم تمتعتُ به عشرين سنةً.. وقال آخر: حرستُ قلبي عشرينَ سنةً فحرَسني عشرين سنةً.. نعم: لابد دائمًا أن يكونُ السَّحبُ من الرصيدِ.

كنتُ مرةً في سفرٍ لبلدٍ غربيٍّ فرأيتُ في المسجدِ شابًّا قد امتلأ وجهُه بنورِ الإيمانِ، فتعجبْتُ مِن أنْ أجدَ في هذا الجوِّ وجهًا يُذكِّرُ باللَّه، فقلت

له : مَن أنتَ وما الذي جاء بك إلىٰ هنا؟ ، قال لي : منذ شهرٍ وأنا ماكثٌ في المسجدِ لا أخرجُ . . لماذا؟! . . قال : لأنني عندما سافرتُ إلىٰ هذا البلدِ انبهرتُ ، وطبعًا كنتُ أعيشُ في بلدي في الكَبْتِ ، فلما جئت إلىٰ هنا وجدتُ الانفتاحَ ، ولا أحدَ يقول لي : أين تذهبُ أو من أين أتيتَ؟ ، فالحياةُ مفتوحةٌ ، فشربٌ للخمرِ وزنًا وسرقةٌ وكلُّ شيء .

يقول : حتىٰ مَرِضتُ مرضًا شديدًا جدًّا . . كنت أظلُّ أَسْعُلُ حتىٰ أسقطَ من علىٰ السريرِ وأنا في الشقةِ وحدي . . وفي لحظةٍ سَعَلْتُ فوقعتُ فحاولت أن أقومَ فلم أستطعْ . . فقلت : يا ربِّ يا رب يا رب وبكيت . . ثم أفقتُ وقلت : يا ربِّ!! لكن : بأي وجهٍ أنادي ربي؟!! . . فأنا لا أصلي ولا أصومُ ولا أعرفُ ربَّنا . . أقول يا ربِّ بماذا؟! . . قال : وساعةَ أنْ وقعتْ في ذهني هذه الكلمةُ؛ ارتعشتُ وخرجتُ أجري بسرعةٍ أبحثُ عن مسجدٍ؛ فوجدتُ هذا المسجدَ فدخلت فيه ولم أخرج حتىٰ الآن!!

فالذي أعجبني – يا شبابُ – مِن هذا الموقفِ هو كلمةُ هذا الشابِّ : «أقولُ : يا ربِّ ؛ لكن يا ربِّ بِمَ؟!» . . ماذا لديَّ عند اللَّه كي أدعوه؟! . . وهذا هو معنى : «تعرَّف إلىٰ اللَّهِ في الرخاءِ يعرفْك في الشدةِ» . . هذا هو معنىٰ الكلمةِ التي أقولها لكم دائمًا : «إياك أن تبيعَه فيبيعَك» .

وهو أيضًا معنىٰ حديث النبيِّ ﷺ : «**وأما الثالثُ فأعرضَ؛ فأعرضَ اللَّهُ عنه**»[1] ، ومعنىٰ قولِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ : ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].

فماذا قدمتَ وما رصيدُك لكي تطلبَ؟! ، وهل تريدُ من اللَّهِ وأنت لستَ

---

(١) أخرجَهُ : مسلم (٢١٧٦) .

علىٰ ما يريد؟!! . . قال ابن القيِّم - عليه رحمة اللَّه - : «كنْ للَّه كما يريدُ؛ يكنْ لك فوقَ ما تريدُ» . . فلذلك دومًا في المعاملةِ السحبُ من الرصيد .

عن الشعبيِّ : أنَّ قومًا من المهاجرينَ خرجوا متطوعينَ في سبيلِ اللَّهِ ، فنَفَقَ حِمَارُ رجلٍ منهم ، فأرادوه علىٰ أن ينطلَقَ معهم فأبىٰ ، وانطلقَ أصحابُه مرتحلين وتركوه ، فقامَ فتوضأَ وصلَّىٰ ، ثم رفعَ يديه فقال : اللَّهم إني خرجت من الدفينةِ (مكان بين مكةَ والبصرةِ) مجاهدًا في سبيلِك وابتغاءَ مرضاتِك ، وأشهدُ أنك تُحيي الموتىٰ وتبعثُ من في القبورِ . اللَّهم فأحيِ لي حماري . ثم قام إلىٰ الحمارِ فضربه؛ فقام الحمارُ يَنفِضُ أذنيه ، فأسرَجه وألْجَمَه ثم رَكِبه ، فأجراه حتىٰ لَحِقَ بأصحابه ، فقالوا له : ما شأنُك؟ ، قال : شأني أنَّ اللَّهَ بعثَ لي حماري . .

فانظرْ - أخي في اللَّه - ماذا قال الرجلُ . . قال : خرجتُ مجاهدًا في سبيلِك وابتغاءَ مرضاتِك . . نعم : هذا هو الرصيدُ الذي سَحَب منه ، ولذلك استُجيبَ دعاؤه . وهذا معنىٰ التوسل بالعمل الصالح ؛ ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [آل عمران: ١٩٣] . . انظر إلىٰ فاء الترتيب في قوله - تعالىٰ - : ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ﴾ أي نتوسل لك بسرعة استجابتنا لمناديك أن تستجيب دعاءنا .

وانظر إلىٰ البراء بن مالك الذي لقِيَ المشركين وقد أَوجعوا في المسلمين ، فقالوا له : يا براء ، إنَّ رسولَ اللَّه قال : «إنكَ لو أقسمتَ علىٰ اللَّهِ لأَبَرَّكَ» فأقسِمْ علىٰ ربِّك؛ فقال : أُقسِمُ عليك يا رب لَمَا منحتَنَا أكتافَهم ، وألحَقْتَني بنبيِّك ؛ فمُنِحوا أكتافَهم ، وقُتل البراءُ شهيدًا . . نعم : مجابُ الدعوة . . يسأل ربَّه النصر للمسلمين ، ولنفْسِه الشَّهادة؛ فيُجاب

وينالها . . سبحان اللَّه العظيم يُقسم علىٰ اللَّه فَيُجيبُ في التَّوِّ واللَّحظَةِ . . نعم - إخوتاه - : لأنَّ له في الأصْل رصيدًا يَسحبُ منه .

والواعظ البَرُّ عمر بن ذرّ ، قال عنه كثير بن محمد : سمعت عمرَ بن ذر يقول : اللَّهم إنا أَطعْنَاك في أحبِّ الأشياء إليك أن تُطاعَ فيه : الإيمانُ بكَ والإقرارُ بك ، ولم نعصِكَ في أبغَضِ الأشياء أن تُعصىٰ فيه : الكفرُ والجَحْد بك . اللَّهم فاغفر لنا بينَهما ، وأنت قلت : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨]، ونحن نُقسِمُ باللَّه جَهْدَ أيْمانِنا لَتَبعثَنَّ من يموت ، أَفترُاك تجمعُ بين أهل القِسْمين في دارٍ واحدةٍ؟[١] . نعم : قَدَّمَ الطَّاعة والإيمَان وابْتَعَدَ عما يغضِبُ الرحمن ، فحَرِيٌّ أن يُستجابَ له .

وعامر بن عبد قَيْس الذي كان يسأل ربَّه أن ينزِعَ شهوةَ النساء مِن قَلبِهِ ؛ فكان لا يُبالي أذَكَرًا لَقِيَ أم أنثَى . . استَجاب اللَّه دعاءَه ؛ لأن له عند اللَّه رصيدًا كبيرًا من الصالحاتِ . . فما رَصيدُك أنت لكي تطلبَ ؟!

حبيبي في اللَّه ، أدلُّك علىٰ ما يَزيد في رصيدك من الحسنات ؟ . . القرآن . . القرآنُ مَعِينٌ لا يَنْضَب . . هو أفضلُ الذكر وأحسنُ الطاعات ؛ فعضَّ عليه يساعدْك في القيام بالصالحات .

أخي في اللَّه ، قَدِّمْ صَالحًا تَجِدْ صالحًا . . املأْ رصيدَك لتسحبَ منه عند الحاجَة ؛ فدومًا في المعاملة مع اللَّه السَّحبُ من الرصيد .

* * *

---

(١) سير أعلام النبلاء (٦/ ١٨٥) .

الأصل العاشر

القُرآنُ قائِدٌ وسائِقٌ وحَادٍ

قال اللَّه - عزَّ وجلَّ - : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥١-٥٢] . . وجاهِدهم بماذا؟ ، بالقرآن . . كأنّ اللَّهَ - جلَّ جلالُه - يشيرُ في هذه الآية إلىٰ أنَّ هذا القرآنَ بديلٌ من إرسالِ الرُّسلِ ؛ فقد كفلَ اللَّهُ به مهمةَ جميعِ الرسلِ ؛ بأن يصنعَ القرآنُ رجالًا كالرُّسلِ .

يقول ربي - وأحقُّ القولِ قولُ ربي - : ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [العنكبوت: ٥٠]؛ فقال اللَّه : ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١] . . فهم يطلبون آية فعرَّفهم أعظمَ آيةٍ . . هي القرآن .

وقال رسول اللَّه ﷺ : «**ما من نبي قبلي ألا وأُوتِيَ ما علىٰ مثله آمن البشر ، وكان الذي أُوتيتُه كتابًا يُتلى ، وأرجو أن أكون أكثرَهم تابِعًا يوم القيامة**»[1] .

وفي سورة البقرة يقول اللَّه - سبحانه تعالى - : ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ

(١) **متفق عليه** : البخاريُّ (٧٢٧٤) ، ومسلم (١٥٢) .

عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٥٩].. الرَّجل يقول: هل يُعْقَلُ أن يُحييَ اللَّه هذه.. كيف؟! ؛ فأراه اللَّهُ الآيةَ في نَفْسِه.. أماته اللَّه وأحياه.. قال له: أرأيت؟، قال: ما رأيت شيئًا.. قال له اللَّهُ: كم لبثت؟، قال: لبثت يومًا أو بعضَ يوم.. لا.. ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾.. أراه الآية بعينيه؛ ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ [البقرة: ٢٥٩].. الحِمار قُدَّامَه.. هَيكلٌ عظمِي على الأرض، بدأ العظم يقِف ويتركب بعضه في بعض، وبعد العظم الغَضاريف وبعدها كُسِيَ اللَّحم ثم نُفِخَ في الحِمار الروح ونَهق..نظرْتَ بأمِّ عينك؟!.. ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وبعد هذه القصة مباشرة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠].. نفس السؤال.. لكنَّ اللَّه لم يُره الآيةَ في نفْسِه؛ بل قال: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ [البقرة: ٢٦٠].. فالأوَّل أراه اللَّه الآيَةَ في نفسه، وسيدنا إبراهيم أراه اللَّه الآيَةَ في الطير.. في الكون.

ونفس السؤال وجَّهه العاصُ بنُ وائل السَّهْمي، وأُبيُّ بن خلف إلى النبيِّ محمد ﷺ؛ قال اللَّه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]؛ فأجاب اللَّه عليه بقرآن: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٧٩-٨١].

إذًا فالأوَّل أراه اللَّه الآية في نفْسه . . في حِماره وطعامه ، وسيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أراه اللَّه الآيةَ في الطير ، أما في أُمة محمدٍ ﷺ فالآيةُ في القرآن ، هذه هي القضية . . قضيةٌ كلية . . أنّ ديننا كلَّهُ مَردُّه إلىٰ القرآن والسنة . . القرآن هو الأصل والسُّنة مُتمِّمة ومكملةٌ ومُفسِّرة . . ولذلك لابد أن تتذكروا دومًا : «**كلُّ ما شَغلك عن القرآن فهو شُؤمٌ عليك**» .

بعض الناس طِيلةَ الوقت يستمع إلىٰ الشرائط ، ويحضُر للمشايخ ، ويقرأ في كتب العلم وهو هاجرٌ للقرآن . . كلُّ هذا لن ينفعَك . . القرآنُ هو الذي يصنعُك . . القرآن يُرَبِّيك . . القرآنُ ينفعُك . . فعليك بالقرآن حِفظًا وتِلاوةً وتدبُّرًا وتفسيرًا ومذاكرة . . تفهم معنىٰ كلمة مذاكرة؟!

القرآن فيه عِلمُ العقيدةِ والفقهِ والسِّيرةِ والتفسير والتاريخ واللُّغة والبَلاغة والرقائق . . كل شيء . . القرآن كلامُ اللَّه . . كتابٌ مُبارك يُرَبِّيك علىٰ العلم والعمل والدعوة . . القرآن هو طريقك لأن تكون رَجُلًا . . نعم : القرآن هو الذي يصنع الرجال ، وسيظل يصنعهُم إلىٰ أن يرثَ اللَّهُ الأرض ومن عليها .

نعم - إخوتاه - : القرآن مَصْنعُ الرجال . . القرآن يُفرِّخ الأبطال . . في حظيرةِ العبوديَّة . . وأَهْلُ القرآنِ هم أَهْلُ اللَّهِ وخاصَّتُه . . فهل أنت من أهلِ اللَّه؟ . . هل أنت من أهل القرآن؟! . . هل وَهبْتَ كلَّ حياتِك للقرآن؟ ، وهل وضَعْتَهُ علىٰ قِمَّةِ أولوياتِك ؟ . . هل فكرتَ مرةً أن تُذاكِرَهُ كما تذاكرُ الكتابَ الدِّرَاسِيّ بِجِدٍّ واجتهاد؟!

أخي في اللَّه ، إذا كنت بعيدًا عن القرآن فاعلمْ أنك مَحْرومٌ كلَّ

الحرمان، ولو ذُقْتَ لما ابتعدت.. تعالَ إلى الله واعكُفْ على القرآن لتُصْنَع، وإلا فما أبعَدَ الدواء عن تلك الأدواءِ.

قال - تعالى -: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١].

كان المشركون يطلبون من رسول الله ﷺ آياتٍ حسية: تسيير الجبال أو تقطيع الأرض أو تكليم الموتى؛ فأنزل الله هذا القرآن، وكأنَّ الآياتِ تُشير إلى أن هذا القرآن ليس من شأنه ذلك بل أعظم من ذلك وهو صياغة النفوس، وصناعة القلوب، وإيجاد الإنسان الذي يرضاه الله له عبدًا.

لقد تربَّى الصحابة - رضوان الله عليهم - أفضلُ جيلٍ عَرَفه التاريخ على يدِ أعظم مربٍّ عَرَفتْه البشرية.. ترَبَّوا بالقرآن، فكان منهم ما تسمع وتقرأ.. إيمانٌ وثَباتٌ تزول دونَه الجِبالُ.. **وهاكَ مثالًا واحدًا منهم:**

عبَّادُ بنُ بِشر.. صَدِيقُ القرآن.. يقول عنه الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا - رحمه الله تعالى -:

«إن نشَدْتَهُ بين العُبَّادِ وجدتَهُ التَّقيَّ النَّقيَّ قَوَّامَ اللَّيل بأجزاءِ القرآن. وإن طَلبتَهُ بين الأبطال ألفيتَهُ الكَمِيَّ الحَمِيَّ خوَّاضَ المعارك لإعلاءِ كلمة الله. وإن بحثتَ عنه بين الوُلاةِ رأيتَه القويَّ المؤتمنَ على أموالِ المسلمين.

وقد استمع عبَّادُ بن بِشرٍ إلى مُصعَب بن عُمَير حين أتى المدينة وهو يرتِّل القرآن بصوته الفِضِّيِّ الدافئ ونَبَرته الشَّجِيةِ الآسِرة؛ فشُغِفَ ابنُ بِشرٍ بكلام الله حبًّا، وأفسح له في سُوَيْداءِ قَلبِه مكانًا رَحْبًا، وجعله شُغْلَهُ

الشَاغِل؛ فكان يردّدُهُ في ليله ونَهارِه وحِلِّهِ وتِرْحَالِه حتىٰ عُرِفَ بين الصحابة بالإمام وصَدِيقِ القرآن»[1] .

ومن الأئمةِ الذين ربّاهم القرآنُ، الإمامُ أبو بكر محمد بن أحمد بن سهل، المعروف بابن النّابُلسي : قال عنه أبو ذَر الحافظ : سجنَه بنو عُبيد - الفاطِميون - وصلبوه علىٰ السُّنَّة، سمعتُ الدارقطنيَّ يَذكُرُه ويبكي، ويقول : كان يقول وهو يُسْلَخ : ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: ٥٨].

«قال أبو الفرج ابن الفرج : أقام جوهر - القائد - لأبي تَميم صاحب مصر أبا بكر النابُلسي، فقال له : بلغَني أنك قلت : إذا كان مع الرجل عَشْرةُ أسهُم، وجب أن يرميَ في الرُّوم سَهْمًا وفينا تِسْعة . . قال : ما قلت هذا، بل قلت : إذا كان معه عشْرةُ أسْهُم وجب أن يرميَكم بتسعة، وأن يرميَ العاشر فيكم أيضًا؛ فإنكم غَيَّرتُم المِلةَ وقتلتم الصالحين، وادَّعيتُم نُورَ الألُوهية . . فشَهَرهُ ثم ضَربَهُ، ثم أمر يهوديًا فسَلَخَهُ .

قال مَعْمَرُ بن أحمد بن زياد الصوفي : أخبرني الثقة أنَّ أبا بكر سُلِخ من مَفْرقِ رأسه، حتىٰ بلغَ الوجْهَ، وكان يذكر اللّه ويصبِرُ حتىٰ بلغ الصدرَ، فرَحِمَهُ السَّلاخُ، فوكزهُ بالسِّكين مَوْضِعَ قَلْبِهِ فقضىٰ عليه؛ وأخبرني الثقة : أنه كان إمامًا في الحديث والفقه، صائمَ الدهرِ، كبيرَ الصَّولةِ عند العامّة والخاصّة، ولمَّا سُلِخَ كان يُسمَعُ من جسده قراءةُ القرآن»[2] .

---

(١) صور من حياة الصحابة (٣٥٦ - ٣٥٩) .

(٢) سير أعلام النبلاء (١٦/١٤٨ - ١٤٩) .

نعم : لما أَطْعمَ القرآنَ لحمَهُ ، وأَسْقاهُ دمَه . . لما اختلط القرآن بلحمِهِ ودمه فجرىٰ في عُرُوقِهِ ونَبَضَ به حِسُّه؛ نطق جسدُه الطاهر بالقرآن . . اللَّهم اجعلنا من أهل القرآن ، اللَّهم لا تحرِمْنا نعيمَ القرآن وطعمَ القرآن ولذَّةَ القرآن وحلاوةَ القرآن . . يا كريمُ يا رحمٰن . . يا كريمُ يا منَّان .

اللَّهم يا ربنا اجعل القرآنَ العظيمَ ربيعَ قلوبِنا ، ونُورَ أبصارنا ، وجَلاءَ أحزانِنا وهُمومِنا وغُمومِنا ، اللَّهم اجعله حُجةً لنا لا علينا ، اللَّهم اجعله لنا في الدنيا إمامًا ، وفي القبر مُؤْنِسًا ، ويوم القيامة شفيعًا ، وعلىٰ الصراط نُورًا ، ومن النارِ سِتْرًا وحِجابًا . . اللَّهم يا ربَّنا ربِّنا بالقرآنِ وللقرآن وعلىٰ القرآن . . اللَّهم لا تَحرِمْنا نِعمةَ القرآن . . آمين .

نعم - واللَّه - : القرآنُ نِعمة . **وتأمل ماذا يقول من ذاق نِعمةَ القرآن . . إنه رجلٌ ربَّاه القرآن وسَرَىٰ بألفاظِه ومعانيه في دمِه .**

«الحياة في ظلال القرآن نِعمةٌ ، نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها ، نعمة ترفع العُمُرَ وتُباركه وتُزكّيه ، والحمد للَّه لقد مَنَّ عليَّ بالحياة في ظلال القرآن فَترة من الزمان ، ذُقْتُ فيها من نِعمتِه ما لم أذقْ قطُّ في حياتي . . عِشتُ أتملَّىٰ في ظِلال القرآن ذلك التصورَ الكاملَ الشاملَ الرفيعَ النظيفَ للوجود ، لِغاية الوجود كله وغاية الوجود الإنساني . . وعِشتُ في ظِلال القرآن أحسُّ التناسقَ الجميل بين حركةِ الإنسان كما يريدها اللَّه وحركةِ هذا الكون الذي أبدعه اللَّه . . وعشت في ظِلال القرآن أرىٰ الوجودَ أكبرَ بكثير من ظاهرِهِ المَشهُودِ ، أكبر في حقيقته وأكبر في تعدُّدِ جوانبِهِ ، إنه عَالمُ الغيبِ والشَّهادةِ لا عالمُ الشَّهادةِ وَحْده ، وإنه الدنيا والآخرة لا هذه

الدنيا وحدها . . عِشتُ في ظِلال القرآن أرىٰ الإنسان أكرمَ بكثير من كلِّ تقديرٍ عَرَفَتهُ البشرية من قبلُ للإنسان ومن بعد ، إنه إنسانٌ بنفخَةٍ من أمر اللّه . . وهو بهذه النَّفخة مُسْتَخلفٌ في الأرض . . وفي ظِلال القرآن تعلَّمتُ أنه لا مكان في هذا الوجودِ للمُصادفةِ العمياء ولا لِلْفَلْتَةِ العارضة ؛ ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

ومن ثَمَّ عِشتُ – في ظِلال القرآن – هادئ النَّفسِ ، مُطمئنَّ السَّريرة ، قَريرَ الضميرِ . . عشت أرىٰ قضاءَ اللّهِ وقدره ، أمرَه ومشيئته في كل حادثٍ ، وفي كلِّ أمر . عشت في كَنَفِ اللّه وفي رِعايته . عشت أستَشْعرُ إيجابيةَ صِفاتِه – تعالىٰ – وفاعِليتها . . ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢]. . ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨] . . ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]. . ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤]. . ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]. . ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]. . ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦]. . ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٦]. . ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]. . ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣][(١)] .

ذلك ما أحسَّه وهو يقرأ القرآنَ ويعيشُ معه ، فما النتيجةُ والحصيلةُ من هذه المعايشة الطويلة ؟ . . يقول رَحِمَهُ اللَّهُ : «وانتهيتُ من فَترةِ الحياةِ في

(١) في ظلال القرآن ، لسيد قطب – رحمه اللّه تعالىٰ – ، المقدمة (١/ ١١ – ١٣) بتصرف .

ظِلالِ القرآن إلىٰ يقينٍ جازمٍ حاسم : أنه لا صلاحَ لهذه الأرض ، ولا راحةَ لهذه البشرية ، ولا طُمأنينة لهذا الإنسان ، ولا رِفعةَ ولا بَركةَ ولا طَهارةَ ولا تناسقَ مع سُننِ الكون وفِطرةِ الحياة إلا بالرجوع إلىٰ اللَّه .
والرجوعُ إلىٰ اللَّه – كما يتجلىٰ في ظِلال القرآن – له صُورةٌ واحدةٌ وطريقٌ واحد ، واحد لا سواه . إنه العودة بالحياة كلها إلىٰ منهجِ اللَّه الذي رَسَمَه للبشرية في كتابِه الكريم ، إنه تحكيمُ هذا الكتابِ وحده في حياتها ، والتَّحاكم إليه وحده في شُئونِها ؛ وإلا فهو الفسادُ في الأرضِ ، والشَّقاوة للناس والارتِكَاس في الحَمَأةِ الجاهلية التي تعبدُ الهوىٰ من دون اللَّه ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

إنَّ الاحتكامَ إلىٰ منهجِ اللَّهِ في كتابه ليس نافلةً ولا تطوعًا ولا موضعَ اختيار ، وإنما هو الإيمان أو فلا إيمان . . والأمر إذًا جِدٌّ . . إنه أَمرُ عقيدةٍ من أساسِها ، ثم هو أمر سعادة هذه البشرية أو شَقائِها . إن هذه البشرية وهي من صُنْعِ اللَّه لا تُفتح مَغاليقُ فِطْرتها إلا بمفاتيحَ من صُنعِ اللَّه ، ولا تُعالَجُ أمراضُها وعللُها إلا بالدواءِ الذي يَخرجُ من عنده – سبحانه – ، وقد جعل في منهجه وحده مفاتيحَ كلِّ مُغلقٍ وشِفاءَ كلِّ داء ؛ ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]. . ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

لقد تَسلَّمَ الإسلامُ القيادةَ بهذا القرآن وبالتصور الجديد الذي جاء به من القرآن ، وبالشريعةِ المُستمدةِ من هذا التصورِ . . فكان ذلك مَوْلِدًا

جديدًا للإنسانِ ، أعظمَ في حقيقته من المَولدِ الذي كانت به نشأته . لقد أنشأ هذا القرآنُ للبشريةِ تَصورًا جديدًا عن الوجودِ والحياة والقِيَم والنُّظُم ، كما حقق لها واقعًا اجتماعيًا فريدًا كان يَعِزُّ على خيالها تصورُه مُجرَّد تصورٍ قبل أن يُنشئه لها القرآنُ إنشاءً . . نعم لقد كان هذا الواقع من النظافةِ والجَمالِ والعظَمة والارتفاع والبَساطة واليُسر والواقِعية والإيجابية والتوازن والتناسق . . بحيث لا يَخطُرُ للبشرية على بال ، لولا أنَّ اللَّهَ أراده لها وحققه في حياتها . . في ظِلالِ القرآن ، ومنهجِ القرآن ، وشريعةِ القرآن»[1] .

لذلك نصيحتي لكم دائمًا : ربُّوا أولادَكم على القرآن ، دَعُوهم للقرآنِ يُربِّيهم . . ربُّوهم وتَربَّوْا معهم على مائدة القرآن . . فالقرآنَ القرآن . . القرآنُ أصل . . ومن سلَك طريق القرآن فقد بلغَ مُرادَ اللَّهِ منه .

قال - تعالى - : ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. قال العلماء : حبْلُ اللَّهِ : القرآن . . فاجعل القرآنَ معك وكن مع القرآنِ . . لا تَنْسَهُ أبدًا ؛ فإنه القائدُ والحادي والسائقُ إلى اللَّه . . اللَّهم اجعلنا وأهلِينا وذرِّيَّاتِنا من أهلِ القرآنِ أهلِكَ وخاَصَّتِك[2] .

* * *

---

(١) في ظلال القرآن ، المقدمة (١/ ١٥ - ١٦) بتصرف .

(٢) لنا محاضرة في شريطين بعنوان «**القرآن يصنعك**» استمعْ إليها تُفِدْ بإذنِ اللَّه .

الأصل الحادي عشر

لا تَلْبَسْ ثِيَابَ الفراغِ أثناءَ العمل

عندنا في مصرَ تجدُ المِيكانِيكيَّ طوال الأسبُوع بملبس العمل المُزَيَّت، تراه وهو لابس «العفريتة» الزرقاء، ويداه مُزَيَّتَه ووجهه فيه الشَّحْم، ويومَ الأحد لا تَعرفه!.. فتراه قد رجَّلَ شعرَه ووضع عليه الفزلين والكِريمات، ولبس البدلة ووضع المِنديلَ الأحمرَ والأَزِرَّةَ الألماظ، وارتدى النَّظارة الشمسية، وخرج في أحسن صورة، وهو يقول: وقت الشُّغل شُغل، أما آخر الأسبوع فتنزُّهٌ وفُسَحٌ وتَرويح.. هذا الأُسْطَى لو جاء الورشة يوم الاثنين بهذا اللبس ماذا يقولُ له صاحب الورشة؟، سيقول له: ارجع، فليس هذا شكل من يريد أن يشتغل!!.. هذا ما أقصده بقول: لا تلبسْ ثِيابَ الفراغِ أثناءَ العمل.. فبَعْضُنَا يريدُ أن يعيش الجَنَّة في الدنيا مثلَ هذا الرَّجل.

إنَّ بعضنا يريد أن يلتزمَ بالدين وفي نفس الوقت يريد شقَّةً واسعة، ومحمولًا وسيارةً مكيفة، وعَرُوسًا عَينها زرقاء وشَعرُها أصفر وطويلة وعرِيضة ومُطيعة وطالبة علم، وعشرةَ أولاد صِبيان، وبنتًا تدلِّلُه، وخدَّامًا وخدَّامة.. لا.. الدنيا دارُ ابتلاء؛ ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

المؤمنُ في هذه الدنيا في الشغل . . ومتىٰ الفراغ؟ . . الفراغُ في الجنة . . فحينما تدخلُ الجنة افعل ما شئت . .

الدنيا دارُ عمل ، فلا تَلبس ثيابَ الفراغِ أثناءَ العمل ، فلستَ في فُسْحَةٍ من أمرِك؛ ولذلك قال رسول اللَّه ﷺ : «**الدنيا سِجْنُ المؤمن وجَنَّةُ الكافر**»(١) . . الدنيا سجنُ المؤمِن ، والسجن له ظُروفُه . . السجنُ له ملابِسُه وأكلُه وشربُه ، وله أحكامه ومواعيده ، وله ضوابِطه . . الدنيا سجن؛ فلا تحاولْ في السجن أن تعيشَ الجَنَّة .

السجن له مواعيده . . مواعيد الفُسَح . . هناك مواعيد للصلاة لا يصح النوم فيها ولا الشغل أثنائها . . هذا هو سجن الدنيا . . لابد أن تُقْطَعَ هكذا . . لكن الذي يريد أن يعيشها علىٰ أنها الجنة ؛ فيأكل علىٰ مِزاجِه ويشرب علىٰ مزاجه ويمشي علىٰ مزاجه وينام علىٰ مزاجِه ، ويفعلُ ما يريدُ وما يشتهي ؛ سيضلُ الطريقَ لا مَحَالة .

لابدَّ أن تعيشَ الدنيا كما يريدُ اللَّه لا كما تريدُها أنت . . فأنتَ الآن في سجن التكاليف الشرعية . . وإن كنتَ مُكَتَّفًا بهذه التكاليف النبيلة ، فهناك أناسٌ غيرُك مكتَّفون أيضًا بالعاداتِ والتقاليد ؛ لكن ليس لهم أجر ولكَ أنتَ أجر . . فلو كنتَ تَمْرَض فالكفار يمرضون ، ولو كنت تتعب فالمنافقون يتعبون . . إذا كنت تُؤْذَىٰ في سبيلِ اللَّه ؛ فهناكَ مَنْ يُؤْذَوْنَ من أجلِ مناهجَ باطلة بل وكفرية . . ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]؛ أنت ترجو بالذي

(١) أخرجَهُ : مسلمٌ (٢٩٥٦) .

تعملُه أجرًا هم لا يرجونه . . وهذا هو عزاؤك . . أنَّ اللَّه - تعالىٰ - سيعطيك . . فضعْ نفسَك في سجنِ التكاليف الشرعية ليكونَ الخروجُ علىٰ بابِ الجنَّة .

ولذلك لم يقلِ اللَّهُ للمؤمنين بعد غزوة أحد : كفاكم ما حدث واقعدوا في بيوتكم . . لا . . بل قال - سبحانه وتعالىٰ - : ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ﴾ . . خَلْفَهم وإياكم أن تتركوهم . . نعم : شُغْل مستمِرٌ ، وعملٌ متواصل ، وجُهْدٌ غيرُ مُنْقَطِع .

ومع ذلك تَجِدُ بعض الناس يريدُ أن يتناولَ كلَّ الشهواتِ ، وأن يعيشَ دَومًا في عَافية . . يا أخي ، إنَّ النبيَّ محمدًا ﷺ أُوذِي وطُرِد وشُتِمَ بل وتُفِل في وجهه الشريف . . اضطُهِد أعزُّ وأطهرُ مخلوقٍ علىٰ ظهرِ الأرض . . ﷺ . . شتَموه ووضعوا الترابَ علىٰ رأسِه . . خنقُوه بثوبِه ورموا الحجَرَ عليه . . وحُفِر له حُفرة في غزوة أُحُد ليقع فيها . . فوقع وَجُحِشَتْ ساقاه . . ودخلت حَلقات المِغْفَر في وَجْنَتيه . . شَقُّوا رأسَه وأَدْمَوْا وَجْهَه وضربوا كَتِفَه . . ورمَوْه بالسِّهام . . وفي الطَّائف رَمَوْهُ بالحِجارة حتىٰ جُرِحَ كلُّ جسدِه - فِدَاهُ أبي وأُمِّي ونفسي ﷺ . . وَقع من علىٰ الفرس فجُحِش جنبُه الشريف . . مَرِضَ بالحُمَّىٰ حتىٰ لم يُطِقْ حُمَّاه أحد . . عاش غريبًا . . مُطَاردًا من كُفارٍ يريدون قتْلَه . . فِداه أبي وأمي ونفسي رسولُ اللَّه .

من يوم أن نُودِيَ ﷺ بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ١-٢]؛ قام ولم يرقُدْ أو يركد بعدها لحظة . . ذهبَ زمانُ النومِ يا خديجة .

إخوتاه ، إنَّ المُتفقّه في سيرةِ النبيِّ محمد ﷺ لا يجدُ لحظةً استراحَ فيها ؛ فأيامُهُ كلُّها جِهادٌ وتَعبٌ ومَشقَّةٌ . . وإنَّ العينَ لتَذرِف رأفةً ورحمةً به . . مشىٰ كثيرًا وجرىٰ كثيرًا . . جاع شُهورًا . . وكان يأكل الدَّقَلَ (أردأ التمر) وربما لا يجده . . سَهِرَ السنينَ الطويلة . . ونامَ علىٰ الحَصير . . ولم يَلْبَسْ الدِّيبَاجَ أو الحَريرَ . . عاشَ هذه الدنيا في كَدٍّ ونَصَبٍ؛ ليُقيمَ الحقَّ ويُبلِّغَ دعوةَ ربِّه .

بأبي هو وأمي ونفسي رسولُ اللَّه ﷺ . . أُرسِلَ بالمدَّثِر فقام صابرًا مُحتسِبًا ؛ فلم يهدأ حتىٰ جاءه نصرُ اللَّه ، ودخل الناسُ في دينِ اللَّه أفواجًا .

هكذا عاشها رسولُ اللَّه ﷺ ، وتُريد أنتَ أن تعيشها نظيفةً حُلْوَة! . . تُريد أن تعيشها مُمتَّعًا مُعافًى! . . تريد أن تعيشها في راحةٍ وأَمان! . . لا يا أخي . . هذه دُنيا . . الأصلُ فيها المَشاكلُ والأحزانُ؛ وإلا لمَا كان هناك اشتِياقٌ للآخِرة . . الدنيا - يا أخي - لِلْعَمَلِ والتَّعَبِ والجِدِّ والاجتهادِ؛ فلا تَلبس ثِيابَ الفراغِ أثناء العملِ .

الدنيا شُغل . . شغلٌ للآخرةِ؛ فالزم الشغلَ حتىٰ تمرَّ هذه الدار بِسلامٍ . . فإذا أَردت زوجَةً فلتكُن ما تكون . . قَصيرةً أو نحيفة أَوْ . . أَوْ . . المهم أن تكون صاحبةَ دين و «بنت أصول» . . ولا تتنازل عن هذين الشَّرطَين أبدًا . . وارضَ بها مهما كانت صِفاتُها ، واتخِذْها بُلغةً إلىٰ الجنَّةِ . . وفي الجنةِ سيصنَعُها اللَّه لك من جديد ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة: ٣٥-٣٧] ؛ بل ويَزيد لك سبعين حُوريةً من الحُورِ العِينِ . . الْزمْ الشغل ولا تحزن علىٰ شيءٍ من الدنيا ولا تفكِّر

فيها ، فإن جاءتك أو لمَّحت إليك ، فسخِّرْها في خدمةِ ما أنتَ فيه من عمل الآخرة ؛ وإلا فاطرحها جانبًا وامضِ في طريقك إلىٰ اللّٰه .

إخوتاه ، إنَّ الذي يسير علىٰ هذا النهْجِ هو رَجلُ الآخرةِ الذي يريدُ الوصُولَ ؛ فلا يخْلعُ ثيابَ العملِ حتىٰ يَلقَىٰ اللّٰه ، أمَّا الذي يريد أن يلبسَ ثِيابَ الفراغِ أثناء العملِ فينشغلُ قلبُهُ بالزوجةِ والمالِ والأولاد فهو رَجلُ الدنيا يعيش لها؛ ولذا لن يَصِلَ إلىٰ اللّٰه مطلقًا حتىٰ يَخْلَعَ ثيابَ الفَراغِ ، ويَلبسَ دائمًا ثيابَ العمِل للآخرةِ .

فوظِّفْ - أخي في اللّٰه - كلَّ أركان حياتِك في العملِ للآخرة ، وواصل الشغلَ ليلَ نهار . . فأنتَ في مقام مُسْتَعْبَد ، ولا يَصِحُ للأجيرِ أن يَلْبَسَ ثِيابَ الرَّاحةِ في زمان الاستئجار ، وكُلُّ زمانِ المُتَّقِي نهارُ صوم . . فواصِلْ السَّيْرَ ولا تَنْقَطِعْ .

* * *

الأصل الثاني عشر

في الطريق مواقف للتَّمييز

السائرُ إلىٰ اللَّهِ أو عمومُ مَنْ يعيشُ في هذه الحياة لابُدَّ أن يتعرَّضَ لمواقف . . فهذه الحياة أمواجٌ تترادف يركبُ الإنسانُ فيها طبقًا عن طبق . . هذه المواقفُ للتَّمحِيص .

قال – سبحانه – : ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧-١٤٢] .

تَدُلُّكَ هذه الآياتُ علىٰ أنَّ اللَّه – سبحانه وتعالىٰ – يقلِّبُ الأيَّامَ علىٰ النَّاس ليتبيَّنَ أحوالَهم ، وليَعْلَمَ اللَّهُ عِلْمَ ظُهُورٍ وإقامةِ حُجَّةٍ علىٰ العباد مَنْ يستحِقُّ الجنَّة مِمَّن لا يستحِقُّها . . فالسَّائرون إلىٰ اللَّهِ صفوة ؛ ولكن ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩] .

أيُها الإِخْوَة، التمييزُ بين النّعمة والنّقمةِ والفِتنةِ، وبين المِنَّةِ والحُجَّةِ، وبين العَطِيَّةِ والبَلِيَّةِ، وبين المِحْنةِ والمِنْحةِ أمرٌ مهمٌّ للسائر في الطريق إلىٰ اللّٰه .

ففي طريق الوصولِ إلىٰ اللّٰه لابُدَّ أن تكونَ صاحبَ تمييزٍ بين النّعمة والفِتنة . . فقد يصيب رجلين شيءٌ واحدٌ، ويكون بالنسبة لأحدِهما نعمةً وللآخر فِتنة . . قد يكون الشيء الواحد لرجل بَلِيَّةً وللآخر عَطِيَّةً .

يقول ربُّك : ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: ١٩] . . صَيِّبٌ «ماءٌ» يُحيي اللّٰه به الأرض؛ ولكن في نفس الوقت فيه ظُلماتٌ ورَعدٌ وبَرقٌ . . ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ [البقرة: ١٩] .

يقول العلماء : هذا هو المَثلُ المائي الذي ضربه اللّٰه ﷻ للقرآن، أنه صيِّبٌ وهو للمؤمنين؛ قال - تعالىٰ - : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] .

في قصة كَعْب بن مالك لما جاءه كتابٌ من ملك غَسَّانَ يقول له : «بَلغنا أنَّ صاحِبَك قد قَلَاكَ، ولم يجعلْك اللّٰه بدارِ مَهانةٍ، فالْحَقْ بنا نُواسِك»؛ لم يقل - أي كعب - : جاء الغيث . . ولكنه التمييز . . قال : «وهذا من البَلاءِ، فتيممتُ التَّنُّورَ فسَجرْتُه» .

نعم : فقد يُرزق العبد مالًا ويظن أنه نعمة ويكون هذا المال بالنسبة له فتنة . . قد يُرزق عملًا وهذا العمل من وجهةِ نظرِ الناسِ جميعًا كرم، وهو في حقهِ بلاء . . قد يحفظ القرآن ويكون عليه حجة . . نعم : القرآن حجةٌ لك أو عليك .

قال العلماء : «إذا رأيت أنَّ اللّٰه يعطي العبدَ علىٰ معاصيه؛ فاعلمْ أنه

استدراج » . . تَعصي ويُكرمُك ، وتعصي ويَزيدُك ، وتعصي ويُباركُ لك . . إذًا سَينتقمُ منك . . لا تطمئن ؛ فهو - سبحانه - يَجرُك ليَنتقمَ منك ؛ قال - تعالى - : ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم:٤٤-٤٥] .

يقول صاحبُ الظلالِ في هاتين الآيتين : «وإنَّ شأن المُكذبين وأهلِ الأرضِ أجمعين لأهْونُ وأصغرُ من أن يُدبِّرَ اللَّه لهم هذه التدابير . . ولكنه - سبحانه - يُحذِّرهم نفسَه ليُدركوا أنفسَهم قبل فَواتِ الأوَان . وليعلموا أنَّ الأمانَ الظَّاهِرَ الذي يَدعه لهم هو الفَخُّ الذي يقعون فيه وهم مغرورون . وأنَّ إمهالهم علىٰ الظُّلم والبَغي والإعراضِ والضلالِ هو استدراجٌ لهم إلىٰ أسْوأ مَصير . وأنه تدبيرٌ من اللَّه ليحْملوا أوزارَهم كاملةً ، ويأتوا إلىٰ الموقفِ مُثقَلين بالذنوبِ ، مُستحقِّين للخزيِ والرَّهَقِ والتعذيبِ . .

وليس أكبرُ من التحذيرِ ، وَكشفِ الاستدراجِ والتدبيرِ ، عدلًا ولا رحمةً . واللَّه - سبحانه - يقدِّم لأعدائِه وأعداءِ دينِه ورسولِه عَدْلَه ورحمَتَه في هذا التحذيرِ وذلك النذيرِ . وهم بعد ذلك وما يختارون لأنفسهم ، فقد كُشِفَ القِنَاعُ ووَضَحَت الأمور!

إنه - سبحانه - يُمهِلُ ولا يُهمِلُ . و يُملِي للظالمِ حتىٰ إذا أخذه لم يُفْلِتْه . وهو هنا يَكشِفُ عن طريقتِه وعن سننِه التي قدَّرها بمشيئتِه . ويقول لرسوله ﷺ : ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ [القلم: ٤٤]، وخلِّ بيني وبين المعتزِّين بالمالِ والبنينَ والجاهِ والسلطانِ ، فسأُملِي لهم ، وأجعلُ هذه النِّعمةَ فَخَّهم! فيُطمْئِنُ رسولَه ، ويُحذِّرُ أعداءَهُ . . ثم يَدعُهم لذلك التهديد الرعِيب!»[1] .

---

(١) في ظلال القرآن (٦/٣٦٦٨ - ٣٦٦٩) .

فلا تفرح - أخي في الله - بالكَرم بعد المعصيةِ، وكن مميزًا بين العَطِيَّة والبَلِيَّة وبين النعمة والنقمة؛ ولذا قال ﷻ: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

تقول زوجة سعيد بن عامر الجُمَحي: استيقظتُ يومًا على صوتِهِ وهو يقول: أعوذُ باللَّهِ منكِ، أعوذُ باللَّه منكِ، أعوذُ باللَّه منك، فقمتُ فوجدتُ بين يديه سُرَّةَ مالٍ وهو يدفعُها بيده كأنها عَقْربٌ، قلت: ما لَكَ، قال: «دخلتْ عليَّ الدنيا لتُفسِدَ عليَّ دِيني».

نعم - إخوتاه -: لابد أن يكون لديك بَصيرةٌ وتمييزٌ بين ما ينفَعُكَ وما يَضُرُّكَ في آخرتِك. فإذا أعطاك اللَّهُ نعمة واستعملتَها في طاعته كانت نِعمة، وإذا استعملتَها في المعصيةِ كانت مِحْنةً وفتِنةً.. أعطاك اللَّه مالًا: هل هذا المال زادك قُربًا أم أبْعَدك؟!.. أعطاك زوجةً أعانتك على طاعتِه، فهذه الزوجة نِعمةٌ، ولو شغلتْك عن اللَّهِ كانت فِتنةً.

فانظر كلَّ لحظةٍ في حياتك لِتَرىٰ النعمَ التي وهبها اللَّه لك: هل تُقرِّبك منه أن تُبْعِدُكَ عنه؟.. هل هي نِعَمٌ أم نِقَم؟.. هل توقِفُك بين يدي اللَّه أم تَشغَلُك عنه؟.. تَزيدُك إيمانًا أم تُقسِّي قلبَك؟.. تَزيدُك شكرًا أم طَمَعًا؟!

قِفْ مع نِعَم اللَّه لتعلمَ أين قَدمُك.. لتعلم أين أنت.. في طريق الوُصولِ أم تائهٌ في طُرقٍ أُخرى؟.. فرِّق بين النعمةِ والنقمةِ.. وبين المِحْنةِ والمِنْحةِ.. وبين البلِيَّةِ والعطِيَّة.. وبين الحُجَّةِ والمنَّةِ.. مَيِّز لِتعرِف أين الفتنةُ لتجتنبَها فتصِلَ إلى اللَّهِ بسلام.

❋ ❋ ❋

الأصل الثالث عشر

الاعتصامُ باللهِ عقيدةٌ وعملٌ ودعاء

قال - تعالى - : ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٧]. إذًا فالإنسان يحتاج مَوْلًى ونَصيرًا، وليس لك من دون اللّه وَليٌّ ولا نَصيرٌ؛ فلذلك إذا أردت الوَليَّ والنصيرَ فاعتصِمْ باللّه؛ قال - تعالى - : ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ﴾ [آل عمران: ١٠١] . . ولكن كيف نعتصمُ باللّه؟

امرأة العزيز قالت: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]. . كيف استعصَم؟ . . أوَّلًا: عقيدة: قال: «مَعَاذَ اللّهِ» . . أعوذ باللّه، ألتجئ إلىٰ اللّه وأحتمي به وحده . . ولم يقل لها: هل أصابكِ الجُنون؟! . . ولم يقل أيضًا: ألا تَعرِفين من أنا؟!، أنا يوسف بن يعقوب ابن إسحاق ابن إبراهيم عليهم السلام . . أنا ابن هؤلاء الأنبياء . . لم يقل لها: اذهبي لحَالِك يا بُنية هَداكِ اللّه . . لم يقل ذلك؛ وإنما قال: مَعَاذَ اللّه. عقيدة أنَّ الذي يُنجِّيني هو اللّه.

وأيضًا لما فَشَلت امرأة العزيز وسَمعت النّسوةَ يتكلمن؛ قالت في نفسِها: آتِي بهنّ إليه أم آتِي به إليهنَّ؟ . . الأمران . . أتت بهنَّ وأَقْعَدَتْهُنَّ وأخرجته عليهنَّ . . خرجَ ولم يكن أمامه كيدُ امرأةٍ بل كيدُ نساء؛ فقال في التوّ: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣] . . يا رب،

السجن أحبُّ إليَّ من حَريرِ امرأةِ العزيزِ . . سبحان الله! . . تَشُمُّ رائحةَ الصدقِ من الكلام .

بالله عليكَ - أُخيَّ - هل تَجِدُ في نفسك هذه النقطة؟ . . إننا - وللأسف - نضحَكُ من أنفُسِنا . . نهرِّج ونلعبُ في دين الله . . هل فعلًا السّجنُ أحبُّ إليك من دعوة الفاتِناتِ أو الغانِياتِ الفاجِراتِ؟ . . قال يوسف : يا رب ، عذابُ السّجنِ أحسنُ عندي من قُصورِ العزيز . . العذابُ من أجلك يا رب أحبُّ إليَّ من أن أنام وأنا لك عاصٍ . . هذا هو الاعتصامُ ؛ فكن على عقيدةٍ صادقةٍ بالله لِتَعتَصمَ بها وقت الشدائد .

يقول ربي في يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢] .

«فقد أوتِي صحةَ الحكمِ على الأُمور ، وأوتي عِلمًا بمصائرِ الأحاديثِ أو بتأويل الرُّؤيا ، أو بما هو أعم ، من العلم بالحياةِ وأحوالِها ؛ فاللّفظ عامٌّ ويشمل الكثير . وكان ذلك جزاءَ إحسانِه . إحسانُه في الاعتقادِ وإحسانُه في السُّلوكِ : ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ . . وعندئذٍ تَجيئُه المِحْنةُ الثانيةُ في حياتِه ، وهي أشَدُّ وأعمقُ من المحنة الأولى . تَجيئه وقد أوتِيَ صحةَ الحكمِ وأوتي العلمَ - رحمةً من الله - ليواجِهها وينجوَ منها جَزاءَ إحسانِه الذي سجَّلَهُ اللّهُ في قرآنه .

والآن نشهَدُ ذلك المشهدَ العاصفَ الخطيرَ المُثيرَ كما يرسِمه التعبير : ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣] . .

وإذن فقد كا ت المُراودةُ في هذه المرة مكشوفةً، وكانت الدَّعوة فيها سافرةً إلىٰ الفعل الأخير . . وحركة تغليق الأبوابِ لا تكون إلا في اللَّحظةِ الأخيرةِ، وقد وصلت المرأةُ إلىٰ اللَّحظةِ الحاسمةِ التي تَهتاجُ فيها دَفعةُ الجسدِ الغليظة، ونداءُ الجسدِ الأخير: ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣].

هذه الدعوةُ السّافِرةُ الجاهِرةُ الغليظة لا تكون أوَّلَ دَعوةٍ من المرأة . إنما تكون هي الدعوة الأخيرة، وقد لا تكون أبدًا إذا لم تضطرْ إليها المرأة اضطرارًا . والفَتىٰ يعيش معها وقُوَّتُهُ وفُتوَّتُهُ تتكامل، وأُنوثتُها هي كذلك تَكمُلُ وتَنضجُ، فلابد كانت هناك إغراءاتٌ شَتىٰ خَفيفةٌ لَطيفة، قبل هذه المفاجأة الغليظة العنيفة .

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ . .

«معاذ اللَّه» . .

أُعيذُ نفسي باللَّه أن أفعل؛ ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ . .

وأكرمني بأن نجاني من الجُبّ وجعل في هذه الدار مثواي الطَّيِّب الآمن .

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ . . الذين يتجاوزون حدودَ اللَّهِ، فيرتكبون ما تَدعينني اللَّحظةُ إليه»[1] . . عقيدة . . عقيدةٌ في اللَّه اعتصم بها يوسف فنجَّاه اللَّه من الفِتنة .

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ١٩٧٩) بتصرف .

ويقول شيخُ الإسلامِ وعَلَمُ الأعلامِ ابنُ القيِّم - رحمه اللّٰهُ تعالىٰ - في المفاسدِ العاجلةِ والآجلةِ لِعِشْقِ الصُّوَرِ :

«واللّٰهُ - سبحانه وتعالىٰ - إنما حكىٰ هذا المرضَ عن طائفتين من الناس ؛ وهم قَومُ لُوطٍ والنساءُ ؛ فأخبر عن عِشقِ امرأةِ العزيزِ ليوسفَ ، وما راودَتْهُ وكادَتْهُ به ، وأخبر عن الحالِ التي صار إليها يوسفُ بصبرِهِ وعِفَّته وتقواه ، مع أن الذي ابتُلِيَ به أمرٌ لا يَصبرُ عليه إلا مَنْ صبَّره اللّٰه عليه ، فإن موافقةَ الفعلِ بحسب قوةِ الداعي وزوالِ المانع ، وكان الداعي ها هنا في غايةِ القُوة ؛ **وذلك لوجوه** :

أحدها : ما رَكَّبَ اللّٰه - سبحانه - في طَبعِ الرجلِ من مَيلهِ إلىٰ المرأةِ ، كما يَميلُ العَطشانُ إلىٰ الماء ، والجائعُ إلىٰ الطعامِ ، حتىٰ إنَّ كثيرًا من الناس يصبر علىٰ الطعام والشراب ولا يصبرُ علىٰ النساء ، وهذا لا يُذمُّ إذا صادف حَلالًا .

الثاني : أن يوسف عليه السلام كان شابًا ، وشَهوةُ الشبابِ وحِدَّتُه أقوى .

الثالث : أنه كان عَزَبًا لا زوجةَ له ولا سُرِّية تَكسِرُ حِدةَ الشهوة .

الرابع : أنه كان في بلاد غُربةٍ لا يتأتىٰ للغَريبِ فيها قضاءُ الوَطرِ ، ما يتأتىٰ لغيره في وطنهِ وأهلهِ ومعارفِه .

الخامس : أن المرأةَ كانت ذاتَ منصبٍ وجَمالٍ ؛ بحيث إنَّ كلَّ واحد من هذين الأمرين يدعو إلىٰ مُوافقَتِها .

السادس : أنها غيرُ آبيةٍ ولا مُمتنِعة ؛ فإن كثيرًا من الناس يُزيلُ رَغبتَهُ في

المرأة إباؤها وامتنَاعُها، لِما يجدُ في نفسه من ذُلِّ النفسِ والخُضوعِ والسؤال لها.

السابع: أنها طَلبت وأرادت وبَذلت الجَهدَ، فكَفتْهُ مَؤونةَ الطلبِ وذُلَّ الرَّغبةِ إليها، بل كانت هي الراغِبةُ الذَّليلةُ وهو العزيزُ المرغوبُ إليه.

الثامن: أنه في دارِها وتحت سُلطانِها وقَهرِها، بحيث يَخشىٰ إن لم يُطاوِعْها من أذاها له، فاجتمع داعِي الرغبةِ والرهبةِ.

التاسع: أنه لا يَخشىٰ أن تَنُمَّ عليه هي ولا أحد من جِهتِها؛ فها هي الطالبة والراغِبة، وقد غلَّقت الأبواب وغيَّبت الرُّقباء.

العاشر: أنه كان مَملوكًا لها في الدار؛ بحيث يَدخلُ ويَخرجُ ويَحضُرُ معها، ولا يُنْكَرُ عليه، وكان الأمن سابقًا علىٰ الطلب، وهو أقوىٰ الدواعي.

الحادي عشر: أنها استعانت عليه بأَئِمَّةِ المَكرِ والاحتيالِ، فأَرَتْهُ إياهنَّ وشَكت حالها إليهنَّ؛ لتستعينَ بهنَّ عليه، فاستعان هو باللّه عليهنَّ؛ فقال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

الثاني عشر: أنها تَوعدَتْهُ بالسِّجْنِ والصَّغَارِ، وهذا نوع إكراهٍ؛ إذ هو تهديدٌ ممن يَغْلُبُ علىٰ الظن وقوعُ ما هدَّد به، فيجتمع داعي الشهوة، وداعي حب السلامة من ضيق السجن والصَّغار.

الثالث عشر: أن الزوجَ لم يُظهر من الغَيْرةِ والنَّخوةِ ما يُفَرِّق به بينهما، ويُبْعِدُ كُلًا منهما عن صاحبه.

ومع هذه الدواعِي كلِّها فقد آثر مَرضاةَ اللَّهِ وخَوفَه، وحَمَلَهُ حُبُّه للَّه علىٰ أن يختارَ السِّجنَ علىٰ الزِّنا؛ فقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]، وعَلِمَ أنه لا يطيق صَرف ذلك عن نفسه، وأن ربَّه - تعالىٰ - إن لم يَعصمْه ويَصرف عنه كَيدهن صَبَا إليهن بطبعه، وكان من الجاهلين، وهذا من كمال معرفتِه بربه وبنفْسه»[(١)].

ثم إن الاعتصامَ لن يكونَ إلا إذا كان هناك عملٌ ودُعاء.. فمثلًا: الأخُ الذي أقول له تُبْ، فيقول: ادعُ لي يا «عم الشيخ»؛ أقول له: يا بُنيَّ، «تُبْ» هذه تحتاج إلىٰ عَملٍ وشُغل، وأن تَدعوَ أنتَ لنفْسِكَ أوَّلًا، ثم أدعو أنا لك بعد ذلك.. يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كان مُحسنًا.. مُحسنًا في الاعتقاد ومحسنًا في السلُوك؛ وفوق ذلك دَعا بالعصمة؛ فكانت النجاة.. نَجا لأنه في الأصلِ أحسنَ العمل.

نعم: كان يوسف مُحسنًا مع ربِّهِ وأيضًا مع الناس، وقد سمَّىٰ اللَّه قصته ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، ووَصفه السجناءُ بالإحسانِ فقالوا: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦].. وبالإحسان مكَّنَهُ اللَّه - تعالىٰ - في الأرض؛ ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].. وقال له إخوتُه وهم لا يَعرِفونَه: ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٧٨].. ثم أثنىٰ علىٰ ربه بإحسانه إليه: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ [يوسف: ١٠٠].

---

(١) الداء والدواء (١٨٥ - ١٨٧) باختصار.

قال - تعالىٰ - : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، وهؤلاء ليس للشيطانِ عليهم سُلطان ألبَتة . . ومع كل ذلك فَزِعَ يوسفُ إلىٰ الله وقال : ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]. ولابد أن نَعلمَ أن طَهارةَ يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كانت أساسَ الاعتصامِ . . إذًا فالاعتصامُ بالله لابد أن يكون علىٰ عَقيدةٍ راسِخةٍ بالله وعملٍ دائمٍ له ، وسُلوكٍ قَويمٍ معه - سبحانه - ومع الناس .

نعم - إخوتاه - : الاعتصامُ عملٌ . . الاعتصامُ دُعاءٌ . . الاعتصامُ عقيدةٌ .

فاربط قَلبك بالله وحده ، واصدُقْ معه ، واعمل ما في وُسْعِك ، وادعُ بإخلاصٍ ، يَعْصِمْكَ الله فتهتديَ إلىٰ طريقِ الوصول إليه .

قال ربُّك : ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١] .

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ : «أي ومع هذا فالاعتصامُ باللهِ والتوكل عليه هو العُمدة في الهِدايةِ ، والعُدَّة في مُباعدةِ الغِوايةِ ، والوسيلة إلىٰ الرشَادِ ، وطريق السَّدادِ وحُصولِ المُرادِ»[(١)] .

فاعتصمْ باللَّهِ يا طالبَ الوصول .

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (١/٣٦٦) .

الأصل الرابع عشر

من استطالَ الطريقَ ضَعُفَ مَشْيُه

الطريقُ إلىٰ اللّٰه طَويلةٌ جدًا، بعيدةٌ جدًا؛ ولذا تَحتاجُ إلىٰ هِمَّةٍ وعَملٍ دائمٍ وعدم التفات لكي تقطعَها وتَصلَ بسلام؛ وإلا فلو ظللت تقول: الطَريق طويلةٌ وبعيدةٌ وأنت مكانك؛ فلن تصِل.. فاستعن باللّٰه واترك الشَّكوىٰ.. اعْملْ واجتهد واتعب حتىٰ الموت؛ قال - تعالى -: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]؛ أي الموت.

وقال - تعالىٰ -: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ﴾ [الشرح: ٧]. قال ابن كثير: «وقال زيد بن أسْلم والضَّحاك: فإذا فَرغت أي من الجهاد، فانصَبْ أي: في العبادة: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾ [الشرح: ٨]. قال الثوريُّ: اجعل نِيَّتَك ورَغبتك إلىٰ اللّٰه - عز وجل»[1].

«فإذا فَرغْتَ من شُغْلِك مع الناس ومع الأرض، ومع شَواغلِ الحياة.. إذا فَرغت من هذا كلّه، فتَوجَّهْ بقلبك كُلّه إذن إلىٰ ما يستحق أن تَنْصبَ فيه وتَكِدَّ وتَجهَدَ.. العبادة والتجرد والتطلع والتوجه.. ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾.. إلىٰ ربك وحده خاليًا من كل شيء حتىٰ من أمرِ الناسِ الذين تَشتغِل بدعوتِهم.. إنه لابد من الزادِ للطَّريقِ. وهنا الزادُ. ولابد

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/٥٢٨).

من العُدَّةِ للجهادِ. وهنا العدَّةُ.. وهنا ستجد يُسرًا مع كلِّ عُسرٍ، وفَرَجًا مع كلِّ ضِيقٍ.. هذا هو الطريق!»[1].

هذا هو الطريق إلىٰ اللَّه، فَجِدَّ ولا تَنمْ؛ فرسول اللَّه ﷺ لمَّا قالت له خديجة: ألا تَنامُ يا رسول اللَّه؟!؛ قال: «مضىٰ عَهدُ النوم يا خديجة».. وقال ﷺ لعائشة لمَّا تعجَّبتْ من عبادتِه وقد غَفر اللَّه له ما تَقدَّم من ذَنبِه: «**أفلا أكونُ عبدًا شكورًا**»[2].

أخي في اللَّه، اثْبُتْ في الطريق علىٰ الطاعة ولا تَيأسْ من طُولِ الطريق، فما عليك إلا أن تُجِدَّ السيرَ وتُسرعَ الخُطا ولا تلتفتْ وستصلُ بإذن اللَّه.. صَبِّر نَفْسك واصْطَبِرْ، واعلمْ أن الصبر علىٰ الطاعةِ هو الصبرُ الأعلى، وأكملُ الناسِ صبرًا علىٰ الطاعة أُولو العزم من الرسل؛ ولذا أَمرَ رسولَه ﷺ أن يصبَر صبرَهم؛ فقال - تعالى -: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ومعلومٌ أن الأمر للقُدوةِ أمرٌ لأتباعِه.. ونَهاه أن يَتشبَّه بصاحبِ الحُوتِ؛ حيث لم يصبرْ صبرَ أُولي العزمِ؛ فقال - تعالىٰ -: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨].

ولقد جعل اللَّهُ الوصولَ إليه والفوزَ بالجَنةِ والنجاةَ من النارِ لا يَحظىٰ به إلا الصابرون؛ فقال - تعالىٰ -: ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١١١].

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٣).

(٢) **متفق عليه**: البخاريُّ (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠).

وفي الصحيح عن رسولنا ﷺ: «**وما أُعطيَ أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسعَ من الصبر**»(١). وأخبر ﷺ أن الصبرَ ضِياء.

وقال علي بن أبي طالب: الصبرُ مَطِيَّةٌ لا تَكبُو.

وقال سُليمان بنُ القاسِم: كل عملٍ يُعرفُ ثَوابُه إلا الصبرَ؛ قال - تعالى -: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، قال: كالماءِ المُنهَمِر.

أخي في اللّه، اصبرْ في السيْرِ إلىٰ اللّه ولا تَستطل الطريقَ؛ فلقد صبرَ نُوحٌ فأوقفَ أنفاسَه علىٰ الدعوة إلىٰ اللّه ألف سَنةٍ إلا خمسين عامًا.. لم يستطلْ الطريق، بل ظلّ مع اللّه في أطولِ صبرٍ عرَفه تاريخُ البشريةِ.. وأكرمِ صبرٍ.

قال ابنُ كَثيرٍ في قَصص الأنبياء: «وكان كلمّا انقرضَ جيلٌ وصَّوْا مَنْ بَعدهم بعدم الإيمان به - أي بنوح - ومُحاربتِه ومُخالفتِه، وكان الوالدُ إذا بَلغَ ولدُهُ وعَقَلَ عنه كلامَه؛ وصَّاه فيما بينَه وبينه ألا يؤمن بنوح.. أبدًا ما عاش ودائمًا ما بَقي» اهـ.

قال - تعالى -: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم

(١) **متفق عليه**: البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).

مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ٥-١٣] .

قال أبو القاسم الغِرناطي في التسهيل لعلومِ التنزيل : «ذَكر أوَّلًا أنه دَعاهم بالليل والنهار ، ثم ذَكر أنه دعاهم جِهارًا ، ثم ذكر أنه جَمع بين الجهر والإسرار ، وهذه غاية الجِدِّ في النصيحةِ وتبليغِ الرِّسالةِ» اهـ .

وقال القاسمي في محاسن التأويل : «بذل نوحٌ غايةَ الجُهدِ دائمًا بلا فُتورٍ ولا تَوانٍ ، وضاقت عليه الحِيَلُ في تلك المُدَدِ الطِّوَالِ» اهـ .

ويقول أخي فضيلة الشيخ سيد بن حسين العفاني - حفظه الله تعالىٰ - :

«كِفاحٌ نبيلٌ طويلٌ . . سَلك نوحٌ إلىٰ آذانِ قومِه وقلوبِهم وعُقولِهم شَتَّىٰ الأساليبِ ومُتنوعَ الوسائلِ في دَأْبٍ طويلٍ ، وفي صبرٍ جميلٍ ، وجهدٍ نبيلٍ ، ألف سَنةٍ إلا خمسين عامًا . . ثم عاد إلىٰ ربه يُقدِّم حسابَه ، ويَبُثُّ شَكواه ، في هذا البيان المُفصَّلِ وفي هذه اللَّهجة المؤثرة .

وصورة نوحٍ في دعوته ، وهو لا يَمَلُّ ولا يَفْتُرُ ، ولا ييأسُ أيام الإعراضِ والإصرار ، صورةٌ لإصرار الداعيةِ علىٰ الدعوةِ ، وتحيُّن كلِّ فرصةٍ ليبلِّغَهم إياها ، وإصرارهم هم علىٰ الضلال .

ولم يَنسَ نوحٌ - عليه الصلاة والسلام - الدعوةَ حتىٰ حين حضرَتْه الوَفاةُ ؛ فقد وصىٰ ابنَيه بـ «لا إله إلا اللَّه» ونهاهما عن الشِّرك ، وأمرهما بسبحان اللَّه وبحمده .

وإنَّ الإنسان ليأخذهُ الدَّهَشُ والعَجَبُ ، كما تَغمُره الرَّوعةُ والخُشوعُ ، وهو يستعرض هذا الجُهدَ الموصولَ من الرسلِ - عليهم صلوات اللَّه

وسلامه - لِهداية البشريةِ الضالةِ المعاندةِ ، ويتدبرُ إرادةَ اللَّهِ المُستقرةَ علىٰ إرسال هؤلاء الرسُل ، واحدًا بعد واحدٍ لهذه البشريةِ المعرِضةِ العنيدةِ .

وقد يَعِنُّ للإنسانِ أن يسأل : تُرىٰ هل تُساوي الحصيلةُ هذا الجُهد الطويلَ ، وتلك التضحياتِ النبيلةَ ، من لدن نوح عليه السلام إلىٰ محمدٍ ﷺ ، ثم ما كان بينهما وما تلاهما من جُهودِ المؤمنين بدعوةِ اللَّه وتضحياتهم الضِّخام ، تُرىٰ : هل تساوي هذا الجهدَ الذي وصفَه نوحٌ عليه السلام ، وقد استغرق عُمُرًا طويلًا بالغَ الطُّولِ ، لم يكتفِ قومُه فيه بالإعراضِ ، بل أتبعوه بالسُّخريةِ والاتهامِ ، وهو يتلقَّاها بالصبرِ والحُسنى ، والأدبِ الجميلِ والبيانِ المُنير؟!!

ثم تلك الجهودُ الموصولةُ منذ ذلك التاريخِ ، وتلك التضحياتُ النبيلة التي لم تَنقطعْ علىٰ مدارِ التاريخ من رسلٍ يُستهزَأُ بهم ، أو يُحرَّقون بالنارِ ، أو يُنشَرون بالمنشارِ ، أو يَهْجُرُونَ الأهلَ والدِّيارَ . . حتىٰ تَجيءَ الرسالةُ الأخيرةُ ، فيجْهَدُ فيها محمدٌ ﷺ ذلك الجُهدَ المشهودَ المعروفَ ، ثم تتوالىٰ الجُهودُ المُضنيةُ والتضحياتُ المُذهِلةُ من القائمين علىٰ دعوتِه في كل أرضٍ وفي كل جيلٍ؟؟ . .

تُرىٰ تساوي الحصيلةُ كلَّ هذه الجُهودِ ، وكلَّ هذا الجهادِ الشاقِّ المَريرِ؟!

ثم تُرىٰ هذه البشريةُ كلُّها تساوي تلك العِنايةَ الكريمةَ من اللَّهِ ، المُتجلِّيةَ في استقرارِ إرادتِه - سبحانه - علىٰ إرسالِ الرسلِ تَتْرَى ، بعد العنادِ والإعراضِ والإصرارِ والاستكبارِ من هذا الخَلْقِ الهزيلِ الصغيرِ المُسمَّىٰ بالإنسان؟! . **والجوابُ بعد التدبُّرِ : أن نعم . . وبلا جِدالٍ!!**

إنَّ استقرارَ حقيقةِ الإيمانِ باللَّه في الأرضِ يساوي كل هذا الجهدِ ،

وكل هذا الصبر، وكل هذه المَشقةِ، وكل هذه التضحيات النبيلةِ المطَّردةِ من الرسل وأتباعِهم الصادقين في كل جيلٍ!

فالدعوة إلىٰ اللَّه لابد أنْ تمضي في طريقِها كما أراد اللَّه؛ لأن الحصيلةَ تَستحقُّ الجهودَ المُضنيةَ والتضحياتِ النبيلةَ، ولو صَغُرتْ فانحصرت في قلبِ واحدٍ، يقرُبُ من اللَّه ويُحبُّه ويشتاقُ إليه. قال ﷺ: «**عُرضت عليَّ الأممُ، فرأيتُ النبيَّ ومعه الرَّهطُ، والنبيَّ ومعه الرجلُ والرجلان، والنبيَّ وليس معه أحدٌ**»[1] اهـ[2].

حبيبي في اللَّه، لا تَسْتَطِلِ الطريقَ إلىٰ اللَّه؛ فمن استطالَ الطريقَ ضَعُفَ مَشْيُه؛ فواصل العملَ.. واصِلْ؛ فاللَّه معك.. واعلمْ أنَّ الشرطَ في السير أن تجْهَدَ وتتعَبَ.. فواصِلِ العملَ ولا تَنقطعْ.. وتَذكرْ دائمًا نوحًا عليه السلام.. أخي في اللَّه، اعملْ بلا انقطاعٍ، وعند اللَّه المُسْتَرَاحُ.

إخوتاه، زِنوا حُلوَ المُشتَهىٰ بمُرِّ العقابِ يَبِنْ لكم التفاوت.. لمَّا عَرف القومُ قَدْرَ الحياةِ، أماتوا فيها الهوىٰ فعاشوا، جمعوا بأكفِّ الجِدِّ من الزمن ما نَثره زمنُ البطالةِ.. هان عليهم طُولُ الطريقِ لعلمِهم أين المقصدُ، وحَلَتْ له مَراراتُ البلَىٰ حُبًّا لعواقب السلامةِ، فيا بُشراهم يومَ يقال: ﴿هَذَا يَوْمُكُمُ﴾.

* * *

(١) **متفق عليه**: البخاريُّ (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٦).

(٢) صلاح الأمة في علو الهمة (٢/١٨ - ٢٢) باختصار.

الأصل الخامس عشر

السرُّ الدفين لعدم القَبول وجودُ حظٍّ للنَّفسِ في العمل

هل تُصلي للّه أم لتستجم؟ ! . . تَصومُ من أجل أن تُريحَ بطنك ، أم من أجل أن يَرضىٰ اللّه عنك؟ ! . . تُكْرِمُ الناسَ ليعامِلوك معاملةً حسنةً أم تُكرِمهم للّه لأنك تُحبه؟ ! . . أعْفيتَ لِحيتكَ توقيرًا أم لأنها سُنَّةُ النبي ﷺ؟ ! . . تَدفعُ ما عليك ليقولَ عنك الناس : محترمٌ أم لتُرضِيَ ربك؟ ! . . تَحُج وتَعتمِر رياءً وفُسحة وتغيير جَوٍّ أم لتستغفرَ ربك هناك؟ ! . .

قال الحسن رحمه الله : رحِمَ اللّهُ عبدًا وقف عند هَمِّه ، فإن كان للّه : مضىٰ ، وإن كان لغيره : تأخر . . اغتربتَ عن بلدِك ، وهاجرت إلىٰ اللّه لماذا؟ . . لتتعلمَ العلمَ وتعبدَ اللّه وتدعوَ إليه لماذا؟ . . لماذا تتعلمُ العلمَ؟ ! . . لماذا تدعو إلىٰ اللّه؟ ! . . لماذا تقومُ اللَّيلَ وتصومُ النهارَ؟ ! . . لماذا تتصدقُ؟ ! . . لو كان في هذه الأعمال شيءٌ ولو بسيطٌ من حَظِّ النفسِ؛ لا يقبلُها اللّه أبدًا .

قال اللّه - تعالىٰ - في الحديث القدسيِّ : «**من عَمِلَ عملًا وأشرك فيه غيري تركتُه وشِركَه**»[١] . . فاللّه عز وجل غَنيٌّ . . عزيزٌ . . يَغَارُ . . لا يقبلُ من العملِ إلا ما كان خالصًا وابتُغِيَ به وجهُه . . اللّهم ارزقْنا الإخلاصَ واجعلنا من أهلِه .

---

(١) أخرجَهُ : أحمد (٢/٣٠١) ، ومسلم (٢٩٨٥) واللفظ له .

لذلك فإن الذين يأتون يومَ القيامةِ وأعمالُهم لم تُقبلْ سيفاجَئون بأن أعمالَهم كانت للَّه، ولكنها لم تكنْ خالصةً.. كان فيها شيءٌ من حظِّ النفسِ.. يااللّه!!.. فصحح نيتَك؛ فالطريقُ إلىٰ اللّه لا يصلحُ فيها إلا حَسَنُ النيةِ.. أخلِصْ قبل أن يأتيَك يومُ القيامةِ.

وآهٍ من يومِ القيامة!.. اللّهم ارحمْ يومَ القيامةِ ضَعْفَنا، اللّهم ارحم ذُلَّ وقوفِنا بين يديك يا أرحمَ الراحمين.. يومُ القيامةِ وما أدراك ما يومُ القيامةِ!.. إياك أن تَنسىٰ ذلك اليوم.. قال ربُّنا: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمٰن: ٤٦].. تَذكَّرْ هذا المَقامَ يوم وقوفِك بين يديه وأعمالُك كلُّها معروضةٌ عليه.. يومَ يقولُ لك: عبدي، عِشتَ سبعين سنةً ولم تُصَلِّ إلا سنتين لماذا؟، فتُقْسِمُ: وعزَّتِك وجلالِك يا رب صَلَّيتُ من يوم أن ذهبتُ إلىٰ المدرسة وأنا في أولىٰ ابتدائي، ماذا حصل؟!!!.. تجدُ خَمسين سنةً من عُمُرِك لم تُقبلْ وعَشْرَ سنين فقط قُبلت!!.. ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧].. السببُ: وجود حظِّ النفسِ.. صُمْتَ كثيرًا، ولم يُقْبَلْ إلا النَّزْرُ القليلُ.. نعم: لوجودِ حظِّ النفسِ في العملِ.

أقولُ لكم كثيرًا: لو كان لها «دور ثان»، لو كان فيها «ملحق»، أو لو كان لها «إعادة»؛ لقلنا: يا رب، أخطأنا فارجعْنا نُصلحْ ما كان منا.. لكن هي مرةٌ واحدة إذا ذهبتَ فيها إلىٰ جهنمَ كانت المصيبةُ.. قال الحسن: «ابن آدمَ، عَنْ نَفسِكَ فَكايسْ، فإنك إن دخلتَ النارَ لم تنجبرْ بعدها أبدًا».. اللّهم ارزقنا حسنَ الخاتمةِ، اللّهم قنا عذابَك يوم تبعثُ عبادَك.

نعم - إخوتاه - : السرُّ الدَّفينُ لعدمِ القبولِ هو وجودُ حظُ النَّفسِ في العملِ . . أن تتزوجَ بالبنتِ الفلانيةِ لأنها تعجبُك وتحبُها ولا تتزوجُ ليعفَّك اللّه ويسترَك . . تُكرمُ الناسَ ليكرِموك ليس لأجل أن يكرمَك اللّه . . تُصلي لتستريحَ ليس لأنه أمرك بالصلاة . . تُؤدي الحقوقَ كما ينبغي ليقولوا عنك : أمين ، ليس لأن اللّه ألزمَك بذلك . .

فوجودُ حظٌ للنفسِ في العملِ معناه : أن تَشتغلَ لحسابِك . . تَعملُ لنفسك وليس للّه . . وجود حظٌ للنفسِ . . إياك أن تنسىٰ هذه الكلمةَ . . أن تصيرَ «شغَّالًا» لحسابك . . لِمزاجِك . . لهواك . . لنفسِك . . لا للّه . . اللّهم استرنا ولا تفضحْنا .

هذه هي المشكلةُ الكبيرةُ . . أنَّ مُعظَمَنا أكثرُ عملِه لنفسِه لا للّه . . هذه هي الحقيقةُ ولا تَغضبْ؛ لذلك قِفْ وَقفةً جَادةً وحقِّقَ الإخلاصَ . . جرِّد النيةَ للّه ، فلا تدري متىٰ تموتُ . . أخلِصْ يُقبلْ عملُك ، وإلا فسيُطرحُ في وجهِك ، وتَخسرُ الوصولَ إلىٰ اللّه .

قال أبو أيوبَ مولىٰ ضَيْغَمِ بنِ مالكٍ : قال لي أبو مالكٍ يومًا : يا أبا أيوبَ ، احذرْ نفسَك علىٰ نفسِك؛ فإني رأيتُ هُمومَ المؤمنينَ في الدنيا لا تَنقضِي ، وايمُ اللّه ، لئن لم تأتِ الدارُ الآخرةُ المؤمنَ بالسرورِ؛ لقد اجتمع عليه الأمران : همُّ الدنيا ، وشقاءُ الآخرة . قال : قلت : بأبي أنت وأمي ، وكيف لا تأتيه الآخرةُ بالسُّرور ، وهو يَنْصَبُ للّه في دارِ الدنيا وَيدأَبُ؟! ، قال : يا أبا أيوبَ ، فكيف بالقَبولِ؟! وكيف بالسلامة؟! ، ثم قال : كم من رجلٍ يرىٰ أنه قد أصلحَ نفسَه ، وقد أصلحَ قُرباتِه ، قد أصلحَ

هِمتَه ، قد أصلحَ عملَه؛ يُجمَعُ ذلك يومَ القيامةِ ثم يُضرَبُ به وجهُه»[1] .

إخوتاه ، حاسبوا أنفسكم وانظروا فيها . . عامرُ بن قيسٍ كان يقول لنفسِه : قُومِي يا مأوىٰ كلِّ سَوْءٍ ، فوعزَّةِ ربي لأزحفنَّ بِكِ زَحْفَ البعِيرِ ، وإن استطعتُ أن لا يَمَسَّ الأرضَ زَهَمُك (شحم الجسم) لأفعلن . ثم يَتَلَوَّىٰ كما يَتلوَّىٰ الحَبُّ علىٰ المِقْلَى ، ثم يَقومُ فينادِي : اللَّهم إنَّ النارَ قد منعتني من النوم؛ فاغفر لي .

وتَعبَّدَ رجلٌ ببَيتِ شِعْرٍ سَمِعَهُ :

لِنفسيَ أَبكي لستُ أبكي لغيرِها ... لنفسِيَ في نفسي عنِ الناسِ شَاغلُ

إخوتاه ، إن فِتنةَ النفسِ والشهوةِ ، وجاذبيةِ الأرضِ والدَّعةِ والاطمئنانِ ، وصعوبةِ الاستقامةِ علىٰ صِراطِ الإيمانِ ، والاستواءِ علىٰ مُرْتضاهُ ، مع المُعوِّقاتِ والمُثبِّطاتِ في أعماقِ النفْسِ - هي الفِتنةُ الكُبرى .

لكن ما الحلُّ - إخوتاه - لننفيَ عن أعمالنا حظَّ النفسِ ليقبَلنا اللَّه؟

النفسُ تَصْهَرُها المُجاهدةُ فتنفيَ عنها الخَبَثَ ، وتَستجيشُ كامِنَ قُواها المَذخورةِ فتَستيقظ . ويكفي قول اللَّه عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

قال أبو يزيد البسطامي : عَالجتُ كلَّ شيءٍ ، فما عالجتُ أصعبَ من مُعالجة نفسِي ، ما شيءٌ أهونُ عليَّ منها .

---

(١) صفوة الصفوة ، لابن الجوزي (٣/ ٣٦٠) .

وقال : دَعوتُ نفسي إلىٰ الله ، فأَبَتْ عليَّ واستَصعَبتْ ، فتركتُها ومَضيتُ إلىٰ الله .

وقيل لبعض أهل الرِّياضة : كيف غَلبتَ نفْسَك؟ ؛ فقال : قمتُ صفَّ حربِها بسلاحِ الجِدِّ ، فخرجَ مرحَّبُ الهوىٰ يُدافع ، فعلاهُ العزمُ بصارمِ الحزم ، فلم تمضِ ساعة حتىٰ هلكتْ خيبر .

وقيل لآخرَ : كيف قَدرتَ علىٰ هَواك؟ ؛ فقال : خَدعتُه حتىٰ أَسَرْتُه ، واستَلبتُ عُودَهُ فكَسرتُه ، وقيدتُه بقَيد العُزلةِ ، وحَفرتُ له مَطْمُورَ الخُمولِ في بيت التواضُع ، وضربتُه بسِياطِ الجُوعِ فَلَانَ . . يا فُلانُ : ألك في مجاهدةِ النفس نِيَّةٌ ، أم النِيَّةُ نيّة ؟ . . أتعبْتَني وأنتَ أنت . . إلىٰ متىٰ تجولُ في طلَب هُجُول؟ ! [(1)] ، ما عَزَّ يوسفُ إلا بتركِ ما ذَلَّ به ماعزٍ .

إخوتاه ، لا يقبل الله عملًا فيه حظٌّ للنَّفسِ ، فخَلُوا أنفسكم وتَعالَوْا إلىٰ الله . . واستعينوا بالله عَليها بالمجاهدةِ والإحسان في المعاملة ؛ قال ربي - وأحقُّ القولِ قولُ ربي - : ﴿وَالَّذِينَ جَٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت : ٦] .

* * *

(١) جمع هَجْل : وهي المفازة الواسعة ، وتُجمع علىٰ أهجال وهِجَال أيضًا . انظر : المعجم الوسيط .

الأصل السادس عشر

الأمرُ كُلُّهُ بِيَدِ اللَّه ؛ فَسَلِّمْ تَسْلَمْ

قال - تعالىٰ - عن إبراهيم : ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ﴾ [البقرة : ١٣١-١٣٢] .

قال ابنُ كثير رَحِمَهُ اللَّهُ : «وقوله - تعالىٰ - : ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي : أمَرَه اللَّه - تعالىٰ - بالإخلاصِ له والاستسلامِ والانقياد ؛ فأجاب إلىٰ ذلك شَرعًا وقَدَرًا . وقوله : ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ أي : وَصَّىٰ بهذه المِلَّة وهي الإسلامُ للَّه ، أو يعودُ الضميرُ علىٰ الكلمة ، وهي قوله : ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ؛ لحرصِهم عليها ومَحبتهم لها حَافَظوا عليها إلىٰ حِينِ الوَفاةِ ، ووَصَّوْا أبناءَهم بها من بعدهم» اهـ .

فسَلِّمْ لربك يا طالبَ الوصولِ ، فالأمرُ كُلُّهُ له . قال الملك : ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران : ١٥٣-١٥٤] .

﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ . . نعم : فكم من ناسٍ في هذه الدنيا لا هَمَّ لهم إلا أنفُسُهم . . سَلَّموا أمرَهم لأنفسِهم لا للَّه . . وقديمًا قالوا : من عاشَ لنفسِه عاشَ صغيرًا ومات حقيرًا . . فسلِّمْ نفسَك للَّه وحده يأمرُها وينهاها بما هو أنفعُ وأصلح لها ، فهو سبحانه عليمٌ حكيم . . ضعْ يديْكَ ورِجْليكَ في قُيودِ الشريعةِ الفِضيَّة لتتحررَ من ذُلِّ العُبوديةِ لغير اللَّه . . سلِّمْ تسْلَمْ فالأمرُ كلُّه للَّه .

كم رأينا رجلًا أهَمُّ شيءٍ لديه أن يأكلَ ويشربَ ويلبَسَ وينام . . أهمُّ شيءٍ مِزاجُه ، أمَّا العِيالُ فمالي وللعِيال ! ؛ فأنا الذي آتي بالعِيال . . والزوجةِ ؟ ! . . ومالي بالزوجة ، فلتذهبْ لأهلها يُطعِموها . . وعن الآخرة يقول : حينما يأتي الحساب ستُفرَج ! !

طبعًا أنت ستتعجبُ لهذا الرجل ، فكلامُه لا يقولُه إلا جاهلٌ أو عاصٍ ، ولكن لا تَعجبْ ، فهذا الكلام موجودٌ بِداخلِ الكثير منا – مَعاشِرَ المُلتزمين – وإن كان لا يقولُه بلسانِه . . نعم : كثيرٌ منا يودُّ أن يعيش لنفسِه – ونَفْسِه فقط – . . ودَعونا نتصارحُ حتىٰ نُعالجَ تلك المشاكل ؛ وإلا فسيظلُّ السُّوسُ ينخُرُ في العَظْمِ . . عظم الأمة .

إنَّ سَبَبَ مصائِبِنا اليومَ أَنْفُسُنا . . تَرانا «منكوسين موكوسين» لماذا؟ . . من أنفسِنا . . شلة يهود . . شِرْذِمةُ يهود يَضربوننا علىٰ أمِّ رُؤوسِنا لماذا؟ . . لماذا استضعفونا واستهانوا بنا؟ . . لِهَوانِنا علىٰ أنفسنا . . مع أننا أكثرُ من هؤلاء الناس جميعًا ، وعندنا كلُّ الإمكانيات التي تُؤَهِّلُنا لسِيادةِ العالم ولكن لا نَسُودُ . . لأنَّ «السُّوس» في قلوبنا .

إنَ أول نصرِ الدين أن تُصلِحَ نفسَك . . فمن هنا المنطلق ، ومن هنا البداية . . وإصلاحُ النفسِ يكون بتسليمها للَّه بكلِّ حُبّ ورضًا بأمرها وينهاها كيف شاء .

البداية من نفسِك . . وهذا الكلام قُلتُه من عِشرين سنةً . . وعشر . . وخمس . . والأمس . . واليوم . . وسأظل أقوله حتىٰ أموت؛ لأنه قَانونٌ إلهي؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] . . قانونٌ إلَهِي . . ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣] .

وإنَّ الذي يتحدثُ عن التغيير في كلِّ شيءٍ إلا من عند نَفْسِه لن يغيرَ شيئًا علىٰ الإطلاقِ . . فالبدايةُ إذًا من أين؟ . . من عند أنفسنا . . وهذا ليس من عندي؛ ولكنه كلامُ اللَّه كما مَرَّ .

إذًا فلابد من التخدِيقِ . . تدري معنىٰ التحديق؟ . . التحديقُ في ذَواتِ أنفسِنا . . أيُّ شيءٍ في أنفسنا يجب أن يتغير؟ . . فغَيِّرْ نفسَك وسَلِّمْ نفسَك لا لنفسِك ولكن للَّه .

يقول اللَّه - تعالى - : ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ [آل عمران: ١٥٤] . . يقول هؤلاء المنافقون : من الذي أتىٰ بنا إلىٰ هنا . . ما لنا ولهذا الأَمْر؟! . . كالذين يقولون : ما لنا وفلسطين؟! ، ويقولُون : هم الذين باعوا أرضَهمَ . . إنَّ القضيةَ يا هؤلاء!! ليستْ فلسطين . . هذه قَضيةُ الإسلامِ واليهودِ . . القضيةُ قَضيةُ إسلامٍ وكُفرٍ .

وإنَّ الذي يهتمُّ ويَحزنُ لأحوالِ المسلمين ينبغي أنْ يفكرَ في نفسِه فيُصلِحُها لتَنصلحَ أُمَّتُهُ الجَريحة . . وليُسلِمْ للّه وليقلْ بلسانِ الحالِ والمَقَال : سمعًا وطاعةً يا رب . . ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] . . فلا يَحلقُ لِحْيتهُ مثلًا ويقول : احْلقها وأَرِحْ دِماغَكَ . . لا . . فأين السمع والطاعة إذًا؟! . . أين التسليم الذي نتحدث عنه؟!! . . أنت لم تُرِحْ نَفسك بل عَصيتَ ربَّكَ الذي بيده الأمرُ والنهي .

لماذا سجن الإمام أحمد بن حنبل؟ . . من أجلِ العقيدةِ . . يقولون له : القرآنُ مَخْلوقٌ ، قال لهم : القرآنُ كلامُ اللّهِ غيرُ مَخْلوقٍ . . سَجنوه وضَربوه . . الذي ضربه قال : ضربتُ أحمدَ سبعةَ عَشَرَ سَوطًا لو ضُرِبَها جَبلٌ لانْهدَّ . . نعم : سُجن . . وفي شِعْبِ أبي طالبٍ كم ضُرب أناس ! . . النبي ﷺ نفسُه سُجن وضُرب . . فالتأديب بالسَّجْنِ والضرب الآن ليس جديدًا . . ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ﴾ [فصلت: ٤٣] . .

أبو سيِّدِنا إبراهيم قال له : ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ﴾ [مريم: ٤٦] . . فِرعَونُ قال لموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩] . . فهذه سُنَّةٌ كَونيةٌ . . سُنَّةٌ دائمةٌ لا تتغيَّرُ . . وابتلاءُ أحمدَ بنِ حنبل كان من أجلِ كلمةٍ ما أسهلَ أن يَتنازلَ عنها الناسُ اليوم ؛ بل والملتزمون .

قال أبو سعيد الواسِطِيُّ : دخلتُ علىٰ أحمدَ السجنَ قَبلَ الضربِ فقلت : يا أبا عبد اللّه ، عليك عِيالٌ ولك صِبيان وأنت مَعذورٌ ، كأنّي أُسهِّلُ عليه الإجابة . . كأنه يقول له بِلُغَةِ عصرنا : وراءك عيال وتحتاج إلىٰ تربيتهم ، قل لهم الكلمة التي يريدونها . . «القرآنُ مَخْلوقٌ» . . واخرجْ

من هنا . . ألستَ من داخل قلبِك تعتقدُ أن القرآنَ كلامُ اللَّهِ؟! ؛ إذًا لا حرج عليك ، طالما أن قلبَك مطمئنٌ بالإيمان!!

فقال الإمام أحمد : «يا أبا سعيد ، إنْ كان هذا عقلُك فقد استرحت!!» . . وما أكثر أصحابِ العُقولِ المستريحة في زمانِنا . . أراحَ دِمَاغَه . . وغَيْرُ عَابِئٍ بأي أمرٍ . . وتارِكٌ نفسَه مع الماشي ، وحينما يموت لا يجدُ إلا النار .

لذلك - إخوتاه - حينما يقول اللَّه : ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ﴾ ؛ نقول له : إن الأمرَ كلَّه للَّه . الأمرُ أمرُ اللَّه . . فإذا أرادك أنْ تحملَ فاحملْ ما أمرك به . . هذه مَسئوليتُك . . وهذه هي الأمانة التي قال اللَّه عنها : ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [الأحزاب: ٧٢] . . احملْ مسئوليةَ هذا الدين ، فالدينُ أمانةٌ . . الدين نَسبُكَ وصِهرُك . . الدينُ مسئولية كلِّ مُسْلم . . الدينُ مسئوليتُك الشخصية ، وسوف تُسألُ عنه . . وواللَّهِ ثم واللَّهِ لتُسْألَنَّ عن دينِ اللَّه . . ماذا عَمِلتَ به ، وماذا قدَّمْتَ له؟

قال أبو بكر الصديق لمَّا مَنعوا الزكاة : أَيُنقَصُ الدينُ وأنا حيّ ؟!! كلا واللَّه . . فهل يَنْقُص وأنت حيّ . . هل يَنقصُ الدينُ في بيتِك وفي منطقتِك وفي أرضك وفي كلِّ العالم؟! . . نعمَ ينقص ؛ لأنك لم تَحملْهُ .

والمنافقون هم الذين لا يُريدون أنْ يَحملوا الدين . . ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾ . . يقولون لأنفسِهم : ما الذي أتىٰ بكم إلىٰ هنا؟! . . ﴿يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ

لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤]. . لو كان الموضوعُ بأيدينا! . . ما الذي جاء بنا إلىٰ هنا؟! . . ما لنا وللقِتالِ . . لماذا نُقاتِل؟! . . لا . . فليس الأمرُ بأيديكُم؛ ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤] . . لو لم يأْتِكم رسول ولو لم تَخرجوا لقُتلتُم هنا أيضًا . . طالما أنه - سبحانه - كتب عليكم أن تُقتلوا هنا فسوف تُقتلون هنا ولا مَحالة . . هذا قَدَر .

ولذلك فإن من يَحلق لِحْيَته حتىٰ لا يُؤذَىٰ تجده يَحلِقُها فيُؤذَىٰ . . مكتوبةٌ مكتوبة . . فالقضية ليست قضيةَ أسبابٍ . . القضية من مُسببِ الأسبابِ . . انتبه . . لذلك حينما يأتي ويقول : أحلق لِحْيتي ، نقول له : يا أخي ، البلاءُ يُدْفَعُ بطاعةِ اللَّه ورسوله لا بمعصية اللَّه ورسوله . . فهل تَعصي ربكَ لتدفعَ عنك البَلاء؟! . . اللَّهم ارفع عن المسلمين البلاء .

أطِعْ ربك . . نَفِّذْ أوامرَه ؛ فالأمرُ كله له لا لمن تخافُ منهم . . سلِّمْ تَسْلمْ؛ فالذي أمرَك اللَّه . . اللَّه العزيز . . اللَّه الجبَّار . . اللَّه اللَّطيف ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ١٩] . . اللَّه الرحيم . . اللَّه الحفيظ . . فكُنْ معه ، فأنت في حِماه ، ولن يُضيِّعَك أبدًا ؛ فهو اللَّه .

كلمةٌ جميلةٌ جدًّا لأبي إسماعيل الهَرَوِي يُبيِّن فيها هذا الأصل . . يقول : «أنْ تَعلمَ أنَّ الأمرَ صَادرٌ من عينٍ من لا يخافُ عواقِبَ الأمرِ» . . فالذي أمرك مَنْ؟ . . اللَّه . . هل يخاف؟ . . أعوذُ باللَّهِ وحَاشا للَّهِ . . قال ربي : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس: ١٤-١٥] .

فكن معه وسَيحميكَ ويَحرسُكَ ويحفظُكَ ويُسدِّدُكَ وينجِّيك ، وإن ابْتَلاكَ فسيُرْضِيك .

قالَ ابنُ القيِّم - رحمه اللَّه - : «أصْدُق اللَّه ، فإذا صَدقتَ عِشتَ بين عَطفِه ولُطفِه ؛ فعطفُه يَقيك ما تَحذرُهُ ، ولطفُه يُرضيك بما يُقدِّره» اهـ .

ستعيشُ وتَحيا بين العَطفِ واللُّطفِ . . فيعطفُ عليك . . فكلُّ ما تخافُ منه لن يحدثَ ؛ لأنه - سبحانه - هو المَلك ، فلا يَجري في الكون شيءٌ إلا بِقدَرِهِ وإذنِه ومشيئتِه ، فسيحميكَ بعطفهِ . . وإذا قدَّر عليك شيئًا تَكرهُه فسيُرضيك بلطفِه . إذًا فكنْ للَّه كما يُريد ؛ يَحمِكَ ويُرضِكَ . . فسَلِّمْ له تَسْلمْ .

فُلانٌ كان يقودُ السيارةَ وفي لَحظةِ القَدرِ لم يرَ أمامَه ؛ فكانت الحادِثةُ . . وفيها حَصل العطفُ واللُّطفُ . . فالعطف : أنَّ السيارةَ تَكسَّرتْ لكنه خرَجَ هو وأولادُه سَالمِين . . هذا عَطفٌ . . أما اللُّطف : فإنه نَزل من السيارة سَاجدًا يقول : الحمد للَّه . . يقولون له : السيارة انتهت ؛ يقول : يا أخي ، الحمدُ للَّه ، الحمد للَّه . . فهذا لُطْفٌ . . وعلىٰ العكس : منْ يَحلقُ لِحيَتَه . . فيَعصِي فيُؤذَىٰ فيَتلفَظُ بما يُسخِطُ اللَّهَ . . فلا هو نَفَّذ الأمرَ فعاش بعطفِ اللَّه ، ولا هو سكتَ فعاش سعيدًا وفاز بلطفِ اللَّه .

وهكذا . . إذا عِشتَ للَّه فنفَّذتَ أوامرَه ؛ وسلَّمتَ له زِمَامَ نفسِك فأطعْتَه في كلِّ ما يأمرُك به ؛ سَلِمتَ ، وسَيَّركَ بين عَطفهِ ولُطفهِ - اللَّهم احفظنا بعطفِك ولُطفِك يا رب . . فسَلِّمْ تَسْلَمْ لِتَصِلَ ؛ فالأمرُ كُلُّهُ للَّه .

* * *

الأصل السابع عشر

دليلُ عدمِ رِضاهُ عنك عدمُ رِضاكَ عنه

رجلٌ تضايقُه زوجتُه بعضَ الشيءِ، ولكنّه رجلٌ صالحٌ وراضٍ وصابرٌ ويقول: بذنوبي.. هذا الرجلُ الراضي يُفاجأ بأنَّ اللّٰهَ يُرضيه؛ فيأتيه برجلٍ يجلسُ بجوارِه ويقول له: يا أخي، لا أدري ماذا أفعلُ مع زوجتي!!.. كلّما أكلّمها كلمة تُوبّخني وتُهينُني.. فيقول صاحبُنا: اللّٰهمَّ لك الحمدُ، إذًا فأنا في نعمة.

ورجلٌ آخرُ كلما تضايقه زوجتُه يقول: يا ربِّ، ماذا عملتُ في دنياي حتىٰ تبتليَني بهذه البلوى؟!؛ فيُقعِدُ اللّٰه له رجلًا بجواره يقول له: يا أخي، سبحان اللّٰه!، لماذا تعذِّبُ نفسَك؟! طلِّقها واسترِحْ من مشاكِلها!!.. ولو رَضِيَ لأرضاه اللّٰه.

قال سفيان: قال الحسن: من رَضِيَ بما قسمَ اللّٰهُ له وَسِعَهُ، وباركَ اللّٰهُ له فيه، ومن لم يرضَ لم يَسَعْهُ، ولم يبارِك له فيه.

وقال أبو عثمان الحِيري: منذ أربعينَ سنةً ما أقامني اللّٰهُ في حالٍ فكرهتُه، وما نقلَني إلىٰ غيره فسخطتُه.

لقد حدث لأحدِ الإخوةِ موقفٌ عجيبٌ.. كان نائمًا باللّيل فعطِشَ فقام ليشربَ ورجَعَ، فوجد زوجتَه قد استيقظت وتقول له: أين كنت؟،

فقال : كنت أشرب ، فبكت وقالت له : لِمَ لَمْ توقظني ؟ ، لِمَ لَمْ تأمرني ؟ ، ما فائدتي إذن ؟!!

فالذي وضع هذا الرجلَ لهذا ، ووضع هذه لهذا مَنْ ؟ . . اللَّه . . فحينما ترضَىٰ يُرضِيك ، وحينما تسخطُ يَزيدُك سُخطًا؛ قال رسول اللَّه ﷺ : «**إن اللَّه إذا أحب قومًا ابتلاهم ، فمن رَضِي فله الرضا ، ومن سَخِطَ فعليه السُّخْطُ**»[1] . . هذه هي القضية : أنك إذا كنتَ راضيًا دائمًا ، أرضاك اللَّه وبعث إليك ما يُرضيك ومَنْ يُرضيك .

والقصة التي مرَّت من خيرِ الشواهد . . قصة حُدَيْر . . لمَّا مَشَوْا ووجدَ كلُّ واحدٍ منهم في يدِه الهدية ؛ لم يقل : وأنا ؟ ، ولم يرجع ليقول : أنا لم آخذ هديتي يا رسول اللَّه . . ولو طلب لأعطاه الرسول ﷺ . . لكنَّ الرجلَ كان راضيًا ، فيكفيه أنَّ اللَّه ذكرَه . . ولمَّا ذُكِّرَ الرسولُ ﷺ به ؛ أرسل إليه هديته بسرعة . . فحاز الهدية وذِكرَ اللَّه . . لرضاه .

سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه معروفٌ أنه كان مستجابَ الدعوةِ ، وكان قد كُفَّ بصرُه في آخرِ عُمُرِه ، قال له ابنه : يا أبتِ أراك تدعو للناس! هلَّا دعوتَ لنفسك أن يردَّ اللَّهُ عليكَ بصرَك ، قال : يا بُنيَّ ، قضاءُ اللَّهِ أحبُّ إليَّ من بصري .

إخوتاه ، هل أنتم راضون عن اللَّه ؟ ، هل فعلًا قضاءُ اللَّهِ وقدرُه أحبُّ إليكم مما أنتم فيه من بلاءٍ وفتنةٍ وغُرْبة ؟ . . إذا أردتم أن تتأكَّدوا ؛ **فالرِّضا عن اللَّه يَصِحُّ بثلاثةِ شروطٍ ذكرها ابنُ القيِّمِ في المدارجِ :**

---

(١) أخرجَهُ : أحمد والترمذيُّ ، وصحَّحَهُ الألبانيُّ في «الصحيحة» برقم (١٤٦) .

الأول : استواءُ النعمةِ والبليةِ عند العبدِ ؛ لأنه يشاهد حسنَ اختيارِ اللَّهِ له .

الثاني : سقوطُ الخصومةِ عن الخلقِ ، إلا فيما كان حقًّا للَّهِ ورسولِهِ ﷺ . فالراضي لا يُخاصمُ ولا يعاتبُ إلا فيما يتعلقُ بحق اللَّهِ ، وهذه كانت حالَ رسولِ اللَّه ﷺ ؛ فإنه لم يكن يخاصمُ أحدًا ، ولا يعاتبُه إلا فيما يتعلق بحقِّ اللَّه ، كما أنه لا يغضبُ لنفسه ، فإذا انتُهكت محارم اللَّهِ لم يقمْ لغضبِه شيءٌ حتىٰ ينتقمَ للَّه . فالمخاصمةُ لحظِّ النفسِ تُطفئُ نورَ الرضا وتُذهبُ بهجتَه ، وتبدِّلُ بالمرارةِ حلاوتَه ، وتُكَدِّرُ صفوَه .

والشرط الثالث: الخَلَاصُ من المسْألةِ للخلقِ والإلحاحِ ؛ قال - تعالى - : ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]. قال ابن عباس : إذا كان عنده غداءٌ لم يسأل عشاءً ، وإذا كان عنده عشاءٌ لم يسأل غداءً[١] .

ثم يبيِّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ منعَ اللَّهِ - تعالىٰ - لعبده عطاءٌ ، وابتلاءَه إيَّاه عافية ، فيقول :

«فإنه - سبحانه - لا يقضي لعبده المؤمن قضاءً إلا كان خيرًا له ، ساءه ذلك القضاء أو سرَّه . فقضاؤه لعبده المؤمن عطاء ، وإن كان في صورة المنع . ونعمة ، وإن كانت في صورة محنة . وبلاؤه عافية ، وإن كان في صورة بلية . ولكن لجهل العبد وظلمه لا يَعُدُّ العطاء والنعمة والعافية إلا ما الْتَذَّ به في العاجل ، وكان ملائمًا لطبعه . ولو رزق من

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢١٣ وما بعدها) باختصار .

المعرفة حظًّا وافرًا لَعَدَّ المنعَ نعمة ، والبلاء رحمة ، وتلذذ بالبلاء أكثر من لذته بالعافية ، وتلذذ بالفقر أكثر من لذته بالغنىٰ ، وكان في حال القِلَّة أعظمَ شكرًا من حال الكثرة .

فالرَّاضِي : هو الذي يعدُّ نعم اللَّه عليه فيما يكرهه ، أكثرَ وأعظمَ من نِعَمِهِ عليهِ فيما يُحِبُّه ؛ كما قال بعض السلف : ارضَ عن اللَّهِ في جميع ما يفعلُهُ بك ؛ فإنه ما منعكَ إلا ليعطيَك ، ولا ابتلاكَ إلا ليعافيَك ، ولا أمرضكَ إلا ليشفيَك ، ولا أماتكَ إلا ليحييَك . فإيَّاك أن تفارقَ الرِّضَىٰ عنه طَرْفَةَ عين ، فتسقطَ من عَيْنِه »[1] .

إخوتاه ، قال الثوري يومًا عند رابعةَ : اللَّهم ارضَ عنا . فقالت : أما تستحي أن تسألَه الرضا عنك وأنت غَيْرُ راضٍ عنه ؟ ، فقال : أستغفر اللَّه . ثم قال لها جعفرُ بنُ سليمانَ : متىٰ يكونُ العبدُ راضيًا عن اللَّه ؟ ، قالت : إذا كان سرورُه بالمصيبةِ مثلَ سرورِه بالنعمةِ .

ودخلَ رجلٌ علىٰ أبي العاليةِ في مرضِه الذي مات فيه ، فقال : إنَّ أحبَّه إليَّ ، أحبُّه إلىٰ اللَّه - عَزَّ وجَلَّ .

وقيل ليحيىٰ بنِ معاذٍ : متىٰ يبلُغُ العبدُ إلىٰ مقامِ الرضا ؟ ، فقال : إذا أقامَ نفسَه علىٰ أربعةِ أصولٍ فيما يعاملُ به ربَّه ، فيقول : إنْ أعطيتني قبلتُ ، وإن منعتني رَضيتُ ، وإن تركتني عبدتُ ، وإن دعوتني أجبتُ .

وعن حفصِ بن حميدٍ قال : كنت عند عبد اللَّهِ بن المباركِ بالكوفةِ ،

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٢٤ - ٢٢٥) بتصرف .

حين ماتت امرأتُه ، فسألتُه : ما الرضا؟ ، قال : الرضا : لا يتمنىٰ خلافَ حالِه .

ونظر رجلٌ إلىٰ قُرْحَةٍ في رِجلِ محمدِ بنِ واسعٍ فقال : إني لأرحمُكَ من هذه القرحةِ ، فقال : إني لأشكُرُها منذُ خَرَجَتْ إذ لم تخرجْ في عيني .

بشيرُ الطبريُّ كان عندَه مزرعةٌ فيها أَرْبَعُمِئةِ جاموسةٍ . . ثروةٌ تُقدَّر بمليون جنيه اليومَ . . فهَجَمَ الرُّومُ يومًا عليها ، فساقوا الجواميسَ كلَّها . وكان عنده مِئةُ عبدٍ يحرُسونها ، فأرسلَ هؤلاء العبيدُ إلىٰ بشيرٍ أنْ قدْ أُخذت الجواميس ، فرَكِبَ مع ولدٍ له إليهم . . فلما وصلَ إلىٰ المزرعةِ لقيَه العبيدُ يبكونَ . . يا سيدَنا ، يا مولانا : أُخِذَت الجواميسُ ، فقال : وأنتم أيضًا : اذهبوا فأنتم أحرار لوجهِ اللَّه . . فقال له ابنه : أفقرْتَنا يا أبتاه ، فقال : اسكُت يا بُنيّ ، إنَّ اللَّه أرادَ أن يبتليَ رضائي به ، فأحببتُ أن أزيدَه . . رَحِمَكَ اللَّه يا بشير . . إن اللَّهَ يمتحنُني أأرضىٰ بقضائِه أم لا ، قلت له : لا ، أنا راضٍ جدًّا ، وهذه الزيادة أيضًا من أجلك يا ربِّ . . اذهبوا فأنتم أحرارٌ لوجهِ اللَّهِ !!

العَبْدُ ذو ضَجَرٍ والربُّ ذو قَدَرٍ والدَّهْرُ ذو دُوَلٍ والرِّزْقُ مَقسومُ
والخيرُ أَجْمَعُ في ما اختارَ خالقُنا وفي اختيارِ سواهُ اللَّوْمُ والشُّومُ

يقولُ ابنُ القيِّم - رحمه اللَّهُ تعالىٰ - :

«وثمرةُ الرِّضَا : الفرحُ والسرورُ بالرَّب - تباركَ وتعالىٰ - ، ورأيتُ شيخَ الإسلامِ ابنَ تيميَّةَ - قدَّس اللَّه روحه - في المنامِ ، وكأني ذكرتُ له

شيئًا من أعمالِ القلبِ ، وأخذت في تعظيمِه ومنفعتِهِ - لا أذكره الآن - ؛ فقال : أمَّا أنا فطريقتي : الفرحُ باللَّه ، والسرورُ به . أو نحو هذا من العبارة»[1] .

إلهي . . سُسْنا كيف شِئْتَ ؛ فسوفَ نرضَىٰ . . إلهي :

إذا ارْتَحَلَ الكرامُ إليكَ يومًا ليلتمسوكَ حالًا بعدَ حالِ
فإنَّ رِحَالَنا حُطَّتْ لِترضَىٰ بحِلْمِكَ عن حُلُولٍ وارْتحالِ
أَنِخْنا في فِنَائِكَ يا إلهي إليكَ مُعَرِّضِينَ بلا اعتدالِ
فسُسْنَا كيفَ شِئتَ ولا تَكِلْنا إلي تذبيرِنا يا ذا المعالِي

يقول ابنُ الجوزي - عليه رحمةُ اللَّه وبركاته - في «صَيْدُ الخَاطِر» تحت عُنْوَان «فصل : تذكُّر أحوالِ الرسول» :

«من أراد أن يعلم حقيقة الرِّضىٰ عن اللَّه - عَزَّ وجَلَّ - في أفعاله ، وأن يدرِيَ من أين ينشأ الرِّضىٰ ؛ فليتفكَّر في أحوال رسولِ اللَّهِ ﷺ .

فإنه لمَّا تكاملت معرفته بالخالق - سبحانه - رأىٰ أنَّ الخالقَ مالك ، وللمالك التَّصَرُّفُ في مملوكِه ، ورآه حكيمًا لا يصنع شَيْئًا عَبَثًا ، فسَلَّمَ تسليمَ مملوكٍ لحكيم ؛ فكانت العجائبُ تجري عليه ولا يوجد منه تغيُّر ، ولا من الطَّبع تأفُّف .

ولا يقول بلسان الحال : لو كان كذا ، بل يَثْبُتُ للأقدار ثُبُوتَ الجبل لعواصفِ الرِّياح .

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٧٤) .

هذا سيِّدُ الرُّسُلِ ﷺ بُعِثَ إلىٰ الخلق وحده ، والكفرُ قد ملأ الآفاق ، فجعل يَفِرُّ من مكانٍ إلىٰ مكان ، واستترَ في دارِ الخَيْزُرَان[١] ، وهم يضربونه إذا خرج ، ويُدْمُون عَقِبَه ، وشُقَّ السَّلْيُ علىٰ ظهره ، وهو ساكتٌ ساكِن .

ويخرج كُلَّ مَوْسِمٍ فيقول : من يُؤْوِيني ، من يَنْصُرُني ؟

ثم خرجَ من مكَّةَ فلم يقدر علىٰ العَوْد إلا في جِوار كافر ، ولم يوجد من الطبع تأفُّف .

إذ لو كان غيرُه لقال : يا رب ، أنتَ مالكُ الخلق ، وقادِرٌ علىٰ النصر ، فَلِمَ أُذَلّ ؟

كما قال عمر رضي الله عنه يومَ صُلْحِ الحُديبية : أَلَسْنَا علىٰ الحق ؟ ، فَلِمَ نعطِي الدَّنِيَّة في دينِنا ؟!!

ولما قال هذا ، قال له الرسول ﷺ : «**إني عبدُ اللّٰه ، ولن يضيِّعَني**» ، فجمعتْ الكلمتان الأصلينِ اللذينِ ذكرناهما .

فقوله : إني عبد اللّٰه ، إقرارٌ بالمِلك وكأنه قال : أنا مملوك يفعل بي ما يشاء .

وقوله : لن يضيعَني ، بيانُ حكمته ، وأنه لا يفعل شَيْئًا عَبَثًا .

ثم يُبْتَلَى بالجوع فَيَشُدُّ الحَجَرَ ، ولِلّٰهِ خزائنُ السَّمَواتِ والأرض .

(١) هي دار الأرقم . آلت إلىٰ الخيزران بعد ذلك .

وتُقْتَلُ أصحابُه ، ويُشَجُّ وجهُه ، وتُكْسَرُ رُبَاعِيَتُه ، ويُمَثَّلُ بعَمِّه وهو ساكت .

ثم يُرْزَق ابنًا ويُسْلَب منه ، فيتعلَّل بالحَسن والحُسين فيُخْبِرُ بما سيجرِي عليهما .

ويسكنُ بالطبعِ إلىٰ عائشةَ ﵂ ، فيُنَغَّص عيشُهُ بقذفِها .

ويبالغُ في إظهار المعجزات ، فيُقَامُ في وجهِهِ مُسَيْلِمَة والعَنْسِيّ وابن صياد .

ويُقيمُ ناموسَ الأمانة والصِّدْق ، فيقال : كذَّابٌ ساحر .

ثم يَعْلَقُهُ المرض كما يُوعِكُ رجلان ، وهو ساكن ساكت .

فإن أخبرَ بحاله فلِيُعَلِّمَ الصَّبر .

ثم يُشَدَّدُ عليه الموت ، فيُسْلِبُ روحَه الشريفة وهو مضطجع في كساءٍ مُلَبَّد وإزارٍ غليظ ، وليس عندهم زيتٌ يوقدُ به المِصباح ليَلْتَئِذ .

هذا شيء ما قدرَ علىٰ الصَّبرِ عليه كما ينبغي نبيٌّ قبلَه ، ولو ابتُليتْ بِهِ الملائكةُ ما صَبَرَت .

هذا آدم ﵇ يُبَاحُ له الجنَّة سوىٰ شجرةٍ ، فلا يقعُ ذُبابُ حِرصِهِ إلا علىٰ العقر . ونَبِيُّنَا ﷺ يقول في المُبَاح : «**مالي وللدنيا**» !

وهذا نوح ﵇ يَضِجُّ مما لاَقىٰ ، فيَصِيحُ من كَمَدِ وَجَدَه ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]. ونبينا ﷺ يقول : «**اللهم اهْدِ قومي فإنهم لا يعلمون**» .

هذا الكليمُ موسىٰ ﷺ، يستغيثُ عند عبادة قومِه العجل علىٰ القَدَرِ قائلًا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، ويُوَجَّهُ إليه مَلَكُ الموت فيَقْلَعُ عينَه.

وعيسىٰ ﷺ يقول: «**إن صرفتَ الموتَ عن أحدٍ فاصرفْهُ عنِّي**». ونَبيُّنَا ﷺ يُخَيَّرُ بينَ البقاءِ والموت، فيختارَ الرَّحيلَ إلىٰ الرفيقِ الأعلىٰ.

هذا سليمان ﷺ يقول: هَبْ لي مُلْكًا، ونَبيُّنَا ﷺ يقول: «**اللَّهُمَّ اجعلْ رِزْقَ آلَ مُحَمَّدٍ قُوتًا**».

هذا - واللّٰهِ - فِعْلُ رَجُلٍ عَرَفَ الوُجُودَ والمُوْجِد، فماتتْ أَغْرَاضُه، وسَكَنَتْ اعتراضَاتُه؛ فَصَارَ هَوَاهُ فيما يَجْرِي»[١].

فإذا رضيتَ يا عبدَ اللّٰه؛ فاعلم أن اللّٰهَ راضٍ عنك.. فدليلُ عدمِ رضاه عنك عدمُ رضاكَ عنه.. فارْضَ عن اللّٰه تَصِلْ إليه.. وتذكَّرْ دائمًا أحْوَالَ الرَّسُولِ ﷺ.

* * *

(١) صيد الخاطر (٣٥٥ - ٣٥٨).

الأصل الثامن عشر

إيَّاكَ أنْ تَمْكُرَ به فيَمْكُرَ بك

تَدبَّرْ معي هذه الآياتِ: قال - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [فاطر: ١٠]، وقال - تعالى -: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال - تعالى -: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦]، وقال - تعالى -: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٠-٥٢]، وقال - تعالى -: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ

ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝٤٥ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ۝٤٦ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٥-٤٧].

وقال - جلّ وعلا - : ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال - جل وعلا - : ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]، وقال - جل وعلا - : ﴿وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠]، وقال -جل وعلا - : ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ﴾ [الرعد: ٤٢]، وقال - جل وعلا - : ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

إنَّ التأمُّلَ في هذه الآياتِ ومعاودةَ قراءتها بتَأَنٍ وتدبر يَغْرِسُ في القلبِ الخوفَ من المكر ؛ فها هي عاقبةُ المكر تراها واضحةً أمامك في الآيات . . وكأنَّ الآياتِ تقولُ لك : إيَّاك أن تمكر . . إيَّاك .

قال رسول اللَّه ﷺ : «**المكرُ والخديعةُ والخيانةُ في النارِ**»[1] . . فإياك أن تَمْكُرَ فيمكرَ بك .

كثيرٌ من الناسِ يعيشُ في هذه الدنيا يعاملُ اللَّهَ بالمكرِ . . غباءٌ . . يتعاملُ مع زوجتِه بالمكر ، مع أبيه بالمكرِ ، مع مديرِه وزميلِه في العملِ بالمكر ، مع جارِه ومن حولَه بالمكرِ ؛ فيظنُّ أنه يستطيعُ أنْ يمكرَ باللَّه!

(١) أخرجَهُ : الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٦٠٧) ، وصحّحه الألبانيُّ - رحمه اللَّه تعالى - في «صحيح الجامع الصغير» برقم (٦٦٠٢) .

كلمةٌ خطيرةٌ لابنِ الجوزي يقول فيها: «تُصِرُّ علىٰ المعاصي وتُصانعُ ببعضِ الطاعاتِ، واللَّهِ إنَّ هذا لمكرٌ» اهـ.

فتراهُ قد واعدَ البنتَ الفلانيةَ ليقابلَها غدًا، ويجلسُ في المسجدِ أمامَ الخطيبِ وهو يفكرُ في الموعدِ.. إصرارٌ علىٰ المعصيةِ.. أتمكرُ بربك؟!.. يأكُل الحرامَ وواعد علىٰ رِشوة، ومع ذلك يصلي ويتصدقُ وحاجزٌ في العمرةِ.. تمكرُ بمن؟!

وستجد من يجلس في المسجدِ يستغفرُ وهو يحملُ عُلبةَ السجائرِ.. مُصرٌ علىٰ المعصيةِ، ويقول: اللهمَّ تب عليّ!.. بمن تمكرُ؟!!.. وأعجبُ من هؤلاء جميعًا من إذا سمع بهذا الكلام قال معاندًا: إذًا واللَّهِ لن أتوبَ ولن أصليَ.. لا.. أنا لا أقول ذلك الكلامَ لتقولَ هذا، ولكن أقوله لكي لا تمكرَ بربك.. فهو الذي خلقَك ويعلمُك.

فالذي قد واعدَ البنتَ الفلانيةَ وجاء ليصليَ يمكر.. نعم: هذا مكرٌ.. وتعجبُ من قَوْله حين يسمعُ بهذا الكلام: أنا آسفٌ، لن أصليَ بعد ذلك.. وهذا هو الغلطُ.. هذا هو العَوَرُ في البصيرةِ.. فبدلًا من أن تقولَ: تبتُ إلىٰ اللَّه، تقولُ هذا الكلامَ؟!.. سلِّم يا رب سلِّم.. تصرُّ علىٰ المعاصي وتصانعُ ببعض الطاعاتِ إنَّ هذا لمكرٌ.. فالمفتَرَضُ والمتوقَّعُ حينما أقول لك هذا الكلامَ أنْ تقولَ: لا للمعصية، لا أن تقول: لا للطَّاعةِ!!

وفرقٌ كبير بين الذي يعصي ثم يستغفر ويتوب ويندم ويعزم علىٰ ألا يعود، وَبين مَنْ يمكرُ السيئات.. وفرقٌ كبيرٌ بين مَنْ يعملُ السوءَ بجهالة ثم يتوب من قريب، وبين الذي يُدَبِّر ويَمْكُر ويُصِرُّ ويَسْتَمِر.

هذا هو المَلْحَظُ الخطيرُ عند تأمُّلِ الآياتِ السَّابقة :

أنَّكَ تجدُ التفريقَ بينَ مَنْ يتورَّط في المعصية عند غلبةِ الشهوة مع الجهل وشدة الغفلة ، وبين مَنْ يمكرُ للموضوع فيحتال ويدبِّر ويحتاط ويَلُفّ ويدور ، ويبحث عن الشُّبُهَات ويتعامىٰ عن الضوابط ؛ لذا كانت عقوبةُ الماكر أشدَّ بكثيرٍ من عقوبةِ العاصي

لذا إذا قلتُ لك : تُصانعُ بالطاعاتِ وأنت مصرٌّ علىٰ المعاصي؛ فلا تقل : إذًا لن أصليَ حتىٰ أنتهيَ عن المعاصي!! . . لأن هذا مَكْر ! . . ولِمَ لا تنتهي عن المعاصي وتستمرُ في الصلاة؟!! . . اللَّهُمَّ تبْ علىٰ كل عاصٍ مسلمٍ يا رب . .

وتأمَّلْ معي قصةَ أصحابِ السَّبْت لمَّا مكروا علىٰ اللّٰه واستخفُّوا بزواجره ؛ مُسِخُوا قِرَدَة . .

قال اللّٰه – تعالىٰ – : ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣]. أي : واسأل يا محمد يهود المدينة عن أخبار أسلافهم وعن أمر القرية التي كانت بقرب البحر وعلىٰ شاطئه ماذا حلَّ بهم لما عصوا أمر اللّٰه واصطادوا يوم السبت؟، ألم يمسهم قردةً وخنازير؟! والاعتداءُ في السَّبْت مجردُ معصية أهونُ من كثيرٍ من معاصيهم ؛ كقتلِ الأنبياء وطلبِ رؤيَةِ اللّٰهِ جَهْرَةً وطلبِ أصنامٍ وعبادةِ العجل . . الاعتداءُ في السَّبْت أخفُّ من كلِّ هذا بِلا شَكّ . . وفي كلِّ هذا لم يُمْسَخُوا ؛ وإنما مُسِخُوا

باعتدائهم في السَّبْت . . وهذا يدُلُّكَ علىٰ أنَّ العقوبة لم تكن علىٰ مجرد المعصية ؛ وإنما العقوبة علىٰ المكر .

قال الفَيْروزآباديُّ : «إنَّ معصيتَهم هذه كان فيها استخفافٌ باللّه» ؛ إذ حفروا الحُفَر يومَ الجُمُعة ونَصَبُوا عليها الشِّباك فوقعتْ فيها الأسماك يومَ السبت وهم ينظرون ، ثم جمعوا السمكَ يومَ الأحد . . فَتَرَاهُم قد خادعوا ومكروا بِنَصْبِ الشِّباكِ يومَ الجُمُعَةَ وجلسوا كالمستخفِّين بربِّهم يومَ السَّبْت يَضَعُونَ أيديَهم في جيوبهم وهم ينظرون إلىٰ السمكِ يتساقِطَ في شباكهم التي نصبوها ويقولون : يا ربّ ، انظر كيف نحن مطيعون لك يومَ السَّبْت فلم نصْنَعْ شيئًا مُطْلَقًا . . وهيهاتَ هيهات .

تَعَالَ مَعِي إلىٰ سَرْدِ القِصَّة :

«كان بنو إسرائيل قد طلبوا أن يجعلَ لهم يومَ راحةٍ يتخذونه عيدًا للعبادة ؛ ولا يشتغلون فيه بشؤون المعاش ، فجعلَ لهم السَّبْت . . ثُمَّ كان الابتلاءُ ليربِّيَهم اللّهُ ويعلِّمَهم كيفَ تَقْوَىٰ إرادتُهم علىٰ المُغْرِياتِ والأطماع ؛ وكيفَ يَنْهَضُون بعهودهم حين تصطدِمُ بهذه المغريات والأطماع . . وكان ذلك ضروريًّا لبني إسرائيل الذين تخلخلتْ شخصياتُهم وطِبَاعُهم بسبب الذُّلِّ الذي عاشوا فيه طويلًا ؛ ولابُدَّ من تحريرِ الإرادةِ بعد الذُّلِّ والعبودية ؛ لتعتادَ الصمودَ والثبات . فضلًا علىٰ أنَّ هذا ضروريٌّ لكلِّ مَنْ يحملون دعوةَ اللّه ؛ ويُؤَهَّلون لأمانةِ الخِلافة في الأرض . . وقد كان اختبارُالإرادةِ والاستعلاءِ علىٰ الإغراءِ هو أوَّلُ اختيارٍ وُجِّهَ مِنْ قَبْلُ إلىٰ آدَمَ وحواء . . فلم يَصْمُدَا له واستمعا لإغراءِ الشيطان بشجرة الخُلْدِ ومُلْكٍ

لا يَبْلى ! ، ثُمَّ ظَلَّ هو الاختبار الذي لابُدَّ أنْ تجتازَه كُلُّ جماعةٍ قَبْلَ أنْ يأذنَ اللَّهُ لها بأمانةِ الاستخلاف في الأرض . . إنما يختلفُ شَكْلُ الابتلاء ، ولا تتغيَّر فحواه !

ولم يَصْمُدْ فريقٌ من بني إسرائيل - في هذه المرَّة - للابتلاء الذي كتبه اللَّهُ عليهم بسببِ ما تكرَّر قبلَ ذلك من فسوقِهم وانحرافِهم . . لقد جَعَلَتْ الحِيتانُ في يومِ السَّبتِ تتراءىٰ لهم علىٰ السَّاحِل ، قريبةَ المأْخَذ ، سهلةَ الصَّيد . فتفوتُهم وتَفْلِتُ من أيديهم بسببِ حُرْمَةِ السَّبْت التي قطعوها علىٰ أنفسِهم ! ، فإذا مضىٰ السَّبْت وجاءتهم أيَّامُ الحِلّ ؛ لم يجدوا الحِيتان قريبةً ظاهرة ، كما كانوا يجدونها يومَ الحُرُم ! . . وهذا ما أُمِرَ رسولُ اللَّهِ ﷺ أنْ يذكِّرَهم به ، ويذكِّرَهم ماذا فعلوا وماذا قالوا . .

علىٰ أَيَّةِ حال ، لقد وقع ذلك لأهل القرية التي كانت حاضرةَ البَحْرِ من بني إسرائيل . . فإذا جماعةٌ منهم تَهِيْجُ مطامِعُهم أمامَ هذا الإغراء ، فتتهاوَىٰ عزائمُهم ، ويَنْسَوْن عهدَهم مع ربِّهم وميثاقَهم ، فيحتالون الحِيَل - علىٰ طريقة اليهود - للصَّيدِ في يوم السَّبْ ! ، وما أكثرَ الحِيَلَ عندما يَلْتَوِي القلب ، وتَقِلُّ التَّقْوَىٰ ، ويُصبحُ التعاملُ مع مجرد النصوص ، ويُرَادُ التفلُّتُ من ظاهرِ النصوص(١) .

إنَّ أوامرَ الشريعةِ ونواهِيَها لا يَحْرُسُها مجردُ وجودِ النُّصُوصِ في الكُتُبِ أو علىٰ أَلْسِنَةِ الدُّعَاةِ والوُعَّاظ ، بل ولا السيف ولا المِدْفَع ؛ إنما

---

(١) الظلال (٣/ ١٣٨٣ - ١٣٨٤) بتصرف .

تَحْرُسُها القلوبُ اليقظة التَّقِيَّة التي تستَقِرُّ تقوىٰ اللَّه فيها وخشيتُه ، فتحرسُ هي شريعتَها وتحميها . قال رسول اللَّه ﷺ :

«**إنَّ الحَلالَ بَيّنٌ ، وإنَّ الحَرَامَ بَيّنٌ وَبَيْنَهما أمُورٌ مُشْتَبهاتٌ ، لا يَعْلمُهُنَّ كَثيرٌ منَ النَّاسِ فَمَنْ اتَّقىٰ الشُّبهات فَقَدْ اسْتَبْرَأَ لدينه وَعِرْضه ، وَمَنْ وَقَعَ في الشُّبهات وَقَعَ في الحَرَام ، كالرَّاعي يَرْعَىٰ حَوْلَ الحِمَىٰ يُوشِكُ أنْ يَرْتَعَ فيه ، ألا وإنَّ لِكُلِّ مَلكٍ حمىً ، ألَا وإنَّ حِمَىٰ اللَّه مَحَارِمُهُ**» ، ثم عَقَّبَ علىٰ ذلك بقوله : «**ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً إذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ ، وإذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ ، ألَا وهِيَ القَلْبُ**»[1] .

فمهما قلنا : حلال . . حرام . . يجوز . . لا يجوز . . يجب . . يُكْرَه . . فلن يَجِدَ هذا الكلامُ صدًى إلا عِندَ أصحابِ القلوبِ التَّقِيَّةِ النَّقِيَّة والنوايا الطيبة .

«مِنْ أجلِ ذلك تَفْشَلُ الأنظمةُ والأوضاعُ التي لا تقومُ علىٰ حِراسة القلوبِ التَّقِيَّة . وتَفْشَلُ النظرياتُ والمذاهبُ التي يضعها البشر للبشر ولا سلطان فيها من اللَّه . . ومِنْ أجلِ ذلك تَعْجَزُ الأجهزةُ البشريةُ التي تُقِيْمُها الدُوَلُ لحراسةِ القوانين وتنفيذِها . وتَعْجَزُ المُلاحقةُ والمُرَاقبةُ التي تُتَابِعُ الأمورَ من سُطُوحِها !

وهكذا رَاحَ فريقٌ من سُكَّانِ القرية التي كانتْ حاضِرَةَ البَحْرِ يحتالون علىٰ السَّبْت ، الذي حُرِّمَ عليهم الصَّيْدُ فيه . . ورُوِيَ أنهم كانوا يُقِيمون

---

(١) **متفق عليه** : البخاريُّ (٥٢) ، ومسلم (١٥٩٩) .

الحواجيز على السَّمَكِ ويُحَوِّطون عليه في يومِ السَّبْت ؛ حتى إذا جاء الأحدُ سارعوا إليه فجمعوه ؛ وقالوا : إنهم لم يصطادوه في السَّبْت ، فقد كانَ في الماءِ - وراءَ الحواجيز - غَيْرَ مَصِيْد»[1] .

وَأَنَّي لهذا أنْ يَدْخُلَ على اللَّه ؛ واللَّهُ - سبحانه - يُراقبُ خَلَجَاتِ النُّفُوسِ وأسرارَ القُلوب . . فمهما قالوا : «غيرَ مَصِيْد» بألسِنَتِهم ؛ فقد اصطادوا بقلوبهم ونيَّاتِهم . .

فيا مَنْ تَصِيْدُ المعاصيَ والسَّيِّئَاتِ مَكْرًا وخِدَاعًا ، اللَّهُ يراكَ ويعلمُ نواياك ؛ فاتقِ اللَّهَ واحْذَرْ مَغَبَّةَ ذَنبكَ وعاقبةَ فِعْلِك . . ومهما خَدَعْتَ النَّاسَ ومَكَرْتَ على الخَلْق ودَخَلَ ذلك عليهم ؛ فلن تَخْدَعَ اللَّه . . وإذا مَكَرْتَ ؛ فاعْلَمْ أَنَّهُ ﴿لَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣] .

يا مَنْ تملأُ قلبَك بالهمومِ وتُدَنِّسُه بالمعاصي عامدًا ، ثم تسألُ اللَّه سلامةَ القلبِ! . . إنَّ هذا لمكرٌ . . مستمرٌّ في شحنِ قلبِكَ بالهمومِ ومتعمِدٌ . . تحملُ همَّ المالِ وهمَّ اللُّبْسِ وهمَّ الصيفِ وهمَّ الشتاءِ وهمَّ العيالِ وهمَّ البناتِ وهمَّ المُرتَّبِ وهمَّ الشُغلِ وهمَّ . . وهمَّ . . وتقول : يا رب ، طهِّر قلبي . . وأنت المداومُ على تدنيسِه!! . . إنَّ هذا لمكرٌ . . اللَّهم طهِّر قلوبَنا يا رب .

حريصٌ على الدنيا ، غافلٌ عن الآخرةِ ، كثيرُ الذنوبِ ، بطيءُ التوبةِ ،

(١) المرجع السابق (٣/ ١٣٨٤) .

ثم تشكو قسوةَ القلبِ!! . . إنَّ هذا لمكرٌ . . إياك أن تمكرَ . . كن صادقًا مع اللَّهِ . . لا تكن ثعلبًا؛ فالطريقُ وَعِرَةٌ . . الطريقُ إلىٰ اللَّه وَعِرَةٌ، ولن تصلَ إلا بتوفيقه، أفبهِ تمكرُ وهو دليلُك الوحيدُ؟!!

ولذا إذا أردتَ الوصولَ إلىٰ اللَّه؛ فتُبْ من المكرِ، فاجعلْ همومَك همًّا واحدًا هو اللَّه . . الهمومُ نَجِسَةٌ فطهِّر قلبَك منها . . اللَّهم طهِّر قلوبنا يا رب.

أسباب تطهير القلب من الهموم

ولكي أساعدك - ساعَدَني اللَّهُ وإيَّاك -، فمن أسبابِ تطهيرِ القلبِ من الهمومِ سبعةٌ:

أوَّلًا: الصلاة على النَّبيِّ ﷺ:

لمَّا قال رجل: يا رسولَ اللَّه، أجعلُ كلَّ دعائي صلاةً عليك؟؛ قال: «**إذًا يَكْفِكَ اللَّهُ ما أهمَّك**»(١).

وفي الرواية الثانية: «**يُغْفَرْ ذنبُك وتُكْفَ ما أهمَّك**»(٢).

أحدُ مشايخِنا ذهب إليه رجلٌ يشتكي سَرِقةَ سيارتِه، فقال له: اذهبْ واجلسْ في المسجدِ وصلِّ الصلاةَ الإبراهيميةَ: «اللَّهم صلِّ علىٰ محمدٍ

(١) أخرجَهُ: أحمد (٥/١٣٦)، وابن أبي شيبة (٢/٢٥٣)، (٦/٣٢٥)، والطبرانيُّ (٤/٣٥)، وهو حديث حسن.

(٢) أخرجَهُ: الترمذيُّ (٢٤٥٧) وقال: حسنٌ صحيح، والحاكم (٢/٤٢١)، وقال الألبانيُّ: حسن.

وعلىٰ آل محمدٍ كما صليتَ علىٰ إبراهيمَ وعلىٰ آل إبراهيمَ إنك حميدٌ مجيدٌ . اللَّهم باركْ علىٰ محمدٍ وعلىٰ آل محمدٍ كما باركتَ علىٰ إبراهيمَ وعلىٰ آل إبراهيمَ إنك حميدٌ مجيدٌ» . وسبحان اللَّه العظيم! ما ارتفعت الشمسُ بعد صلاة الفجرِ إلىٰ الضحىٰ إلا وعادت إليه سيارتُه . . وهذا ليس كلامًا صوفيًا ، ولكنه يقينٌ في الحديثِ . . الصوفيُّ صاحبُ بدعةٍ يؤلِّفُ لك حكايةً ، أما أنا فأكلمك في السُّنَّةِ . . هذا كلامُ النبي ﷺ . . صلِّ عليه يكفِك اللَّهُ ما أهمَّك . . أيُّ شيءٍ تحملُ همَّه فأكثِرْ من الصلاةِ علىٰ النبيِّ ﷺ يُفْرَجْ ويُقْضَ وَيُحَلْ .

ثانيًا : قراءة المعوِّذتين :

قال رسول اللَّه ﷺ : من قرأ «**قل هو اللَّه أحد ، وقل أعوذ برب الفلق حين يصبح وحين يمسي كفاه اللَّه كلَّ ما أهمَّه**»(١) . . ولكنَّ الشرطَ - يا شبابُ - : اليقينُ والاحتسابُ ، وهو أن أقرأَها وأنويَ بقراءتِها أن يكفِيَني اللَّهُ همومي . . أقرؤها وأنا أعلم يقينًا بأنَّ اللَّهَ قادرٌ أن يكفِيَني همومي ، وأنَّ النبيَّ ﷺ صَدَقَ . . اقرأْها باليقينِ والاحتسابِ يَكْفِكَ اللَّهُ ما أهمَّك .

ثالثًا : قولُ : حسبيَ اللَّه :

قال رسول اللَّه ﷺ : «**من قال حين يصبحُ وحين يمسي حسبيَ اللَّهُ**

(١) أخرجَهُ : أبو داود (٥٠٨٢)، ك : الأدب ، ب : ما يقول إذا أصبح ، والترمذيُّ (٣٥٧٥) ، ك : الدَعَوات وقال : حسنٌ صحيحٌ غريبٌ من هذا الوجه ، وقال الألبانيُّ - رحمه اللَّه تعالىٰ - : حسن .

لا إله إلا هو عليه توكلتُ، وهو ربُّ العرش العظيم، سبعَ مراتٍ؛ كفاه اللَّه كلَّ ما أهمَّه من أمرِ الدنيا والآخرةِ»[١].

أثناءَ قولِك: حسبي اللَّه؛ تدبرْ معناها.. حسبي اللَّه.. كفيلي.. لا إله إلا هو عليه توكلتُ، وهو رب العرشِ.. تخيَّل القبرَ حتىٰ يكفَيَك هَمَّ القبرِ، والصراطَ حتىٰ يكفيَك همَّ الصراطِ، وتطايرَ الصحفِ حتىٰ يكفيَك تطايرَ الصحف، والميزانَ حتىٰ يكفيَك همَّ الميزانِ، والعرضَ علىٰ اللَّهِ حتىٰ يكفيَك همَّ العَرْضِ عليه...

رابعًا: ذِكْرُ دُعاءِ الهَمِّ:

قال رسول اللَّه ﷺ: «**من قال: اللَّهُمَّ إني عبدُك وابن عبدِك وابن أَمَتِك، ناصِيَتي بيدك، ماضٍ فيَّ حُكْمُك، عَدْلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكلِّ اسمٍ هو لك سمَّيْتَ به نفسَك، أو أنزلتَه في كتابِك، أو علَّمْتَه أحدًا من خلقِك، أو استأثرتَ به في علمِ الغيب عندَك؛ أن تجعلَ القرآنَ العظيمَ ربيعَ قلبي، وشفاءَ صدري، وجَلاءَ هَمِّي وغَمِّي؛ إلا أبدَله اللَّه مكانَ الهمِّ فرجًا**». **قالوا: يا رسول اللَّه: أنتعلمها؟**، **قال:** «**ينبغي لكلِ من سمعها أن يتعلمها**»[٢]. إذًا فليزمْ كلَّ واحدٍ منكم حفظُ هذا الحديثِ.

---

(١) أخرجَهُ: أبو داود (٥٠٨١)، وقال الألبانيُّ - رحمه اللَّه تعالىٰ - في «الضعيفة» (٥٢٨٦): مُنكر، وإسناد الموقوف رجاله ثقات.

(٢) أخرجَهُ: أحمد (١/٣٩١) (٣٧١٢، ٤٣١٨)، والحاكمُ (١/٥٠٩)، وقال أحمد شاكر - رحمَهُ اللَّه تعالىٰ -: إسنادُه صحيحٌ.

خامسًا: الاستغفار:

قال رسول اللَّه ﷺ: «**من لزمَ الاستغفارَ؛ جعلَ اللَّهُ له من كلِّ ضيقٍ مَخْرَجًا، ومن كلِّ همٍّ فرجًا، ورزقَه من حَيثُ لا يحتسبُ**»[1].

سادسًا: جعلُ الهمومِ همًّا واحدًا:

قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**من جعلَ الهمومَ همًّا واحدًا همَّ الآخرةِ كفاه اللَّهُ ما أهمَّه، ومن تشعبتْ به الهمومُ لم يُبَالِ اللَّهُ به في أي أوديةِ الدنيا هلكَ**»[2].

إذًا فَهَمُّك ليلَ نهارَ هو: يا تُرىٰ هل اللَّهُ راضٍ عني أم لا؟.. هل لو مِتُّ الآن سأدخلُ الجنَّةَ أم النارَ؟.. يا تُرىٰ سأقعُ علىٰ الصراطِ أم سأمرُّ بسلام؟.. يا تُرىٰ الميزانُ أيُّ كِفَّتيه ستخِفُّ؟.. عند تطايرِ الصحفِ سآخذُ باليمينِ أم بالشمالِ؟.. هذا هَمُّكَ الرئيسُ والأساسُ: الآخرةُ.. أما همومُ الدنيا فكثيرةٌ وهيِّنةٌ علىٰ اللَّهِ، ومن تشعبتْ به عاشَ شَقِيًّا وماتَ شَقِيًّا.

سابعًا: الدعاء:

الدعاءُ سلاحُك، فادعُ اللَّهَ أن يجمعَ عليكَ شملَك ويكفيَك ما أهَمَّك، اضرعْ إليه وقل: اللَّهم فرِّغْ قلبي لك حتىٰ لا يحولَ بيني

---

(١) أخرجَهُ: أحمد، وقال أحمد شاكر - رحمَهُ اللَّه تعالىٰ -: إسناده صحيح.

(٢) أخرجَهُ: ابن ماجه، وقال عنه الألبانيُّ - رحمَهُ اللَّه تعالىٰ -: حسن «صحيح الجامع» (٦٠٦٥).

وبينك شيءٌ . . اللَّهم اجعلْ همومي همًّا واحدًا هو لك ، واجعلْ أشغالي شُغلًا واحدًا هو بك ، واجعلْ أفكاريَ فكرةً واحدةً هي فيك . . ارحمني يا ربي وجَمِّعْ شَتَاتَ قلبي . . اكفني ما أهمَّني وغمَّني . . قل : اللَّهم إني أعوذُ بك من الهمِّ والحَزَنِ . . ادعُ اللَّهَ وهو - سبحانه وتعالىٰ - قريبٌ يستجيب دعاءَ المهمومِ المضطرِ[1] .

وهكذا يا أخي في اللَّه يا طالبَ الوصولِ يكونُ الهمُّ . . فطهِّر قلبَك من همومِ الدنيا . . وكنْ صادقًا ، ولا تمكرْ باللَّهِ حتىٰ لا يمكرَ بك فتكونَ من الهالكِينَ الخاسرينَ . . اجعل همَّك الذي تعيشُ له وتعيشُ به : هو الدارُ الآخرةُ . . رضا اللَّهِ وفقط . . فلا تمكرْ وإلا فلن تصلَ إلىٰ اللَّهِ علىٰ الإطلاق .

❋ ❋ ❋

(١) ننصح هنا بقراءة الباب السادس «**الدعاء**» من كتاب «**ففروا إلىٰ اللَّه**» ذلكم الكتاب المبارك الذي كتب اللَّهُ له القَبول في الأرض ، لشيخنا الكريم أبي ذرٍّ القلموني - أثابه اللَّه .

الأصل التاسع عشر

اجْنِ العسلَ ولا تكْسرِ الخليَّة

لكلِّ بابٍ مِفتاحٌ؛ فاجْنِ العسلَ ولا تكْسِرِ الخليةَ.

بعضُ الناسِ إذا أراد أن يحصلَ على عسلٍ من خليةِ النحلِ يَدِبُّ برجلِه فيها فيُدغدغها.. مهلًا مهلًا فلها مِفتاح.. إذا كنت لا تعرف فأْتِ بمن يعرفُ حتى تأكلَ عسلًا.. وتترك الخليةَ تُخرج العسلَ مرةً ثانيةً.. لا تُكَسِّر الخليةَ.

أيها الإخوةُ، إنَّ بعضنَا حينما يسيرُ في الطريقِ إلى اللهِ ويريدُ أن يجنيَ شيئًا من الخيرِ؛ تراه يَهْجِمُ عليه بدون وعيٍ ولا امتلاكِ مفاتيح.. مفاتيح الوصولِ.. سَيكْسِبُ عسلًا ولكن لآخر مرة.. فافهم ولا تَهجِم.. وادع الله أن يرزقَك الفَهْمَ في دينِك.. اللّهم فهِّمنا ما تحبه وترضاه لنفعلَه، اللّهم بلغنا رضاك يا ربِّ.

وقد ذكرَ ابنُ القيِّم في كتابه القيِّم «**حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح**» - اللهمَّ بلِّغنا بلادَ الأفراح يا رب - ذكرَ مجموعةَ مفاتيح؛ **فقال - رحمه الله تعالى -**:

«وقد جعلَ اللَّه - سبحانه - لكلِّ مطلوبٍ مِفتاحًا يُفْتَح به؛ فجعل مفتاحَ الصَّلاة الطُّهور.. كما قال: مِفتاحُ الصلاة الطهارة.. ومفتاح

الحج الإحرام . . ومفتاح البر الصدق . . ومفتاح الجنة التوحيد . . ومفتاح العلم حسن السؤال وحسن الإصغاء . . ومفتاح النصر والظفر الصبر . . ومفتاح المزيد الشكر . . ومفتاح الولاية المحبة والذكر . . ومفتاح الفلاح التقوىٰ . . ومفتاح التوفيق الرغبة والرهبة . . ومفتاح الإجابة الدعاء . . ومفتاح الرغبة في الآخرة الزهد في الدنيا . . ومفتاح الإيمان التفكر فيما دعا اللَّه عباده إلىٰ التفكر فيه . . ومفتاح الدخول علىٰ اللَّه إسلام القلب وسلامته له . . والإخلاص له في الحب والبغض والفعل والترك . . ومفتاح حياة القلب تدبر القرآن والتضرع بالأسحار وترك الذنوب . . ومفتاح حصول الرحمة الإحسانُ في عبادة الخالق والسعي في نفع عبيده . . ومفتاح الرزق السعي مع الاستغفار والتقوىٰ . . ومفتاح العِز طاعة اللَّه ورسوله . . ومفتاح الاستعداد للآخرة قِصَرُ الأمل . . ومِفتاحُ كلِّ خير الرَّغبةُ في اللَّه والدارِ الآخرة . . ومِفتاح كُلِّ شر حبُّ الدنيا وطولُ الأمل »[1] .

قال ابنُ القيِّم : «مِفتاحُ الصَّلاةِ الطَّهُورُ» . . فلكي تصليَ كما ينبغي توضَّأْ كما ينبغي . . يقول العلماء : وإذا أخطأ الإمامُ ولُبِّسَ عليه في الصلاةِ؛ فإن هذا دليلٌ علىٰ أن من خَلْفَه لم يُحسن الوضوءَ .

فانظر كيف تؤثِّرُ طاعةُ أو معصيةُ المأمومِ علىٰ الإمامِ . . وإذا كان تأثيرُه يصلُ إلىٰ الإمامِ فما بالُك علىٰ صلاتِه هو . . إذًا حينما تقول لي : أنا أشْرُدُ بذهني في الصلاة؛ أقول لك توضأ وضوءًا بحقٍّ . . نريدُ ونحن

---

(١) حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح (٤٨) .

نتوضأ أن نُحِسَّ بمعنىٰ كلِّ حركةٍ . . فإذا غسلتَ يديك فانظر للمياهِ واستشعرْ نزولَ الذنوبِ معها . . استشعر تساقطَ الذنوبِ التي جَنَتْها يداك .

قال رسول اللّٰه ﷺ : «**فإذا غسلَ العبدُ يديه خرجت كلُّ خطيئةٍ بَطَشَتْها يداه حتىٰ تخرجَ من تحتِ أظفارِه ، فإذا تمضمضَ خرجتْ كلُّ خطيئةٍ بطشها لسانُه حتىٰ تخرجَ الخطايا من بين أسنانِه**»[1] .

تخيَّلْ وأنت تغسِلُ وجهَك . . تخيلْ الخطايا وهي تخرجُ من تحت أشفارِ عَيْنِك . . عينِك هذه التي كم جَنَت . . فتوضأْ بحقٍّ ؛ فالوضوءُ مِفتاحُ الصَّلاة . . «ومفتاحُ الحجِّ الإحرامُ» ؛ فإذا أحرمتَ كما ينبغي ؛ استمتعت بالحجِّ ؛ فحججت بحقٍّ . . المفاتيح كثيرة . .

فأمسِك المفاتيحَ يُفتحْ لك الباب ، أما إذا تَركتَ المفاتيحَ وكسرتَ الباب . . فستدخُل ؛ ولكن ستفقدُ العسلَ باقي عُمُرِك .

وللشرِّ مفاتيح :

فمِفتاحُ الزنا النَّظَرُ . ومفتاحُ النارِ الإعراضُ عن اللّٰه . ومفتاح النِّفاقِ الكَذِب . ومفتاحُ الرِّياءِ الجَدل . ومفتاحُ كلِّ إثمِ الخَمر . ومفتاحُ العِشقِ الاختلاط . . هذه مفاتيح الشر فاعرفها جيدًا .

قال ابنُ القيِّم : «كما جعل – سبحانه الشرك والكبر والإعراض عما بعثَ اللّٰه به رسولَه والغفلةَ عن ذكره والقيام بحقه مفتاحًا للنار ، وكما جعل الخمر مفتاحَ كلِّ إثم . . وجعل الغنىٰ مفتاح الزنا . . وجعل إطلاق النظر في الصور

(١) أخرجَهُ : مسلم (٢٤٤) .

مفتاح الطلب والعشق . . وجعل الكسل والراحة مفتاح الخيبة والحرمان . . وجعل الماصي مفتاح الكفر . . وجعل الكذب مفتاح النفاق . . وجعل الشُّحَّ والحرص مفتاح البخل وقطيعة الرحم وأخذ المال من غير حِلِّه . . وجعل الإعراض عمَّا جاء به الرسول مفتاحَ كلِّ بدعة وضلالة »[1] .

فلذلك - أيها الإخوة - ايتُو البُيوتَ من أبوابِها . . فإذا أتيتَ البابَ فامْلُك المِفتاحَ تَدخلْ وتَصلْ .

أيها الإخوة ، إننا بحاجةٍ إلىٰ أن نملِكَ المفاتيحَ التي نَفتحُ بها أبوابَ الخير إلىٰ اللّٰه . .

قال ابن القيِّم : « وهذا بابٌ عظيمٌ من أنفعِ أبوابِ العلمِ ، وهو معرفةُ مفاتيحِ الخيرِ والشرِ ، لا يُوفَّق لمعرفتِه ومُراعاتِه إلا من عَظُمَ حقُّه وتوفيقُه؛ فإن اللّٰه - سبحانه وتعالىٰ - جعل لكلِّ خيرٍ وشرٍّ مفتاحًا وبابًا يُدخل منه إليه »[1] .

ثُمَّ يُعَقِّبُ - رحمه اللّٰه - في نهاية كلامِه عن المفاتيح قائلًا :

« وهذه الأمور لا يُصَدِّقُ بها إلا كلُّ مَنْ له بصيرةٌ صحيحة وعقلٌ يَعْرِف به ما في نفسه وما في الوجود من الخير والشر ؛ فينبغي للعبد أن يعتنيَ كلَّ الاعتناء بمعرفةِ المفاتيح وما جُعلت المفاتيحُ له ، واللّٰه من وراء توفيقه وعدله له الملك وله الحمد وله النعمة والفضل لا يُسئل عما يفعلُ وهم يُسئلون »[1] .

---

(١) حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح (٤٩) .

أخي في اللّٰه ، هذا أصلٌ إياك أن تنساه . . لكلِّ خيرٍ بابٌ ، ولكلِّ بابٍ مِفتاحٌ . . فإن أتيت البابَ فقد أُهِّلتَ للخير فاستعِد . . **وكما يقول أهلُ الأمثالِ :** «إنما يسقطُ التُّفاحُ لمن يبحث عنه تحت الشجرة» . . فهل الذي يَبحثُ عن التفاح تحت عَمودِ الكهرباء سينزل عليه تُفاحٌ؟! . . لا يمكن . . وإنما يَنزل التفاحُ للَّذي يبحث عنه في مكانِه المناسب ، فلذلك لكلِّ خيرِ باب إذا أتيتَه فقد أُهِّلت للخير ، ولم يبقَ لك إلا أنْ تَفتحَ الباب .

وإذا كان فَتْحُ البابِ بالمفتاح ؛ فالمفتاح لابدَّ أن يكونَ له أسنان؛ قال رسول اللّٰه ﷺ : «**مِفتاح الجنَّةِ لا إله إلا اللّٰه**»[1] . . فكلُّ مفتاح له أسنان ، وأسنان لا إله إلا اللّٰه شَرائعُ الإسلام وسنُن المصطفىٰ ﷺ . . إذًا فلا تَقلْ : ربُّنا غَفور رحيم ، وتَتركُ العملَ؛ لأنك بذلك تكْسِرُ الخَلِيةَ . . فأين مفاتيحُك وأين أسنانُها؟!!

قال وهبُ بنُ مُنبِّه حين قيل له : أليس قد قال رسول اللّٰه ﷺ : «**مِفتاح الجنة لا إله إلا اللّٰه؟**» ، قال : «بلىٰ ، ولكن ليس مفتاحٌ إلَّا له أسنان ؛ فإن جئتَ بمفتاح له أسنانٌ ؛ فُتِح لك ، وإلا لم يُفتح لك»[2] .

فلذلك فإنَّ «لا إله إلا اللّٰه» لها «أسنان» . . شُروط . . حَقِقْها ليُفتَحَ لك بابُ الجنة . . فللجنَّة بابٌ ، وللبابِ مِفتاحٌ ، وللمفتاح أسنان ، وكذلك كلُّ أنواعِ الخيرِ لها أبواب .

---

(١) أخرجَهُ : أحمد (٥/٢٤٢)، والبزار (١/٩) «كشف الأستار» رقم (٢)، وإسناده ضعيف .

(٢) أخرجَهُ : البخاريُّ عن وهب بن منبه مُعَلَّقًا في كتاب الجنائز ، ب : في الجنائز ، ومن كان آخرُ كلامه لا إله إلَّا اللّٰه (٣/١٠٩ فتح) .

والقضية الخطيرة أنَّ بعضنا يَأتي بابَ الخير ثم يَرجع . . اللَّهم ثبِّتنا علىٰ الإيمان يا رب . . كثيرٌ من الناسِ أكرمَه اللَّهُ وتابَ عليه بعد أنْ كان يعملُ في الذنوب والمعاصي ، ثم عادَ وآثرَ المعصيةَ وتركَ الطاعة وابتعدَ عن طريقِ اللَّه - اللَّهم تُبْ علينا توبةً تُرضِيك ، اللَّهم إنا نَسألك توبةً من عندِك تُصلحُ بها قلوبَنا ، وتَهدي بها أفئدتَنا ، وتُنوِّرُ بها بصائِرَنَا .

أحبتي في اللَّه ، تَجدُ بعضَ الشبابِ الذين عَرفوا طريقَ الخير قد وصَلَ إلىٰ الباب فدخلَ المسجدَ وحضرَ الدروس وسمِع الشرائطَ ، فوقف بهذا علىٰ الباب ؛ وفجأةً تَجدُه قد أعطىٰ البابَ ظَهره ! . . قال الملك : ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران : ١٤٤] .

وسببُ هذا الرُّجوعِ - إخوتاه - أننا في زَمان التزيينِ . . فِتنةُ التزيينِ . . نعم : التزيينُ فِتنةٌ خطيرةٌ جدًّا في هذه الأيام . . إننا في زمانٍ يُزَيَّن فيه الباطل ، ويُجمَّلُ ، ويُظْهَرُ في صورةِ الحق فتقبلُهُ النفوس فتُفتَن .

ومن أخطر أسبابِ التزيين[1] : الهَوىٰ - اللَّهم إنا نعوذ بك من الهَوىٰ - ، وأخطرُ ما في الهوىٰ أن سُلطانَه قَويٌّ ، ومَكْرُهُ خَفيٌّ . . الهوىٰ هو المِزاج . . مِزاجُك الشخصي . . كم من أُناسٍ من حولِنا تابوا - يا رب ثبتنا علىٰ التوبة يا رب - ؛ فبدأ الواحدُ منهم يُصلي وانتهىٰ عن المَشيِ مع البنات ، وألغىٰ اسطوانات «المزيكا والديسكو» . . لكن في داخله هوًى . . في نفسِه هوًىٰ : أنه لا يزال يَودُّ أن يعصيَ ليستمتعَ بالمعصية .

فإذا قرأ في الجَرائدِ فوجد الشيخ الفلاني يُسألُ عن الأغَاني فيقول :

(١) لنا خطبة في شريط بعنوان «**فتنة التزيين**» استمِعْ إليها تُفِدْ بإذن اللَّه .

«الأغاني كالشِّعر حَسَنُهُ حَسنٌ وقبيحُهُ قَبيحٌ»؛ فماذا تتوقع منه؟!.. لا شكَّ أنه سيُفتَن بفتوىٰ مُضِلةٍ مُلبِسةٍ. وليس قولُ هذا الشيخِ: «أنا أسمعُ الغناء» بحُجَّةٍ لنفسِهِ أو لغيرِه.

الشَّاهِد: أنَّ الشَّبابَ حينما يقرأ هذه الفَتاوَي البلاوَي؛ يقول: إذًا فهي حَلالٌ، ويبدأ في تَشغيلِها لغلبةِ الهَوى، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه.

واللَّهِ - يا إخوة - إنَّ أحدَ إخوانِكم كان معي في المسجد وفي الدَّرسِ، بل وكان يَحضرُ معي في السيارة.. فُتِن - اللَّهم رُدَّه إلينا ردًّا جميلًا.. قال لي: سمعتُ قليلًا من «الغناء» وبعدها غَرِقتُ في بَحر الشهواتِ.. تاه.. ضلَّ؛ لأن المُنزَلَقَ خَطَر.. سُلطان الهَوىٰ قويٌّ.. وتَيارُهُ جارفٌ.. وأمواجُهُ تَرمي بعيدًا عن الشاطئ في داخل البَحرِ.

نعم: سُلطان الهَوىٰ علىٰ القلبِ والعقلِ قويٌّ وخَفي. تجدُ صاحبَ الهَوىٰ يقول: سأمتِّعُ نفسي بعض الشيءِ وبعض الوقتِ - يقصد بالمعصية! -، ثم إنني أعودُ إلىٰ اللَّه، إذًا فلن أتضررَ كثيرًا.. أقول لك: أنت لا تَضمنُ، فقد يَسخطُ اللَّه عليك وقتَ معصيتِك - هذه التي تستصغرُها - فتنحرِفَ وتنجرِفَ لتعيشَ في الطين.

اللَّهُمَّ ثبِّتنا علىٰ الإيمان يا رب.. اللَّهم إنا نسألك الثباتَ علىٰ الحق، والعزيمةَ علىٰ الرُّشْدِ، والغنيمةَ من كلِّ برٍّ، والسلامةَ منْ كلِّ إثم.. اللَّهم اصرفْ عنا مَكْرَ الهوىٰ والنفسِ والشيطان.

والشَّاهِد: أنَّ بعضَ الناسِ بل الكثير يأتون الباب - وهذا فضلُ اللَّه عليهم -؛ ولكنهم لا يريدون وُلُوجَه.. لا يريدون أن يَدخلوا في

الطاعة ، ويستمرُّوا فيها ويثبُتُوا عليها . . لا يريدون ذلك ؛ لأن قلوبَهم قد أُشربت الهَوى . . فتَراهم يرجعون فيولُّون الخيرَ ظُهورَهم . . لأنهم لم يَمتلِكوا من البداية مفاتيحَ الخير ؛ بل حَرصوا على مفاتيحِ الشر كالهوىٰ الذي هو مفتاحُ كلِّ مصيبةٍ . . فتجده قد أتىٰ الباب ، وها هو الباب سيُفتَح ؛ فإذ به – فجأةً – قد ولّىٰ وترك الباب!! ، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه .

فيا من تأتونَ الأبوابَ وليس معكم مفاتيحُها . . يا من لم تعرِفوا مفاتيحَها فلم تَستطيعوا أن تَصنعوا شيئًا ، دَعوني أُعطِكمْ مجموعةَ مفاتيح اجعلوها معكم واحتفِظوا بها . . وإيَّاكم أن تستعملوا هذه المفاتيحَ في باب أحدٍ غيرِ اللَّه .

هل لديك استعدادٌ الآن لتأخذَ هذه المفاتيح؟ . . وفيمَ ستأخذها؟ . . خُذها في قلبِك . . أريدك أن تُعلِّقَ هذه المفاتيح في قلبِك وتربطَها به – اللَّهم افتح قلوبنا يا رب – ؛ لأن هذه المفاتيح إذا دَخلت علىٰ قلبك بالحقِ ؛ سيُفتَحُ ، ويفْتَحُ بها أيضًا قلوبًا أخرىٰ مغلقةً .

المفاتيح :

أوَّلًا : مِفتاحُ الإجابةِ الدعاءُ :

قال عمرُ بن الخطاب ﷺ : «أنا لا أحملُ هَمَّ الإجابةِ ؛ وإنما أحملُ همَّ الدعاءِ ؛ فإني إذا أُلهمتُ الدعاءَ فإن الإجابةَ معه» .

إخوتي الشَّباب ، وأنت ساجدٌ في الصلاة ماذا طَلبتَ من اللَّه؟ ، وأيُّ الدعاءِ حضَر في قلبك؟ – اللَّهم ارزقنا حُضورَ القلب يا رب . . هل

طلبت من ربك الفِردوسَ الأعلىٰ من الجَنة؟ ، هل طلبتَ منه أن يرزقَك قيامَ اللَّيلِ؟ ، والخُشوعَ في الصلاةِ؟ ، هل طلبت منه أن يَرزقَكَ الحِلْمَ؟ . . طلبت منه التوبة؟ ، طلبت منه الإنابةَ؟ ، طلبت منه النجاةَ من الفتنِ؟ ، وأن يصرِفَ عنك الأذى؟ . . ماذا سألتَه؟!!

للأسفِ الشديد ، إنَّ أكثَرنا يدعو اللَّه وهو في غَفلةٍ . قال رسول اللَّه ﷺ : «**إن اللَّه لا يقبلُ الدعاءَ من قلبِ غَافلٍ لاهٍ**»[١] . . فلذلك إذا أردت شيئًا أو حَزَبَك أمرٌ فالدعاء مفتاحُك ، فادعُ ليُفتحَ لك . . إذًا فالإجابة باب ، ومفتاحها الدعاء ، والدعاءُ بابٌ ومفتاحُه حُضورُ القلبِ ، وأسنان المفتاحِ الإخلاص .

وإذا لم يُفتح الباب فلا تنصرفْ ولكن ظَلَّ واقفًا وحاول الفتح . . حرِّك المفتاح . . حرِّك قلبَك بالإخلاصِ . . لا تَعْجَل ولا تيأس فبِسِنَّةٍ واحدةٍ للمفتاح يمكن الفتح ، ولكن المهمَّ أن تُديمَ الإخلاصَ فلا تَتعجَّلْ؛ قال رسول اللَّه ﷺ : «**يستجاب لأحدكم ما لم يَعْجَلْ؛ يقول : دَعوتُ فلم أرَ يُستجابُ لي**»[٢] .

ثانيًا : مِفتاحُ الرَّغبةِ في الآخرة الزهدُ في الدنيا :

اللَّهم إنا نعوذ بك من الدنيا وما فيها . . الدنيا فِتنةٌ . . وفِتنةُ الدنيا

---

(١) أخرجَهُ : الحاكم في «المستدرك» (١/ ٦٧٠) ، والترمذيُّ (٣٤٧٩) ، ك : الدعوات ، ب : ما جاء في جامع الدعوات عن النبي ﷺ ، وحسَّنهُ الألبانيُّ - رحمَهُ اللَّه تعالىٰ - في «صحيح سنن الترمذي» .

(٢) **متفق عليه** : البخاريُّ (٦٣٤٠) ، ومسلم (٢٧٣٥) .

مصيبةٌ . . وإنَّ الخطرَ الأكبرَ في الدنيا تزيينُها . . تزيينُ الدنيا؛ قال الملك – جل جلاله – : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤] . . ﴿وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾ [الزخرف: ٣٥].

«دنيا» . . ماذا تعني هذه الكلمة؟ . . تعني: سيارة أغلىٰ وأفضل، وأحسن، وشقة فارهة وملايين ونساء . . ثم ماذا بعد؟! . . دُخولُ جهنم . . هذه هي الحقيقة .

فيا من لا تركبُ إلا سيارةً جديدةً لتلفِتَ نظرَ البناتِ، فَتَتْلِكَ الدنيا وتريدُ أنْ تفتِنَ الآخرين؟! . . هذه فتنةٌ علىٰ فتنةٍ، ومصيبةٌ علىٰ مصيبةٍ، أن نُفتَنَ فنفتِنَ الآخرين . . فتَذكرْ آخرتَك، تَذكَّرْ يومَ الحسابِ يومَ الوقوفِ والعرضِ علىٰ اللَّه . . يوم يُجَاءُ بجهنم ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣] . . تذكَّرْ يومَ تقولُ: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٤-٢٦].

ولكي يكون لديك رغبةٌ في الآخرة؛ ازهدْ في حُطَام الدنيا الزائلِ . . الدنيا زائلةٌ فألقِها وراءَ ظهرِك، بل ضَعْها تحت قَدَمِيك . . ونظرةٌ واحدةٌ إلىٰ مآلِك تُهوِّنُها عليك؛ فتأملْ حالَك يوم وضعِك في التراب، يوم أن تتركَ الأهلَ والأحبابَ، يوم أن تخلعَ أحسن الثيابِ، وترتدي ثيابَ الموتى . . وتَذكَّرْ فقط القُبورَ، فأهوالُها كافيةٌ لِجَعْلكَ تُقبِلُ علىٰ الآخرة؛ فتَزهَدَ في الدنيا .

إنَّ المَيّتَ إذا وُضِعَ في قبرِه كلَّمهُ القبرُ . . وهذا هو أوّلُ هولِ «تكليمُ القبرِ» . . تُكلِّمه جُدرانُ القبرِ فتقولُ له - أي المؤمن - : أما إنك كنتَ أفضلَ من يمشي على ظَهري ، أما إذ بليتُك اليوم وصرتَ إليَّ في بطني فستَرىٰ صَنيعي بك . . ثم يَضمُّه القبرُ ضَمَّةَ الأمِّ الحَنُونِ لولدِها الغائبِ - اللَّهم اجعلنا منهم يا رب - ، مثلما تَكونُ راجعًا من سَفرٍ فتضمُّك أُمُّكَ إلى حُضنِها . . أخذتكَ بشدةٍ وضمَّتَك بقوَّةٍ ؛ لكنَّها ضمَّةٌ جميلةٌ . . ضَمَّةٌ مُريحةٌ . . إنها أمُّك الأرض . . إنها أمُّك وأبوك . . أصلُكَ وفصلُك . .

أما الآخَر - يا رب استرنا يا رب ، اللَّهم ارزقنا حسن الخاتمة ، اللَّهم لا تتوفنا إلا وأنت راضٍ عنا - فيكلِّمُه القبرُ فيقول له : أمَا إنك كنتَ أبغضَ من يمشي على ظَهري . . فَتَدَّبرْ - أُخيَّ - حالَ هذين الرجلين . . فكِّرْ في اليوم الذي يضَعونَك فيه في القبر ويقفلون عليك .

كنت حاضرًا دفنَ أحدِ الإخوة - اللَّهم ارحمهُ وارحمْ مَوتىٰ المسلمين يا رب ، اللَّهم ارحمْ كلَّ ميتٍ مسلم يا حيُّ يا قَيوم - ونحن نرىٰ الرجل الذي دَفنَهُ وهو يَضعُ تُرابًا وطوبًا وطِينًا وجبسًا!!! . . ويؤكِّد القفلَ عليه!! . . سبحان اللَّه هل سيجري ويتركُ القبرَ؟! . . اتركه يا أخي لقد أوجعتَ قلبي . . سيفعلون بك مثلَ هذا في يومٍ من الأيام .

الكلُّ سيترُكك . . لن تنفعكَ زوجتُكَ ولا حبيبُتكَ وروحُ قلبِك ، «حياتك» التي ضَيَّعتَ عُمرك من أجلها وعَصيتَ ربَّك لتُرضِيَها لن تسألَ عنك . . وهم يُغْلِقُون عليك القبرَ لن تجدَ أحدًا يجلس معك ولا أحدًا يُمسك بك . أمُّك ، أبُوك ، إخْوَانُك ، أصدقاؤُك ، أحبابُك ، أموالُك . .

كلُّهم سيُسْلِمُونك ثم يذهبون للرَّاحة . . سَيَسُدُّون عليك ويُحْكِمون الغَلْقَ ويتركونَك لتظلَّ وحدَك؟ ؛ فتوهَّمْ نفسَك ، وتخيَّل حالَك .

ظُلمةٌ . . وَحْشةٌ . . خَوفٌ . . رُعبٌ . . عُريان . . وتُفاجأ بأن أحدًا يقول لك : أمَا إنك كنت أبغضَ من يمشي علىٰ ظَهري . . من أنت؟ . . ماذا جرى؟!! . . تجدُ جدرانَ القبرِ تكلِّمُك!! ، ثم بعد ذلك تأتيكَ الملائكةُ لتسألَكَ : من رَبُّك وما دِينُك ومن نبيُّك؟ ، وبعد انصرافهم تُفاجأ برجلٍ أسودِ الوَجه ، أسودِ الثوبِ ، مُنتنِ الريحِ ، فتقولُ له : من أنت؟! ، فوجهُك الوَجهُ الذي لا يَجيءُ بالخير ، يقول لك : ألا تعرِفُني ، أنا حبيبك . . عملك . .

آهٍ . . آهٍ . . آه . . واللَّهِ يكادُ القلبُ يقف نَبضُه حينما أتخيَّلُ هذا الموقف . والعجبُ - إخوتاه - أننا نسمع بهذا الكلام ونَقرأُهُ ونَستوعبُه ونَفهمه ونُعْجَبُ به ، ثم نعملُ أعمالًا ستدْخُل علينا سَودَاء : تزني . . تكذِب . . تنام عن صلاة . . تغْتاب . . تَنُمّ . . تؤذي . . تعملَ أعمالًا سيئة . . ستدخُلُ عليك وأنت في قبرِك وحدك . .

ففي أهوالِ القبرِ وظُلمتِه تنظر وتسأل : من أنت؟ ، يقول لك : أنا عَملُك الأسود . . أنا مَعاصيك ، ألا تعرفني؟!! ، أنا حبيبكَ الذي عِشتُ معك طولَ عُمرِك . . أنا عَملُك السيِّئ .

لكنَّ المصيبةَ الكبرىٰ أنه سيظلُّ معك إلىٰ يوم القيامة! ، فلو كان معك وقتًا محدودًا لهَانَ الأمرُ شيئًا . . لكن لا . . ليس غيرُه معك إلىٰ يوم

القيامة؛ لذلك فإنَّ مفتاحَ الرغبة في الآخرة الزهدُ في الدنيا، فالذي تحبُّ أن يكونَ معَك في قبرِك من هذه الدنيا فاعملْهُ[1].

أقول لكم شيئًا جميلًا: الذي يريدُ أن يكونَ قبرُه «مُكَيَّفًا»، «يُكيِّف» لنا هذا المسجد.. الذي يريد لمبة نور في قبره يَتصَدَّقُ على الفقراءِ بلمبة كهرباء.. الذي يريد أن يأكلَ ويشربَ في قبرِه يُطعمُ اليوم خَمسين مسكينًا.. شغِّل جوارحك في طاعة الله.. المصنع الذي وهبه الله لك، شغِّله في إنتاج الحسنات، ولا تُشْغِلْ نفسك بجَمْعِ الدنيا.. فالدنيا لن تنفعَك، ولن ينفعَك ما فيها إلا العمل الصالح؛ فازهدْها تَرغبْ في الآخرة.

أخي في الله، واللهِ الذي لا إله غيرُه ولا ربَّ سواه، لن تستقيمَ لك رغبةٌ في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا.. اللَّهم إنا نعوذ بك من الدنيا.

أبو طلحةَ الأنصاريُّ ﷺ كان له بُستانٌ من نَخيلٍ وأعناب، لم تَعرف المدينةُ بُستانًا أعظمَ منه شجرًا، ولا أطيبَ ثمرًا، ولا أعذبَ ماءً.. وفيما كان أبو طلحة يصلي تحت أفيائِه الظَّليلة؛ أثار انتباهَه طائرٌ غَرِدٌ أخضرُ اللَّونِ أحمرُ المِنقارِ، مُخَضَّبُ الرِّجلين.. وقد جعلَ يَتواثبُ على أفنانِ الأشجارِ طَرِبًا مُغرِّدًا مُتراقصًا.. فأعجبَه مَنظرُه، وسَبَحَ بفكرِه معه.. ثم ما لبِثَ أن رجعَ إلى نفسِه؛ فإذ هو لا يذكرُ كم صلَّى؟: ركعتين؟ ثلاثًا؟.. لا يدري.. فما أن فرغ من صلاتِه، حتى غدا على رسولِ الله ﷺ، وشَكا له نفسَه التي صَرفها البستانُ وشجرُهُ الوارفُ، وطيرُهُ الغَرِدُ

---

(١) لمزيدٍ من الكلام عن القبر وأهواله راجع كتابنا «**القبر رؤية من الداخل**»، واستمع كذلك لشريط «**أهوال القبر الستة**»، و«**القبر يتكلَّم**» لنا أيضًا؛ تُفِدْ بإذنِ الله.

عن الصلاة . . ثم قال له : اشهدْ يا رسولَ اللَّه : أني جعلتُ هذا البستان صدقةً للَّه - تعالىٰ . . فضعْهُ حيث يُحبُّ اللَّهُ ورسوله[1] .

يُذكِّرُك أبو طلحةَ في تصرُّفِه هذا بالنبيِّ سليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ الذي راح يَعْقِرُ خَيْلَه بسيفِه في سُوقِها وأعناقِها ، لمَّا شغلَه تَفَقُّدُها عن صلاتِه وتسابيحه ؛ قال - تعالى - : ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٠-٣٣] .

وهكذا تأمَّلْ - أخي في اللَّه - أبا طلحة وكيف أنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمَّا وجدَ الحديقةَ وطيورَها «الدنيا» قد شَغلته وألهَتْهُ عن اللَّه ؛ سَارعَ بتركِها والزهدِ فيها . . نعم : فمفتاحُ الرغبةِ في الآخرة الزهدُ في الدنيا . . فاللَّهم لا تجعل الدنيا أكبر هَمِّنا ولا مَبلغ عِلمنا . . اللَّهم واجعل الآخرةَ هي دارَنَا وهمَّنا ، واجعل مُنانا رِضَاك عنَّا . . اللَّهم ولا تحرمنا لَذةَ النظرِ إلىٰ وجهك الكريم . . آمين .

ثالثًا : مِفتاحُ الإيمانِ التفكرُ في آلاءِ اللَّهِ ومخلوقاتِه :

التفكير في النِّعم هو مفتاحُ الإيمان؛ قال اللَّه : ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]. قلت لأخ بكلية الهندسة : أعطاك اللَّه عقلًا . . هذا العقل نعمةٌ أم لا؟ . . نجحت في الثانوية العامة بمجموع ٩٨٪ ودخلت كلية الهندسة بِحُبِّك لها ، واجتهدتَ فتفوقتَ وعُيِّنت

(١) **متفق عليه** : البخاريُّ (٥٦١١) ، ومسلم (٩٩٨) .

مُعيدًا، ثم حصلت على الماجستير والدكتوراه.. كل هذا بهذه الدِّماغِ التي وهبها الله لك.

أعطاك نعمةَ العقلية المتفكرة هذه.. فهل استعملتَها في الوصول إليه سبحانه؟!.. استعملتَها في الدنيا كثيرًا؛ ولكن نراك لا تُشغِّلُها مطلقًا مع الله!!.. لماذا عطَّلْتها في التجارة مع الله؟!.. يا بني، إن سِكَّةَ الله تحتاجُ إلى هندسةٍ.. تحتاج إلى عقلٍ.. فشغِّل عقلك في التفكير في النِّعم والتأملِ في المخلوقات؛ لتزدادَ عظمةُ الله في قلبك.

تعلمون- إخوتي في الله- أن أنواع التوحيد ثلاثة:

توحيدُ الربُوبيةِ. توحيدُ الأُلوهيةِ. توحيدُ الأسماءِ والصفاتِ.

أما توحيدُ الربوبيةِ: فهو توحيدُ الله بأفعالِ الله؛ فالله هو الذي يُنزِّلُ المطرَ، ويحيي ويميت، يُعْطي ويَمنع، يَضُر ويَنفع، يُعز ويُذل.. لم يعارضْ فيه أحدٌ من الخلق، فلم يقل أحدٌ: إنه هو الذي خلقَ السماء والأرض، والمشركون كانوا يُقِرون بذلك.. ولم ينكرْه إلا الملاحدةُ والشيوعيون في زمانِنا، الذين انتكست فِطرتُهم فلم يُعملِوا عقولَهم.

ودائمًا أقولُ جملةً: «إنَّ عينَ أصغرِ نَملةٍ تَفقأُ عينَ أكْبَرِ مُلْحدٍ».

نقولُ له: خذ النملةَ وسلْ نفسَك: من الذي وضعَ عينَها هنا وجعلها ترى؟!.. تَفكَّرْ في خلقِها حتى لا تقولَ: خُلِقتْ صُدْفةً.

أمَّا توحيدُ الألوهيَّة: فهو توحيدُ الله بأفعالِ العباد، يعني ألا نسجدَ إلا للَّه، ولا ندعوَ إلا اللَّهَ، ولا نَنْذِرَ إلا للَّه، ولا نخافَ إلَّا من اللَّه.. صرفُ جميعِ أنواع العبادة للَّه.

وأمّا النوعُ الثالثُ فهو توحيدُ الأسماءِ والصفات: وهو أنْ تُثبِتَ للَّهِ ما أثبتَه لنفسِه، وما أثبته له رسولُه ﷺ.

فالربوبيَّةُ - كما قلتُ - لم يخالفْ فيها أحدٌ؛ ولذلك تجدُ كثيرًا من الإخوةِ لا يهتمُّ ولا يعبأُ بتوحيدِ الربوبية.. يقولُ: ليس هناك مشكِلةٌ، أهمُّ شيءٍ توحيدُ الألوهيَّةِ، نعم: هذا صحيحٌ، ولكنَّ الربوبيةَ هي المدخلُ وهي المَوقِدُ للألوهيَّةِ، فكلَّما ازداد القلبُ تأمُّلًا وتفكُّرًا في نعمِ اللَّه، في النفس والكون؛ ازدادَ شكرًا وعبادة للَّه[1].

ولذا أسألُ: متىٰ كانت آخرُ مرةٍ نظرتَ فيها إلىٰ السماء؟!.. أقول- وللأسفِ الشديد -: لقد أصبحنا في زمان يُحوِّل أهلُه الطاعاتِ إلىٰ معاصٍ.. فأصبح لا ينظرُ إلىٰ السماءِ إلا «الحَبِّيبَةُ»، فيقولون: «أنا بِتُّ أَعُدُّ النجومَ».. ويظلُّون ينظرون إلىٰ القمرِ.. معاصٍ.. فأين المتأمِّلُون المتدبِّرون بحقٍّ، أين أصحابُ العقولِ اللَّبيبةِ المتفكِّرة؟!!

إخوتاه، البحرُ من آياتِ اللَّه، فهل تَأَمَلْتُمُوه؟!!.. إن ولدًا علىٰ البحرِ ذاقَ المياه فوجدها مالحة جدًّا، فسأل أمَّه: من الذي وضع مِلحًا في البحر؟!.. فجلستُ أفكِّرُ: مَنِ الذي وضع مِلحًا في البحر؟!.. ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الفرقان: ٥٣].. أجاجٌ: مِلحٌ.. مَن الذي فعل هذا؟.. سبحانَه هو الملكُ.. انظرْ إلىٰ نهرِ النيل وذُقْ ماءَه، سبحان اللَّه.. الفرقُ شاسع.. ماء وماء لكنَّ الطبيعةَ مختلفة!!

---

(١) ننصح هنا بقراءة الفصل الطويل والجميل الذي كتبه ابن القيم رحمه الله عن التأمل في النفس والكون من كتابه القيِّم «**مفتاح دار السعادة**»، وكذلك كتاب «**التفكر**» من «**إحياء علوم الدين**» لأبي حامد الغزالي رحمه الله.

مَنِ اليومَ ينظرُ إلىٰ البحر؟! . . لا أحدَ . . سوىٰ أصحابِ مصائف السوء . . ينظرون نظرَ عصيانٍ وخيانةٍ . . حوَّلوا الطاعات إلىٰ معاصٍ . . لا يقفُ علىٰ النيل اليومَ أحدٌ يسبِّح اللَّه . . الكل يعصي أمام نعمةٍ تُبهرُ العقولَ وترقِّقُ القلوبَ . . ولا يعني هذا أنْ نقفَ معهم؛ بل ينبغي أن نبحثَ عن أماكنَ أخرىٰ خاليةٍ من المعاصي نتأملُ فيها نِعمَ اللَّه .

اخرجْ إلىٰ حديقةٍ أو إلىٰ الغيطانِ الواسعةِ وتأملْ أنواعَ الزهور والزروع، وسبِّح اللَّه . . أمسكْ بزهرةٍ وتأملْها . . تأملْ أنواعَ الطيور . . تأملْ ألوانَ الزروعِ واختلافَها في الأحجامِ والألوانِ والثمار، فهذا مُرٌّ علْقم بجوارِ آخر حُلوٍ لذيذ، وهذا أخضرُ بجوار آخرَ أحمر . . سبحان اللَّه . . مع أنَّ الكل يُروىٰ من ماءٍ واحد وفي أرضٍ واحدة، إنها يدُ اللَّه التي تضبِطُ وتُسيِّر وتُقدِّر كلَّ شيء بقدرِه . . فسبحانه سبحانه . . سبحانه من إلهٍ عظيمٍ . . سبحانه من خالقٍ جميل .

واللَّهِ - يا شباب - لقد كنتُ في سفرٍ قطعتُ فيه أربعَمِئةٍ وخمسين كيلو مترًا لم يَكُفَّ لساني عن التسبيحِ؛ مما أرىٰ من بديعِ خلقِ اللَّه . . عظيمٌ خلقُ اللَّه . . جميلٌ خلقُ اللَّه . . جمالٌ من جمال!! سبحان اللَّه .

لذا أُريدك أن تنظرَ وتتأمّل . . فاصعدْ إلىٰ سطحِ منزلكم اللَّيلةَ واستلقِ علىٰ ظهرِك، ولا تنظر يَمْنَةً أو يَسْرَة . . انظر إلىٰ السماءِ فقط . . انظرْ إلىٰ النجوم والكواكبِ وأجزاء الكون . . يزيدُ هذا في قلبِك عظمةَ اللَّه . . فتُحِسُّ بأنوارٍ عظيمةٍ تملأُ قلبَك . . أريدك أن تذهبَ إلىٰ مكانٍ فيه جبالٌ وتنظرَ للجبالِ، انظرْ يمينَها وشِمالَها وفوقَها وتحتَها . .

"

جرِّبْ وقل : سبحان اللّه ! . . جرِّبْ ، ولا تعصِ اللّهَ بنعمِ اللّه . . فلا تذهبْ إلىٰ البحرِ في الصيف ، بل اذهب في الشتاء حيث لا أحدَ . . اذهبْ لعملِ عمرةٍ ، وهذه دعوة إلىٰ مَصِيفٍ جديد في مكةَ المكرمة - اللّهم ارزقْنا الحجَّ والعمرةَ ، وتابعْ لنا بين الحجِّ والعمرة ، اللّهمَّ لا تحرمْنا من الحجِّ والعمرةِ .

يذهبُ العصاةُ إلىٰ الشواطئِ في الصيفِ ، فاذهبْ أنتَ إلىٰ الكعبة ، اذهبْ إلىٰ المدينةِ . . اجلسْ أمامَ الكعبةِ وتأمّل الجلالَ والبهاء . . تأمّلْ وأنتَ مسافرٌ بالطائرةِ أو الباخرةِ أو بالحافلة برًا . . تأمّلْ خلقَ اللّه ، استمتع بالبحرِ وأنت مسافرٌ ، استمتعْ ببلادِ اللّه وبساتينِهَا الجميلة . . تأملْ لتزدادَ عظمةُ اللّه في قلبِك ، لتذوقَ حلاوةَ الإيمان ، ولذّةَ الإيمان وطعمَ الإيمان .

رابعًا : مِفتاحُ الدُّخولِ علىٰ اللّه إسلامُ القلبِ للّه :

نريدُ أن ندخلَ علىٰ اللّه . . فمَنْ منكم يريدُ أن يدخلَ؟ . . لا زِلْنا واقفين منذ زمنٍ نتفرَّجُ . . ودائمًا أقول : أنا دلّالٌ علىٰ بضاعةِ اللّه ، ولكنَّ الزبائنَ من نوعيةِ أهلِ عصرِنا يتفرَّجُون ولا يشترون . . فمَنْ يشتري الجنَّة؟ . . مَن منكم - يا شبابُ - يريد أن يدخلَ علىٰ ربِّه .

قال - تعالىٰ - حاكيًا عن الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ﴾ [البقرة: ١٣١] . . أسلِمْ ؛ أسلمْتُ . . هذه هي القضيَّة . . قال - تعالىٰ - : ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ [البقرة: ١٢٤]. هذه هي قضيةُ الدخولِ علىٰ اللّه . . أنك تسمعُ للأمرِ فتقول : أسلمْتُ . . وتسمعُ للنهي فتقول : أسلمتُ . . تُنفِّذُ المطلوبَ . . أسلمتُ . . تمامَ

الاستسلام . . أن تكونَ مع اللّه بادئ الرأي؛ قال الملكُ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ [الحجرات : ١].

أحدُ الناسِ كان مستجابَ الدعوةِ ، وكان عليه دَيْنٌ فقال له ابنُه : هلَّا دعوتَ اللّهَ أن يقضيَ دينَك ، فرفعَ يديهِ إلىٰ السماءِ ، وقال : اللَّهم اغفرْ لي وتبْ عليَّ ، فقال له ابنُه : يا أبتِ ، ادعُ اللّهَ بقضاءِ الدينِ ؛ فقال : «يا بنيَّ إذا غفرَ ذنبي قضَىٰ ديني» . اللَّهم اغفر ذنوبَنا ، واقضِ ديونَنا . . هذه هي القضية : تعلُّقُ القلبِ باللّه . . ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ﴾ . . فأسلِموا - إخوتاه - فمِفتاحُ الدخولِ علىٰ اللّهِ إسلامُ القلبِ للّهِ .

كثيرٌ من الشبابِ الذين يرجعون عن كلامِهم فيتركونَ طريقَ الوصولِ إلىٰ اللّه ، إنما رجعوا وتركوا الطريقَ ؛ لأن قلوبهم لم تُسلِم بعد . . قلبُه لا يزالُ مشغولًا بالبناتِ . . بالدنيا . . بالهموم . . بالمالِ . . بالزواجِ . . باللَّعبِ . . بالفُسَحِ . . بالتنزهِ . . باللُّبسِ . . لكن إذا أسلمَ القلبَ للّهِ؛ أصبحَ أحبَّ شيءٍ إليه طاعةُ اللّه .

إنَّ الشبابَ إذا التزمَ وكان لا يزالُ في قلبِه هوًىٰ - نعوذ باللّه تعالىٰ من الهوىٰ - فلابد أن يقع في المعاصي مرَّةً أخرى .

قيل لابن الجوزي : ما بالُنا إذا ملأنا الكُذْنُبَ لا يَبْرُدُ ، وإذا أنقصناه يَبرُدُ ، قال : «لتعلموا أن الهوىٰ لا يدخلُ إلا علىٰ ناقصٍ» . . فلا تكن ناقصًا ، كُنْ ممتلئ القلب بالإيمان حتىٰ لا يدخلَ عليك الهوى ، زِدْ في إيمانك ليَسْلَمَ قلبُك للّهِ . . فمِفتاحُ الدخولِ علىٰ اللّه إسلامُ القلبِ للّه وسلامتُه له . . اللَّهم ارزقْنا قلوبًا سليمةً يا رب .

كثيرٌ منا قلبُه مُفَتتٌ . . مقطَّعٌ . . مُكَسَّرٌ . . فمع البناتِ والشَّقَّةِ والسيارةِ واللُّبسِ والمظاهرِ . . مع «تسريحتهِ» والكُليةِ والأصحابِ والجيرانِ . . دنيا . . بعضُنا قلبُه مشتتٌ بين الشُّغلِ والشركةِ والديونِ والأموالِ والرصيدِ وتأمينِ المستقبلِ و . . و . . قال رسول اللَّه ﷺ : «**من كانت الدنيا هَمَّه فرَّق اللَّه عليه شملَه ، وجعلَ فقرَه بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتبَ له**»[1] .

نعم – إخوتاه – سلامةُ القلبِ للَّه . . وأنا لا أقول لك : لا تلبسْ حسنًا . . لا . . بل البسْ وتعطَّرْ واركب سيارةً واثنتين وثلاثةً . . ليست هذه القضيةَ . . القضيةُ أن يكونَ قلبُك مشغولًا باللَّه لا بالسياراتِ . . تزوَّجْ واحدةً ومثنىٰ وثلاثَ ورباعَ؛ لكن لا يكن قلبُك مشغولًا بالنساءِ . . احصلْ علىٰ شهاداتٍ وماجستير ودكتوراه؛ لكن لا يكن قلبُك مشغولًا بالمناصبِ . . اجعل قلبَك مشغولًا باللَّهِ . . اللَّهم لا تشغلنا إلا بك .

انظر ماذا يقول ربُّك . . آية تُشيِّبُ النواصي ! ! . . ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ۝ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧-٨] . . تدَّبرْ هذه الآيَةَ وأعِدْ قراءتها مراتٍ لتعرفَ حقيقةَ ما أنت فيه . . فإيَّاك أنْ ترضَىٰ بالدنيا ، وتركنَ إليها ، وتغفلَ عن اللَّه .

كثيرٌ من الناسِ اليومَ يقولُ : الحمدُ للَّه ، ماذا يَنقصُني؟ ! ، أنا لا أريدُ

---

(١) أخرجَهُ : الترمذيُّ (٢٤٦٥) ، وصحَّحَهُ الألبانيُّ – رحمه اللَّه تعالىٰ – في «الصحيحة» برقم (٩٤٩ ، ٩٥٠) .

من اللَّه شيئًا . . يا مسكينُ ، أنت مُحتاجٌ إلىٰ اللَّه في كلِّ شيء . فما أنتَ فيه دنيا ، فافهم؛ ولذلك لا يَرىٰ بها إلا الأدنىٰ منها ، أما الموحِّدُ فلا يُرضيه إلا رؤيةُ وجهِ اللَّهِ - تعالىٰ - في الجنة . . اللَّهم اجعلنا من الموحِّدين ، اللَّهم متِّعنا بالنظر إلىٰ وجهِك الكريمِ ، اللَّهم لا تحرمْنا من النظرِ إلىٰ وجهِك الكريمِ . . آمين .

نعم - أيها الإخوة - مِفتاحُ الدخولِ علىٰ اللَّهِ إسلامُ القلبِ وسلامتُه للَّه ، والإخلاصُ له في الحبِّ والبغضِ والفعلِ والتركِ - اللَّهم ارزقنا الإخلاصَ في القولِ والعملِ . . هذا مِفتاحٌ كبير جدًّا . . الإخلاصُ للَّه في الحبِّ والبغضِ . . فأنت تحبُّ الأخَ الفلاني . . لماذا تحبه؟ . . هذه هي القضيةُ . فأحببْ للَّهِ واكرهْ للَّه؛ فبتحقيقِ هاتين الكلمتين يكون قلبُك قد أسلمَ للَّه وسَلِمَ للَّهِ .

إذًا؛ فإسلامُ القلبِ للَّهِ وسلامتُه له من الغيرِ يكون بالإخلاصِ له - سبحانه - في الحبِّ والكُرهِ . . فعندما أكرهُ أكرهُ للَّه وعندما أُحبُّ أُحبُّ للَّه ، وكذلك الفعلُ والتركُ ، فحينما أفعلُ أفعلُ للَّه ، وحينما أتركُ أتركُ للَّه . . هذا هو مِفتاحُ الدخولِ علىٰ اللَّه؛ فاجْنِ العسلَ ولا تكسِر الخليةَ .

خامسًا : مِفتاحُ حياةِ القلوبِ ثلاثةٌ :

أوَّلُها : تركُ الذنوب . وثانيها : التَّدَبُّر للقرآن . وثالثها : التَّضَرُّع بالأسحار .

أوَّلًا - ترك الذنوب :

يقولُ ابنُ القيِّم في «الفوائد» تحت عنوان «تركُ الذنوبِ أوَّلًا» :

«العارفُ لا يأمرُ الناسَ بتركِ الدنيا ؛ فإنهم لا يقدرون علىٰ تركِها؛

ولكن يأمرهُم بتركِ الذنوبِ مع إقامتهم علىٰ دنياهم ، فتركُ الدنيا فضيلة ، وتركُ الذنوبِ فريضةٌ ، فكيف يُؤْمَرُ بالفضيلةِ من لم يُقِم الفريضةَ! ، فإن صَعُبَ عليهم تركُ الذنوبِ فاجتهِدْ أن تُحبِّبَ اللَّهَ إليهم بذكر آلائِه وإنعامِه وإحسانِه وصفاتِ كمالِه ونعوتِ جلالِه ؛ فإنَّ القلوبَ مفطورةٌ علىٰ محبتِه ، فإذا تعلقتْ بحبه هانَ عليها تركُ الذنوبِ والإصرارُ عليها والاستقلالُ منها ، وقد قال يحيىٰ بنُ معاذٍ : طلبُ العاقلِ للدنيا خيرٌ من تركِ الجاهلِ لها »(١) .

إن الذنوبَ تَخْنِقُ القلوبَ . . المعاصي تقتلُ القلوبُ . . الذنوبُ تُميتُ القلوبَ . . قالَ ابنُ القيِّم عن نتائِج المعصية :

« قلةُ التوفيقِ ، وفسادُ الرأيِ ، وخفاءُ الحقِّ ، وفسادُ القلبِ ، وخمولُ الذِّكْرِ ، وإضاعةُ الوقتِ ، ونَفرةُ الخَلْقِ ، والوَحشةُ بين العبدِ وبين ربه ، ومنعُ إجابةِ الدعاءِ ، وقسوةُ القلبِ ، ومَحْقُ البركةِ في الرزقِ والعُمُرِ ، وحِرمانُ العلمِ ، ولباسُ الذلِّ ، وإهانةُ العدوِّ ، وضيقُ الصدرِ ، والابتلاءُ بقرناءِ السوءِ الذين يُفسدون القلبَ ويضيِّعون الوقتَ ، وطولُ الهمِّ والغمِّ ، وضَنْكُ المعيشةِ ، وكَسْفُ البالِ . . تتولدُ من المعصيةِ والغفلةِ عن ذكرِ اللَّهِ كما يتولدُ الزرعُ عن الماءِ والإحراقُ عن النارِ ، وأضدادُ هذه تتولد عن الطاعةِ »(٢) .

إنَّ الشَّابَّ الذي فُتِنَ – اللَّهم رُدَّهُ إلىٰ الالتزام ردًّا قريبًا ، اللَّهم ثبِّت قلوبَنا علىٰ الإيمانِ – قال : سأستمعُ إلىٰ بعض الأغاني ثم أدخلُ علىٰ « الإنترنت » ،

(١) الفوائد (١٧٥) .
(٢) الفوائد (٣٧) .

ثم أستمعُ شريطًا للشيخ فلانٍ حبيبي . . وسأحضُرُ للشيخ فلانٍ الدرسَ القادمَ . . وهو ذاهبٌ للشيخ قابلَتْه بنتٌ فظلَّ يتكلمُ معها حتىٰ وصلت الحالُ إلىٰ حدِّ الزنا علىٰ الهواء . . ففُتن - اللَّهم نجِّنا من الفتنِ ما ظهرَ منها وما بَطَنَ . . فُتنَ لذنبِهِ الأوَّل . . فبذنبٍ لم يتركْه قتَل قلبَه . . وضيَّع نفسَه .

يقولُ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ : «ما ضُرب عبدٌ بعقوبةٍ أعظمَ من قسوةِ القلبِ والبُعدِ عن اللَّه» .

ويُوضِّحُ - رحمه اللَّه - الطريقَ إلىٰ صفاءِ القلب فيقول : «من أرادَ صفاءَ قلبِه فليؤثر اللَّهَ علىٰ شهواتِه ، القلوبُ المتعلِّقةُ بالشهواتِ محجوبةٌ عن اللَّه بقدرِ تعلُّقِها بها ، القلوب آنيةُ اللَّه في أرضِه ، فأحبُّها إليه أرقُّها وأصلبُها وأصفاها ، شغَلُوا قلوبَهم بالدنيا ، ولو شغَلُوها باللَّه والدارِ الآخرة لجالتْ في معاني كلامِه وآياته المشهودة ، ورجعتْ إلىٰ أصحابِها بغرائب الحِكَم وأطراف الفوائد ، إذا غُذِّي القلبُ بالتذكر وسُقي بالتفكر ونُقِّي من الدَّغَل؛ رأىٰ العجائبَ وأُلهم الحكمةَ ، ليس كل من تحلَّىٰ بالمعرفةِ والحكمةِ وانتحلَها كانَ من أهلِها؛ بل أهلُ المعرفةِ والحكمة الذين أحيَوا قلوبَهم بقتلِ الهوى ، وأما مَن قتَل قلبَه فأحيىٰ الهوى؛ فالمعرفةُ والحكمةُ عاريةٌ علىٰ لسانِه»[1] .

نعم - إخوتاه - : تركُ الذنوبِ حياةُ القلوب . . اترك الذنبَ ؛ فالذنبُ يقتُل القلبَ . . يقتُلُه . . أقولُ لأحدهم : لماذا لا تقومُ باللَّيل؟ ، يقول : أنامُ مقتولًا لا أستطيع حِراكًا ، قلتُ له : مِنَ الذنوب .

---

(١) الفوائد (١٠٥) .

قيل لأحد السَّلف : كيف أستعينُ علىٰ قيامِ الليل؟ ؛ قال : « لا تَعْصِهِ بالنهار يُقِمْك باللَّيل » . . إذا رأيت قيامَ اللَّيل ثقيلًا عليك ؛ فاعلم أنَّك محروم مُكبَّل . . كَبَّلتْكَ خطاياك . . مُكتَّف . . قيَّدتْك ذنوبُك ، فاتركْها وتبْ منها ليحيا قلبُك .

ثانيًا – التَّدَبُّرُ للقرآن :

يا أخي في اللَّه يا طالبَ كليةِ الهندسةِ ، ويا حبيبي في اللَّه يا طالبَ كليةِ الطب ، ويا أخي في اللَّه يا طالبَ كليةِ التجارة . . يا من تحُلُّ أصعبَ المسائلِ ، عقلُك الجميلُ هذا ماذا فهمتَ به من القرآن؟!

أحدُ الإخوة قال لي : قرأت في الجريدة لكاتبٍ يقول : إن اللَّه أمر الرجال بإدناء الثياب مثل النساء ، فقال – تعالى – : ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩] !! . . قلت : أعاقلٌ هذا؟!! . . نون النسوة يا أخي! . . أين العقل؟! . . ألا يوجد فَهْم؟! . . حتىٰ عقولَهم لا يُعْمِلُونها!!

ولذا؛ أريدُك أن تفهمَ وتتدبرَ القرآنَ؛ ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩] . . تدبرْ . . تدبر القرآنَ . لقد قام رسول اللَّه ﷺ بآية يرددُها : ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] .

وقام تميمٌ الداريّ ليلةً بهذه الآية : ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١] .

وقام سعيد بن جُبير ليلةً يردِدُ هذه الآيةَ : ﴿وَٱمۡتَـٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]. أي تميَّزوا وانفردوا عن المؤمنين .

ومحمدُ بنُ المُنْكَدِرِ يسأله أبو حازم عن البكاءِ طيلةَ ليلِه ، فيقول : آيةٌ من كتابِ اللَّهِ أبكتْني ؛ ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] .

وقال بعضُهم : إني لأفتتحُ السورةَ فيوقِفُني بعضُ ما أشهدُ فيها عن الفراغِ منها حتىٰ يطلعَ الفجرُ . وكان بعضهم يقول : آيةٌ لا أتفهمها ، ولا يكون قلبي فيها لا أَعُدُّ لها ثوابًا .

ويقول أبو سليمان الداراني : إني لأتلو الآيةَ فأقيمُ فيها أربعَ ليالٍ أو خمسَ ليالٍ ، ولولا أني أقطعُ الفكرَ فيها ما جاوزتُها إلىٰ غيرِها . قال - تعالى - : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ [ق: ٣٧] .

يقولُ ابنُ القيِّم - رحمه اللَّه تعالىٰ - في «الفوائد» تحت عنوان «قاعدة جليلة : شروط الانتفاع بالقرآن» :

«إذا أردتَ الانتفاعَ بالقرآن فاجمعْ قلبَك عند تلاوته وسماعه ، وألْقِ سمعَك ، واحضَرْ حضورَ من يخاطبه به من تكلم به - سبحانه - منه إليه ؛ فإنه خطابٌ منه لك علىٰ لسان رسوله ، قال - تعالىٰ - : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ [ق: ٣٧] .

وذلك أن تمامَ التأثيرِ لمَّا كان موقوفًا علىٰ مُؤَثِّرٍ مقتضٍ ، ومَحَلٍّ قابلٍ ، وشرطٍ لحصولِ الأثرِ وانتفاءِ المانعِ الذي يمنعُ منه؛ تضمنت الآيةُ ذلك كلَّه بأوجزِ لفظٍ وأبينِهِ وأدَّله علىٰ المرادِ . فقوله : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ﴾

إشارةٌ إلىٰ ما تقدم أولَ السورةِ من هاهنا . وهذا هو المُؤثِّرُ ، وقولُه : ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ فهذا هو المَحَلُ القابلُ ، والمرادُ به القلبُ الحيُّ الذي يعقِلُ عن اللَّهِ ، كما قال – تعالى – : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٦٩-٧٠]؛ أي : حيُّ القلبِ . وقولُه : ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] أي : وجَّهَ سمعَه ، وأصغىٰ حاسةَ سمعِهِ إلىٰ ما يُقال له ، وهذا شرطُ التأثرِ بالكلامِ .

وقوله : ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ؛ أي شاهدُ القلبِ حاضرٌ غيرُ غائبٍ .

قال ابن قتيبةَ : «استمعَ كتابَ اللَّهِ وهو شاهدُ القلبِ والفَهمِ ، ليس بغافلٍ ولا ساهٍ . وهو إشارةٌ إلىٰ المانعِ من حصولِ التأثيرِ ، وهو سهوُ القلبِ وغيبتُه عن تعقُّلِ ما يقال له والنظَرِ فيه وتأملِه . فإذا حصلَ المُؤثِّرُ وهو القرآنُ ، والمَحَلُ القابلُ وهو القلبُ الحيُّ ، ووُجدَ الشرطُ وهو الإصغاءُ ، وانتفىٰ المانعُ وهو اشتغالُ القلبِ وذهولُه عن معنىٰ الخطابِ وانصرافُه عنه إلىٰ شيءٍ آخَر؛ حَصَلَ الأثرُ وهو الانتفاعُ والتذكرُ» .

ويواصلُ ابنُ القيِّم حديثَه الممتع فيقول : «فصاحبُ القلبِ يجمعُ بين قلبِه وبين معاني القرآنِ ، فيجدُها كأنها قد كُتبتْ فيه ، فهو يقرؤها عن ظهرِ قلبٍ . ومن الناسِ من لا يكون تامَّ الاستعدادِ ، واعيَ القلبِ ، كاملَ الحياةِ ، فيحتاجُ إلىٰ شاهدٍ يُميِّزُ له بين الحقّ والباطلِ ، ولم تبلُغْ حياةُ قلبِه ونورُه وزكاءُ فِطْرتِهِ مَبْلغَ صاحبِ القلبِ الحيِّ الواعي؛ فطريقُ حصولِ هدايتِهِ أن يُفرِّغَ سمعَه للكلامِ ، وقلبَه لتأملِهِ والتفكرِ فيه ، وتعقُّلِ معانيه؛ فيعلمَ حينئذٍ أنه الحقُّ»[1] .

---

(١) الفوائد (٥ – ٦) .

إخوتاه، افهموا القرآنَ وتدبَّروه.. افتحوا قلوبَكم وأسماعَكم وأبصارَكم له.. لقد كان المدرِّسُ يقولُ لنا: إذا ذاكرتَ الموضوعَ من الكتابِ فأغلقْه ثم اكتبْ في ورقةٍ خارجية ما فهمتَه.. فهل سألتَ نفسَك مرةً بعد أن فرغتَ من التلاوةِ: ماذا فهمْتُ؟، ما الذي انغرسَ في قلبي من معاني القرآن؟، بماذا خرجتُ اليومَ من القرآن؟

إن أكثرَنا اليوم - أيها الإخوة - يأتي إلىٰ القرآنِ وهو مُغْلَقُ القلبِ تمامًا.. لا يُريد أن يفتحَ قلبَه؛ فلا ينتفعُ بالقرآن؛ لأنه لا يُريد أن يُتعبَ نفسَه في التدبر، ومن كانت حاله هكذا فإنه يأتي القرآن فلا يخرج منه بشيء؛ بل وربما خرج من جَلستِه وقد أصابه المللُ من القرآن؛ لأنه يأتيه في أوقاتٍ لا يكون قلبُهُ فيها متهيئًا، وفي ظروفٍ لا تكونُ نفسُه فيها هادئةً.

إخوتاه، إن أردتم الحياةَ لقلوبِكم؛ فلابدَّ أن تفهموا مُجْمَلَ القرآن وموضوعَ القرآن، ومُرادَ القرآن[1].. لابُدَّ أن تتأمَّلوا كلام اللَّه وما يحويه؛ لتخرجوا منه بمعرفةِ اللَّه وحبِّ اللَّه، وتقوَىٰ قلوبُكم في السيرِ إلىٰ اللَّه.

يقولُ ابنُ القيِّم تحت عنوان «فائدة: محتوىٰ خطابِ القرآن»:

«تأمَّلْ خطابَ القرآن تجد مَلِكًا له المُلْكُ كُلُّه، وله الحمدُ كلُّه، أَزِمَّةُ الأمورِ كلُّها بيدِه ومصدرُها منه ومردُّها إليه، مستويًا علىٰ سَريرِ مُلكِه،

(١) ننصح هنا بقراءة كتاب «**تيسير اللَّطيف المنَّان في خلاصة تفسير القرآن**»، للعلَّامة السَّعْدِي - رحمه اللَّه تعالىٰ.

لا تخفَىٰ عليه خافيةٌ في أقطارِ مملكتِه ، عالمًا بما في نفوسِ عبيدِه ، مُطَّلِعًا علىٰ أسرارِهم وعلانيتِهم ، منفردًا بتدبيرِ المملكة ، يسمعُ ويَرَى ، ويُعطِي ويَمنَعُ ويُثيبُ ويعاقبُ . ويُكرِم ويُهينُ ، ويخلقُ ويرزق ويُميتُ ، ويُقدِّرُ ويقضي ويدبِّرُ . الأمورُ نازلةٌ من عنده ، دقيقُها وجليلُها ، وصاعدةٌ إليه لا تتحرَّكُ في الكونِ ذرةٌ إلا بإذنه ، ولا تسقطُ ورقةٌ إلا بعِلْمِه .

فتأمَّلْ كيف تجدُه يُثني علىٰ نفسِه ويُمجِّدُ نفسَه ، ويَحْمَدُ نفسَه ، وينصحُ عبادَه ، ويدُلُّهم علىٰ ما فيه سعادتُهم وفلاحُهم ويرغِّبُهم فيه ، ويحذِّرهم ممَّا فيه هلاكُهُم ، ويتعرَّفُ إليهم بأسمائِه وصفاتِه ، ويتحبَّبُ إليهم بنعمِهِ وآلائِه . فيذكِّرُهم بنعمِه عليهم ويأمُرهم بما يستوجبون به تمامَها ، ويحذِّرُهم من نقمه ويذكِّرهم بما أعدَّ لهم من الكرامةِ إنْ أطاعوه ، وما أعدَّ لهم من العقوبةِ إن عصَوْه . ويخبرُهم بصُنعهِ في أوليائِه وأعدائِه وكيف كان عاقبةُ هؤلاءِ وهؤلاء .

ويُثني علىٰ أوليائِه بصالحِ أعمالِهم وأحسنِ أوصافِهم ، ويَذُمُّ أعداءَه بسيِّئِ أعمالِهم وقبيحِ صفاتِهم . ويضرِبُ الأمثالَ وينوِّعُ الأدلةَ والبراهين . ويُجيبُ عن شُبَهِ أعدائِه أحسنَ الأجوبة ، ويُصدِّقُ الصادقَ ويُكذِّبُ الكاذبَ ، ويقول الحقَّ ويهدي السبيلَ .

ويدعو إلىٰ دارِ السلام ، ويذكُر أوصافَها وحُسنَها ونعيمَها ، ويحذِّرُ من دارِ البَوَارِ ويذكُر عذابَها وقُبحَها وآلامَها ، ويذكِّر عبادَه فقرَهم إليه وشِدَّةَ حاجتِهم إليه من كلِّ وجهٍ ، وأنهم لا غنَىٰ لهم عنه طرفةَ عينٍ ، ويذكرُ غنَاه عنهم وعن جميع الموجوداتِ ، وأنه الغنيُّ بنفسِه عن كل ما سواه ، وكل

ما سواه فقيرٌ إليه بنفسِه ، وأنه لا يَنالُ أحدٌ ذرَّةً من الخيرِ فما فوقَها إلا بفضلِه ورحمتِه ، ولا ذرَّةً من الشرِّ فما فوقَها إلا بعدْلِه وحِكمتِه .

ويشهدُ من خطابِه عتابَه لأحبابِه ألطفَ عِتابٍ ، وأنه مع ذلك مُقِيلٌ عثراتِهم ، وغافرُ زلاتِهم ، ومُقيمٌ أعذارَهم ، ومُصلحٌ فسادَهم ، والدافعُ عنهم ، والمُحامي عنهم ، والناصرُ لهم ، والكفيلُ بمصالحِهم ، والمُنجِي لهم من كلِّ كَرْبٍ ، والمُوفِي لهم بوعدِه ، وأنَّه وليُّهم الذي لا وليَّ لهم سواه ، فهو مَوْلاهم الحقُّ ونصيرُهم علىٰ عدوِّهم ، فنعمَ المولىٰ ونعمَ النصير .

فإذا شَهِدَتْ القلوبُ من القرآنِ مَلِكًا عظيمًا رحيمًا جَوَادًا جميلًا هذا شأنُه؛ فكيف لا تحبُّه وتنافسُ في القربِ منه ، وتنفقُ أنفاسَها في التودُّدِ إليه ، ويكونُ أحبَّ إليها من كلِّ ما سواه ، ورضاه آثَرُ عندها من رضا كلِّ ما سواه؟! ، وكيف لا تَلْهَجُ بذكرِه ويصيرُ حبُّه والشوقُ إليه والأنسُ به هو غذاؤها وقُوتُها ودواؤُها بحيثُ إن فُقِدَ ذلك فسدتْ وهلكتْ ولم تنتفعْ بحياتِها؟! »[1] .

ثالثًا – التَّضَرُّعُ بالأسحار :

أريدُكَ أن تقومَ سَحَرًا ، وتتوضَّأَ والدنيا سُكُونٌ والكلُّ نائمٌ . . سبحان اللَّه ! ، كم منكم مَن يَوَدُّ أن يقابِلَ الشيخَ فلانًا ويجلسَ معه ويكلِّمَه ويملأَ عينيه منه . . ألا تَوَدُّ أن تقابلَ ربَّك ، وتجلس معه وحدَك قبلَ الفجر؟!؛ لتقولَ له : اللَّهمَّ باعِد بيني وبين خطاياي كما باعدتَ بين المشرقِ والمغرب . . بعد أن تملأَ قلبك بـ «اللَّهُ أكبر» .

(١) الفوائد (٣١ – ٣٢) .

واللهِ - يا إخوتاه - إنَّ للمناجاةِ في جوفِ اللَّيلِ لذةً لا تضاهيها لَذَّاتُ الدنيا بأسرِها . . أنْ تناديَ ربك - سبحانه وتعالىٰ - حينما تقفُ بين يديه في ذلٍّ وخشوعٍ وانكسارٍ وهيبةٍ لتقول دعاء الاستفتاح : «وجَّهتُ وجهِيَ للَّذي فَطَرَ السماواتِ والأرضَ حنيفًا مسلمًا وما أنا من المشركين . . ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣] .

صلِّ وأسْمِعْ نفسَك التِّلاوةَ . . في غُرفتِك . . في الشُّرْفة . . فوقَ السُّطوحِ . . أو في المسجد تحت البيتِ عندكم . . سَتُحِسُّ أنك تُكلِّمُ اللَّه . . تُناديه . . تُناجيه . . تشعرُ بأنَّ هناك سِرًّا بينك وبينَه . . ستُحِسُّ بوجودِ علاقةٍ . . علاقةِ وُدٍّ وحبٍّ وقُرب . . ما أجملَه من لقاءٍ . . ما أعظمَه من وقوفٍ . . وأبهاهُ من حديث . . إنه لقاءٌ مع المَلِك . . الرحمن . . حين تستشعرُ ذلك الموقفَ وأنك مع اللَّهِ . . سيفيض عليك ساعتَها بالرحماتِ . .

فتضرَّعْ بالأسحار ؛ فهذا الوقت غالٍ لا تعوِّضُهُ أموالُ الدنيا . . تضرَّعْ لتَحمِيَ قلبَك . عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول اللَّه ﷺ : «**مَن قامَ بعشرِ آياتٍ لم يُكتَبْ من الغافلين ، ومَنْ قامَ بمِئَةِ آيةٍ كُتبَ من القانتِين ، ومَنْ قامَ بألفِ آيةٍ كُتبَ من المُقَنْطِرين**»[1] . . والمقنطرون : هم من كُتب لهم قنطارٌ من الأجر ، والقنطارُ - كما جاء في حديث فُضالةَ بنِ عُبيدٍ وتَميمٍ الداريِّ عند الطبرانيِّ - : «خيرٌ من الدنيا وما فيها» .

---

(١) أخرجَهُ : أبو داود (١٣٩٨)، وصحَّحه الألبانيُّ - رحمه اللَّه تعالىٰ - في «صحيح الجامع» برقْم (٦٣١٥) ، وانظر «الصحيحة» أيضًا (٦٤٢) .

عبدُ العزيز بنُ سلمانَ، كانت رابعةُ - رحمها اللّٰه - تُسمِّيه: «سيدُ العابدين».. كان رَحِمَهُ اللّٰهُ يقول: ما للعابدينَ وللنَّوم!!، لا نومَ واللّٰهِ في دار الدنيا إلا نومٌ غالِب.. ويقول عنه ابنُه محمد: كان أبي إذا قام من اللَّيل ليتهجَّدَ؛ سمعتُ في الدارِ جَلَبَةً شديدةً، واسْتِقاءَ للماءِ الكثير. قال: فنرىٰ أنَّ الجنَّ كانوا يستيقظون للتهجُّدِ فيُصَلُّونَ معه.

وهذه عَجْرَدَةُ العَمِيَّة - رحمها اللّٰه.. قال عنها رجاءُ بن مسلم العبدي: كنا نكون عند عجردةَ العَميَّة في الدار، فكانتْ تُحيي اللَّيلَ صلاةً، وربما قال: تقومُ من أوَّلِ اللَّيلِ إلىٰ السَّحَر، فإذا كان السَّحرُ نادتْ بصوتٍ لها محزون: إليكَ قطعَ العابدونَ دُجَىٰ اللَّيالي، بتكبير الدُّلَجِ إلىٰ ظُلَمِ الأسحارِ، يستبقون إلىٰ رحمتِك وفضلِ مغفرتِك، فبكَ إلهي لا بغيرِك أسألُك أنْ تجعلَني في أوَّلِ زُمْرةِ السابقينَ إليك، وأن ترفَعني إليكَ في درجةِ المقرَّبينَ، وأن تُلحِقَني بعبادِك الصالحينَ، فأنتَ أكْرَمُ الكُرماءِ، وأرحمُ الرحماءِ، وأعظمُ العظماءِ. ثم تخِرُّ ساجدةً، فلا تزالُ تبكي وتدعو في سجودِها، حتىٰ يَطْلُعَ الفجرُ، فكان ذلك دأبُها ثلاثينَ سنة.

وقيل لعفيرةَ العابدةِ: إنكِ لا تنامين اللَّيلَ، فبكتْ وقالت: ربما اشتهيتُ أن أنام فلا أقدرُ عليه، وكيفُ ينامُ أو يقدرُ علىٰ النومِ من لا ينامُ عنه حافظاه ليلًا ولا نهارًا؟!

هؤلاء نساءٌ!!؛ فأين أنتم يا رجالُ؟!!.. يا حسرةً علىٰ الرجالِ!!

وخلاصة ما سبق : اتركْ ذنوبَك أوَّلًا ، ثم أقبِلْ علىٰ كتابِ اللَّه تلاوةً وفَهمًا وتدَبُّرًا . . فاتْلُه بخشوعٍ وتحزُّنٍ لتَصْهَرَ قلبَك فَيُنفَىٰ خَبَثُه ، ثم تضرَّعْ إلىٰ ربِّك بالأسحارِ لتعيشَ النعيمَ وتذوقَ لذةَ المُنَاجَاة . . يحيا بذلك قلبُك ، فَيَصْمُدَ في السيرِ إلىٰ اللّهِ . . فاملُكْ هذا المِفتاحَ ولا تُفرِّطْ فيه ؛ حتىٰ لا تكسِرَ الخليَّةَ فيضيعَ منكَ العسلُ .

وهكذا . . أخي السَّائر علىٰ طريق الوصولِ إلىٰ اللّه . . ينبغي عليك أن تعتنيَ كُلَّ الاعتناء بمعرفةِ «علم المفاتيح» ؛ لتَجنيَ العَسَلَ فلا تكسرُ الخَليَّة .

* * *

الأصل العشرون

«وَمِن كلِّ شيءٍ خلقنا زوجينِ لعلكم تذكَّرون فَفِرُّوا إلىٰ الله»

قال - تعالى - : ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٤٩-٥٠]. قالَ ابنُ كثيرٍ - رحمهُ اللَّهُ تعالى - : أي : جميعُ المخلوقاتِ أزواج : سماءٌ وأرضٌ وليلٌ ونهارٌ وشمسٌ وقمرٌ وبرٌّ وبَحْرٌ وضِياءٌ وظلامٌ وإيمانٌ وكفرٌ وموتٌ وشقاءٌ وسعادةٌ وجنةٌ ونارٌ حتىٰ الحيواناتُ والنباتاتُ؛ ولهذا قال - تعالى - : ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي : لتعلموا أنَّ الخالقَ واحدٌ لا شريكَ له ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي : الْجأوا إليه واعتمدوا في أمورِكم عليه ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ اهـ .

وقالَ صاحبُ الظلالِ - رحمه اللَّهُ تعالىٰ - : «وفي ظِلِّ هذه اللَّمساتِ القصيرةِ العبارة ، الهائلةِ المَدَى : في أجوازِ السماءِ ، وفي آمادِ الأرض ، وفي أعماق الخلائقِ . يهتِفُ بالبشر ليفرُّوا إلىٰ خالقِ السماءِ والأرضِ والخلائقِ ، متجردينَ من كلِّ ما يُثقِلُ أرواحَهم ويقيِّدُها؛ موحدين اللَّه الذي خلق هذا الكونَ وحده بلا شريك .

﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠-٥١] . . والتعبير بلفظ الفِرارِ عجيبٌ حقًّا . وهو يوحي بالأثقال والقيود والأغلال والأوهاق ، التي تَشُدُّ النفسَ البشرية إلىٰ هذه الأرض ، وتُثْقِلُها عن الانطلاقِ ، وتحاصِرُها وتأْسِرُها وتدعُها في

عِقالٍ . وبخاصة أوهاق الرزقِ والحرصِ والانشغالِ بالأسباب الظاهرة للنصيب الموعود . ومن ثَمّ يجيءُ الهِتَافُ قَوِيًّا للانطلاق والتَّمَلُّصِ والفرارِ إلىٰ اللَّه من هذه الأثقال والقيود! ، الفرارُ إلىٰ اللَّه وحده مُنَزَّهًا عن كلِّ شَريك . وتذكيرُ الناس بانقطاع الحُجَّة وسقوط العُذر : ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ . . وتكرارُ هذا التنبيه في آيتين متجاورتين، زيادةٌ في التنبيه والتحذير! »(١) .

إخوتاه، ففرُّوا إلىٰ اللَّهِ . . اقْتَرِبوا من طريق اللَّه . . تعالوا خطوةً واحدةً إلىٰ اللَّه . . ضعوا أَرْجُلَكم علىٰ أولِ الطريق . . أعينونا علىٰ أنفسِكُم بالوقوفِ علىٰ رأسِ الطريق واللَّهُ يأخذُ بأيديكم .

أرُوْا اللَّهَ مِنْ أنفسِكم خيرًا ، فلقد كتبَ اللَّهُ - جَلّ جَلالُه - سُنَّةً من سننه في خلقه : أنَّ مَنْ تَقَرَّبَ إليه تقرَّبَ - سبحانه - إليه ، ومَنْ ابتعدَ عنه ابتعدَ - سبحانه - عنه . . ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] . . ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] . . فمن تابَ تاب اللَّهُ عليهِ وأَحَبَّهُ ، ومن بَذَلَ جُهدَه واستفرغَ وُسْعَه في طاعةِ اللَّه ؛ أعانَه اللَّهُ وسَدَّده . . هذه قاعدةٌ . . سُنَّة مُسلَّمةٌ . . فلا تَنَمْ عن الطاعاتِ ثم تقول : لو كان اللَّهُ يُحبني لهداني . . لا . . بل تَعالَ وهو يَهدِيك .

وقد سمَّىٰ ابنُ القيِّم - رحمه اللَّه - هذا الأصل لِقاحًا . . مثل حُبوبِ اللِّقاح . . فقال - عليه رحمةُ اللَّه - في «الفوائد»(٢) :

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٣٨٦) .
(٢) الفوائد (٣٤٦ - ٣٤٧) .

* «الطلبُ لِقاحُ الإيمان ، فإذا اجتمع الإيمان والطلب أثمرا العمل الصالح .

* وحُسْنُ الظنِّ باللّٰه لِقَاحُ الافتقار والاضطرار إليه ، فإذا اجتمعا أثمرا إجابةَ الدعاء .

* والخشيةُ لقاحُ المحبة ، فإذا اجتمعا أثمرا امتثالَ الأوامرِ واجتنابِ المناهي .

* والصبرُ لقاحُ اليقين ، فإذا اجتمعا أورثا الإمامةَ في الدين ؛ قال تعالىٰ : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] .

* وصحة الاقتداء بالرسول لقاحُ الإخلاص ، فإذا اجتمعا أثمرا قبولَ العمل والاعتداد به .

* والعملُ لقاحُ العلم ، فإذا اجتمعا كان الفلاحُ والسعادة ، وإن انفرد أحدهما عن الآخر لم يُفِدْ شيئًا .

* والحلمُ لقاحُ العلم ، فإذا اجتمعا حصلت سيادةُ الدنيا والآخرة ، وحصل الانتفاع بعلم العالم ، وإن انفرد أحدهما عن صاحبه فات النفعُ والانتفاع .

* والعزيمةُ لقاحُ البصيرة ، فإذا اجتمعا نال صاحبُهما خيرَ الدنيا والآخرة ، وبلغت به همّته من العلياء كلَّ مكان . فتخلُّفُ الكمالاتِ إما من عدمِ البصيرة ، وإما من عدمِ العزيمة .

* وحسنُ القصد لقاحٌ لصحةِ الذهن ، فإذا فُقدا فُقِدَ الخيرُ كلُّه ، وإذا اجتمعا أثمرا أنواعَ الخيرات .

* وصحةُ الرأي لقاحُ الشجاعة ، فإذا اجتمعا كان النصرُ والظفر ، وإن فُقِدا فالخذلان والخيبة ، وإن وجد الرأيُ بلا شجاعة فالجبنُ والعجز ، وإن حصلت الشجاعة بلا رأي فالتهوُّر والعَطَب .

* والصبرُ لقاحُ البصيرة ، فإذا اجتمعا فالخير في اجتماعهما . قال الحسن : إذا شئتَ أن ترىٰ بصيرًا لا صبرَ له رأيته ، وإذا شئتَ أن ترىٰ صابرًا لا بصيرةَ له رأيته ، فإذا رأيتَ صابرًا بصيرًا فذاك .

* والنصيحةُ لقاحُ العقل ، فكلما قَوِيتْ النصيحة قَوِيَ العقلُ واستنار .

* والتذكُّر والتفكُّر كلٌّ منهما لقاحُ الآخر ، إذا اجتمعا أنتجا الزهدَ في الدنيا والرغبةَ في الآخرة .

* والتقوىٰ لقاحُ التوكل ، فإذا اجتمعا استقامَ القلب .

* ولقاحُ أخْذِ أُهْبَّةِ الاستعدادِ للِّقاءِ قِصَرُ الأمل ، فإذا اجتمعا فالخيرُ كُلُّهُ في اجتماعِهما والشرُّ في فُرقتهما .

* ولقاحُ الهمّةِ العالية النيّةُ الصحيحة ، فإذا اجتمعا بلغ العبدُ غايةَ المُرَاد» اهـ .

فالقضيةُ إذًا تَحْتَاجُ إلىٰ تلقيح . . أقصِدُ قضيةَ السَّيْرِ إلىٰ اللّٰهِ والوصُولِ إليه . . نعم : الوصولُ يَحْتاجُ إلىٰ لقاحات . . وتعالوا الآن - إخوتي في اللّٰه - لنَشْرَعَ في شرحِ أهمِّ هذه اللقاحات :

الأوّل : لِقاحُ الاستعدادِ للقاءِ اللّٰه قِصَرُ الأمل :

قال ابن القيِّم : «ولقاحُ أخذ أَهُبَّةِ الاستعداد للقاءِ قِصَرُ الأمل ، فإذا اجتمعا فالخيرُ كلُّه في اجتماعهما والشرُّ في فرقتهما» .

وأسألُك : لو خُيِّرت ، متىٰ تُحِبُّ أن تَموت؟ . . سؤالٌ ينبغي أن يفرض نَفْسَه عليك . . متىٰ تحبُّ أن تموت؟ . . قال أحدهم : الآن ، فقلت له : أَمتأهب؟! . . أخاف عليك؛ لأن اللّٰه يقول : ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] . . وقال آخرُ : أخافُ أن أقابلَه فَأَجدَ أمورًا لم أكن أتوقَّعُها . . أشياءَ لم أَضَعْهَا في حُسْباني . . لم أكنْ أنتَظِرُها . . هناك قضايا ومشاكلُ تنتظرُني سَيُحَاسِبَني اللّٰهُ عليها لا أعرفُها . . ولذلك فأنا خائفٌ .

معاذُ بن جبل لما جاءَه الموتُ قال : «مرْحَبًا بالموتِ مرْحَبًا ، زائرٌ مُغِبّ وحبيبٌ جاء علىٰ فَاقَةٍ ، لا أَفْلَحَ مَنْ نَدِم» . . فمعاذ إذًا مُتَأَهِّبٌ ومستَعِدٌّ .

حذيفةُ بنُ اليمان لما جاءَه الموتُ قال : «يا موتُ غُطَّ غَطَّك ، يا موتُ شُدَّ شدَّك ، أَبَىٰ قلبي إلا حُبَّك» . . يُحبُّ الموتَ لأنه مُتجهزٌ ومُسْتَعِدٌّ ، فهل أنت متجهِّزٌ؟!! . . هل أنت مستعدٌّ لمقابلةِ اللّٰهِ الآن؟! . . ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] . . ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ [الزمر: ٤٨] . . وجدوا المَكْسَبَ سيئاتٍ!

فلقاحُ أَخْذِ الأَهُبَّةِ أن تكونَ سائرًا في الطريق إلىٰ اللّٰه بحَذَرٍ وتيقُّظ ؛ فتخشىٰ أن يأتيَكَ الموتُ بغتة . . فعِشْ يومَك الذي أنت فيه معتقدًا

وجازمًا أنه آخرُ يومٍ لكَ علىٰ الدنيا . . عِشْ الدنيا كما عاشها رسولُ اللّه ﷺ . . عِشْ كما عاشَ ومُتْ كما ماتَ . . قال النبيُّ ﷺ : «**مالي وللدنيا ، ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استَظلَّ بِظلِ شَجرة ثم راحَ وتركَها**»[1] ؛ ولذلك «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابرُ سبيلٍ» . . هذا شعاره ﷺ .

واعلم أنَّ الأمانيَّ بحرُ المفاليس . . نعم : إنَّ الذي يَبِيتُ ظانًّا أنه سيقوم غدًا . . طويلُ الأمل وغيرُ مستعدٌ للقاء اللّه . . ولذلك إذا قَصُرَ أملُكَ في الدنيا فقد لقَّحْتَ استعدادَك للموت . . فيحصل الصدق وتسيرُ إلىٰ اللّه بذلك . . بهذا تكون مُستَعِدًا .

الثاني : لِقَاحُ الهِمَّةِ العاليةِ النيةُ الصَّحيحة :

اللّهمَّ ارزقنا عُلُوَّ الهِمّة . . أحدُ إخوانِنا كان يحفظُ القرآنَ ، ثم بدأ في الصيف في دورة علمية فالتزم فيها ، وفجأة تركَ الدورةَ . . قال : لقد وجدتُ أنَّ الاهتمامَ بالدورة قد شغلني عن القرآن . . ولماذا يا بُنيّ لا يكونُ الاثنانِ معًا؟! . . أين الهمةُ العاليةُ؟! . . أنت في الكليةِ تدرس ست مواد أو ثمانية في الفصل الواحد ، وتذاكرها جميعًا ؛ بل وتحصل علىٰ امتيازٍ . . لماذا لا تكونُ هِمتُنا عَالِيةً أيضًا في طلب علمِ الكتابِ والسُّنَّة ، وفي العبادةِ والدعوةِ إلىٰ اللّه؟!!

ثم إنَّ الهمَّة العالية وحدَها لا تكفي ؛ بل كثيرًا ما تجني علىٰ أصحابها فتجرُّهم إلىٰ الوراء . . فالذي لديه همةٌ عالية بدون نيةٍ صالحة تجده مُبتلَىٰ

---

(١) أخرجَهُ : أحمد ، وصحَّحَهُ الألبانيُّ - رحمه اللّه تعالى - في «الصحيحة» برقم (٤٣٨) .

بالعُجْب والغُرورِ والرِّضَا عَنِ النَّفْسِ ، والكِبْرِ والازْدِرَاءِ للآخرين واحتقارِهم . . إذًا فلقاحُ الهِمَّة وزوجُها : النيةُ الصالحة . . اللَّهمَّ ارزقنا حُسْنَ النِّيَّة .

والهِمَّة نعمة ، واستقْلَالُك لنعم اللَّهِ عليك يُسقِطُكَ من عينِ اللَّه . . لذلك إذا رزقَكَ اللَّهُ همةً عاليةً فلقِّحْها بنيةٍ صالحةٍ ؛ لتحفظَ النعمةَ وتستقيمَ علىٰ الطريق .

يقول ابن القيم : «ولقاحُ الهمة العالية النيةُ الصالحة ، فإذا اجتمعا بلغَ العبدُ غايةَ المرادِ» . . أحسِنْ نيتَك في همتِك تكن الهمةُ صالحةً ؛ فتصلَ إلىٰ الجنة العالية .

الثالث : التقوىٰ لقاحُ التوكل :

قال ابن القيم : «والتقوىٰ لقاحُ التوكلُ ، فإذا اجتمعا استقامَ القلبُ» .

التقوى : تركُ ما تهوَىٰ لما تخشى . . فالذي يمشي في الشارع فلا ينظر يَمنةً أو يَسْرَة ، بل آخرُ حدودِ عينه خطوة أو خطوتان . . هذه تقوى ؛ لأنه سلكَ طريقًا كلُّها أشواكٌ ، فإذا نظر في أي اتجاه وجد بَلْوَىٰ ومُصيبة ، ولذلك فهو دائمًا يمشي علىٰ الشَّوكِ بالتقوى . . فإذا وجد اثنين يتكلمان فلا يحاول أن يَعْرفَ فيمَ يتكلمان . . فهذه تقوى .

قيل لأحدهم : هل سلكت طريقًا ذا شوك؟ ، قال : نعم ، قيل : ماذا صنعت؟ ، قال : شمَّرتُ واجتهدت ، قيل له : فتلك التقوى : التشمير والاجتهاد . . أن تعيش هذه الحياة ماشيًا علىٰ الشوك ، فتكون شديدَ الحذر .

ولقاحُ هذه التقوىٰ وزوجُها التوكلُ . . أن تتوكلَ علىٰ اللَّه وأنت تسيرُ

علىٰ الشوكِ، قال اللَّه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

ويتحدث ابنُ القيم عن حقيقةِ التوكلِ في إحدىٰ درجاته العالية فيقول:

«اعتمادُ القلبِ علىٰ اللَّه، واستنادُه إليه، وسكونُه إليه.

بحيث لا يبقىٰ فيه اضطرابٌ من تشويشِ الأسباب، ولا سكونٌ إليها، بل يخلعُ السكونَ إليها من قلبه، ويُلبسُه السكونَ إلىٰ مسببها. وعلامة هذا: أنه لا يبالي بإقبالِها وإدبارِها، ولا يضطرب قلبُهُ ولا يُخفِق عند إدبار ما يُحب مِنها وإقبالِ ما يَكْره؛ لأن اعتمادَه علىٰ اللَّه، وسكونَه إليه، واستنادَه إليه، قد حصَّنه من خوفها ورجائها، فحالُهُ حالُ من خرج عليه عدوٌّ عظيم لا طاقةَ له به، فرأىٰ حِصْنًا مفتوحًا، فأدخله ربُّه إليه، وأغلقَ عليه بابَ الحصنِ، فهو يُشَاهِدُ عدوَّه خارِجَ الحصنِ؛ فاضطرابُ قلبِه وخوفُه من عدوِّه في هذه الحال لا معنىٰ له.

وقد مُثِّل ذلك بحالِ الطفلِ الرضيعِ في اعتمادِهِ، وسكونهِ، وطمأنينتهِ بثدي أمه لا يعرف غيرَه، وليس في قلبه التفاتٌ إلىٰ غيره، كما قال بعضُ العارفين: المتوكلُ كالطفلِ، لا يعرفُ شيئًا يأوي إليه إلا ثديَ أمه، كذلك المتوكل لا يأوي إلا إلىٰ ربه سبحانه»[1].

إذًا فلِقاحُ التقوىٰ التوكلُ؛ فلابد للمتقي من صدق التوكل علىٰ اللَّه وإلا فهي حذرٌ مجرَّد دون نيةٍ صالحة، فيقع في المحذور وهو أتقىٰ ما يكون، فتجد هذا المغبون الذي فقد التوكل مع التقوىٰ رغم تحرِّيه

(١) تهذيب مدارج السالكين (٢/ ٥٤٠).

وشدةِ اتقائِه يقع في كبائرَ يعافُها الفساق . . ألم تر إلىٰ مُصَلٍّ قوَّام صوَّام يأكل أموال الناس بالباطل !! . . وأمثال ذلك كثير لاعتماده علىٰ التقوىٰ وعدم توكله علىٰ اللّٰه ؛ فلابد منهما معًا . فبهما معًا يكفيك اللّٰه ما أهمَّك من عقباتِ الطريقِ ، فيوصِلُك ويبلِّغُك إليه .

الرابع : التذكُّر والتفكُّر كلٌّ منهما لقاحُ الآخَر :

قال ابن القيِّم : «والتذكُّر والتفكُّر كلٌّ منهما لقاحُ الآخر ، إذا اجتمعا أنتجا الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة» .

فالتفكرُ في مخلوقاتِ اللّٰه مع الذكرِ زوجانِ لا يفترقانِ . . تأمَّلْ وقل : سبحان اللّٰه! . . فإذا ذكرتَ اللّٰه تفكَّرْتَ ، وإذا تفكَّرتَ ذَكَرْتَ . . نعم : الذِّكْر يصفِّي القلب ، فيجعله لا يمرُّ علىٰ شيءٍ إلا تعقَّله وتأمَّلَ فيه . . وكذلك التفكر يقوِّي القلب فيجعله هائِمًا دومًا بذكر اللّٰه . . فاحْرِصْ - أُخَيَّ - علىٰ هذين اللِّقاحَيْنِ في طريق السير إلىٰ اللّٰه يزهِّداكَ في الدنيا ويرغِّباكَ في الآخرة ويساعِدَاكَ كثيرًا في الوصولِ إلىٰ اللّٰهِ - تعالىٰ .

الخامس : الصبرُ لِقاحُ البصيرة :

قال ابن القيِّم : «الصبرُ لقاحُ البصيرةِ ، فإذا اجتمعا فالخيرُ في اجتماعهما . قال الحسن : إن شئتَ أن ترىٰ بصيرًا لا صبرَ له رأيته ، وإذا شئتَ أن ترىٰ صابرًا لا بصيرةَ له رأيته ، وإذا شئت أن ترىٰ صابرًا بصيرًا فذاك» . . فذاكَ الرَّجُلُ . . اللّٰهم اجعلنا من رِجالِك .

صبرٌ مع بصيرة . . أن ترىٰ الحقَّ فتعرفه ، وترىٰ الباطل فتعرفه . . أن تعرفَ الحقَّ من الباطل وتصبرَ عليهما حتىٰ تصلَ إلىٰ اللّٰه - عز وجل .

السادس : العزيمةُ لقاحُ البصيرة :

يقول ابن القيِّم : «والعزيمةُ لقاحُ البصيرةِ ، فإذا اجتمعا نالَ صاحِبُهما خَيْرَ الدنيا والآخرة ، وبلغت به هِمَّتُهُ العَلْيَاءُ كلَّ مكانٍ . فتخلُّفُ الكمالاتِ إمَّا من عدمِ البصيرةِ وإمَّا من عدمِ العزيمة» .

البصيرة : أن يرىٰ قَلْبُك الحقَّ فيعرفُه ، فإذا رأىٰ الحقَّ عزمَ عليه فعاشَ عليه ، ثم تَحْدُثُ لك عزيمةٌ ثانية علىٰ ترك الباطل فتبتعدَ عنه .

السابع : حُسْنُ الظنِّ باللَّه لِقَاحُ الافتقارِ والاضطرارِ إليه :

يقول ابن القيم : «وحسنُ الظنِّ باللَّه لِقاحُ الافتقارِ والاضطرارِ إليه ، فإذا اجتمعا أثمرا إجابةَ الدعاءِ» .

حسن الظن . . وتأملِ هذا الحديث : «إن رجلًا بُعِث فحوسب فَثَقُلَتْ موازينُ سيئاته ، فقال اللَّه : خذوه إلىٰ النار ، فصار يلتفتُ ، فقال اللَّه : رُدّوه ، فقال اللَّه : عبدي ، هل وجدت سيئةً في صحيفتك لم تَعْمَلْها ، قال : لا يا رب ، قال : فما بالك تلتفت ، قال : ما هذا ظني فيك يا رب ، فقال اللَّه : خذوه إلىٰ الجنة» . . اللَّهم ارزقنا الجنة . . لم يكن ظني بك يا رب أنك ستدخلني النار ، بل كان ظني أنك سترحَمُني وتُدْخِلُني الجنة . . كان هذا ظني فيك يا رب .

قال اللَّه – عز وجل – في الحديث القدسي : «**أنا عند ظن عبدي بي فليظن عبدي ما شاء**»[1] . . فما ظنُّك باللَّه ، العذاب أم الجنة؟ . . اللَّهم

(١) أخرجَهُ : أحمد (٣/ ٤٩١ ، ٤/ ١٠٦) ، والطبرانيُّ (٢٢/ ٨٧) ، وصحَّحَهُ الألبانيُّ – رحمهُ اللَّه تعالىٰ – في «صحيح الجامع الصغير» برقْم (٤١٩٢) .

استرنا يا رب . . وإذا كنتَ تظن به خيرًا فهل عَمِلتَ خيرًا؟! . . وهل تَصْلُح وهل تستحق لأن يدخلَك الجنة؟! . . اصْدُقْ مع الله يرحمْك ويُنْجِك .

حاوِلْ أن تكونَ مُستحِقًّا لِأَن يُحِبَّكَ اللَّهُ ، فاضْبِطْ نفسَك على طاعتِه . . فحسنُ الظنِ مع سوءِ العمل لا ينفعُ صاحبَه ، فضلًا عن أنه سوءُ أدبٍ مع اللَّه ، قال الحسنُ : «إن قومًا غَرّتهم الأماني قالوا : نحن نُحْسِنُ الظنَّ باللَّه وكَذَبُوا ، لو أَحْسنوا الظنَّ لأحسنوا العمل» .

فكيف تُحسنُ ظَنَّك باللَّه وأنت تُحارِبُه ، وتُعاديه بالمعاصي؟! . . كيف وأنت مُوَلِّهِ ظَهْرَك؟! . . كيف وأنت لا تَذْكُرُه؟! . . كيف وأنت لا تَقْرأ كلامَه ولا تُنَفِّذُ أوامرَه وأحكامه؟! . . كيف وأنت لا تطيعُه؟! . . كيف تُحْسِن الظنَّ باللَّه وأنتَ تفعلُ كُلَّ ما نهاك عنه؟! . . إن الأمرَ - إخوتاه - ليس لَعِبًا ؛ قال - تعالى - : ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ [الطارق: ١٤] .

فأحسِنْ الظنَّ بحقٍّ ؛ فاعمل . . أحْسِنْ الظنَّ ؛ فحسنُ الظنِ لِقاحُ الافتقارِ والاضطرارِ . قال اللَّه : ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢] . .

يا رب ، ليس لي إلا أنت . . افتقارٌ واضطرار . . يا رب ، لو وَكَلْتَنِي إلى نفسي فسأَضِلّ ، فلا تَكِلْني إلى نفسي طَرْفةَ عَيْنٍ أبدًا ولا أَقلَّ من ذلك . . خُذ بيدي يا رب . . لا تسلطْ عليَّ أعداءَك فأنا ضعيفٌ . . لا تُسلِمْني للعصاةِ والمذنِبين فأنا مَفْتونٌ وضعيف . . يا رب!

سيدُنا يُوسُف افتقرَ إلى ربه فقال : ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ [يوسف: ٣٣] . . فقل : يا رب . . قل : ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠] . . افتقِرْ إلى اللَّه في كلِّ شيء . . يا رب ؛ لا أعرف أصليَ فعلِّمْنِي . .

يا رب، القرآنُ ثقيلٌ عليَّ فَسَهِّلْه لي.. يا رب، لا أقوم اللَّيلَ ولا أصلي الفجرَ فبأي وجهٍ أُقَابِلُك، فخذْ بيدي.. يا رب، المعاصي تملأُ الأرضَ، وكلما مَشَيْتُ وقعتُ، فخذ بيدي.. يا رب.. يا رب.. هذا هو حال المؤمن، كمَثَلِ رجلٍ في البحرِ علىٰ خشبةٍ يقول: يا رب.. يا رب؛ فاللَّهم سَلِّمْنا وارْضَ عَنَّا.. اضطرارٌ وافتقار مع حسنِ ظنٍّ أنه لن يُخَيِّبَ رجاءك فيه؛ فيأخذَ بذلك يدَك ويبلِّغَكَ المطلوب.

الثامن: الخشيةُ لِقَاحُ المحبَّةِ:

قال ابن القيِّم: «والخشية لقاحُ المحبَّة، فإذا اجتمعا أثمرا امتثالَ الأوامرِ واجتنابَ المناهي».

قال سهل: خوفُ الصدِّيقين من سوء الخاتمة عند كلِّ خطْرةٍ وعند كل حركةٍ، وهم الذين وصفهم اللَّه - تعالىٰ -؛ إذْ قال: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

لما احتضرَ سفيانُ الثوري جعل يبكي، فقيل له: يا أبا عبد اللَّه، عليك بالرجاء؛ فإنّ عفو اللَّه أعظم مِن ذنوبك، فقال: أو علىٰ ذنوبي أبكي؟!، لو علمتُ أني أموت علىٰ التوحيد لم أبالِ بأنْ ألقىٰ اللَّه بأمثال الجبال مِنَ الخطايا.

وقال ثابت البُناني: ما شرِبَ داود عَلَيْهِ السَّلَامُ شرابًا بعد المغفرة إلا ونصفُهُ ممزوجٌ بدموعِ عينَيْه.

وهذا الصحابي الجليل عبد اللَّه بن عمرو بن العاص يقول: «لَأَن أدمع دَمعة مِن خشيةِ اللَّه أحبُّ إليَّ من أنْ أتصدَّقَ بألف دينارٍ».

وقالت ابنة الربيع بن خُثَيْم : «كنت أقول لأبي : يا أبتاه ، ألا تنام ؟! فيقول : يا بُنيّة ، كيف ينام مَن يخافُ البَيَات ؟!

وقال الحسن - رحمه اللَّه - : يحقّ لمن يعلم أن الموت موردُه ، وأن الساعة موعدُه ، وأن القيام بين يدي اللَّه - تعالىٰ - مشهدُه أن يطولَ حزنُه .

«قال يوسف بن أسباط : كان سفيان الثوري إذا أخذ في ذكْر الآخرة يبول الدم»[1] .

وعن زيد بن أبي الزرقاء قال : حُمل ماءُ سفيانَ إلىٰ طبيبٍ في عِلَّته ، فلما نظر قال : هذا ماء رجلٍ قد أحرق الخوفُ جوْفَه[2] .

إخوتاه ، طوبىٰ لقلوبٍ ملأتْها محبَّةُ اللَّه فخافَتْه .

حكيم بن حِزام سيِّدٌ شعارُه الحبُّ . . كان رضي الله عنه يطوف بالبيت ويقول : لا إله إلا اللَّه ، نِعْمَ الرب ونِعْمَ الإله ، أُحبُّه وأخشاه[3] .

وقال هَرَمُ بن حيَّان : المؤمن إذا عرف ربَّه - عزَّ وجلَّ - أحبَّه ، وإذا أحبَّه أقبل إليه ، وإذا وجد حلاوة الإقبال إليه لم ينظر إلىٰ الدنيا بعيْن الشهوة ، ولم ينظر إلىٰ الآخرة بعين الفترة ، وهي تُحسِّره في الدنيا وتروِّحه في الآخرة .

---

(١) سير أعلام النبلاء ، للذهبي (٢٤٢) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٧٠) .

(٣) استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القُدْس ، لابن رجب الحنبلي (١٢٩) .

قال خليد العصري : يا إخوتاه : هل منكم من أحد لا يحبُّ أن يلقىٰ حبيبه؟!، ألا فأحِبُّوا ربَّكم - عزَّ وجلَّ - وسيروا إليه سيرًا جميلًا ، لا مُصعِدًا ولا مُمِيلًا[1] .

وللّهِ درُّ القائل :

كانتْ لقلبيَ أهواءٌ مفرَّقَةٌ ... فاستجمعتْ مُذ رآكَ القلبُ أهوائي
فصارَ يحسُدني مَنْ كنتُ أحسُدُهُ ... وصِرتُ مولَىٰ الورىٰ مُذ صِرتَ مولائي
تركتُ للناسِ دُنيَاهمْ ولهوَهُمُ ... شُغلًا بحُبِّكَ يا دِيني ودُنيائي

وقال الشاعر :

أروحُ وقد ختمتَ علىٰ فؤادي ... بحُبِّكَ أنْ يَحِلَّ به سواكا
فلو أنِّي استطعتُ غضضْتُ طرْفي ... فلمْ أنظر به حتىٰ أراكا
أُحِبُّك لا ببعضي بل بكُلِّي ... وإنْ لم يُبقِ حُبُّك لي حِراكا
وفي الأحبابِ مُخْتَصٌّ بوجْدٍ ... وآخر يَدَّعي معهُ اشتراكا
وكُـلٌّ يـدَّعـي حُـبًّـا لِرَبِّـي ... ورَبِّي لا يُقِرُّ لهم بذاكا
إذا اشتبكتْ دُمُوعٌ في خُدُودٍ ... تبيَّنَ مَن بكىٰ ممَّن تباكىٰ
فأمَّا مَن بكىٰ فيذوبُ وجْدًا ... ويَنْطِقُ بالهوىٰ مَن قَدْ تباكىٰ

وقال مسمع بن عاصم : سمعتُ عابدًا من أهل البحرين يقول في جوف الليل : قُرَّةَ عيني وسرورَ قلبي!! ، ما الذي أسقطني من عينِكَ يا مانحَ العِصَم . . ثم صرخ وبكىٰ ، ثم نادىٰ : طوبىٰ لقلوبٍ ملأتْهَا خشيتُك ،

---

(١) استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القُدْس (١٢٧) .

واستولت عليها محبَّتُك ، فمحبَّتُك مانعةٌ لها من كُلِّ لذَّةٍ غير مناجاتِك والاجتهاد في خدمتك ، وخشيتُكَ قاطعةٌ لها عن سبيلِ كُلِّ معصيةٍ خوفًا لحُلُولِ سُخْطك . ثم بكى وقال : يا إخوتاه ، ابكوا على فوْت خَيْرِ الآخرة ؛ حيث لا رَجْعَةَ ولا حِيْلَة .

وعُتبةُ الغلام القائل : تُراكَ مولايَ تعذِّبُ محبِّيك وأنتَ الحيُّ الكريم : «قال عنه سليم النحيف : رمقتُ عُتبة ذاتَ ليلة ، فما زاد ليلته تلك على هذه الكلمات : إن تعذِّبني فإني لك محبٌّ ، وإن ترحمني فإني لك مُحِبّ . فلم يزلْ يردِّدها ويبكي حتى طلع الفجر .

وقال عَنْبسة الخوَّاص : بات عندي عُتبةُ الغلام ذات ليلة ، فبكى من السَّحَر بكاءً شديدًا ، فلمَّا أصبح قلتُ له : قد فزَّعتَ قلبي الليلة ببكائك ، ففيم ذاك يا أخي؟ قال : يا عنسبة ، إني واللّه ذكرتُ يوم العرْض على اللّه . ثم مال ليسقط فاحتضنتُه . . . فناديتُه : عتبة عتبة ، فأجابني بصوتٍ خَفيٍّ : قطَّع ذكْرُ يوم العرْض على اللّه أوصالَ المحبِّين . قال : ويردِّده ، ثم جعل يحشرج البكاء ويردِّده حشرجةَ الموت ويقول : تُراك مولاي تعذِّب محبِّيك وأنت الحيُّ الكريم؟! قال : فلمْ يزلْ يردِّدها حتى واللّه أبكاني .

وقال عُتبة – رحمه اللّه – : من سكن حبُّه قلبَه لم يجدْ حَرًّا ولا بَرْدًا . قال عبد الرحيم بن يحيى الدبيلي : يعني من سكن حبُّ اللّه قلبَه ، شغَله حتى لا يعرف الحرَّ من البرد ، ولا الحُلوَ من الحامض ، ولا الحارَّ من البارد .

وقال عتبة – رحمه اللّه – : مَن عرفَ اللّه أحبَّه ، ومن أحبَّ اللّه

أطاعه، ومن أطاع اللَّه أكرمه، ومَن أكرمه أسكنه في جواره، ومن أسكنه في جواره فطوباه وطوباه، وطوباه وطوباه. فلم يزل يقول: وطوباه حتىٰ خرَّ ساقِطًا مغشيًا عليه»(١)

والخلاصة: لقِّح الحُبَّ بالخشية.. تَقْوَ علىٰ طريق السيرِ إلىٰ اللَّه.

التاسع: الصبرُ لقاحُ اليقين:

أنا علىٰ يقينٍ بأن اللَّهَ سَينصُرُ أمةَ محمدٍ ﷺ، فهل أنت علىٰ يقين؟.. يأتي اليقينُ بالصبرِ، قال - تعالىٰ -: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].. بالصبر واليقين تَبلُغُ الإمامةَ في الدين.

الصبرُ علىٰ البلاء.. والصبرُ عن المعصية.. والصبرُ علىٰ الطاعة.. الصبرُ مع اللَّه وباللَّه وللَّه.. الصبرُ لقاح اليقين.. فاصبروا - إخوتاه - صبرًا جميلًا.

علاماتُ اليقين:

قَالَ الفَيْرُوزآبَادِيُّ: ثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْلَامِ اليَقِينِ:

١- قِلَّةُ مُخَالَطَة النَّاسِ فِي العِشْرَةِ.

٢- تَرْكُ الْمَدْحِ لَهُمْ فِي العَطِيَّةِ.

٣- التَّنَزُّهُ عَنْ ذَمِّهِمْ عِنْدَ الْمَنْعِ.

---

(١) حلية الأولياء، للأصبهاني (٦/ ٢٣٤ - ٢٣٦).

وَمِنْ عَلَامَاتِهِ أَيْضًا :

النَّظَرُ إِلَىٰ اللَّهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَالرُّجُوعُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ ، وَالاسْتِعَانَةُ بِهِ فِي كُلِّ حَالٍ[١] .

العاشر : صحةُ الاقتداءِ بالرسولِ ﷺ لقاحُ الإخلاصِ :

صحة الاقتداء بالرسول ﷺ تُورِثُ الإخلاصَ ، فإذا اجتمعا أثمرا قبولَ العمل ووجودَ أثره .

شروط قَبولِ العمل شرطان : الإخلاص والمتابعة . . فإذا لم تكن مُخْلِصًا فأكْثِرْ من أعمالِ السُّنَّة يأتِكَ الإخلاص . وإذا كنتَ لا تعمل . . إذا كنتَ بطيئًا وضعيفًا وخاملًا ؛ فأكْثِرْ من الإخلاص يضعْك اللَّهُ في الخدمة فتكون من خُدَّامِه . . إذًا فلابدَّ من وجود أحد الشرطين لديك ليتوفرَ الآخر . . وآهٍ ممن فَقَدَ الشرطين ! ! . . كيف يكون حاله ؟ ! . . وماذا يصنع ؟ ! . . ليس له إلا أن يقول : يا رب .

كنتُ أقولُ لأولادي الصغار مرةً : لو أخلصَ الواحدُ مِنَّا أثمرَ ذلك متابعةَ النبي ﷺ ، أم لو تابعَ النبيَّ ﷺ أثمرَ الإخلاص ؟ . . هذه هي قضية « البيضة أم الفرخة ؟ » . . الاثنان معًا . . يجلب أحدهما الآخر . . هذا هو اللِّقاح . . فلو كنتَ مخلصًا فلابُدَّ أن تكونَ حَالُك متابعةَ النَّبيِّ ﷺ ، ولو كنت مُتَّبِعًا فلابُدَّ أن تكونَ حَالُك الإخلاص .

---

(١) بصائر ذوي التمييز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٣٩٧) عن « موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ » (٨/ ٣٧١٩) .

وثمرةُ الإخلاصِ والمتابعةِ قَبُولُ العملِ ووجودُ ثمرةِ العمل . . أن تجدَ نتيجةَ العملِ . . فلو كنت مُخْلِصًا مُتَّبِعًا وخرجتَ إلىٰ الشارع لا تنظُرُ إلىٰ البنات مطلقًا . . هذه نتيجةُ وثمرةُ العملِ الصالحِ . . أنك لا تعصي . . لو كنت مُخْلِصًا ومتَّبِعًا لوجدتَ أنك تَسْتيقظُ قبلَ الفجْرِ تنتظرُ الصلاةَ فتجلسُ حاضرَ القلبِ . . ثمرة ونتيجة . . فتجِدُ من نفسِك إخْبَاتًا وخشيةً في قلبك .

قال العلماءُ : «بين العملِ وبين القلبِ مسافةٌ ، وبين القلبِ وبين الربِّ مسافةٌ ، وبين تلك المسافات قُطَّاعُ طُرُقٍ» . . فترىٰ الرجل كثيرَ الصلاةِ ، كثيرَ الصيام ، كثير ذكرِ اللَّه وقراءةِ القرآنِ ولم يَصِلْ إلىٰ قلبِهِ من ذلكَ شيء . . نعم : قُطَّاعُ طرقٍ قَطعوا الطريقَ عليه . . لكن لو عَمِلَ بإخلاصٍ ومتابعة فلابد أن يصل إلىٰ القلب أَثرُ العمل .

الحادي عشر : العَملُ لِقاحُ العلم :

العلمُ والعملُ وجهان لعملةٍ واحدة ، وزوجان لا ينفصلان في الأصل ؛ ولذلك إذا اجتمعا كان الفَلَاحُ والسَّعَادةُ . . فإذا تَعلَّمْتَ ولم تعملْ كُنْت مُنافِقًا ، وإذا عَمِلْتَ بدون علم كُنْت مُبْتَدِعًا . . والذي يعلم ولا يعمل فيه شَبَهٌ من المغضوب عليهم اليهود ، والذي يعمل بدون علم فيه شَبَهٌ من الضالِّين النصارى . . إذًا فلابد أن يَقْتَرِنَ العلمُ بالعمل . . قال الإمامُ عليٌّ رَضِّيَلِّلَّهُعَنْهُ : «العلمُ يَهتِفَ بالعمل ؛ فإنْ أجابه وإلا ارتحل» . . فاعملْ بما عَلِمْتَ تزدَدْ عِلمًا وتُقًىٰ وخشية . . لَقِّح العلمَ بالعمل .

قال الإمام الشاطبيُّ - رحمه الله تعالىٰ - في «الموافقات»[1] : «كلُّ مسألةٍ لا يَنْبني عليها عَمَل فالخوضُ فيها خَوْضٌ فيما لم يَدُلَّ علىٰ استِحْسانه دليلٌ شرعيّ ، وأعني بالعمل عملَ القلبِ وعَمَلَ الجوارح من حيث هو مطلوبٌ شرعًا» . . ويبيِّن رحمه الله أن الدليل علىٰ ذلك استقراءُ الشريعةِ ، فيذكر جملةً من الآيات والأحاديث الدالة علىٰ أن الشارعَ يُعرِضُ عما لا يفيد عملًا مُكَلَّفًا به .

ومن هذه الأدلة باختصار : قوله - تعالى - : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، فوقعَ الجوابُ بما يتعلَّقُ به العمل؛ إعراضًا عما قصده من السؤال عن الهلال : لِمَ يبدو في أول الشهر دقيقًا كالخيط ، ثم يمتلئ ، ثم يصيرُ بدرًا ثم يعودُ إلىٰ حالتِهِ الأولىٰ .

وقال - تعالىٰ - بعد سؤالِهم عن الساعةِ : ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴾ [النازعات: ٤٣]؛ أي : إنَّ هذا سؤالٌ عمَّا لا يَعني؛ إذ يكفي مِن علمِها أنه لابد منها؛ ولذلك لما سُئل ﷺ عن الساعة قال للسَّائل : «ما أعددتَ لها» ؛ إعراضًا عن صريحِ سُؤالِه ، إلىٰ ما يتعلق به مِمَّا فيه فائدة ، ولم يجبْه عمَّا سأل .

وقد كان مالك بنُ أنس يكره الكلامَ فيما ليس تحتَه عمل ، ويحكي كراهيتَه عَمَّنْ تَقَدَّم .

ويؤكِّدُ الإمامُ الشاطبيُّ رحمه الله علىٰ أنَّ كُلَّ علمٍ طلبَ الشارعُ له ؛ إنما

(١) الموافقات (١/ ٤٦ - ٩٣ ، ٣/ ٣١٩ ، ٣٢١) باختصارٍ شديد .

يكون حيث هو وسيلةٌ إلىٰ التعبد به إلىٰ اللَّه . . قال - تعالى - : ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يوسف: ٦٨]، قال قتادة : يعني لذو عملٍ بما علمناه . ورُوي عن أبي جعفرَ محمدِ بنِ علي في قول اللَّه - تعالى - : ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: ٩٤]؛ قال : قومٌ وصفوا الحقَّ والعدلَ بألسنتِهم وخالفوه إلىٰ غيره .

وعن أبي الدرداء : إنما أخافُ أن يقالَ يومَ القيامة : أعلمتَ أم جَهِلْتَ؟ ، فأقول : علمتُ؛ فلا تبقىٰ آيةٌ من كتابِ اللَّهِ آمرةٌ أو زاجرةٌ إلا جاءتني تسألُني فريضتَها؛ فتسألُني الآمرةُ : هل ائتمرت؟ ، والزاجرةُ : هل ازدجرت؟ ؛ فأعوذُ باللَّه من علمٍ لا ينفع ، ومن قلبٍ لا يخشع ، ومن نفسٍ لا تشبع ، ومن دعاء لا يُسمع .

وذكر مالكٌ أنه بَلَغَه عن القاسم بن محمدٍ قال : أدركتُ الناسَ وما يعجِبُهُم القول؛ إنما يعجِبُهُم العمل .

ويواصِلُ الشاطِبيُّ حديثه قائلًا :

والأدلة علىٰ هذا المعنىٰ أكثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصىٰ . وكلُّ ذلك يُحقِّقُ أنَّ العلمَ وسيلةٌ من الوسائلِ ، ليس مقصودًا لذاتِه من حيثُ النظر الشرعي؛ وإنما هو وسيلةٌ إلىٰ العملِ . وكل ما ورد في فضل العِلْم فإنما هو ثابتٌ للعْلِمِ من جهة ما يُتوسَّلُ به إليه ، وهو العمل .

وإنما يكونُ العلمُ باعثًا علىٰ العمل إذا صار للنَّفسِ وصْفًا وخُلُقًا . . وهنا ينصحُ الشاطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ المشتغلين بالعلم ، والذين لم يَصِلوا بعدُ إلىٰ

مرتبة الذين صار العلمُ لنفوسِهم وصْفًا وخُلُقًا ، بعدمِ تركِ العلم لعدمِ عملِهم به بدايةً أو لسوءِ نيتهم فيه ؛ عليهم بمواصلة الطلب ؛ فإنه سيلجئُهُم حَتْمًا إلىٰ العملِ .

يقولُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «علىٰ أنَّ المثابرةَ علىٰ طلبِ العلمِ والتَّفَقُّهِ فيه ، وعدمَ الاجتزاءِ باليسيرِ منه ؛ يَجُرُّ إلىٰ العمل به ، ويُلْجِئ إليه ، وهو معنىٰ قَوْلِ الحسنِ : كُنَّا نَطْلُبُ العِلمَ للدنيا فجرَّنا إلىٰ الآخرة . وعن حبيبِ بن أبي ثابت : طلبنا هذا الأمرَ وليس لنا فيه نيةٌ ، ثم جاءت النية بعدُ . وعن أبي الوليد الطَّيالِسي قال : سمعتُ ابنَ عُيينةَ منذُ أكثرِ من ستين سنة يقول : طلبنا هذا الحديثَ لغيرِ الله فأعقبنا اللهُ ما ترون» .

وإذا كان لِقَاحُ العلمِ العملَ به ، وأنَّ زكاةَ العلمِ العملُ . . هذا في حق كلِّ الناس ، فهم مكلَّفون بالعمل . . إذا كان ذلك فالعملُ في حقِّ مَنْ همْ مَظِنَّةِ الاقتداءِ بهم أحرىٰ وأوْلىٰ .

وفي نهاية هذا البحث الماتِع يقولُ الشَّاطِبيُّ - رحمه الله - : «فالحاصلُ أنَّ الأفعالَ أقوىٰ في التأسي والبيان إذا جامعت الأقوال ، من انفرادِ الأقوال ، فاعتبارُها في نفسِها لمن قامَ في مقامِ الاقتداءِ أكيدٌ لازمٌ ؛ بل يُقال : إذا اعتبر هذا المعنىٰ في كلِّ مَنْ هو مظنة الاقتداءِ ومنزلة التبيين ؛ ففرضٌ عليه تَفَقُّدُ جميعِ أقوالِه وأعمالِه . ولا فرقَ في هذا بين ما هو واجبٌ وما هو مندوب أو مُباح أو مكروه أو ممنوع . وهذا البيانُ الشافي المُخْرِج عن الأطرافِ والانحرافات هو الرادُّ إلىٰ الصراط المستقيم» اهـ .

الثاني عشر : الحِلْمُ لِقاحُ العملِ : الحِلْمُ أن تكونَ حَليمًا في شرع اللّه ، وحليمًا مع خلقِ اللّه .

الحلم في شرعِ اللّه : أن تُشْفِقَ علىٰ العُصَاة والمذنبين وتنظرَ إليهم بعينِ الرحمةِ والعطف . . تتحمَّلُهُم وتحاولُ أن تأخذَ بأيديهم لتنقذَهم من الغرق ، لتدفعَهم إلىٰ طريقِ اللّه . . تَبْذُلُ نفسَك لتنتشِلَهم مِن نيرانِ المعاصي المُحْرِقة . . ويساعدُك تَذَكُّرُ حالِك قَبْلُ ، وأنَّ اللّه مَنَّ عليك ونجَّاك . . وقديمًا قالوا : لا يضحكُ في وجهِ العاصي إلا عالم . . نعم : كلما ازدادَ الإنسانُ عِلْمًا ازداد حِلْمًا .

قال منصورُ بنُ محمد الكريزي :

سأُلزِمُ نفسي الصَّفْحَ عن كُلِّ مذنبٍ ... وإنْ كَثُرَتْ منهُ إليَّ الجرائمُ

فما النَّاسُ إلا واحدٌ مِنْ ثلاثةٍ ... شريفٌ ومشروفٌ ومِثْلٌ مُقَاوِمُ

والحلمُ يُبدِّلُ العداوَةَ مَحَبَّةً ؛ قال اللّه – تعالىٰ – : ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥] . . وفي ذلك يقول مَعِينُ بن أَوْسٍ المُزَنِيُّ (١) :

فَأَبْرَأْتُ غِلَّ الصَّدرِ منهُ تَوَسُّعًا ... بِحِلْمِي كما يُشْفَىٰ بِأَدْوِيَةٍ كَلْمُ

وَأَطْفَأْتُ نَارَ الحَرْبِ بيني وبينهُ ... فَأَصْبَحَ بَعْدَ الحَرْبِ وَهْوَ لَنَا سَلْمُ

---

(١) الحلم لابن أبي الدنيا (٤٣) .

إخوتاه، الحلمُ طريقُ العمل.. فإذا كنتَ لا تعمل فكن حليمًا يأتِكَ العمل.. كن حليمًا يُحِبَّك الله؛ قال رسول الله ﷺ: لأشَجّ عَبْدِ القَيْسِ: «**إنَّ فيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ: الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ**»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللَّهَ رفيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّه**»(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطي عَلَى الرِّفق مَا لَا يُعْطِي عَلَى العُنْفِ وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ**»(٣).

وقال رسول الله ﷺ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّار - أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّار؟ - تَحْرُمُ عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيْنٍ لَيِّنٍ سَهْلٍ**»(٤).

أخي في الله، حبيبي في الله، كن حليمًا مع خلق الله، واقتدِ بنبيِّك ﷺ وصحابته الأكرمين وسلفِك الصَّالحين.

عن أنسٍ رضي الله عنه قال: كنتُ أمشي مع رسولِ اللَّهِ ﷺ وعليهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غليظُ الحاشية، فأدركه أعرابيٌّ، فَجَذَبَهُ بردائه جَذْبَةً شديدة، فنظرتُ إلى صَفْحَةِ عُنُقِ رسولِ اللَّهِ ﷺ وقد أثَّرَ بها حاشيةُ الرداءِ من شدةِ جذبتِه، ثم قال: يا محمد، مُرْ لي، فالتفتَ إليه فَضَحِكَ، ثم أَمَرَ له بِعَطَاء(٥).

---

(١) أخرجَهُ: مسلم (١٧).

(٢) اخرجَهُ: البخاريُّ (٦٩٢٧).

(٣) أخرجَهُ: مسلم (٢٥٩٣).

(٤) أخرجَهُ: الترمذيُّ (٢٤٨٨) وقال: حديث حسن غريب، وقال الألبانيُّ: صحيح.

(٥) **متفق عليه**: البخاريُّ (٥٨٠٩)، ومسلم (١٠٥٧).

وَشَتَمَ رجلٌ أبا ذرٍّ رضي الله عنه، فقال له: يا هذا لا تستغرقْ في شتمِنا، ودعْ للصُّلحِ مَوْضِعًا.. فإنَّا لا نكافئُ مَنْ عصىٰ اللَّهَ فينا بأكبرِ مِنْ أنْ نُطيعَ اللَّه فيه.

وكانتْ أُمُّ المؤمنين عائشةَ - رَضِيَ اللَّه عنها - صائمةً فأمرتْ جاريتَها بَرِيْرَةَ أن تصنعَ لها طعامًا، لتُفْطِرَ به، فتشاغلتْ عن ذلك حتىٰ مضىٰ النهارُ، وجاء المغربُ، فلَم تَجِدْ أمُّ المؤمنين طعامًا، فالتفتتْ إليها وقالت وهي تَكْتُمُ غيظَها: «لِلَّهِ دَرُّ التَّقْوَىٰ لم تَدَعْ لِذِي غَيْظٍ شِفَاءً».

«وقِيلَ للأحنفِ بنِ قَيْس: مِن أينَ تعلَّمتَ الحِلْم؟، فقال: من قَيْسِ ابن عاصم. قيل: وما بلغ حلمُه؟، قال: بينما هو جالسٌ في داره، إذ أتتْهُ جاريةٌ له بِسَفُودٍ عليه شِوَاءٌ، فسقطَ من يَدِها، فوقعَ علىٰ ابنٍ له صغيرٍ فمات، فدُهِشَتِ الجارية، فقال لها: لا رَوْعَ عليكِ؛ أنتِ حرَّةٌ لوجهِ اللَّه - تعالىٰ»[1].

«وقِيْلَ: إنَّ أُوَيْسًا القَرَنِيَّ كانَ إذا رآهُ الصِّبيان يرمُونهُ بالحجارة، فكانَ يقولُ لهم: يا إخوتاه، إنْ كان ولابُدَّ فارموني بالصِّغَار؛ حتىٰ لا تُدْمُوْا ساقي، فتمنعوني عن الصلاة»[1].

«وكانَ لِيَحْيَىٰ بنِ زياد الحارثيِّ غُلَامُ سُوْءٍ، فقِيْلَ له: لِمَ تُمْسِكه؟!؛ فقال: لأتعلَّمَ الحِلْمَ عليه»[1].

وكان لمعاويةَ رضي الله عنه قِطعةُ أرضٍ وبجوارِها أخرىٰ لعبدِ اللَّهِ بنِ الزُّبَيْر رضي الله عنهما كان يجلس فيها هو وأهلُه.. فكان عُمَّالُ معاويةَ يدخلون عليه..

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٧٧).

فكتبَ إلىٰ معاوية يقول : يا ابنَ آكلةِ الأكباد ، امنعْ عُمَّالك عني ؛ وإلا كان لي ولكَ شأن . . والسلام .

فلما وقفَ معاويةُ علىٰ الكتاب دَفَعَهُ لولدِه يزيدَ وقال له : ما ترىٰ؟ ، قال : أرىٰ أن تبعثَ إليه جيشًا يكونُ أوَّلُهُ عندَهُ وآخرَهُ عندَك يأتونك برأسِه . فقال له معاويةُ : غيرُ هذا خير . ثم قَلَبَ الكتاب وكتب علىٰ ظهرِه : أما بعد : فقد وقفتُ علىٰ كتابِك يا ابنَ حواريِّ رسولِ اللّٰه ﷺ ، ويا ابنَ ذاتِ النِّطاقين ، وساءني ما ساءَك . . وواللّٰهِ لو كانتِ الدُّنيا بأسرها بيني وبينك لأتيتُكَ بها . . وقد نَزَلْتُ عن أرضيَ لك ، فأَضِفْها إلىٰ أرضِك بما فيها من العبيدِ والأموال . . والسلام .

فلمَّا قرأها ابنُ الزبير رضي الله عنه بكىٰ . . وكتب إليه : قد وقفتُ علىٰ كتابِ أميرِ المؤمنين - أطالَ اللّٰهُ بقاءَه ، ولا أَعْدَمَهُ الرأيَ الذي أحلَّهُ من قريشٍ هذا المَحَلّ . . والسلام .

فلما وقفَ معاويةُ عليه تهلَّلَ وجهُهُ وأَسْفَرَ ، وقال لابنه : يا بُنَيَّ ، من عفا ساد ، ومن حَلُمَ عَظُم ، ومن تجاوزَ استمال إليه القلوب . . فإذا ابتُليتَ بشيءٍ من هذه الأمور فدَاوِهِ بِمِثْلِ هذا الدَّوَاء .

نعم - إخوتاه - : وَصَلَ هؤلاءِ إلىٰ اللّٰهِ - تعالىٰ - بترويضِ أنفسِهم علىٰ طاعتِهِ ولُزُومِ أوامرِه واجتنابِ نواهيه . . وهذا أيضًا من الحِلمْ في شرع اللّٰه . . قال - جلَّ جَلالُه - : ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥] ، وقال - جلَّ جَلالُه - : ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾ [النور: ٢٢] ، والعفوُ : تركُ المؤاخذةِ علىٰ الذنب ، والصفحُ : تركُ التأنيبِ

عنه . وقال - جَلَّ جَلالُه - : ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] ، وقال - عَزَّ وجَلَّ - : ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣] .

والخُلاصَة : لَقْحُ العملَ بِالحِلْم .

وبعدُ - إخوتاه - : فهذه لِقَاحاتٌ علىٰ الطريقِ . . لِقاحاتٌ علىٰ طريقِ السيرِ والوصولِ إلىٰ اللَّه ، تُقوِّيكَ وتهيِّئُ لكَ أسبابَ الوصولِ . . فالْزَمْ كلَّ زوجٍ من هذه اللِّقاحات تَجْنِ ثِمَارَ خيرِ كلِّ منهما ؛ لتقطعَ الطريقَ بقوَّةٍ وسُرعةٍ وسُهُولَة . . وتذكَّرْ دائمًا قولَ اللَّهِ - تعالىٰ - : ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فَفِرُّوا إِلَىٰ اللَّهِ﴾ . . فَفِرُّوا إلىٰ اللَّه . . الْجَأْ إلىٰ اللَّه ، واعتمِدْ عليه ، واستعِنْ به . . وانْطَلِقْ .

* * *

الأصل الحادي والعشرون

مَنْ صَفَّىٰ صُفِّيَ له ، ومَنْ كَدَّرَ كُدِّرَ عليه

اللَّهم إنا نسألك أن تُصَفِّيَ لنا أعمالَنا من الكَدَرِ ، وقلوبَنا من الرِّيَاء ، وأَعْيُنَنا من الخيانة ، وألسنَتَنا من الكذبِ . . اللَّهم إنا نسألك أن تُصفِّيَ لنا حياتَنا لتكون خالصةً لك . . من صَفَّىٰ صُفِّي له ، ومن كَدَّر كُدِّر عليه .

أيها الأخُ الكريم ، اسمح لي أن أقولَ لك : إنَّ العَلاقةَ مع اللَّه عَلاقةٌ ذَاتُ حَساسيّة بَالغة . . وبعض الشباب لا يلتفتُ لتلك العلاقة ، فتراه يلتزم - اللَّهم ارزق شبابنا الالتزام ، اللَّهم ثبِّتهم علىٰ الإيمان ، اللَّهم نَجِّهم من الفتن ما ظهر منها وما بطن - ويبدأ الطريقَ ؛ ومع ذلك لا يزال يتلوَّن ، لا يزالُ تافِهًا وفَارِغًا ، لا يزالُ مَاءُ قَلْبِهِ مُعَكَّرًا . . تراه يَمْكرُ باللَّه . . يحاولُ أن يخدَعَ اللَّه . . وإنما أُتِيَ هذا المسكينُ من جَهْلِه ؛ لأنه لم يعرفِ اللَّه .

لقد كنتُ علىٰ المنبرِ فَأَخْرجت جُنيهًا وقلت : هل رأيتم هذا الجنيه؟! . . إن الذي أعطاني هذا الجنيهَ رجلٌ «بقّال» . . والجنيه مكتوبٌ عليه بخطٍ واضح : «حبيبتي الغالية ، كل عام وأنتِ بخير ، أحبُّ أن أعبِّرَ لك عما في داخلي . . واللَّهِ يا حبيبتي لولا خوفي من اللَّه ، وأنّي أعبُدُه ، لعَبَدتُّك أنتِ يا حبيبتي . . حَبيبُك فلان» . . البعض يضحك من هذا ، وواللَّهِ إنّه لأمرٌ يُوجِعُ القلبَ .

إن هذا الولد من الممكن أن يكونَ مؤمنًا ، بدليلِ أن أوَّلَ كلمةٍ قالها :

لولا خوفي من اللَّه . . هذا الكلام قد يقوله البعض ؛ ولكن الحقيقة أن هذا الولدَ لو كان خائفًا من اللَّه ما قال هذا الكلامَ بدايةً . . نعم : هو جاهلٌ غيرُ خائف ، أخرج ما بداخله وأظهره . وما أكثرَ مَنْ بداخلهم مثلُ هذا الشاب وأكثر ، ولكنهم لا يقولون بألسنتهم ؛ لأنهم كذَّابون ، يخادعون اللَّه .

قال البقَّال كلمةً جميلةً جدًا : «انظر ! . . الولد يقول لها : أعبدك ، وهي باعتْه وصرفتْ الجنيه ! ! » . . باعتْه وتركتْه رغم أنه يعبدها ! !

الجهلُ يا شَبابُ يفعلُ أكثرَ مِنْ هذا . . فهؤلاء الشبابُ المساكينُ في جهلٍ مُطبِقٍ بالعقائدِ . . بالدينِ . . بالفقهِ . . فهذا الولدُ جَاهلٌ وذنبُ أبيه وأُمِّه مثلُ ذنبه تمامًا ؛ لأنهما لم يُعرِّفاه بالدين ، ولو كان يعرف اللَّهَ لما قال هذا الكلام . فلا تمكرْ باللَّه ، ولا تبع اللَّه مثل هذا الشاب ، وتُبْ إلىٰ اللَّه واصْدُقْه . .

ولذلك عندما أقول لك : تُبْ ، فتقول : تُبْتُ من كلِّ شيء ؛ فأنت إذًا كذاب . . حدِّدْ من أيِّ شيءٍ تُبت . . تُبْتَ من ماذا ؟ ، فذنوُبك كثيرة؟! . . ينبغي أن تسمِّيَ الأشياءَ بمُسَمَّيَاتِها لتكونَ واضِحًا . . تعاملْ مع اللَّه بصَرَاحة وإياك أن تُخَادِعَ أو تمْكُر .

أخي في اللَّه ، إذا التزمتَ فَصَفِّ . . صَفِّ . . لابد أن نصفيَ أعمالَنا مع الشيطان . . نصفيَ حساباتِنا مع النفسِ والهوى . . لابد أن نبدأ في تصفيةِ أحوالِنا مع الشهواتِ ، لِتبقىٰ حياتُنا صافيةً تمامًا للَّهِ وحده .

بعضُ الشباب ينظرُ إلىٰ النساءِ المتبرجاتِ ، فهل هذا يُصفِّي أم يكدِّر ؟ . . يقول : أشعر بقسوة في قلبي لا أعرف لماذا؟! . . عجيبٌ أمرُك! أَتمْكُر ؟! . . أنت تعرفُ ما سببُ هذه القسوةِ . . فحينما تكدِّر يُكَدَّرُ عليك .

والعلماء يستدلون على هذا الأصل: «من صَفى صُفِّي له، ومن كَدَّر كُدِّر عليه» بقول الله - تعالى -: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٥-٦] .. عينًا يشرب بها مَنْ؟ «عبادُ الله» .. فهم أبرارٌ، عبادٌ لله أوّلًا؛ ولذلك استحقوا النعيم والتكريم.

قال العلماءُ: الناسُ ثلاثُ درجات: الدرجة الأولى: أصحاب الشمال - نعوذ بالله منهم - وهؤلاء هم أهل النار، وإن كانوا في النهاية سيدخلون الجنة. والدرجة الثانية: الأبرارُ، وهم من أهل الجنة، والثالثة: المقرَّبون وهم أفضل وأعلى من الأبرار.

إذًا فأهل الجنة درجتان: أبرار ومقربون؛ ولذلك يقول عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وفي قوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]؛ جنتان من ذهبٍ للمقرَّبين، وجنتان من وَرِقٍ (فضة) لأصحاب اليمين. وفي هؤلاءِ جميعًا يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨-١١].

أصحاب اليمين والسابقون أو الأبرار والمقرَّبون .. دَرجتان: ممتازةٌ وعاديةٌ .. فأيُّ الدرجتين تفضل؟!؛ ولذلك فإنَّ الناسَ الأبرارَ يقول الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥] .. مزاجها أي ممزوجة .. أي إنهم سيشربون ماءً كافورًا .. «مزاجها كافورًا»؛ أي: رائحتُها كافور .. أما عبادُ اللهِ المقرَّبون فسيشربون كافورًا خالصًا، كافورًا صافيًا .. لأنهم صَفَوْا .. ومن صَفَّى صُفِّيَ له، ومن كَدَّر كُدِّر عليه.

لقد كنت أقول لأولادي - اللَّهم أصلِحْ أولادِيَ وأولادَ المسلمين ، اللَّهم ربِّ لنا أولادَنا ، اللَّهم احفظ أولادَنا ونجِّهم من الفتنِ ما ظهر منها وما بَطَن - كنت أقول لهم عندما وجدتُ فيهم بعضَ الفتورِ وعدمِ الصفاءِ : أنتم لستم جُهَّالًا . . تعرفونَ فضلَ قيامِ اللَّيل ، وتعرفون فضلَ صلاةِ النوافل ، وفضلَ الذكر ، وفضلَ الصدقة . . وتعرفون وتعرفون . . فلماذا إذًا لا تعملون؟! . . لماذا أنتم كُسالى؟! . . قلت لهم وأقول لكم أيضًا لأنكم أيضًا أولادي : تعرفون ما السبب؟! . . السبب أنكم لم تتصوروا الجنَّةَ كما ينبغي .

وقلتُ لبناتي : أنتِ لو مِتِّ الآن هل ستكونينَ مع السيدةِ فاطمةَ أو عائشةَ حبيبةِ النبي ﷺ في الجنَّة؟! . . إذًا ما فائدةُ الجنَّةِ إذا لم تكوني مع هؤلاء؟!!

إنَّ بعضَ الناسِ في الجنَّةِ - اللَّهم ارزقنا الجنَّة يا رب - ينظر إلىٰ وجه ربهِ بُكرةً وعَشَّيةً ، وبعضُ الناسِ لا يرىٰ اللَّهَ إلا كلَّ جُمُعَة . . كل أسبوع مرة . . فماذا تنوي أنت؟ . . هل تُحِبُّ أن ترىٰ اللَّهَ مرتين في الأسبوعِ أم مرةً كلَّ يوم؟ . . إذا كنا في الدنيا نتمنىٰ أن نأتيَ إلىٰ درسِ العلم كلَّ يوم ، فما بالنا في الجنة برؤية الملك!!

إخوتاه ، لو أنكم كنتم في الجَنَّة ، وحُرمتَ أنت من النظرِ إلىٰ وجه اللَّه الكريم كلَّ يوم ، ولم تتمتع برؤيته كما يتمتعُ أهلُ الفردوس ، فكيف تتصور حالك؟! . . نعم : ستكونُ سعيدًا في الجنة ولكن ليس كسعادةِ أهلِ الفردوس . . هذ هي القضية . . أن تفكِّرَ في حالِكِ ، وهل أنت صَافٍ مع اللَّه أم لا؟ . . هل لو مِتَّ اليوم ستكونُ مع النبي محمد ﷺ؟ . .

أجب!! . . إذًا فاعمل للفردوسِ الأعلى . . ابدأ وصفِّ ولا تلتفتْ ، فإن الذي يضعُ الفردوس في ذهنه يَظَلُّ يعملُ لها طِوالَ عُمُره لينالها .

نعم : لن تستطيعَ السيرَ في الطريقِ إلىٰ الفردوس إلا إذا صَفَّيت ، فصفِّ ليصفِّيَ اللّٰهُ لك قَلْبَك ، ويصفِّيَ لك عِبادتَك . . صفِّ ليصفيَ لك حياتَك . . صفِّ ليصفيَ لك طريقَك إليه . . خلِّ عنك مشاكِلَك ومشاغِلَك ولا تفكِّرْ إلا في اللّٰه . . عِشْ للّٰه خالصًا صافيًا . . لا تنشغل إلا باللّٰه وحده . . وكلما صفَّيت للّٰه صفَّىٰ لك . .

ومن كدَّر كُدِّر عليه . . فإذا وجدتَ في حياتك كَدَرًا ؛ كأنْ تجدَ والدَك يضايقُك حين التزمت ، أو زوجتك أو زملاءك في العمل ؛ فاعلم يقينًا أنَّ هذا الكَدَر منكَ أنت ، فلو كنْتَ صَافيًا للّٰه لأراحَ قَلْبَك . . نعم : السبب : أنَّك لستَ بخالص . . كدَّرتَ فكدَّرَ اللّٰهُ عليك حياتَك . . فصفِّ يُصفِّ لك .

إذا وجدتَ أنك تقِفُ في الصلاةِ فيشْرُدُ ذِهْنُك ، وتقرأ القرآن فلا تركِّز ولا تَتَدَبَّر ، وتذكُرُ اللّٰه وفِكْرُك شارِدٌ . . فاعلم أنك كدَّرْتَ العبادة . . لم تَصْفُ بَعْدُ للّٰه . . فالكَدَرُ آتٍ منكَ أنت .

ولذلك يقول العلماء : «مِن رأسِ العينِ يأتي الكَدَر» . . فالكَدَرُ خارجٌ من داخلِك أنت ، من أعماقِ قَلْبِك ؛ فصفِّ قلبَك للّٰه . . فرِّغ قلبك للّٰه وحده ؛ ليُصَفِّيَ لكَ حياتَك ؛ فتَصِلَ إليه بأمانٍ واطمئنان .

* * *

الأصل الثاني والعشرون

لا تتجاهَلْ جانبًا واحدًا مِنْ جوانبِ الدِّين

الدين . . ما هو الدين؟!

بعضُ الناس يَرىٰ أنَّ الدينَ هو الدعوةُ ، وكلُّ هَمِّه الدعوة إلىٰ اللَّه . . يجمعُ الناسَ ويُدْخِلُهم المساجد ويجلسُ يُكلِّمُهم ويهديهم ويدعوهم ، ونسِيَ كلَّ شيءٍ في الدين إلا هذه . . وبعض الناس يرىٰ أن الدينَ مجردُ عبادةٍ : صيامٌ وقيام وذكر وصلاة . . ففرَّغَ نفسه للعبادة تمامًا وترك كلَّ الدين . . وبعضٌ آخر يرىٰ أنَّ الدين هو العلمُ ؛ فتراه جَالِسًا للعلم ليلَ نهار . . علم . . علم . . ونسيَ بقيةَ جوانبِ الدين . . وبعضٌ آخر يظنُّ أن الدينَ إقامةُ الدولة ؛ فتراه يدأبُ ويحارِبُ ليقيمَ دولةَ الإسلام ، ونسي بقية الدين وفرَّطَ فيه من أجلِ هذه الجزئية .

ليس هذا هو الدين . . الدينُ كلٌّ لا يتجزأ . . فكلُّ هذا هو الدين . . الدينُ هو العلمُ والعملُ والعبادةُ والدعوةُ والجهادُ للتَّمكين . . الدين كُلّ . . وكثيرًا ما أقول هذه الجملة : الدين لا يُؤخذ بالقطَّاعي ، ولا يُؤخذ بالتقسيط . . لا يؤخذ بالقطعة . . الدين كلٌّ ؛ ولذلك يقول ربي - وأحقُّ القولِ قولُ ربِّي - : ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨] ؛ أي خذوا الإسلام بكلياته ، واعملوا بكلِّ ما فيه من بِرّ .

ولذلك حينما أخاطبُ مَنْ ترتدي بنطالًا بأن تلتزم؛ يقولون: الحَمْدِ لله، فهذه أفضل من غيرها.. خطوة خطوة.. فاليوم بنطال وغدًا تلبس الإيشارب.. وهكذا.. تدرُّج؛ أقول: لا.. ليس هكذا الدين.. الدين ليس لُعبة.. الدين ليس تهريجًا؛ قال الله - تعالىٰ -: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ [الأنعام: ٧٠].

وتأمَّلْ معي هذا الحديثَ العظيم الذي ينبغي ألَّا يقرأه أحَدٌ قطّ إلا ويَرْتجِفُ قلبُه ويَشِيْبُ شعْرُه، حديثَ الثلاثة الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقول: «**إنَّ أوَّلَ النَّاسِ يُقضَىٰ يومَ القيامةِ عليه رجلٌ استُشهِدَ، فأُتِي به، فعرَّفه نِعَمَهُ، فعرفها، قال: فما عَمِلتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيكَ حتَّىٰ استُشْهِدتُ، قال: كذبتَ، ولكنَّكَ قاتلتَ، لأنْ يُقالَ: جريءٌ، فقد قيل، ثمَّ أُمِرَ به، فسُحِبَ علىٰ وجهه، حتىٰ أُلقي في النَّار، ورجلٌ تعلَّمَ العلمَ وعلَّمه، وقرأ القُرآن، فأُتِي به، فعرَّفه نِعَمَهُ فعرَفها، قال: فما عَمِلتَ فيها؟ قال: تعلَّمتُ العِلْمَ وعلَّمتُه، وقرأتُ فيكَ القرآنَ. قال: كذبتَ، ولكنَّكَ تعلَّمت العلمَ، ليُقالَ: عالمٌ، وقرأتَ القرآنَ ليقال: قارئٌ، فقد قيلَ، ثمَّ أُمِر به، فسُحِب علىٰ وجهه حتَّىٰ أُلقي في النَّار، ورجلٌ وسَّع الله عليه، وأعطاه من أصنافِ المال كلِّه، فأُتِي به، فعرَّفه نِعَمَهُ، فعرفها، قال: فما عَمِلتَ فيها؟، قال: ما تركتُ من سبيلٍ تُحبُّ أن يُنفقَ فيها إلَّا أنفقتُ فيها لكَ. قال: كذبتَ، ولكنَّكَ فعلتَ، ليُقالَ: هو جوادٌ، فقد قيلَ، ثمَّ أُمِر به، فسُحب علىٰ وجهه، حتَّىٰ أُلقي في النار**»(١).

(١) أخرجَهُ: مسلم (١٩٠٥).

انظرْ كيفَ سُعِّرَتْ جَهَنَّمُ بهؤلاءِ الثلاثةِ بعدما سُحِبُوا علىٰ وجوههم إليها ، إنه – واللّٰه – شيءٌ مُخِيف . . شيءٌ رهيب . . عالم شَهِدَ اللّٰهُ له أنهُ علَّمَ فقال : علَّمْتَ ليُقال ، ثم يكونُ أوَّلَ مَنْ يُسْحَبُ علىٰ وجهه إلىٰ جهنم . . عالمٌ مُعَلِّم . . شيخٌ داعية . . مشهورٌ مُؤَثِّر . . له أتباع . . ومع ذلك يدخلُ جهنم ؛ لأنه فَقَدَ الإخلَاص للّٰهِ – سبحانه وتعالىٰ .

وأظنُّ أنَّ ذلك أيضًا نتيجةَ أُحَاديةِ النظرة ؛ فَلَعَّلهُ كَان إذا دُعِيَ إلىٰ جهادٍ أو صدقةٍ أو قيام ليلٍ أو مجلسِ ذِكرٍ أو إعانةِ فقيرٍ مُحْتَاج ؛ فإنه كان يقول : إنني عالم . . فَهَدَمَ كُلَّ جوانبِ الدِّين ظانًا أنه يكفيه هذا الجانب الذي هو فيه . . اخْتَلَّ به هذا الجانبُ أيضًا ، فَهَوَىٰ به في هُوَّةٍ سحيقة من جهنم .

ومِثْلُهُ المُتَصَدِّق : كان يعمل الليلَ النهارَ ليحوز المال الذي يُتَصَدَّقُ به . . وقصَّر في كلِّ جوانبِ الدين ، وإذا ذكَّرْتَه ؛ يقول : أنا أفتحُ بُيوتًا وأعُوْلُ فقراءَ وأُقِيْتُ جَوْعَىٰ ، إنَّما أعملُ ليقومَ بي ناسٌ كثير . . فلمَّا سقطَ هذا الجانبُ أيضًا ولم يكن له غَيْره هَوَىٰ في بئرِ جَهَنَّم .

فإيَّاكَ – أخي – أن تغترَّ بجانبٍ تقومُ بِه ؛ وإنَّما كُنْ للدِّين كُلِّه – عافانا اللّٰهُ وإيَّاكَ من اتِّبَاعِ الهَوَىٰ .

الدينُ حين يأتي بالأمرِ ؛ فلابُدَّ أن تلتزمَ به كُلِّه في الحال ، قال رسول اللّٰه ﷺ : «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فانتهوا**»[1] .

---

(١) **متفق عليه** : البخاريُّ (٧٢٨٨) ، ومسلم (١٣٣٧) .

يقولُ الشيخُ ابنُ عُثَيمِين – رحمه اللّٰه تعالىٰ – في منظومتِهِ في أصول الفقه وقواعده :

والأمرُ للفورِ فبَادِرِ الزَّمَنْ   إلَّا إذا دلَّ دليلٌ فَاسْمَعَنْ

«ومعنىٰ هذا أن اللّٰهَ عَزَّوَجَلَّ ورسولَه ﷺ إذا أمرا بشيءٍ فإنّه للفورِ؛ يعني يجبُ علىٰ الإنسانِ أن يفعلَه فورًا من حينِ أن يوجدَ سببُ الوجودِ ويكون قادرًا علىٰ ذلك . «فبادر الزمن» يعني أن الزمن يمضي ويمشي؛ فبادر قبل أن يفوت . والدليل علىٰ ذلك أنَّ النبيَّ ﷺ أمر أصحابه عام الحُدَيبية أن يَحْلِقوا ويُحلِّقوا ، ولكنهم تأخروا رجاء أن يحدث لهم نسخ ، فغضب النبيُّ ﷺ لذلك . فكان هذا دليلًا علىٰ أن الأمر المطلق يكون للفور ، ولو أننا قلنا : يجوز التأخيرُ لتراكمت المأمورات وكَثُرت وعَجَزَ الإنسان عنها»[1] .

فإذا التزمتَ اليومَ علىٰ طريقِ اللّٰه ، فلابُدَّ أن تنتهيَ عن التدخين في نفس اللَّحظةِ التي التزمتَ فيها . . ليس بالتدريج . . فلا تقلْ : اليومَ أدخِّنُ عشْر سجائر وغدًا خمسًا وهكذا حتىٰ أُقلِع . . لا . . ولا تقولي – أيتها الأخت المتبرجة – : اليوم سأترك «التزيُّن» وبعد ذلك ألبسُ ملابسَ طويلة ، ثم أغطِّي شعري وأربط رقبتي ثم أرتدي بعد ذلك الحجاب . . لا . . فالأمر دين . . اليومَ التزمتِ وتُبتِ إلىٰ اللّٰه فالْبَسِي حجابكِ الشرعي ، وسِيْري علىٰ طريق اللّٰه ، وانتهت القضية .

---

(١) القواعد الفقهية (٤٥ – ٤٦) .

أحدُ الإخوةِ أراد أن يلعبَ تِنِسًا ، فذهب إلىٰ المدرِّب وقال له : ما المطلوب في لعب التنس ، فقال له المدربُ : مضربُ تِنِس ، و «كاب» أبيض ، وفانلة بيضاء ، و «شورت» أبيض ، وجورب أبيض ، و «بوت» أبيض . . فقال له الأخ : لا يصح التنس إلا بهذا اللُّبس ؟ ، قال له : نعم ، لا يكون التنسُ إلا بهذا الشكلِ . . فذهب الأخُ وأحضر اللُّبس ؛ فأتىٰ وهو يحمل المضرب ، فقابله أحدُ من يعرفُهُ فقال له : أتلعبُ تنسًا ؟ ! ! . . لماذا تلعب؟! . . فانظر إلىٰ تعجُّبِ الناس منه . . لأنهم يظنون في الأصل أنه رجلُ دين لا يَلْعَبُ ولا يلهو ! !

الشاهد من هذا الموقف : أنَّ مَنْ يُريدُ الدين فلابُدَّ أن يلبس «دين» . . قال المدرب : لا يصح التّنسُ إلا بهذا الشكل ، وأقول لك : لا يصح الدينُ إلا إذا التزمت به كُليًا . فإذا أردتَ السّير في طريقِ اللَّه فلابدَّ أن يكونَ شكلُك بالدين ، وحياتُك بالدين؛ لتكون من أهلِ الدين الفائزين بالوصولِ إلىٰ اللَّه .

فإذا دخل أحدٌ بيتَك يعلم من أوَّلِ وَهْلَةٍ ومن أوَّلِ نَظْرة : أنك رجلُ دين ، فعِش بالدين وللدين وعلىٰ الدين . . إنَّ الناسَ اليوم - إخوتاه - لا يلعبون التنسَ ؛ بل يلعبون بالدين ، فأمسِكْ علىٰ الدين ولا تلعب به ، فالدين ليس تهريجًا . إنه حقٌّ جَدُّ حقّ ، وما هو بالهزل .

فإذا أردت أن تُغَنِّي فلا تُغَنِّ باسم الدين . . إذا أردتَ أن تلعبَ فالعبْ بعيدًا عن الدين ، ولا تُلبِّس علىٰ الناسِ دينَهم بهواك ، فتأخذُ من الدين ما يُعْجِبُك وتتركُ ما يخالفُ هواك . . إذا أردت أن تدخل في الدين وإذا

أردت أن تكون من أهله؛ فالشرطُ أن تتمسك بالكُلّ . . فلا تَتجاهلْ جانبًا واحدًا من جوانب الدين .

الرَّسُولُ ﷺ لمَّا رجع من الطائف وجلس بمكةَ بدأ يَعرضُ نفسَه ؛ أي يعرض الدين علىٰ القبائل ، فيقول لهم : «**قولوا : لا إله إلا اللّه تُفلحوا**»[1] ، كما كان يعرضه عليهم قبل الطائف ، ولكنَّ العرض بعد الطائف كان عرضًا للحماية فكان ﷺ يقول : «**هل من رجلٍ يحمِلُني إلىٰ قومه فيمنعني** (أي يحميني) **كي أُبلِّغَ رسالةَ ربي؛ فإن قريشًا قد منعتني أن أُبلِّغ رسالةَ ربي**» . نعم : كان يطلب الحماية من القبائل العربية ، فأتىٰ بني عامرَ بنِ صعصاع ، فعرض عليهم نَفْسَه ، فقام رجلٌ منهم يُقال له : بحيرة بن فراس فقال : واللّه لو أني أخذت هذا الفتىٰ من قريشٍ لأكلتُ به العربَ ، ثم قال له : أرأيت إن نحن بايعناك علىٰ أمرك ، ثم أظهركَ اللّهُ علىٰ من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ . . يقصد : نحن معك ، ولكن عندما تموت سأكون أنا الرئيس المطاع ، فقال رسول اللّه ﷺ : «**الأمر إلىٰ اللّه يَضَعهُ حيث يشاء**» . . ومعنىٰ هذا الكلام : أنك إذا أردت أن تدخل في الدين فلا تشترط علىٰ الملك . . أنت عبد . . فالرسول ﷺ يريد أن يُعَلِّمَه ويُعلِّمُنا : أنك تبايعني وتحميني لتعبدَ ربَّك . . تبايعني وتحميني لأجل الجنَّة ، لا لشيءٍ من الدنيا .

بعض الشبابِ يلتزمُ حتىٰ يعطيَه اللّهُ المالَ وغيره . . لا . . قال الرَّسُولُ ﷺ : «**إن الأمر للّه يضعه حيث يشاء**» . . لذلك تجد بعض الناس يعيشون

(١) أخرجَهُ : أحمد (٣/ ٤٩٣) ، والحاكم (١/ ١٥) ، وابن حِبّان (١٤/ ٦٥٦٢) ، وإسناده صحيح .

الدين بالغِشّ ، يدخلون إلىٰ الالتزام من أجل مصالحَ دنيوية . فإن كنتَ قد فعلت ؛ فصحِح نيتَك ، يصححَ اللَّهُ لك عملَكَ .

إنَّ من عادتِنا أن نذهبَ إلىٰ المستشفياتِ فنأخذَ معنا عسلًا . . نِصْف كيلو عسلًا ، وكتاب «حصن المسلم» ، والمصحف للمرضىٰ - اللَّهم اشف مرضىٰ المسلمين - ؛ فيكون الكتاب والسُّنَّة والشفاء . . نعطي للمريض هذه الثلاث ، فنأتيه بعد أسبوعين فنجده قد التحى ، فيقول : ها أنا ذا قد التحيت ، وكأنه يُرضِينا ، لا ، بل قل : التحيتُ من أجل اللَّه لِيَشْفِيَني . . ادْخلِ الدينَ من أجلِ اللَّه . . ادخلْهُ وأنتَ قويٌّ مُعافىٰ . . ادخلْهُ برضاك ، بدلًا من أن تدخلَه وأنت مُبْتَلًىٰ مقهور .

الشاهد : أنَّ الرسول ﷺ عرض نفسه علىٰ مجلسٍ فيه السكينة والوقار ، فدخل سيدنا أبو بكر فقال : ممن القوم؟ ، فقالوا : شيبان بن ثعلبة ، فالتفت أبو بكر إلىٰ رسولِ اللَّه ﷺ وقال له : بأبي أنت وأمي ، هؤلاء غُرَرٌ في قومهم ، فقال أبو بكر : كيف المنعةُ فيكم؟ ، قالوا : علينا الجِد والجَهد ولكل قومٍ جِدّ - كلام جميل - ، فقالوا له : إلام تدعو يا أخا قريش؟ ، قال : «أدعو إلىٰ شهادة أن لا إله إلا اللَّه» ، فقالوا : وإلام تدعو أيضًا يا أخا قريش؟ ، قال : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وإلام تدعو أيضًا ، قال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، فقالوا : دعوتَ يا أخا قريش واللَّهِ إلىٰ مكارمِ الأخلاق ومحاسنِ الأعمال ، ولقد أَفِكَ قومٌ كذَّبوك وظاهروا عليك .

قال أحدهم : ولكن - ما زلت أقول : إنَّ آفةَ الناس كلمةُ «لكن» - أنا أرىٰ : إن تركنا ديننا واتبعناك علىٰ دينك علىٰ مجلس واحد جلسته إلينا ،

فإنه لَوهَنٌ في الرأي، وسوءُ نظرٍ في العاقبة.. إنما تكون الذِّلةُ مع العَجَلَة، وإن من ورائنا قومًا نَكْرَهُ أن نَعْقِدَ عليهم عقدًا، ولكن نرجعُ وترجع، وننظر فتنظر.. لا.. لا.. الدين ليس هكذا.. الدين ليس فيه أصلِّي أم لا؟.. ولا ألتحي أم لا؟.. وليس فيه تنتقبين أم لا؟.. الدين قَرارٌ علىٰ وِفْقِ ما يُريدُ المَوْلى.

فقام رجلٌ منهم هو المُثَنَّىٰ بنُ حارثة فقال: إنما نحن نزلنا بين سريان اليمامة والسماوة، فقال رسول اللّٰه ﷺ: «**فما هذا السَّرَيَان؟**»، فقال المثنّىٰ: أنهارُ كِسْرىٰ ومياهُ العربِ.. فأما ما كان من أنهار كِسْرىٰ فذنبُ صاحبِه غيرُ مغفور وعُذرُهُ غيرُ مقبولٍ.. يعني: أننا لسنا نقدر علىٰ كسرىٰ.. وأما ما كان من مياه العرب فذنبه مغفور وعذره مقبول، وإنما نزلنا علىٰ عهدٍ أخذه علينا كسرى: ألا نُحْدِثَ حَدَثًا ولا نأوي مُحدِثًا، إنَّ هذا الأمرَ تكرهُهُ الملوكُ.. ما هذا الدين الذي جئتَ به؟.. وإنا نرىٰ أن هذا الأمر تكرهه الملوك. فإن أحببت أن نؤوِيَك وننصرَك ممن يلي مياه العرب فعلنا، أما مِنْ كسرىٰ أو قيصر فلا؛ فلسنا نتحملُ الوقوفَ في وجه هؤلاء.. فقال رسول اللّٰه ﷺ: «**ما أَسَأْتُمُ الرَدّ إذ أفصحتم بالصدق، وإنَ دينَ اللّٰهِ لن ينصرَهُ إلا مَنْ أحاطهُ مَنْ جميعِ جوانبه**»[(1)].

يا لَلّٰه!.. انظر ماذا قال نبيُّنا محمد ﷺ.. فن الدعوة.. قال له: إنك رجل طيِّب.. أَثْنَىٰ عليه.. فقال: «**إذ أفصحتم بالصدق**».. هذه الكلمة لها أثرٌ كبيرٌ جدًّا في الدعوة.

(١) أخرجَهُ: ابن حِبَّان في «الثقات» (١/٨٨)، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (١/٩٨، ٩٩)، وانظر: «البداية والنهاية» (٣/١٤٤).

ولذلك حينما يأتيني أخٌ ويقول: أنا أُوجِّه أبي إلىٰ عدم التفرج علىٰ التِّلفاز؛ أقول له: لا.. ليس الأمرُ بهذه الصورة.. أنا أُريدُك أن تدخلَ علىٰ أبيك وتقولَ له: ما شاء اللَّه.. وتُقبِّلَ يدَه وتقولَ له: نِعْمَ الأبُ أنت!، فأنت من أفاضلِ الناس، الحمد للَّه أن لي أبًا مِثْلك، لكن يا ليتك تبتعد عن التِّلفاز.. فإنه لا يليقُ بأهلِ العلمِ والأدبِ والفضل الجلوس أمامه.. نَعَمْ.. امدحْهُ بما فيه.. وهكذا يكون الدينُ، وهكذا تكون الدعوةُ.. باللِّين والرحمة والأدب.. فافهم الدينَ. قل له: واللَّهِ يَا أبي لا أرىٰ أحدًا يُحافظُ علىٰ صلاةِ الفجرِ مِثْلك، فجزاكَ اللَّهُ خيرًا.. أنت رجلٌ طيِّب، وأنا لم أرَ أحدًا يُكرِمُ إخْوانَهُ مِثْلك.. أراك من أهلِ الحق، فتعطي الأجيرَ حقَّه، فلا تظلم أحدًا.

واللَّهِ يا أبي أنا أُحبك في اللَّه، لأني طُوال عمري ما سمعتُك تكذبُ أو تَشْتُمُ.. أخي في اللَّه، امدحْ أباك بما فيه تَكسِبْ قلبَه ويحب الدين.. ادعُهُ بأدبٍ، فإذا أغلظ معك القول فقال مَثلًا: اخرجْ خارج البيت، أو قال: أتُمثِّل عليَّ.. فقل له بأدبٍ ورحمة كما قال الرسول ﷺ: **«ما أسأتم الرد، إذ أفصحتم بالصدق.. ولكن هذا الدين لن ينصره إلا من أحاطه من جميع جوانبه»**.

إخوتاه، إننا نَضِيقُ بِمَنْ ندعوهم؛ لأننا لم نفهم الدينَ.. لأننا مُتضايقون ومَهْمومون، أو قل: عاصون.. يأتيني أحدهم مَهْمومًا مَخْنوقًا.. ما لك؟!، يقول: روحي تكاد أَنْ تَخْرج، أقول له: هل تحتاج إلىٰ مال؟.. لا.. المالُ كثير، هل زوجتُك أغضبتك؟.. لا..

يا ليت كل النساء مثل زوجتي، أولادك؟.. الحمد للَّه حالُهم حسنة.. تحتاجُ إلىٰ عمل؟!.. لا.. كلُّ شيءٍ علىٰ ما يرام.. إذًا ما الأمر؟، يقول: لا أعرف، فأنا مَخْنُوق ومُتْعَبٌ.. أقول له: تعالَ، افتحْ صدرَك لي وقُلْ لي.

يقول: واللَّهِ لا أعرف، ولو كنتُ أعرف لقلت لك.. ليس هناك سببٌ واضح للضيق الذي أنا فيه الآن.. وأحيانًا يقول هذا الكلام أخٌ ملتَزِمٌ.. لقد كان حالي قبل أن ألتزمَ أحسنَ من هذا، فكنت لا أعصي اللَّه بهذه الطريقة، ماذا جرىٰ بعد الالتزام؟!!

إخوتاه، إليكم السِّرّ.. السرُّ في الضيق والهَمِّ والغَمِّ هو المعصيةُ الكبيرةُ التي تعملُها وتُصِرُّ عليها فتسببُ لك الوَحْشَةَ.. يقول ابنُ القيِّم في كتاب «الداء والدواء»: «إنَّ المعصيةَ توقع بين العبد وبين اللَّه وحشةً، فإن زادت استحكمتْ تلك الوحشةُ» اهـ.

إذا زادت المعصيةُ زادتْ في المسافةِ بيْنَه وبين أقربِ الناسِ إليه. فترىٰ هذا الذي استحكمتْ عليه الوحشةُ إذا قال له أحدٌ: ما لك؟، يقول: لا أريدُ أحدًا أن يقولَ لي: ما لك!، وإذا سأل عنه أصحابُه، قال: قولوا لهم ليس موجودًا، فإذا استحكمت الوحشةُ أكثر وقعتْ بينَه وبين نفسِه.

يقولُ العلماء: وقد تَقتلُ هذه الوحشةُ إن زادتْ.. نعم: قد يموتُ بسببها.. فسِرُّ الوحشةِ معصيةٌ، وأخطرُ المعاصي معصيةُ السِّرّ، أنْ

تعصيَ ربَّك ولا يراك غيرُه ؛ لأنك ساعتَها تحذَرُ أن يراكَ الناسُ ولا تحذر أن يراك اللَّهُ ، تخافُ من الناسِ ولا تخافُ من اللَّه .

إذًا فقد يكون هناك جانبٌ من الدين مُتَهَدِّمٌ في حياتِك هو هذا الجانب «المعصية في السر» . . والذي يُسبِّبُ لك الوحشة .

وقد يكون هذا الجانبُ هو أنك هَاجِرٌ للقرآن ؛ فلا تحفظُ ولا تراجعُ ولا تتلو . . هَاجِرٌ بالكُلِّيَّة . . وقراءةُ القرآنِ للتعبدِ سُنةٌ مستحبةٌ ، ولكنَّ هدمَها هَدْمٌ للدين . . وقد يكونُ الجانبُ المُنْهَدِمُ من دِينِكَ هو عَدمُ صِلَتُك للرّحمِ أو عَدمُ بِرّكَ بوالديكَ ، وقد تكونُ اللِّحيةُ .

أرىٰ بعضَ الملتزمين اليومَ بدون لحية . . هل هي غيرُ مهمة؟! . . اللحية فرض ؛ قال رسول اللَّه ﷺ : «**أعفوا اللِحىٰ**»[1] . . «**أرْخُوا اللِحىٰ**»[2] . . «**وفِّروا اللِحىٰ**»[3] . . بالأمر . . وإذا تعلَّلْتَ بالمشكلات ، فقد تخدعُني ولكن أبدًا لن تخدعَ اللَّه . . لا . . اللِحْيَةُ فرض .

وقد يكون الجانبُ الذي هدمتَه من الدينِ : الصلاةَ . . في بعضِ الأحيانِ أكونُ ذاهبًا إلىٰ الدرسِ ونتأخر في الطريق ، فأصلِّي المغربَ في أيِّ مسجد ، فأجد الإمام يَنْقِرها في دقيقة . . وكنت أصلي أنا وصاحبٌ لي

---

(١) **متفق عليه** : البخاريُّ ، ك : اللباس ، ب : إعفاء اللحىٰ (٥٨٩٣) ، ومسلم ، ك : الطهارة ، ب : خصال الفطرة (٢٥٩) .

(٢) أخرجَهُ : مسلم ، ك : الطهارة ، ب : خصال الفطرة (٢٦٠) .

(٣) أخرجَهُ : البخاريُّ ، ك : اللباس ، باب : تقليم الأظفار (٥٨٩٢) .

والإمام، فقال الإمامُ: اللّه أكبر، سمع اللّهُ لمن حمده، السلامُ عليكم ورحمة اللّه.. هكذا.. كلامٌ سريعٌ متلاحقٌ، وبعدَ أن انتهيتُ لحِقْتُ به وأنا لا أَتمالَكُ نَفسِي فقلتُ له: هذه الصلاة لا أستطيعُ أن أُمِرَّها هكذا.. لا أستطيع أن يَمُرَّ عليَّ مغربٌ بهذه الصورة.. إذًا سأعيدُه.

وأنا لا أقول: إنَّ صلاةَ الرجلِ باطلةٌ؛ ولكني أنا لم أُصَلِّ.. أنا أريدُ أن أتذوقَ الصلاةَ.. أريد أن أتمتَّعَ.. أريد أن أصلِّيَ لأتشرَّبَ معانيَ الصلاةِ فتؤثِّرَ في قلبي.. ليس بسرعة.

قد يكونُ المسجدُ الذي بجوار بيتِك صلاتُهُ كصلاةِ هذا الرجل، وأنت تصلي كلَّ يوم بهذا الشكلِ، وتقول: ماذا أصنع؟!، أقول: يا أخي، المساجدُ كثيرةٌ - اللّهم زِدْ بيوتَك في الأرض -؛ فلا يخلو شارعٌ من مسجد أو اثنين أو ثلاثة، ستقول صلاتهم سريعةٌ أيضًا، أقول: ابحثْ عن مسجدٍ قريبٍ يطمئنُ فيه قلبُك للّصلاةِ.. ابحثْ ولن تَعْدِم مسجِدًا إمامُهُ حريصٌ علىٰ السُّنَّة.

لقد كان بجوارِنا مسجد يقولون عنه: «المَجَري».. فالمؤذِّنُ يؤذن ويظلُّ واقفًا ثم يقيمُ الصلاة، والإمام خلفه واقف، فتصلي وراءه وكأنك لم تُصَلِّ.. إذًا فكن حريصًا علىٰ صلاةٍ تنفعُك أمامَ اللّه.. صلاة تُغذِّي قلبَك بالإيمانِ.. صلاة تَسُدُّ جوعَك الرّوحي.. فقد تكون الصلاةُ هي الجانبُ المنهدِمُ في حياتِك الذي يسبِّبُ لك الوحشةُ.

أخي في الله ، ابحث عن الجانب أو الجوانبِ التي هَدمْتَها في دِينِك وسُدَّها . . أَقِمْ جوانبَ الدين تَزُلْ عنك الوحشة . . لا تُهمِلْ جانبًا واحدًا من جوانب الدين . . فالدينُ كُلّ . . قال - تعالىٰ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٠٩ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢٠٨-٢١٠] .

فلابُدَّ أن تأخذ الدِّينَ كُلَّه . . وإيَّاكَ أن تتمسكَ بجزئيةٍ فيه وتَتْرُكَ الباقي . . فبالكُلِّ لا بالجزءِ بإذْنِ اللَّهِ تَصِل .

* * *

الأصل الثالث والعشرون

أَنجِزْ كُلَّ يومٍ شيئًا جديدًا

قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الإيمانَ لَيَخْلَقُ في جوفِ أحدِكم كما يَخْلَقُ الثَّوب، فاسألوا اللَّهَ أن يُجَدِّدَ الإيمانَ في قلوبكم**»[1].. اللَّهم جدِّد الإيمانَ في قلوبنا.. كيف تجدِّدُ الإيمانَ في قلبك؟.. أن تعملَ كلَّ يومٍ عملًا جديدًا؛ وذلك لأن أصل اعتقادنا أنَّ الإيمانَ قولٌ وعمل يَزيدُ وينقص، يَزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي.

بعضُ الناسَ بعد فترةٍ من الالتزامِ يرقد ويقعد وينام.. يقف يتعطل.. يتدهورُ حالُه فلا يكونُ لديه جديدٌ.. إنَّ دينَنا - أيها الإخوة - أبدًا لا تنتهي جِدَّتُه فَدَوْمًا هناك جديدٌ لم تعملْه.

لقد كنتُ أَتَكلَّمُ مرَّةً مع الإخوةِ عن الجديدِ في الالتزامِ فقلت: إن العلماءَ يَقولون: إن الأكسجينَ المُخلَّقَ حديثًا في المعمل أكثرُ اشْتِعَالًا من الأكسجين الموجود في الجَوّ.. فما السبب؟، قالوا: لأنه جديد.. وكذلك الالتزامُ الجديدُ يكون فيه انطلاقةٌ وحيوية وإيمانياتٌ عاليةٌ، ثم بعدَ ذلك يَقْدَم ويَضْعُفُ ويَخْفُت.

ولذا يحتاجُ منك دَومًا إلى تجديدٍ.. بأن يكونَ كُلُّ يومٍ في حياتِكَ

(١) أخرجَهُ: الحاكم في «المستدرك» (١/ ٤)، وصحَّحَهُ الألبانيُّ - رحمه الله تعالى - في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٥٨٥).

مُخْتَلِفًا عن سابقه ولاحقه . . فكُلُّ يومٍ له لونٌ جديدٌ في الطاعةِ . . فلا تَمَلّ ولا تَفْتُر ، وتشعر دائمًا بالإيمان .

ولا تقل : إن الدينَ ستنتهي أعمالُهُ . . لا . . فالأعمالُ في دينِنا كثيرةٌ ومتنوعةٌ ، والطاعةُ ليس لها حُدُودٌ . . فَأَنْجِز كلَّ يومٍ شيئًا جديدًا بشرطِ أنْ تقومَ به علىٰ أحسنِ وجه .

ابدأ اليومَ وقلْ : اليوم سَأضبِطُ الخمسَ صلوات . . فلن أسمحَ لذهني بالشُّرودِ . . اليوم تَحَدٍّ . . سأتحدىٰ اليومَ شيطانَ الصلاةِ «خِنْزَب» . . اليوم سأقرأُ في الخمس صلوات سُورًا جديدةً لم أقرأها من قبل . . بعضُ الناسِ في كلِّ صلواتِه لا يقرأُ إلا بسورتَيْنِ قصيرتَيْنِ ويَظَلُّ معهما شُهورًا ، ولذلك يَشْرُد فلا يعيشُ الصلاةَ . لأنه يصلي (أتوماتيك) صلاة مكررة .

يومٌ آخر ، تقول : أذكارُ الصلاةِ سأقولُها اليومَ بقلبي وبدموعِ عيني . . يوم آخر : سأتدبّر اليوم صفحةً جديدةً من القرآنِ ، وسأظلُّ أغرِسُ مَعَانيها في قلبي طِوال اليوم . . وهكذا . . كل يوم شيء جديد .

سبحان اللّٰه العظيم . . حديث في «صحيح مسلم» أعرفُه ، قَرأتُهُ وكَأني أقرأُهُ لأَوّلِ مرَّةٍ في حياتي . . قال رسول اللّٰه ﷺ : «**ما من غَازيةٍ تغزو في سبيل اللّٰه فيُصِيبُونَ الغنيمة ، إلا تعجَّلوا ثُلُثَيْ أجرِهِم من الآخِرة . ويبقىٰ لهم الثلث . وإنْ لم يُصِيبوا غنيمةً تمَّ لهم أجْرُهُمْ**»[(١)] .

ومعنىٰ ذلك : «أنَّ الغُزاةَ إذا سَلِمُوا أو غَنِمُوا يكونُ أجرُهُم أقلَّ من

---

(١) أخرجَهُ : مسلم ، ك : الإمارة ، ب : بيان قدر ثواب من غزا فغنم ومن لم يغنم ، برقم (١٩٠٦) .

أجر مَنْ لم يَسْلَم ، أو سَلِمَ ولم يَغْنَم ، وأنَّ الغنيمةَ هي في مقابلةِ جزءٍ من أجرِ غزوِهم ، فإذا حَصَلَتْ لهم فقد تعجَّلوا ثُلُثَيْ أجرِهِم المُتَرَتِّبِ على الغزو ، وتكونُ هذه الغنيمةُ من جملةِ الأجر»[1] .

إذًا فهناك أحاديثُ كثيرة أنت سمِعتَها وتعرِفها ؛ ولكن عند التدبرِ والوقوفِ عندها تشعرُ بأنها جديدةٌ عليك؛ فيَزيدُ بها إيمانُك . . إذًا فبالجديد يَزدادُ الإيمان .

وكذلك هناك آياتٌ من القرآنِ تقرؤها فتقول : سبحانَ اللَّه ، هذه الآيةُ جديدةٌ عليّ : لم أسمعها من قبل ؛ مع أنك تقرؤها ليلَ نهار ، ولكن لأنك بدأتَ تتدبرُ وتفتحُ قلبَكَ وتقفُ مع الآياتِ؛ فيرزقك اللَّهُ المعانيَ الجديدةَ .

آية في سورةِ الرعدِ ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦] . . آية جميلة وجديدة ، وتَرْدَادُها وتَكْرَارُها وتفَهُّمُها يَزيدُ الإيمانَ ويُقَوِّيه . . آيةٌ - واللَّهِ - تُرِيحُ القلبَ ، وتُخفِّفُ المشاكلَ ، وتُزهِّدُ في الدنيا ، وتَحُثُّ على السَّيْرِ إلى اللَّه .

نعم : نقرأُ القرآنَ كثيرًا ، ومع ذلك نجدُ جديدًا كلَّما قرأنا . . ومعاني القرآنِ لا تنتهي ؛ ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩] . . فَاقْرَأْ من القرآنِ آيةً بنفسها في أوقاتٍ مختلفة وأحوال متغيرة سَتخرجُ كلَّما قرأتَ بجديد . . إذًا فالجديدُ كثيرٌ . . وما عليك إلا أن تَعْزِمَ وتَجِدّ .

إخوتاه ، وحينما تُنجِزون جديدًا وتُتِمّونَه على وجهِ الأكمل ؛ سَتعلمون

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١٣/٧٨) .

أنكم كنتم قبلُ تَلعبون، حين تَذوقون نعيمَ الطاعة وطعمَ الإيمانِ ولذةَ الإيمانِ.. قال الشاعر:

وكنتُ أَظُنُّ أنْ قَدْ تَناهىٰ بيَ الهَوىٰ ... وبَلغَ بي غايةً ليسَ لي بعدَها مَذْهبُ
فلمَّا تَلاقَيْنا وعَاينتُ حُسْنَها ... علمتُ أنّي كنتُ قبلَ اليومِ ألعبُ

فإذا صَلَّيْتَ فصلِّ كما ينبغي، وإذا قرأتَ القرآنَ فاقرأْه كما ينبغي، وإذا تصدقت فتصدق كما ينبغي.. وإذا قمت اللَّيلَ أو ذكرتَ أو حججتَ أو اعتمرتَ أو طُفتَ أو سجدتَ فبحق.. أَنْجِزْ الجديدَ في اليوم الجديدِ علىٰ الوجه الذي ينبغي؛ لتذوقَ حلاوةَ الإيمان.

يقولُ ابنُ القيِّم: «وسعادةُ المُعْطِي أعظمُ من سعادةِ الآخِذِ».. نعم: الطاعةُ بحقّ لها سعادةٌ وحلاوةٌ ومتعةٌ ولذة.. وهذا هو الدين.. اللَّهم ارزقْنا الالتزامَ بالدين يا رب.

أخي في اللَّه، اقرأ اليومَ بابًا جديدًا في التَّوحيدِ، واقرأ غدًا في سِيرةِ النبي ﷺ، وبعد غَدٍ اقرأ في تفسيرِ آيةٍ لم تقرأها من قبل.. وهَكذا.. أنجز كلَّ يوم جديدًا.. جديدًا في العلمِ.. أو جديدًا في العبادةِ.. أو جديدًا في الدَّعوةِ إلىٰ اللَّه.

جَدِّدْ إيمانَك يَوميًا حتىٰ لا تَفْتُرَ أو تَمَلَّ في طريق السَّيرِ إلىٰ اللَّهِ.. فالتجديدُ يَدفعُ الملَلَ، ويقوِّي السَّيرَ ويَحُثُّ عليه.. فَجدِّدْ إيمانَك وسَلِ اللَّهَ ذلِك؛ تَصِلْ بإذن اللَّه.. اللَّهم جدِّدِ الإيمانَ في قلوبِنا يا رب[1].

* * *

(١) لنا محاضرة بعنوان «**جدِّدْ إيمانك**» استمع إليها تُفِدْ بإذن اللَّه.

الأصل الرابع والعشرون

كُفَّ عنِ الشَّكْوىٰ وابْدَإِ العلاج

كثيرٌ من الناسِ ليلَ نهار ليس لَهُمْ هَمٌّ إلا الشكوى . . التبرجُ كثيرٌ! . . والفِتنُ! و . . و . . يقول إسماعيلُ الهَرَوِي : «الزهدُ في الدنيا نَفْضُ اليدين عن الدنيا ضبطًا أو طلبًا ، وإسكاتُ اللِّسان عنها مدحًا أو ذمًّا ، والسَّلامةُ منها طَلبًا أو تَرْكًا» (١) .

الشَّاهدُ الذي نَسْتَخرِجُهُ مِنْ هذا الكلام المُهِم : أنَّ الذي يحبُّ الدنيا يتكلمُ عنها كَثيرًا ولو بالذم . . كذلك يُعَدُّ الرجل مفتونًا بالنساء إذا أَكْثَرَ من ذِكْرِهِنَّ ولو بالذمِّ ، والذي يتكلمُ عن المالِ كثيرًا ولو بالذمِّ فهو أيضًا مَفْتونٌ . . ومن هنا فالذي يَشْتَكي كَثيرًا فمفتون ؛ قال الملك العليم - سبحانه - في آية من الآيات الفاضحة : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ [التوبة : ٤٩] .

تجدُ أحدَهم يقولُ : لا أُريدُ أَنْ أذهبَ إلىٰ الدرسِ الفلاني لأَنَّ هناك نساءً وأنا ضعيفٌ ! ! . . يا مفتونُ . . تقول له : اخطب الجُمُعة فيقول لك : أخاف من الرياء ! . . مفتون . . عجبًا لك ! ، طوال الوقت تتكلم وتقول : حلال وحرام ، ونصَّبتَ نفسَكَ شيخًا ، لماذا عند تَحمُّلِ المَسْئولية تخافُ من الرياء؟ ! ! . . اللَّهمَّ ثبِّتنا علىٰ الإيمانِ وارزقْنا الإخلاص .

---

(١) طريق الهجرتين (١٦) .

الإمام مالك كان إذا أعطىٰ موعظةً بَكىٰ وقال : «يحسبون أنَّ عيني تُقِرُّ بكلامي ، كيف وأنا أعلم أن اللَّه سائلي عنه يوم القيامة ماذا أردتَ به» . . وعلىٰ الرَّغم من هذا الكلامِ ؛ إلا أنَّه لم يَتوقفْ عن الوعظِ ، ولم يقلْ مثلما يقولُ شبابُ اليوم : أخاف علىٰ نفسي من الرياء . .

إخوتي في اللَّه ، هل تظنون أني أفرح حينما أقول درسًا أو أخطب جُمُعة؟! . . هل يوم القيامة ستكونون جالسين أمامي بهذه الصورة؟! . . لا واللَّهِ . . إن ربي سيسألُني : تحركتَ من هنا إلىٰ مصر الجديدة لتعظَ ؛ لماذا؟ ، لأجلِ الناسِ أم لأجلي؟ ؛ فماذا أقول له؟! . . اللَّهم ارزقْنا الإخلاصَ واجعلْنا مِنْ أهلِه .

كُفَّ عَن الشكوىٰ وابدأ العلاجَ . . تجدُ بعضَ الناسِ يَشْكو من الوسوسةِ وليس به شيء ، ولكنَّه يَظَل يقول : الوسوسة . . الوسوسة . . حتىٰ يُوَسْوَسَ فعلًا . . بسبب كثرةِ شكواه . . يَظَل يَشْكو : النِّساءَ . . النِّساء ، فيقع في الفتنة ، ولو كفَّ عن الشكوىٰ وَبدأ في العلاجِ ؛ لكفاه اللَّه هذه الفتنة .

إنَّ مصيبةَ كثيرٍ من الإخوةِ أنهم مَشْغولون بالزواج . . فترىٰ الواحدَ منهم يمشي في الشارعِ فيقول في نفسه : أتزوج هذه أم هذه؟ . . لا ، بلْ هذه . . لا لا بلْ مِثْلَ هذه . . إذا أردتَ الراحة فارفع هذا الموضوعَ عن تفكيرِك ، وَعِشْ حَياتَك الإيمانية كما ينبغي ، ووقتَ أن تُقرِّرَ الزواجَ تزوَّجْ في نفسِ اللَّحظة . . أمَّا أن تعيشَ هكذا ، مُشَتَّتَ الفِكْرِ ، تَشْتَكي دَوْمًا من هذه القضيةِ ؛ فلن تَنْجوَ من الفتنِ أبدًا . . فأرِحْ دماغَك الآن عن هَمِّ الزواجِ طَالما أن ظروفَك الإيمانية والحياتية لا تسمح . . هذا هو الحَلُّ للفتنة : عَدمُ الشكوىٰ وعَدمُ الهمّ ، وعدمُ الضيقِ والمرضِ بسببها .

بعضُ الناسِ يقول: المال.. مالنا وللمال، المال دنيا، فكلامُهُ المتكرر هذا عن المال دليلٌ علىٰ أنه مفتونٌ بالمالِ وبالدنيا. وفرقٌ بين مَنْ يشكو ليُعَان وبين من يشكو ليتهرب.

سيدُنا موسىٰ – عليه وعلى نبيّنا الصلاةُ والسلام – لمَّا قال له ربُّه: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [النازعات: ١٧]؛ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٣-٣٤].. اشتكىٰ؛ ولكنه طلبَ العونَ فأُعِينَ.. أعانهُ اللَّهُ ووهبَ أخاه هارونَ النبوةَ.. وهذه من البركاتِ.. أن يُرزقَ أحدٌ النبوةَ.. قال موسى: يا رب، وأخي؛ فقال – سبحانه –: وأخوك.

ولذا أُريدُ منك حينما يَرزقُكَ اللَّهُ الالتزامَ.. أريدك أن تقولَ: يا رب، وأخي.. يا رب، وأبي.. يا رب، وأمي.. يا رب، وأختي.. يا رب، وجاري.. ادعُ اللَّهَ أن يهديَهُم وانشغلْ بإصلاحِهم بدلًا من أن تَظلَّ تَشْكُوهم وتَشْتَكِي منهم فَتَكْرَهَهُم وَيكْرَهُوك.. ادعُ اللَّه لهم وكُفَّ عَنِ الشَّكْوى؛ لِيُنَجِّيَهم كما نجَّاك.

الرَّسُول ﷺ لما قيل له: نَطْبِقُ عليهم الأَخْشَبين؟؛ قال: «**لعلَّ اللَّهَ يُخرجُ من أصلابِهم من يُوحِّدُ اللَّهَ**»(١).. خرجَ وتَعِبَ واستفرغَ وُسْعَه..

---

(١) **متفق عليه**: البخاريُّ (٣٢٣١)، ك: بدء الخلق، ب: إذا قال أحدكم «آمين» والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرىٰ غُفرَ له ما تقدَّم من ذنبه، ومسلم: (١٧٩٥) ك: الجهاد والسير، ب: ما لقي النبيُّ ﷺ من أذى المشركين والمنافين.

فليس هَمُّنا أن يحرِقَ اللَّهُ الكفار ، وإنما همُّنا أن يهديَهم ، فما بالك بأهلِك الذين تشكُوهم . . اللَّهمَّ اهْدِ المسلمينَ وغيرَ المسلمين يا رب .

أيها الإخوة ، كُفُّوا عن الشكوىٰ وابدأوا العلاجَ . . كَفاكُم شكاوَى . . أنا لا أستطيع القيامَ للفجرِ ، ولا أقدرُ علىٰ الدَّعْوَة ، ولا أقدرُ علىٰ كذا ، ولا أستطيعُ كذا . . طالما تشتكي فلن تَقومَ ولن تَقدِرَ ولن تَستطيعَ .

الرسول ﷺ لمَّا جاءه الرجلُ المُوَسْوَسُ وقال له : إن أحدَنا ليجدُ في نفسِه ما يتعاظَمُ أن يتكلَّم به ؛ قال : «**الحمد للَّه الذي رَدَّ كيدَه إلىٰ الوسْوسَةِ . إذا وجدَ أحدٌ منكُم ذلك فليقلْ : آمنتُ باللَّهِ ورسولِه ، ولْيستعذْ باللَّهِ ثلاثًا ولينْتَهِ**»[1] ، «ولْيَنْتَهِ» : أي لا يفكر فيها مرةً ثانية .

«الحمد للَّه الذي ردَّ كيدَهُ إلىٰ الوسوسة» . . أي إنَّ الشيطان حينما ييأس ، ويخِيبُ في إغواءِ الرَّجُل ؛ لا يَجِدُ شيئًا يَكِيْدُ بِهِ سِوَىٰ هذه الوَسْوَسَة . . فهي سلاحُهُ الضَّعيف ؛ ولذا قال النبيُّ ﷺ : «**الحمد للَّه**» .

وقد قال ﷺ أيضًا في قطع الوساوس : «**اتفُلْ عن يَسارِكَ ثلاثًا ، وقل : اللَّهمَّ ربِّي لا شريكَ له**»[2] .

اتفُلْ علىٰ الشيطانِ ، فهذا احتقارٌ له وازدراءٌ وإهانةٌ ؛ حتىٰ لا يأتيَكَ مرةً ثانيةً . . ولا تَعبأْ به . . وإنَّما انشغِلْ باللَّهِ وحدَه فقُلْ : اللَّهُ ربي لا شريكَ له . . ثم انْتَهِ عن ذلك ؛ أي : لا تتكلمْ ولا تسألْ أحدًا ولا تقرأْ عن هذه المسألةِ ولا تبحثْ عنها ؛ وإنَّما انته ؛ لتنقَطِعَ الوساوسَ .

(١) أخرجَهُ : أحمد (١/ ٢٣٥)، وأبو داود ، ك : الأدب ، ب : في رد الوسوسة (٥١١٢) ، وصحَّحَهُ الألبانيُّ - رحمه اللَّه تعالىٰ - في «صحيح السنن» .
(٢) أخرجَهُ : أحمد (١/ ١٨٣) ، وابن حِبَّان في «صحيحه» (١٠/ ٢٠٦) .

إذًا فالعلاجُ في أربعةِ أمورٍ :

١- قل : آمنتُ باللّٰهِ ورسولهِ .

٢- استعِذْ باللّٰه من الشيطان الرجيم .

٣- اتفُلْ عن شِمالِك ثلاثًا .

٤- اسكُتْ . . التزم الصمتَ . . لا تَشْتَكِ . . انتهِ . . أَغْلِقْ هذا البابَ تمامًا .

كثيرٌ من الشبابِ يقول : أبي يعملُ كذا وكذا ، وأُمي تقومُ بكذا وكذا . . وأُختي . . وأَخي . . والمسْجِدُ فيه كذا ، والإمامُ يفعل كذا . . والشيخُ قال كذا . . ويَظَلُّ يَشْتَكِي . . ارحمْ نَفْسَك ، ولا تُكْثِرْ الشكوى . . لا تكثر الشكوى ، وإنما اسكتْ . . اصمتْ لتستريحَ وتُريحَ الناسَ من هَمِّك ومَشاكِلِك ، فالناسُ بهم ما يَكْفيهم ، وإنما الرَّاضي منهم مَنْ أَرْضَاه اللّٰهُ ؛ فارْضَ باللّٰهِ واشْكُ همومَك إليهِ وحدَه يَكفِكَ ما أهمَّك ؛ فهو - سبحانه - يعلمُ حالَك .

إخوتاه ، إنَّ الذين يَشْكُون الواقِعَ لن يُغيِّرُوه مُطْلقًا ؛ بل ولن يَتَغيَّروا هُمْ أَيضًا ، سَيظَلُّون هكذا في وَحْلِ الفتنةِ يُقَاسُونَ المرارةَ والكَرْبَ طَالما أنهم لم يَبدَءوا العلاجَ من عندِ أنفسهم .

إنَّ الوصولَ إلىٰ اللّٰهِ - أحبتي في اللّٰه - يحتاجُ مِنَّا ألا نَقِفَ أمامَ المشاكلِ والهموم مَكْتوفي الأيدي ، واضعين أيدِينَا علىٰ خُدودِنا نَشْتَكي إلىٰ كلِّ رائحٍ وغادٍ؛ بَل لابُدَّ من التحرُّكِ والعلاجِ . . فعاهِدْ نَفْسَك - أخي في اللّٰه - منَ الآن ألّا تشتكيَ مُطْلقًا . . كُفَّ عن الشكْوىٰ وابدأ العلاجَ ؛ لِيُعِينَك اللّٰهُ علىٰ الوصولِ إليه .

* * *

الأصل الخامس والعشرون

لَيسَ الشَّأنُ أَنْ تُحِبَّه ، إِنَّمَا الشأنُ أَنْ يُحِبَّك

فهلْ يُحبُّك اللّهُ؟

إخوتي في اللّه ، والذي فَلقَ الحبَّةَ وبَرَأَ النَّسْمَةَ إنِّي أُحِبُّكم في اللّهِ ، وأسألُ اللّهَ ﷻ أن يجمعَنا بهذا الحبِّ في ظِلِّ عرشِه يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّه . . أحبتي في اللّه ، الحب . . الحبُّ حبُّ اللّه . . اللّهم ارزقْنا حُبَّك وحبَّ كلِّ عبدٍ صالحٍ يحبُّك ، وحبَّ كلِّ عملٍ صالحٍ يقرِّبُنا إلىٰ حبِّك ، اللّهم اجعلْ حبَّك أحبَّ إلينا من أهلينا وأنفسنا ومن الماءِ البارد على الظمأ .

أحبتي في اللّه ، يَذْكرُ ابنُ القيم أَنَّ الدنيا لا تقومُ إلا علىٰ الحبِّ؛ فكلُّ حركةٍ وسَكْنةٍ في الحياةِ إنَّما الدافعُ عليها الحبُّ ، وأصلُ الحبِّ حُبُّ اللّه . . وليست القضية أنْ تعزِمَ وتَظَلَّ اللَّيلَ والنهار تقول : أُحبُّك ؛ وإنَّمَا الشَّأْنُ أَنْ يُحبَّك هو؛ ولذلك اختارَ اللّهُ قومًا ، قدَّم حبَّه علىٰ حُبِّهم ؛ قال ﷻ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، فَقدَّم حُبَّه لهم علىٰ حُبِّهم له ، فهو - سبحانه - أَحبَّهم وبحبِّه لهم أَحَبُّوه؛ ولذلك فإنَّ الأصلَ في هذه القضيَّة - أيها الأخ الكريم - : هل يُحبُّك اللّه؟!!

هذا هو السؤال . . اللّه يحبُّك أم لا؟ . . سؤالٌ يحتاج منك فعلًا إلىٰ إجابةٍ . . هل تَصْلُح؟ . . هل تَسْتَحِق؟!

مثال: لو قالوا: إنَّ الممثلةَ الفُلانيةَ تحبُّك، فنراك تقولُ لأحدِ الناسِ: فُلانةٌ تُحبُّني، فينظر إليك متعجبًا ويقول لك: تحبُّك أنت!! بماذا؟، وعلىٰ أي شيءٍ تُحبُّك؟!!، ومَنْ أنت؟!.. ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].. فلو كنت جالسًا مع الناس وقلت: إن اللَّهَ يحبُّني؛ سنقولُ لك أيضًا: وعلىٰ أي شيءٍ يحبك، ولِمَ يحبك؟، وبماذا يحبُّك؟، ومن أنت حتىٰ يحبَّك؟!.. اللَّهُ الكبير.. اللَّهَ العظيم.. اللَّهَ الجليل.. اللَّهَ الملك المتعال يُحبُّك أنت؟!!.. ماذا فيكَ يُحَبّ لأجلِ أن يحبَّكَ اللَّه؟!!

سَهلٌ جدًا أن تقولَ: أُحِبُّه؛ ولكنْ من الصَّعْبِ أَنْ تقول: يُحبُّني..

وإذا قلت: نعم يحبني، فما طلبتُ منه شيئًا إلا وأَعْطانِيه؛ أقولُ لك: ليس شرطًا.. فقد أعطىٰ الكفارَ ما يُريدون؛ فهل مَعنىٰ ذلك أنَّه يحبهم؟! القضيةُ إذًا خطيرة، والكلامُ فيها وعنها أيضًا خطير.

ويستدلُ ابنُ القيِّم - رحمهُ اللَّه - لذلك فيقول: كيف وقد أَعْطىٰ أبغضَ خَلْقِهِ عِنْدَه.. يعني: أن إبليسَ لمَّا سَأله الإنظار أعطاه له.. ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤-١٥].. إبليسُ طلبَ فأعطاه اللَّه فهل يحبه؟!.. لا.. فليسَ شَرْطًا في الإعطاءِ أن يُحبَّك.. قد يُعطيك لأنه يَكرهُك.. لا يُريدُك.. خُذْ ولا أُريدُ أن أَسمعَ صوتَك.. ولذلك فإنَّ مِن الأصول المهمة: تَمامُ الخِذْلان انشغالُ العبدِ بالنعمةِ عن المُنْعِم.

هلْ يُحبُّك اللَّه، وهل تُحبُّ اللَّه؟.. نعم: أُحِبُّه؛ إذًا فما الدليل؟.. إنَّ أيَّ ولدٍ ممن يجلسون علىٰ النواصِي فيواعدُ البنْتَ الفلانيةَ، تَجِدُهُ وهو

ذاهبٌ لمقابلتِها في أحسنِ شَكْلٍ ، وقَلْبُه يُرَفرِفُ ، ويكادُ يطيرُ فَرَحًا . . فهل وأنت قادمٌ إلىٰ الصلاة يرفرفُ قَلبُك فَرَحًا لملاقاةِ ربِّك؟ !! . . إنْ لمْ يكنْ فاعلمْ أنك لا تُحِبُّه . . هذا كلامٌ منطقيٌ . . إذا لم تكن سعيدًا بلقاءِ اللَّه ، وأنت في بيتِ اللَّه ، ومَعَ اللَّهِ ، فأنتَ لا تُحِبُّه .

ولذلك فَإِنَّ مَنِ ادَّعىٰ محبةَ اللَّهِ ثم مالَ بقلبِهِ إلىٰ الدنيا فهو كذَّابٌ . . نَعمْ : إذا لم يُرَفرِفْ قلبُك بحبِّه فأنت كذابٌ . . ، المشكلةُ ليست في أَنْ تُحبه ، المشكلة في أَنْ يُحبَّك - اللَّهمّ أَحبَّنا يا رب - ، فإذا أَحَبَّكَ نِلْتَ السعادةَ والوصول .

يقولُ ابنُ القَيِّم : «فهي محبةٌ تقطعُ الوساوسَ ، وتُلذِّذُ الخِدْمَةَ ، وتُسَلِّي عن المصائبِ» . . فإذا أحبَّك انقطعتْ عنك الوساوسُ . . كثيرٌ من الشبابِ الملتزمِ اليومَ مبتلًى بالوسوسة . . نعم : لأنه لا يحبُّ اللَّهَ ، ولو أَحبَّه لانقطعتْ عنه الوساوسُ . . وسببٌ آخر هو : أن المُوَسْوِسَ دائمًا يسألُ عن الوساوسِ ويشْتَكي منها - كما قلنا في الأصل السابق . .اللَّهمّ إنا نَسْأَلُك أن تعافيَ كلَّ مُبْتَلًى مسلم .

أخي في اللَّهِ ، لا يُوَسْوِسُ إلا فَارِغٌ ، أما الذي قلبُه مَلآنٌ ودِماغهُ مشغولٌ فَفِيمَ يُوسْوِس؟! ؛ فهو مُنْشَغِلٌ بعيدًا عن هذه الوساوسِ . . إنّه مشغولٌ باللَّهِ وبحبِّ اللَّهِ .

وحِينَ يُحبُّكَ اللَّه يَمْلأُ قلْبَك بحبِّه فلا تَنْشَغلَ بغيرِه- اللَّهمّ أَحبَّنا يا رب - ، فتَجِدُ نَفسَك مَشْغُولًا ليلًا ونهارًا به - سبحانه وتعالىٰ . . ليسَ لكَ هَمٌّ إلا اللَّه ﷻ والوصولُ إليه ، ونيلُ رضاه ، فَتعملُ لِخدمتِه ، فتظلُّ مشغولًا بِهِ - سبحانهُ - وَحْدَهُ طِيلةَ الوقت وطِيلةَ العُمر .

نعم : إذا أحبَّك شَغَل قَلْبَك بِحُبِّه ، وجَوارحَك بخدمتِهِ ، وعقلَك بالفكرِ فيهِ؛ ثم لا تجدُ في نفسكِ بَقيةً لغيره . . أوّلُ شيءٍ في الحبّ أنّ المحبَّةَ تقطعُ الوساوِسَ . . فاللَّهُمَّ ارزقْنا حُبَّك يا رب .

ثُمّ إنَّ الحُبَّ يُلذِّذُ الخِدْمَةَ . . أحدُ إخوانِنا ذهبَ ليعتمرَ فكان يقومُ بخدمةِ المعتمرينَ . . أسألُ اللّه أنْ يتقبلَ مِنَّا ومنكم ومنه . . اللّهمّ ارزقنا الحجَّ والعمرةَ . . قلت له : اجعلْ قَلْبَك - وأنتَ تَخْدُمُ إخوانَك - مَشْغولًا باللّه . . واستشعر نظرَه إليك ؛ لتزدادَ تَلَذُّذًا وحُبًّا في الخِدْمَة .

أخي في اللّه ، لو أنَّك أتَيتَ برجلٍ يَشتغلُ عندك ليَدْهِنَ لك هذه المكتبةَ مثلًا وأنت واقفٌ خلفَهُ ؛ فسيظلُّ يعملُ بحَذَرٍ وجِدٍّ . . فاجعلْ هذا إحساسَك . . المراقبةُ . . واقفٌ أنتَ أمامَ حَبيبِك فهو ناظِرُك . . حَبيبك الذي تَشتغلُ له وتعملُ له ، استشعرْ مُراقبتَه لك دائمًا؛ سَاعتَها سَتعملُ بِحبٍّ وتَلَذُّذٍ ، ليس على خوفٍ وفقط ، بل بحب؛ لأنّ حبيبَك يَراك ، والمحبُّ يُحِبُّ أنْ يَراه حَبيبُه دَوْمًا وهو يَعملُ له .

صليتُ مرَّةً بالناس فأطلتُ الصلاةَ وقلتُ لهم : إن الناقِدَ بصيرٌ (أعني : أنَّ اللّه ناظِرُنا) . . ومَررْنَا مرَّةً على «اسْتُرجِي» وقُدّامه الطقم «أنتريه» وهو جالس يَدْهِنُه . . يُمسِكُ بالقُطْنَةِ والريشة . . قلنا : ما لك لا تنتهي ؟!؛ قال : إنَّ صاحبَ الطَّقَمِ يُدقِّقُ جِدًّا في كلِّ شيءٍ . . أفَهِمْتَ ؟!

ولذلك فإذا صَليتَ فاعلمْ أنَّ اللَّهَ يَنصِبُ وجهَهُ إلى وجهِكَ في صلاتِك ما لم تَلتَفِتْ . . إذا قمتَ للصلاةِ فاعلمْ أنَّ اللَّهَ ينظرُ إليكَ ويطالِعُكَ . . ولذلك كانَ الواحدُ من السَّلَفِ إذا توضَّأ اصْفَرَّ لونُه ، وارتَعَشَ

جِلدُه، يقولون له : مالك؟!؛ يقول : أتدرونَ بين يَدَيْ مَنْ سأَقفُ؟!!!

ولذلك فإنَّ مِن الأصولِ المهمة أيضًا : الاستحضارُ الذهنيُّ للعباداتِ قبلَ الدخولِ فيها، سبيلُ الإخلاصِ فيها.

أيها الأخُ الكريم، الحُبُّ تلذُّذُ الخدمةِ.. نَعمْ : يُلذِّذُ الحبُّ الخدمةَ.. تكونُ الخدمةُ لذيذةً جدًّا.. قال أمير الشعراء عن قيامِ رسولِ اللَّه ﷺ مُتَلَذِّذًا له :

رَضِيَّةٌ نفسُهُ لا تشتكي سَأَمًا وما معَ الحُبِّ إنْ أخلصتَ مِنْ سَأَمِ

بكىٰ أحدُ السلفِ عند موتِهِ، قيلَ : ما يُبْكيكَ؟، قال : «أَبْكِي لأنَّني أموتُ ولم أَشْتَفِ مِنْ قيامِ اللَّيْلِ».. أَبْكي لأنِّي أموتُ ولمْ أَشْبعْ مِنْ قِيامِ اللَّيل.

وكانَ بعضُ السَّلفِ يقولُ عِندَ موتِهِ : «اللَّهمَّ إنْ كنتَ كتبتَ لأحدٍ أنْ يُصلِّيَ في قبرِهِ فاجعلني مِمنْ يُصلِّي في قبرِه».. لمْ يشبعْ مِن الصلاةِ ويُريدُ أنْ يُصلِّيَ أكثرَ.. قالوا هذا؛ لأنَّهم أَحبُّوا اللَّه، فاستحضروا العباداتِ ذِهْنيًّا.. اشْتَغلوا في العباداتِ بمحبةٍ؛ فانقطعتْ عنهم الوساوس وتَلذَّذُوا بالخِدمةِ، وتَسلَّوْا بتلكَ المحبةِ عن كلِّ المصائبِ والمتاعبِ.

قالَ رسولُ اللَّه ﷺ : **«وجُعِلَتْ قُرَّةُ عيني في الصَّلاة»**[1].. هذه هي اللذَّةُ الحقيقيةُ، وهذا هو التلذُّذُ في الخدمةِ بحقٍّ.. فهل أحببتَ ربَّكَ

---

(١) أَخرجَهُ : أحمد (١٢٨/٣ ، ١٩٩)، والنسائيُّ (٣٩٤٩ ، ٣٩٥٠)، ك : عشرة النساء، ب : حُبُّ النساء، وقال الألبانيُّ - رحمه اللَّه تعالىٰ - : حسنٌ صحيحٌ.

فعِشْتَ هذا النعيم؟ . . هل أَحْسَسْتَ بحلاوةِ الحبِّ ومتْعَتِه ولَذَّتِه وجمالِه بعدَ أَنْ كنتَ في جاهليةٍ؟ . .

كنت تأكلُ وتشربُ وتُهَرِّجُ وتَمْشِي مع البناتِ وتسمعُ الموسيقىٰ وتَدخُلُ السِّينما وتَذْهَبُ إلىٰ المسرحِ وتدخلُ الملاهي وتُسافِرُ تَصِيْفُ علىٰ البحرِ . . كنت في جهلٍ . . في ضلالٍ . . في جاهليةٍ عَمْياءَ ، وتابَ اللَّهُ عليكَ ودخلتَ بابَ المسجدِ وبدأتَ تُحِبُّ اللَّه . . بدأتَ تُحبُّهُ بعد حبِّ البناتِ . . تُحبُّ المصحفَ بعد الموسيقىٰ والأغاني . . بدأتَ تُصلِّي بعد الجلوسِ علىٰ المقاهي و«الشِّيشَة» . . بدأتَ تَمشي في طريقِ الخيرِ بعد أَنْ كنتَ تَمشي تعاكسُ الفتيات . . فَأَحْسَسْتَ بالفرقِ . . وعرفتَ النظافةَ وفَهِمتَ الطهارةَ . . فعِشتَ الفرقَ . . فإذا أَحسستَ بذلكَ وعشتَهُ فلا تستطيعُ أَنْ تسكتَ . . لابُدَّ أَنْ تَنْقِلَ أَحاسيسَك هذه لغيرِكَ . . لابُدّ .

وَلكِنْ للأسفِ الشديدِ كثيرٌ منَّا حِينما يَلْتَزِمُ ويريدُ أن يَنْقِلَ أحاسِيسَهُ يَنْقِلُها بصورةٍ غيرِ لائقةٍ فيُنَفِّرُ الناسَ ، ويُكَرِّهُهم في الدين . . حرامٌ هذا . . حرامٌ . . غلطٌ . . غلطٌ شديد . . تجده يقول للناسِ : الشيخُ الفُلاني يُحرِّمُ كذا وكذا . . فيكرهون الشيخَ والدينَ . . لا . . ليس الأمرُ أن تتكلَّم عَنْ غَيْرِك ؛ إنَّما الأمرُ أَنْ تَنقِلَ أحاسيسَك أنت . . قلْ لهم : هل تعرفون بماذا أَشْعُرُ ؛ ثم تنقِلُ إحساسَك إليهم .

قل لهم : وأنا ساجدٌ أَشعرُ بكذا ، وأنا أَقْرأُ كلامَ اللَّهِ أَحُسُّ بكذا . . حينما أَذْكر اللَّهَ فأقول : سبحان اللَّه العظيم وبحمدِه يَمتلأُ قلبي راحةً واطْمِئنانًا . . وبذلك تَصِلُ إلىٰ قلوبِ الناسِ ، أما إذا لم تَحُسّ بما تقول

فأنت كذابٌ في التزامِك ولمَّا تلتزمْ إلىٰ الآن . . ولذلك أحِسَّ الجمالَ واستشْعِرْ حلاوةَ الإيمانِ وطعمَ الإيمانِ . . املأْ قلبَك بالمحبةِ لتتلذَّذَ بالخدمَةِ ، وتَتَسلَّىٰ بالمحبةِ عن المشاكلِ والهمومِ .

ثمَّ إنَّ هذه المَحَبَّةَ تَنشأُ مِنْ مُطَالعةِ المِنَّةِ - كما يقولُ ابنُ القيِّم . . رُوِيَ عَنْ رسولِ اللَّه ﷺ أنه قال : «**أحبُوا اللَّهَ لِمَا يغْذُوكم به ، وأحبوني بحبِّ اللَّه**»[1] . . أَحِبَّ اللَّهَ فهو الذي يُطْعِمُك ويُنْفِقُ عليك . .

نَعمْ : القلوبُ مَجْبُولةٌ علىٰ حُبِّ مَنْ أَحسْنَ إليها ؛ فلو أَنَّ إنسانًا أعطاك اليومَ عَشْرةَ جُنيهات ، وغدًا أعطاك عَشْرةً أخرى ، وبَعدَ غدٍ أعطاك مثلَها أيضًا . . وهكذا كُلَّ يومٍ يُعطيك ، وبعدَ العشرة أعطاك مِئَة ، وبعدها ألفًا ، ثم مليونًا . . وهكذا كلُّ يومٍ في زيادة ؛ فلا شَكَّ أنك تُحبُّه حُبًّا شَديدًا ؛ فكيف بِك لو كان المُعْطِي هو اللَّه؟! . . فاللَّهُ - سبحانه وتعالىٰ - أعطاكَ مَلايين مُمَلْيَنَة ، فكم تُساوي عَيْنُك وكم يُسَاوي سَمْعُك . . كم تُساوِي الدنيا إن فقدتَ عَينَيْك ؟!!

اللَّهُ - سبحانه وتعالىٰ - أعطاك ولا يزالُ يُعطيك . . فالهواءُ الذي تَتَنَفَّسُهُ لو كان النَفَسُ منه بعشْرةِ قروشٍ ؛ فكم تدفع كلَّ يومٍ؟! . . لو كنت تدفعُ كما تدفعُ لعدَّادِ الكهرباء أو فاتورة الهاتف ، فكم كنت ستدفعُ مُقابلَ هذا الهواء؟! . . لو أَنَّ اللَّهَ يُحاسِبُك ويَأخذُ مِنْك مَالًا علىٰ أنه يُمَكِّنُك من

(١) أخرجَهُ : الترمذيُّ (٣٧٨٩) ، ك : المناقب عن رسول اللَّه ﷺ ، ب : مناقب أهل بيت النبيِّ ﷺ . وقال : هذا حديث حسنٌ غريبٌ ، إنما نعرفهُ من هذا الوجه ، وقال الألبانيُّ : ضعيف .

التكلُّم والسَّمَاعِ فكم كنت تدفع؟! . . أنطقَكَ وخَلقَكَ ولا يريدُ منك شيئًا ؛ ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١] . . اللَّهم كما أنطقتنا بقدرتِك وعظمتِك امْنُنْ علينا بحبِّك . . وامْنُنْ علينا بمطالعةِ نعمِك لنحبَّك . . اللَّهم ارزقنا حُبَّك يا رب .

ماذا كنت تَصنع - أخي في اللَّه - لو كان هناك فاتورة علىٰ كلِّ نعمةٍ من هذه النعم؟!! . . فطالعْ نِعمَ اللَّهِ ، واشكرْه عليها ، وأَحِبَّهُ من كلِّ قلبِك . فلا شَكَّ أَنَّ مَنْ يُطالِعُ نِعَم اللَّهِ عليه تَتْرىٰ فيراها بقلبه وعينه - لا شَكَّ أنه سَيذُوبُ حُبًّا في اللَّه . . فهو - سبحانه - يُعطِيك ولا يَنْتَظِرُ مِنْك شَيئًا ، عكس المخلوقِ تمامًا ؛ فالتُّجَّار جميعًا يتعاملون معك ليربحوا منك ، أما اللَّه : فهو - سبحانه - وَحْدَهُ الذي يتاجر معك لتربح عليه . . يُعطيك حين يَجِدُ في قَلبِكَ حُبًّا له ؛ فأَحْبِبْه فهو المعطي . . أَحْبِبْه لِيُعْطِيَك . . أَحببْه لِيُحِبَّك .

الشاهدُ : أَنّ المحبةَ تَنْبُتُ مِنْ مُطالعةِ المِنَّة ؛ قال اللَّه : ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٤] . . ذِكْرُ النِّعَمِ يُنْبِتُ المحبّةَ .

والدي - اللَّهم ارحمه وموتىٰ المسلمين - كان إذا تَعِبَ يقول له الناس : مالك؟ ، فيقول : الحمدُ للَّه ، لا تقل : مالك؟ ؛ لأن بعضَ الناس إذا قلتَ له : مالك؟ ؛ يقول : عندي صداعٌ ، والصداعُ جَاءني بِسببِ ارتفاعِ الضغطِ ، وارتفاعُ الضغطِ أَصْلُهُ تعبٌ في المَعِدةِ ، وَسَبَّبَ ارتفاعُ النبْضِ ارتفاعًا في درجة الحرارةِ . . ويَظَلُّ يُعَدِّد وكأنه يَشتكي ربَّه للنَّاسِ . . فوالدي - يرحمُهُ اللَّه - يقصدُ : أَنْ لا تفتحَ للنَّاسِ بابَ الشَّكْوَىٰ ؛ ولكن افتحْ لهم بابَ ذِكْرِ النِّعَم .

تَجِدُ الناسَ إذا سَأَلتَهم : كيف الأخبارُ؟ ؛ يقولون لك : البنتُ مريضةٌ ، وزوجتي لا أدري ماذا بَلَاها . . ونحن نَسْكُنُ في الدَّور الأَرْضي ، والأرضي فيه رُطوبةٌ ، ثم إنَّ الجيران في وجوهِنا فلا نستطيعُ أَنْ نفتحَ الشُّبَّاكَ ، والأطفالُ يَلعبونَ في الشَّارِع يُزْعِجُونَنَا . . وهكذا . . شكوى . . شكوى . . فيعيشون يشتكون دومًا ! !

سبحانَ اللّه ! ، هل وجدتَ إنسانًا تجلسُ معه فيقولُ : إنَّ اللّهَ أعطاني . . وأعطاني؟ ! . . هل فعلتَ أنت؟ ! . . هل جلستَ مع الناسِ مرَّةً وقلت : واللّهِ العظيم إنَّ اللّهَ أكرَمني . . فقد كنت فَقيرًا لا أجدُ لُقمةً فأعطاني وأغناني . . الحمدُ للّه نَجَّاني ولم أكنْ أستحقُّ . . لم أكنْ أستأهِلُ ؛ ولكنهُ - سبحانه - وهَبَنِي زوجةً صالحةً ، وأعطاني شَقَّةً ، ووهبني أولادًا ، وصِحَّتِي والحمدُ للّه مُمْتازةٌ . . الحمدُ للّه عملي هادئٌ فزملائي يُحبونني . . والفضلُ للّه ، المرتَّبُ كافٍ . . وبِفَضْلِ اللّه ، الأمورُ على ما يُرام . . هل جَلسَ معك أحدٌ فقال لك هذا الكلام؟ ! !

إنَّكَ اليومَ في كلِّ مجالسِك تَشْتكي للناسِ الصداعَ والمشاكِلَ والمَغَصَ والزوجةَ والعيالَ والبيتَ والشُّغْلَ والهَمّ والنَّكَدَ . . رَغْمَ أَنَّ اللّهَ أَمرَ بالعكس؛ قال - تعالى - : ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى : ١١] . . فأين حديثُك بالنعمةِ؟ ! . . أين حبُّك؟ ! . . الحُبُّ يَنْبُتُ من مطالعةِ المِنَّة .

كنتُ مرةً أقومُ بعمرة - وأقولُ ذلك لأعلِّمَك كيف تعملُ - ، وكنت مريضًا بعضَ الشيءِ وللّهِ الحمدُ والمِنَّةُ - ؛ فبعدَ أَنْ طُفْتُ وَجَدتُ أن رِجليَ تُؤلِمُني فلا أَستطيعُ ولا أقدرُ فَأجّرتُ كُرسيًّا - ويُؤَجَّرُ هناك بخمسين

أو بخمسة وخمسين رِيالًا - لأسعىٰ به . . فإذا بي وأنا عليه مُستريحٌ أنظرُ إلىٰ الناسِ فأجدُ امرأةً مسكينةً لا تقدرُ علىٰ المشي تستندُ إلىٰ سور الصفا والمروة . . فقلتُ لها وأنا راجع : انتظري لحظة ، تعالَ يا بُني أعطني كُرسيًا ، وقلت لها : اركبي : قالت : ليس معي مال ، قلت : أنا دفعت ، قالت : كمْ أنتَ كريم يا رب . . أنتَ تراني وتعرفُ حالي وأعطيتَني كرسيًا . . أنا أحبُك يا رب .

فكم تُساوِي هذه الكلمة - إخوتاه؟! . . وكم يساوي أن تجعلَ أحدًا يَنْطِقُ بحبِّ اللَّه؟! . . واللَّهِ ، مَلايينُ الدنيا لا تساويها . . ربنا أكرمني وأعطاني كذا وكذا ، وعمل لي كذا وكذا ، وطلبت منه كذا فوهبني كذا ، وسترني في كذا ، وعافاني من كذا وكذا . . هكذا يكون التحدُّثُ بالنِّعَم ، ولا يكونُ كُلُّ كلامِنَا أن نشتكي . . هذا ما أُرِيدُ أَنْ أُوَصِّلَهُ فيكم ، وأريدَكم أَنْ تَعْملوا بهِ . . أَنْ تجعلوا الناسَ يُحِبُّون اللَّه .

وإذا كانت المحبةُ تثبُتُ بمطالعةِ المِنَّةِ ؛ فإنها تثبُتُ باتِّباعِ السُّنَّة - اللَّهمّ ارزقْنَا اتباعَ السُّنةِ يا رب ، اللَّهمّ إنَّا نَسْألك اتباعَ السُّنة وفعلَ السُّنة . . نعوذُ بك اللَّهمَّ من البدعِ وأهلِها . . المحبة تثبُت باتباعِ السُّنةِ . . كُنْ خلفَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ تَصلْ . . كن واحدًا لواحدٍ علىٰ طَريقٍ واحدٍ تصلْ . . كُنْ شخصًا واحدًا ليس بوجهين فأَخْلِصْ . . «لواحد» أي : الْزَم التَّوحيد . . علىٰ طريقٍ واحدٍ هو اتِّباعُ السُّنَّةِ .

علىٰ طَريقِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ تَثبتُ ولا تَتَلَوَّنُ ولا تَتغيَّرُ ولا تَحِيدُ أو تتحوَّلُ . . اثْبُتْ علىٰ الطريقِ السُّنِّيِّ - اللَّهم ارزقنا الثَّباتَ علىٰ الدِّين .

وتنمو المحبةُ على الإجابةِ بالفاقةِ . . لابُدَّ أَنْ تُظهِرَ فَقْرَك وضَعْفَك وذُلَّك ومَسْكَنَتَك بين يَدَيْ اللَّه . . بعضُنا - يا شباب - يظنُّ أنه «فتوة» . . ما لا يكون باللَّه لا يكون بغيره ؛ قال - تعالى - : ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] ؛ ولذلك تنمو المحبةُ بإظهارِ الفاقةِ والضعفِ والفقرِ والذلِّ والمسكنةِ .

شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّة رأى إنسانًا يقِفُ تَحتَ حَرِّ الشمسِ حَاسِرَ الرأسِ حَافيًا ، فسألَ عنه فقالوا له : إنه نَذَرَ أن لا يجلِسَ في الظِلِّ ، فقال شيخُ الإسلام : «يا جاهل ، هذا تَقَاوٍ على اللَّه» . . أتتقاوى على اللَّه؟!! . . قال لك اللَّه : الْبَسْ وتستَّرْ واركبْ ، فلماذا تتقاوى عليه؟!! . . لا تتقاوَ بنفسِك على اللَّه ، قال - تعالى - : ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ [التوبة: ٦٠] ؛ فَأظهِرْ فَقْرَك ليتصدقَ اللَّهُ عليك . . أظهِرْ ضَعفَك ليرحمَك .

يقول ابنُ الجوزي : «تَضاعفْ ما أَمكنَك ؛ فإنَّ اللُّطْفَ مع الضعفِ أَكثرُ» .

كُلَّمَا أظهرتَ ضعفَك كلما لَطَفَ بك ، ولا تَقلْ : أَنا أَستطيعُ أَنْ أُواجَهَ كذا وأَقدِرُ على كذا ، قال رسولُ اللَّه ﷺ : «**لا تَمنَّوْا لِقاءَ العدوِّ ؛ لكن اسألوا اللَّهَ العافية**»(١) . . اللَّهم إنَّا نسأَلُك العافيةَ في الدُّنيا والآخِرَة . . فإيَّاكَ أَنْ تَعتقدَ أَنَّكَ «فُتُوَّة» . .

---

(١) **متفق عليه** : البخاريُّ (٢٩٦٦) ، ك : الجهاد والسير ، ب : كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أوَّلَ النهار أخَّر القتال حتى تزول الشمس ، ومسلم (١٧٤٢) ، ك : الجهاد والسير ، ب : كراهة تمني لقاء العدو والأمر بالصبر .

إنَّ البعضَ يقولُ: تخافُ علينا من الجامعةِ بسببِ الاختلاط.. لا.. لا يُهمُّني الاختلاطُ.. فلو كانَ أمامي ألفُ عاريةٍ فلن تَهُزَّ مِنّي شَعْرةً.. أقول: اللّٰهمَّ تُبْ عليك.. كَثِيرٌ من الناسِ يقولُ هذا الكلامَ ويعملُ به ولا يُظهِرُ ضعفَه، فيعتمدُ علىٰ نفسِه؛ فيكونُ أوَّلَ مَنْ تَندَقُّ عُنُقُه بما لا يخشاهُ أو يحذَرُه.. نعم: يكونُ أوَّلَ الواقعينَ في الفتنةِ.

فالجأْ إلىٰ اللّٰهِ وافتقِرْ إليه فأنتَ ضعيفٌ.. ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، خلقَكَ اللّٰهُ ضعيفًا لتَفِرَّ إليه.. قال ابنُ تيميَّةَ في تفسيرِها: «ضعيفًا أمامَ شهوةِ فَرْجِهِ». إنَّ اعتمادَكَ علىٰ نفسِك في مواجهةِ الفتنِ أعظمُ عند اللّٰهِ وأشدُّ إثمًا مِنَ الذنبِ نفسِه.

ولقد كان رسولُ اللّٰه ﷺ يقول: «**اللّٰهُمَّ لا تَكِلْني إلىٰ نفسي طَرفةَ عينٍ أبدًا**»[١].. فاللّٰهُمَّ لا تَكِلْنا إلىٰ أنفسِنا فتُهْلِكُنا.. لا تكِلْنا إلىٰ أنفسِنا طَرفةَ عينٍ ولا أقلَّ مِن ذلك.. آمين.

أخي في اللّٰه، حبيبي في اللّٰه، يا مَن أنتَ مَشْغوفٌ بالوصولِ إلىٰ اللّٰه، إذا كنتَ تُحِبُّ ربَّك فَسَلْ نفسَك: هل يُحِبُّك؟!، فليسَ الشأنُ أن تُحبَّهُ؛ إنما الشأنُ أنْ يُحِبَّك.. والعَلَامَةُ أنه إذا أحبَّك شغَلَكَ به وحدَه فَعِشتَ لهُ وبهِ.. إذا أحبَّك شغلَ قَلْبَك بحبِّه، وجوارحَك بخدمَتِهِ،

---

(١) أخرجَهُ: البزّار (٣١٩٠ - كشف الأستار)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/٢٣٨) بلفظه، وأحمد (٥/٤٢)، وأبو داود (٥٠٩٠)، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (٧٠١) بمعناه مُطوَّلًا، وقال الألبانيُّ: حسن.

وعَقْلَك بالفِكْرِ فيهِ؛ ثم لا تجِدُ في نفسِكَ بقيةً لغيره . . فانظر أين قدمُك . . إذا أحبَّك وضعَ قدمَك في المواطنِ التي يَرْضَاها . . نعم : إذا أردتَ أنْ تَعْرِفَ مَقامَك فانظرْ أينَ أقامَك؟!

علامات حبِّ اللَّهِ - تعالىٰ - للعبد(١) :

١- اتِّباع النبيِّ ﷺ .

قال اللَّه - تعالىٰ - : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١] .

٢- الذِلَّةُ علىٰ المؤمنين .

٣- العِزَّةُ علىٰ الكافرين .

٤- المجاهدةُ في سبيلِ اللَّه .

٥- عدمُ خوفِ اللَّومِ في اللَّه .

وجَمَعَ هذه الأربعَ قولُ اللَّه - تعالىٰ - : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤] .

٦- التقرُّبُ إلىٰ اللَّه بالنوافل .

---

(١) انظر : رياض الصالحين ، باب : علامات حبِّ اللَّهِ - تعالىٰ - للعبد ، والحثُّ علىٰ التخلقِ بها ، والسعيُ في تحصيلها (١٩٤ - ١٩٥) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ - تعالى - قال: مَنْ عَادَى لي وَلِيًا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ[1]، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ، وَلَئِن اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ»[2].

٧- القَبُولُ في الأرض.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ - تَعَالَى - الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّه - تَعَالَى - يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبرِيلُ فَيُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ في الأَرْضِ»[3].

وفي رواية لمسلم: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ. وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ؛ فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّه يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ في الأَرْضِ»[4].

---

(١) آذَنْتُهُ: أي أعلمتُهُ بأنيّ مُحارِبٌ له.
(٢) أخرجَهُ: البخاريُّ (٦٥٠٢).
(٣) أخرجَهُ: البخاريُّ (٣٢٠٩).
(٤) أخرجَهُ: مسلم (٢٦٣٧).

٨ – التعبُّدُ للَّهِ – تعالىٰ – بأسمائه وصفاته .

عن عائشة ﵂ أن رسول اللَّه ﷺ بعث رجلًا عَلَىٰ سَرِيَّة فَكَانَ يَقْرَأُ لأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ فَيَخْتِمُ بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ، فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لرسول اللَّه ﷺ ، فقال : «**سَلُوهُ لأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ**» ؟ ، فَسَأَلُوهُ ، فَقَالَ : لأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمٰنِ فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا . فقال رسول اللَّه ﷺ : «**أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ – تعالىٰ – يُحِبُّهُ**»[1] .

ففتِشْ – أُخَيَّ – ي نفسِك عَنْ علاماتِ حُبِّ اللَّهِ لَك . . فليست القضية في الدِّعاية أنك تحبُّه ؛ ولكنَّ الشأنَ كُلَّ الشأنِ في أن يحبَّك هو . . فاعلم أنَّ القضية يتعلق بعضها ببعض ؛ فإنَّك لن تحبَّه حتىٰ يحبَّك فيجعلَكَ تُحبُّه ثم يُثيبُكَ علىٰ حبِّك حُبًّا ثانيًا منه – سبحانه وتعالىٰ . . فحُبُّكَ محفوفٌ بين حُبَّيْن منه – سبحانه وتعالىٰ – ؛ حُبٌّ قبلَهُ وحبٌّ بعدَهُ . . ولكنْ صلاحيةُ المَحَلّ وأهليةُ الشخص . . فهل تَصْلُحُ أن تكونَ حبيبَ اللَّه ؟ . . بادِرْ واللَّهُ كريم .

* * *

(١) **متفق عليه** : البخاريُّ (٧٣٧٥) ، ومسلم (٨١٣) .

الأصل السادس والعشرون

كُلُّ متاعٍ في الدنيا يَسْحَبُ مِنْ رصيدكَ في نعيمِ الآخرة

لقد أُصبتُ بالرُّعْبِ عندما قرأتُ حديثَ صحيح مسلم: قال رسول اللّه ﷺ: «**ما من غَازيةٍ تغزو في سبيل اللّه فيُصِيبُونَ الغنيمة، إلا تعجَّلوا ثُلُثَيْ أجرهم من الآخِرة. ويبقىٰ لهم الثلث. وإنْ لم يُصِيبوا غنيمةً تمَّ لهم أجْرُهُمْ**»[1].. وكأنِّي أقرأُه لأوَّلِ مرَّةٍ في حياتي.. حديثٌ يُخوِّف.. يُرْعِبُ..

نفهمُ من هذا الحديثِ أنَّ الذين يَغزون فيغنمون ويَسْلَمون استعجلوا ثُلُثَيْ أَجرِهم؛ أي: ضَيعوا الثلثين من الأجرِ في الدنيا؛ فلم يَبقَ لَهم في الآخرةِ إلا الأجرُ القليل.. فالذي أَخذتَه من الدنيا كم ضَيعتَ في مقابلِهِ مِن الآخرةِ.. إنَّ كلَّ ما تأخُذُه من الدنيا مَخْصُومٌ من حسابِكَ في الآخِرة.

أخذتَ من الدنيا مالًا أو سيارةً أو.. مخصومٌ من نعيمِ الآخرةِ.. ولا يَستوي في الآخرةِ الفقيرُ مع الغني، وإنْ دخلَ الغنيُّ الجنَّةَ.. لا يستويان أبدًا.. قال - اللّه تعالى -: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]، وقال - تعالى -: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].. فكلُّ ما أُوتيتَه مِنْ مَتاعِ الدنيا فهو بالخَصْمِ من نعيمِكَ في الآخرةِ.

---

(١) أخرجَهُ: مسلم (١٩٠٦)، ك: الإمارة، ب: بيان قدر ثواب من غزا فغنم ومن لم يغنم.

لذلك قال ربُّنا ﷻ : ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]. . يقول ابنُ كثير ؒ : «أي يُقالُ لهمْ تَفضُّلًا عليهم وامتِنَانًا وإنْعامًا وإحسَانًا . وإلا فقد ثبت في الصحيح عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال : **«اعملوا وسددوا وقاربوا ، واعلموا أنَّ أحدًا منكم لن يُدخِلَه عملُه الجنةَ»** ، قالوا : ولا أنتَ يا رسول اللَّه ، قال : **«ولا أنا إلا أن يتغمدني اللَّهُ برحمةٍ مِنهُ وفضل»**[(١)] اهـ[(٢)] .

فإذا كانَ العملُ الصالحُ وحدَهُ لا يُدخلُ الجَنَّةَ فما بَالُك بالسَّيِّئ . . ولذلك فإن مَتاعَك الدُّنيويّ «السيِّئ» كلما كَثُرَ كلما ضَيَّع عليك الآخرةَ . وإنَّما قال اللَّه : ﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ﴾ ؛ ليرفعَ من هِمَّتِك في السيرِ إليه ؛ وإلَّا فالأصلُ أنَّهُ - سبحانهُ - الذي وفَّقَك .

«وهذا اللَّونُ مِنَ النعيمِ مع هذا اللَّونِ من التكريمِ في الالتفاتِ إلىٰ أهلِهِ بالخطابِ ، وقوله : ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ . . فوقَ أنه اللَّونُ الذي تبلُغُ إليه مَداركُ المخاطَبين بالقرآنِ في أوَّلِ العهدِ بالصلةِ باللَّه ، قبل أنْ تَسْمُوَ المشاعِرُ فترىٰ في القربِ مِنَ اللَّهِ ما هو أعجبُ مِنْ كلِّ متاع . . فوق هذا ؛ فإنَّه يُلَبِّي حاجاتِ نفوسٍ كثيرةٍ علىٰ مدىٰ الزمانِ ، والنعيمُ ألوانٌ غيرُ هذا وألوان»[(٣)] .

(١) **متفق عليه** : البخاريُّ (٦٤٦٧) ، ك : الدقائق ، ب : القصد والمداومة علىٰ العمل ، ومسلم (٢٨١٨) ، ك : صفات المنافقين وأحكامهم ، ب : لن يدخل أحد الجنة بعمله ؛ بل برحمة اللَّه - تعالىٰ .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٤١٦) .

(٣) في ظلال القرآن (٤/ ٣٦٨١ - ٣٦٨٢) .

فَمَنْ عاشَ نعيمَ الدنيا حُرِمَ نعيمَ الآخرةِ؛ فَأَقبِلْ علىٰ اللّٰهِ واترك الدنيا ومَلَذَّاتِها وشَهواتِها، أَقبِلْ علىٰ الأَدْوَم فَنعيمُ الآخرةِ خيرٌ وأبقى؛ ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

قال رسول اللّٰه ﷺ: «**بشِّرْ هذه الأمةَ بالسَّناءِ والدين والرِّفعةِ والتمكينِ في الأرض، فمن عَمِلَ منهم عَمَلَ الآخرة للدنيا؛ لم يكنْ له في الآخرة من نصيب**»(١).

قال ربي: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

إنَّ الذين يطلبونَ الدنيا ويتفانَونَ فيها ويَسْعَوْنَ في الزيادةِ مِنْها؛ لابُدَّ أَنْ نُذكِّرَهم حالَ نبيهم ﷺ، وكيف أنه ﷺ ماتَ ولم يجدْ ما يَملأُ بطنَه من الدَّقَلِ (أَرْدَأُ التَّمْرِ) ثلاثةَ أيام.. لمْ يكن يشبعُ ثلاثةَ أيام متتاليةٍ.. يَشبعُ اليوم فيجوعُ غدًا، ويشبعُ اليومين فيجوعُ الثالث.. نعم: لم تَمُرَّ عليه ثلاثةُ أيام شَبِعَها قطّ.. فما آخرُ مَرَّةٍ جُعْتَ فيها؟.. إننا لا نجوعُ يومًا واحدًا، ومع ذلك نتسخط ولا نشكر نعمة اللّٰه - اللَّهمّ لا تعذبْنا يا رب، اللَّهمّ ارزقْنَا شُكْرَ نعمتِك يا رب.. ومن هنا نفهمُ هذا الأصلَ، وأنَّ قدوتَنا فيه رسولُ اللّٰه ﷺ أفضلُ السائرينَ إلىٰ اللّٰهِ.. فكلُّ ما تأخذُه في الدنيا فهو بالخَصْمِ من حسابِك في الآخرةِ.

(١) أخرجَهُ: أحمد (٥/ ١٣٤)، وابن حِبّان (٢/ ١٣٢) (٤٠٥) وصحَّحَهُ الألبانيُّ - رحمه اللّٰه تعالىٰ - في «صحيح الجامع الصغير» برقْم (٢٨٢٢).

قال بعضُ الصحابة - رضي اللَّهُ عنهم أجمعين -: أَسلَمْنا مع رسولِ اللَّه ﷺ وكان أحدُنا لا يَجدُ ما يملأُ بَطنَه، فَمِنَّا مَنْ ماتَ ولم يُصِبْ مِنْ هذه الدنيا شيئًا، كمصعبِ بنِ عمير، مات ولم نجدْ ما نُكَفِّنُهُ فيه، إلا نَمِرةً إذا غَطَّيْنا رأسَه بَدتْ رِجلاه، وإذا غَطيْنا رِجلَيْه بَدتْ رأسُه، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**غَطُّوا بها رَأْسَه واجعلوا عليه شيئًا من الإِذْخَر**»[١].

مصعبُ بنُ عميرٍ الذي فتحَ المدينةَ وحدَه، ولم يكنْ معه إلا عبدُ اللَّه ابنُ أمِّ مكتومٍ.. قائدُ فتحِ المدينةِ يموتُ ولا يجدون له كَفَنًا.. فكم عندك من ملابسَ؟!.. كم عددُ القُمُصِ والعباءاتِ التي عندك؟!.. وكم بدلة تملِكُها؟!.. وكم وكم..

سلمانُ الفارسيُّ لمَّا أتاه الموتُ بكى، قالوا: ما يُبكيك؟!، قال: عَهِدَ إلينا رسولُ اللَّه ﷺ عهدًا وما أراني إلا تجاوزتُهُ، قالوا: وما عَهِدَ إليكم، قال: عَهِدَ إلينا أن يكونَ زادُ أحدِنا كزادِ الراكبِ[٢].. فلما ماتَ حَسَبوا له تَرِكَتَه، فوجدوا عنده ستةَ عشَرَ دِرْهَمًا (٦٤ جنيهًا).. فأين من يتركون الآلافَ والملايين؟!.. أين من يُورِّثونَ الأراضيَ والفدادينَ؟!.. أين أصحابُ العماراتِ والمحلاتِ والدكاكين؟!.. أين هؤلاءِ مِن صَحَابةِ رسولِ اللَّه ﷺ؟!.. إنَّ هذه المتعَ والملذَّاتِ والمَسَرَّاتِ بالخَصْمِ من

(١) أخرجَهُ: البخاريُّ (٤٠٤٧)، (٤٠٨٢). والإِذْخَر: نباتٌ طيِّب الرائحة.

(٢) أخرجَهُ: أحمد (٥/٤٣٨)، وابن ماجه (٤١٠٤)، ك: الزهد، ب: الزهد في الدنيا، وابن حِبَّان (٢/٧٠٦)، وعبد الرَّزَّاق (٢٠٦٣٢)، وأحمد في «الزهد» (ص: ١٥٢)، ووكيع في «الزهد» (٦٧)، والطبرانيُّ (٦٠٦٩)، والحديث صحَّحهُ الألبانيُّ - رحمه اللَّه تعالىٰ.

حسابك في الآخرة فانتبه . . انتبه قبل أن تذهبَ إلى هناكَ فلا تَجِدُ شيئًا يسرُّك .

عن ابن عمرَ رضي الله عنهما قال : أخذَ رسولُ الله ﷺ بِمِنْكَبي فقال : «**كُنْ في الدنيا كأنك غَريبٌ أو عَابِرُ سبيلٍ**» . وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول : إذا أمسيتَ فلا تنتظِرْ الصباحَ ، وإذا أصبحتَ فلا تنتظِرْ المساءَ ، وخُذْ من صِحتِكَ لمَرَضِك ، ومن حياتِك لمَوتك[1] .

قال الإمام النووي رحمه الله[2] :

(قولهُ ﷺ : «**كُنْ في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابرُ سَبيل**» ؛ أي : لا تَرْكن إليها ، ولا تَتخِذْها وَطَنًا ، ولا تُحدِّث نفسَك بالبقاءِ فيها ، ولا تتعلق منها إلا بما يتعلقُ به الغريبُ في غَيرِ وطنِه الذي يريدُ الذهابَ منه إلى أَهْلِهِ . وهذا معنى قول سَلمان الفارسي رضي الله عنه : أمرني خَليلي ﷺ ألا أتخِذَ من الدنيا إلا كمتاع الرَّاكِبِ .

تَرجو البقاءَ بدارٍ لا بقاءَ لها   وهل سَمِعتَ بظِلٍّ غيرِ مُنتقِلِ

«ومن حياتك لموتك» : أَمَرَهُ بتقديم الزادِ ، وهذا كقوله - تعالى - : ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨] ، ولا يُفرِّطْ فيها حتى يُدركه الموت فيقول : ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠] .

وقال الغزَّالي - رحمه الله تعالى - : «ابنُ آدمَ بَدنُهُ معَه كالشبكةِ يكتسبُ بها الأعمالَ الصالحة ، فإذا اكتسبَ خيرًا ثُمَّ ماتَ كَفَاه ، ولم

---

(١) أخرجَهُ : البخاريُّ بهذا السياق والتمام برقْم (٦٤١٦) .

(٢) شرح الأربعين النووية (١٢٥ - ١٢٨) بتصرف .

يجتمعُ بعد ذلك إلىٰ الشبكة ، وهو البدن الذي فارقَهُ بالموت . ولا شك أنَّ الإنسانَ إذا ماتَ انقطعتْ شهوتُهُ من الدنيا ، واشتهتْ نفسُهُ العملَ الصالح لأنه زَادُ القبرِ ، فإن كان معه استغنىٰ به ، وإن لم يكنْ معه طلبَ الرجوعَ منها إلىٰ الدنيا ليأخذَ منها الزادَ ، وذلك إنْ أُخِذَتْ منه الشبكة .

فيقال له : هَيهات ، قد فاتَ . فيبقىٰ مُتَحيِّرًا دائمًا نَادمًا علىٰ تَفريطِه في أخذِ الزادِ قبل انتزاعِ الشبكة ؛ فلهذا قال : «وخذ من حياتِك لموتِك» ، فلا حولَ ولا قوةَ إلَا باللَّهِ العليِّ العظيم») اهـ .

أخي في اللَّه ، زوِّدْ رصيدَك في الآخرة ؛ فمُستقِلٌّ ومُسْتكثِر . . ستقول : ماذا أصنع؟! ، اللَّهُ قد أعطاني أموالًا فهل أَرميها في الشارع؟!! . . أقول لك : تَصدَّقْ بها علىٰ الفقراء تَجدْها هناك . . «يقول ابنُ آدم : مالي مالي ، فيقال له : ليس لك يا ابنَ آدم من مالِك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ ، أو لَبِستَ فأَبليتَ ، أو تَصدَّقتَ فأَبقيتَ» . . فالمالُ مالُ اللَّه أعطاه لك فَرُدَّه إليهِ ولا تَقلْ : مالي . . فهو - سبحانه - قادرٌ علىٰ أن يُفقِرَك ويَسلِبَكَ هذا المال فتمشيَ فَقيرًا مُحتاجًا . . ألا تشكر اللَّهَ أن وَهَبَكَ مالَه ، وفوق ذلك يُثيبُكَ ويرفعُكَ حينما تَردُّهُ إليه وتُنفقُهُ في سبيلِه . . ألا تَستحِي من ربِّك؟! . . فإن كان عندك مالٌ فتَصدَّقْ به .

ولذلك فإنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : «**واللَّهِ ما أُحِبُّ أن يكونَ لي مِثْلُ أُحدٍ ذهبًا ، فيَبيتَ عندي منه ثَلاثٌ فأفعلَ بهم هكذا وهكذا وهكذا وهكذا**»(١) . . أي : يُفرِّق هذا المال ويُوزِّعه علىٰ الفقراءِ بسرعةٍ .

---

(١) **متفق عليه** : البخاريُّ (٢٣٨٩) ، ومسلم (٩٩١) .

يقول الإمام النووي – رحمه اللّٰه تعالىٰ – في حديث رسول اللّٰه ﷺ :
«ازهدْ في الدنيا يُحبَّكَ اللّٰه ، وازهد فيما عند الناسِ يحبَّكَ الناس»[1] :

«الزهدُ تركُ ما لا يُحتَاجُ إليه من الدنيا وإنْ كانَ حلالًا ، والاقتصارُ علىٰ الكفايةِ» ، والوَرَعُ : تركُ الشبهاتِ . قالوا : وأعقلُ الناسِ الزُّهَّادُ ؛ لأنهم أحبوا ما أحبَّ اللّٰهُ ، وكرهوا ما كرهَ اللّٰهُ من جميعِ الدنيا ، واستعملوا الرَّاحةَ لأنفسهم . . **وللشَّافعيِّ رَحِمَهُ اللّٰهُ في ذمِّ الدنيا :**

ومَنْ يَذُقِ الدنيا فإني طَعِمْتُها ... وسَيِقَ إلينا عذبُها وعَذابُها
فلمْ أرَها إلا غُرورًا وباطلًا ... كما لاحَ في ظهرِ الفَلاةِ سَرابُها
وما هيَ إلا جِيفةٌ مستحيلةٌ ... عليها كلابٌ همُّهُنَّ اجتذابُها
فإنْ تجتنِبْها كنتَ سِلْمًا لأهلِها ... وإنْ تجتذِبْها نازَعَتْك كِلابُها
فدعْ فضلاتِ الأمورِ فإنها ... حرامٌ علىٰ نفسِ التَّقِيِّ ارتكابُها

قولُه : «حرامٌ علىٰ نفسِ التقيِّ ارتكابها» يدل علىٰ تحريمِ الفرحِ بالدنيا ، وقد صرَّح بذلك البغويُّ في تفسير قوله – تعالى – : ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الرعد: ٢٦] . ثم المقصود بالدنيا المذمومةِ : طلبُ الزائدِ علىٰ الكفايةِ ، أما طلبُ الكفايةِ فواجبٌ .

قال الشافعيُّ رَحِمَهُ اللّٰهُ : «طلبُ الزائدِ من الحلالِ عقوبةٌ ابتَلَىٰ اللّٰهُ بها أهلَ التوحيدِ» .

وقد مدَحَ اللّٰهُ المقتصدين في العيشِ فقال : ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ

(١) أخرجَهُ : ابن ماجه (٤١٠٢) ، ك الزهد ، ب : الزهد في الدنيا ، وصحَّحَهُ الألبانيُّ – رحمه اللّٰه تعالىٰ . انظر «السلسة الصحيحة» (٩٤٤) و«صحيح الجامع» (٩٣٥) .

يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ [الفرقان: ٦٧] . . وكان يُقال : القصدُ في المعيشةِ يكفي عنك نِصفَ المُؤْنَةِ ، والاقتصادُ : الرضا بالكفايةِ»[1] .

أحدُ الناسِ - أسألُ اللَّهَ أن يُفرِّجَ كربَه ويقضيَ دَينَه - قال لي : أنا أدفع للبنكِ ستين ألفَ جنيهٍ رِبًا كلَّ شهر ، قلت له : لو أنَّ ستين ألفَ جنيه تُصُدِّقَ بها على الفقراء كلَّ شهرٍ فكم تُغني في الآخرة ؟ ! . . يريدُ أنْ يُسدِّدَ بعدَ أن تورَّطَ وعاشَ الهمَّ والغمَّ ليلَ نهار . . اللَّهم تُبْ على كل عاصٍ مرابٍ . . نعم : الرِّبا حربٌ على اللَّه . . قال هذا الرجل : ولذلك إذا قابلني أحدٌ في الدنيا أقول له : «سِكةُ البنوكِ سِكةُ الخراب» . . لا يوجد أحدٌ مشىٰ في سِكةِ البنوكِ إلا وخَرِبَ بيتُه . . خرابٌ . . أسألُ اللَّهُ أن يصرِفَ الرِّبا عن المسلمين . . اللَّهم إنا نعوذ بك من الرِّبا والزِّنا والغِنا والوَبا .

فلو أنَّ هذا المالَ المكنوزَ صُرفَ فيما يُرْضِي اللَّه ؛ لارتاحَ الناسُ وسَعِدُوا ولاطمأنوا ورضيَ اللَّه عنهم . . كثيرٌ مِنَ الناس مَن يسألُ باستمرارٍ : ابتعدتُ عن البنكِ ولم أضعْ أموالي فيه فماذا أصنعُ ؟ . . أشغِّلها في مشروع ؟ ! . . ولكني أخاف من الخسارة ! . . أقول : تصدَّقْ بها على الفقراءِ ينفعْك عند اللَّه . . وهذا هو التشغيلُ الحقيقيُّ لها . . التصدُّقُ بها .

نعم : عندك زيادةٌ في المالِ تريدُ أن تضعَها في البنكِ أو تعملَ بها مشروعًا . . لا . . بل تصدَّقْ بها على الفقراءِ ، فواللَّهِ الذي لا إله إلَّا هو ،

---

(١) شرح الأربعين النووية (١٠٢ - ١٠٥) بتصرف .

هناك فقراءُ لا يجدون ما يأكلونَه . . واللّٰهِ ، فقراءُ لا يجدون «الرغيفَ الحاف» . . فقراءُ لا يَرَوْنَ اللَّحمَ بالشهورِ ، ولو ذهبتَ إليهم بدجاجةٍ من دجاجِ «الجَمْعِيَّة» لطاروا فرَحًا . . فيا مَنْ لا تأكلُ إلا اللَّحمَ باللَّحم . . تريدُ أن تحتفظَ بالأموال وتكنِزَها ، وإخوانُكَ فيهم مَن لا يَجِدُ ما يَسُدُّ جوعَه .

أطعِم الفقراءَ وأنفِقْ عليهم مالَك بسخاءٍ ، أطعِمْهم وكنْ رحيمًا بهم ؛ فالمالُ مالَ اللّٰه وهو الذي أغناك . . ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥]. . اللَّهمَّ أطعِمْ فقراءَ المسلمين ، اللَّهمَّ أغنِ فقراءَ المسلمين بفضلِك وكرمِك يا أرحمَ الراحمين ، اللَّهمَّ وسِّعْ أرزاقَ المسلمين وبارِكْ لهم فيها يا ربَّ العالمين .

طلحةُ بنُ عُبيدِ اللّٰهِ التيميُّ . . الصحابيُّ الجليل . . الذي قال عنه رسولُ اللّٰه ﷺ : «**مَن سرَّهُ أن ينظرَ إلىٰ رجلٍ يمشي علىٰ الأرضِ وقد قضَىٰ نَحْبَه ، فلْينظرْ إلىٰ طلحةَ بنِ عبيدِ اللّٰه**»[1] .

يقولُ عنه الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا - رحمه اللّٰه تعالىٰ - بعد أن ذكر قِصَّةَ وفاتِه - :

«هذه هي قصَّةُ نَعْتِ طلحةَ بنِ عبيد اللّٰه «بالشهيد الحيّ» ، أمَّا تلقيبُه بطلحةِ الخير ، وطلحةِ الجود فلها مِئَةُ قِصَّةٍ وقِصَّة . .

(١) أخرجَهُ : أبو يعلىٰ (٤٨٩٨) ، وابن عدي (١٠٨/٥) بسندٍ ضعيف ؛ لكن روىٰ بمعناه الترمذيُّ (٣٢٠٢ ، ٣٧٤٠) وقال : غريب ، وابن ماجه (١٢٦) ، وقال الألبانيُّ : حسن .

مِن ذلك أنَّ طلحةَ كان تاجرًا واسعَ التجارةِ عظيمَ الثراء ، فجاءَه ذاتَ يومٍ مالٌ من «حَضْرَمَوْتَ» مقدارُه سَبعُمِئةِ ألفِ درهم ، فباتَ ليلتَه وَجِلًا جَزِعًا محزونًا .

فدخلتْ عليه زوجتُه أُمُّ كُلْثوم بنتُ أبي بكر الصِّدِّيق ، وقالت : ما بكَ يا أبا مُحمَّد؟!! . . لعلَّه رابَكَ منَّا شيءٌ!! ، فقال : لا ، ولَنِعمَ حليلةُ الرجلِ المسلم أنتِ . . ولكنْ تفكَّرتُ منذُ اللَّيلَ وقلتُ : ما ظنُّ رجلٍ بربِّه إذا كان ينامُ وهذا المالُ في بيتِه؟! ، قالتْ : وما يغمُّك منه؟! ، أين أنتَ من المحتاجِين من قومِك وأخِلَّائِك؟! ، فإذا أصبحتَ فقسِّمْه بينهم ، فقال : رحمَكِ اللَّهُ ، إنَّك مُوفَّقَةٌ بنتُ مُوَفَّق . . فلمَّا أصبحَ جعلَ المالَ في صُرَرٍ وجِفَانٍ ، وقسَّمَهُ بين فقراءِ المهاجرين والأنصار .

و رُوِيَ أيضًا أنَّ رجلًا جاء إلىٰ طلحةَ بنِ عبيد اللَّه يطلبُ رِفْدَه ، وذَكَرَ له رَحِمًا تربِطُهُ به ، فقال طلحةُ : هذه رَحِمٌ ما ذكرَها لي أحدٌ من قبل ، وإنَّ لي أرضًا دَفعَ لي فيها عثمانُ بن عفَّانَ ثلاثَمِئةِ ألفٍ . . فإنْ شئتَ خذْها ، وإنْ شِئتَ بِعتُها لك مِنه بثلاثِمِئةِ ألفٍ وأعطيكَ الثمنَ ، فقال الرجل : بل آخذ ثمنَها ؛ فأعطاه إيَّاهُ . . هنيئًا لطلحة الخيرِ والجُودِ هذا اللَّقبُ الذي خَلَعَهُ عليه رسولُ اللَّه ﷺ ، ورَضِيَ اللَّهُ عنه ونوَّر له في قبرِه»[1] .

---

(١) صور من حياة الصحابة (٤٩٢ - ٤٩٣) .

أخي المسلم ، عِندك زيادةٌ - وليس الكلامُ للأغنياءِ فقط - ؛ فتصدَّقْ بها ؛ ابْنِ مسجدًا أو عيادةً لعلاجِ الفقراء مجانًا . . تَبَنَّ مشروعًا للإنفاقِ علىٰ الأُسَرِ اليتيمة . . ساعِدْ في زواجِ الشبابِ المحتاجِ المُتَعَفِّفِ . . تبَنَّ طالبَ عِلْمٍ شرعيٍّ لِيَخْدُمَ الأُمَّةَ . . أَنْفِقْ مالَك في مشاريعَ أُخرويةٍ تكنْ لك عند اللَّه؛ وإلا تفعلْ فهي بالخَصْمِ من حِسابكَ في الآخرة .

* * *

الأصل السابع والعشرون

المرءُ معَ مَنْ أحبَّ، فاخترْ حبيبَك مِنْ هَاهُنا

قال لي أحدُهم: أُحِبُ الممثلةَ الفلانية؛ قلت له: أتحبُّ أن تُحشرَ معها في الآخرة؟! .. تُحِبُ أن تكونَ معها أم مع النبيِّ محمد ﷺ؟! .. تحبُّ أن تكونَ مع مَن؟ .. سأل أعرابيٌّ رسولَ اللَّه ﷺ: الرجلُ يحبُّ القومَ ولمَّا يلْحَقْ بهم؟، قال: «**المرءُ معَ مَن أحبَّ**»[1].

فهل تُحِبُّ أن تكونَ مع الفاسدين وأهلِ اللَّغوِ والمُجُونِ؟!

لذا لمَّا سمِعَ أنسُ بن مالكٍ هذا الحديثَ؛ قال: فما فَرِحْنا بشيءٍ بعد الإسلام فَرَحَنا بهذا الحديث «**المرءُ معَ مَن أحبَّ**»؛ لأنَّني أحبُّ رسولَ اللَّه ﷺ وأبا بكر وعمرَ، وأرجو أن أكونَ معهم في الجنَّة.

ولذلك كان من إحدىٰ رسائِلي علىٰ الهاتف لأحبابِي في اللَّه: «اللَّهم إنك تعلمُ أني وإن كنتُ أعصاك؛ إلا أنَّني أحبُّ مَن يطيعُك؛ فاجعلْ ذلك قُربةً لي عندَك .. آمين». هذه هي الرسائلُ النافعة .. وليست تلك التي يكتبونها اليوم من هُراءِ غيرِ مفيد .. اكتبْ شيئًا مفيدًا .. فالهاتفُ نعمةٌ لا تستعمِلْها في المعاصي، لِمَ تستعمِلُهُ في اللَّهْوِ والغفلةِ؟!

استعمِلْه في طاعةِ اللَّه ونشرِ الحُبِّ في اللَّه .. اكتبْ: اليومَ درسٌ في

(١) **متفق عليه**: البخاريُّ (٦١٦٨)، ومسلم (٢٦٤١).

المكانِ الفلانيّ . . وأرسِلْه إلىٰ كلِّ الناس . . كلُّ المُسجَّلِ علىٰ الهاتفِ أرسِلْ إليه . . فإن جاءَ فخَيرٌ كبير ، وإن لم يأتِ كانتْ أيضًا في ميزانِ حسناتِك . . اكتبْ آيةً قرأتَها نفعَتْك . . اكتُبْها وأَرسِلْها . . حديثًا سمعْتَه اكتبْه وأَرسِلْه . . ادعُ إلىٰ اللّه بالحبِّ لعلَّ اللّهَ ينفعُ بك وإنْ لمْ تفعلْ .

إن فعلتَ هذا وعِشْتَ علىٰ هذا ؛ فأنت تُحِبُّ الخيرَ وتُحِبُّ أهلَه ، وسوف تُحشر معهم بإذنِ اللّهِ - تعالىٰ .

والذي يحبُّ الراقصةَ الفلانيَّةَ والفنانةَ الفلانيَّة والممثلَ الفلانيَّ فسوف يكون معهم . . الذي تحبُّه ستكونُ معه . . تحبُّ اللّاعبَ الفلانيَّ . . المسرحيَّةَ الفلانيَّة . . الأغنيةَ الفلانيَّة . . ستكونون معًا يوم القيامةِ في الموقِف ، وبعد ذلك جهنَّمُ والعياذ باللّه .

أمَّا إذا أحببتَ اللّهَ وأحببتَ مَن يُحِبُّ اللّهَ . . فستكونُ جارَه في الفردوسِ الأعلى . قال رسولُ اللّه ﷺ : «**إذا سألْتمُ اللّهَ الجنَّةَ فاسألوه الفردوسَ ؛ فإنه أعلىٰ الجنَّةِ ووَسَطُ الجنة ، ومنه تُفجَّرُ أنهارُ الجنة ، وسقفُهُ عرشُ الرحمن**»[1] . . فإذا أحببتَ اللّه كنتَ جارَه . . وإذا أحببتَ النبيَّ ﷺ كنتَ معه .

أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ وعمرُ وعليٌّ وعثمانُ وأبو الدرداءِ وأنسٌ وأبو ذرٍّ ومعاذٌ ﷺ . . هؤلاءِ همُ النُّجومُ بحقٍّ ، فإذا أحببتَهم كنتَ معهم هناك في الآخِرةِ . . نعم : هؤلاءِ همُ الذين يستحقُّون الحبَّ . . فمَن تحبُّ؟!

---

(١) أخرجَهُ : البخاريُّ (٢٧٩٠) .

إنَّ قضيةَ الحبِّ في هذه الأيام قضيةٌ في غايةِ الغرابةِ؛ فالناسُ اليومَ يُحِبُّون أشياءَ غريبةً وموضوعاتٍ عجيبة . . لقد قرأتُ في إحدىٰ وسائِل الإعلام المقروءة : أنَّ رجلَينِ قد رفعا قضايا ضد بعضِهما البعض بسبب كلمةٍ ساقطة . . عجيب!! . . عجيبٌ أنْ ترَىٰ الناسَ في الشارع يُحِبُّون التلفُّظَ بهذه الكلمات .

لقد كان الناسُ منذ زمانٍ مضىٰ يبحثون عن الكلام الذي فيه أدبٌ وذَوْق . . كلام أرستقراطي . . فكانوا يتشبهون بالفرنسيِّين في ترقيقِ الكلام ونطقِ الراء غَيْنًا . . وإن كنا لا نوافقُهم ؛ فلغتُنا وقورَةٌ ومحترمة وفيها كلُّ الجمالِ والأدب . . ولكنَّ الشاهدَ أنَّ الناسَ كانوا يبحثون عن الكلام المحبَّبِ الجميل . أما اليومَ فصارَ الناسُ يبحثون عن كلامِ السُّوقَةِ . . ألفاظ سوقية . . يبحثون عن ألفاظِ السَّفَلَةِ والضائعين في الشوارع . . وتجدنا وللأسف نتكالبُ عليها ونتباهَىٰ بها . . أمةٌ في الحضيضِ!!

إنَّنا بحاجةٍ إلىٰ أنْ نبحثَ عن كلِّ كلمةٍ جميلة مُريحةٍ رَطِبَة ، وكلِّ إشارةٍ مؤدَّبة وكلِّ حركةٍ مهذَّبة لنتعاملَ بها مع الناس؛ لنكسِبَ حبَّهم ونحبِّبَهم إلىٰ اللَّه؛ لنكونَ معهم ويكونوا معنا علىٰ طريقِ الحبِّ في اللَّه .

وانظرْ إلىٰ الرِّقَّةِ والأدبِ في التعاملِ بين الصحابة - رِضوانُ اللَّهِ تعالىٰ عليهم أجمعين - :

عن زيدِ ابن أسلمَ عن أبيه : «عزلَ عمرُ خالدًا ، فلمْ يُعلِمْه أبو عبيدةَ حتىٰ علمَ من الغير ، فقال : يرحمُكَ اللَّه ، ما دعاك إلىٰ أنْ لا تعلمَني؟ ؛ قال : كَرِهْتُ أن أُرَوِّعَكَ» . . حبٌّ في اللَّه .

قال الصُّوريُّ : علامةُ الحبِّ للَّه المراقبةُ للمحبوبِ ، والتَّحَرِّي لمرضاتِه .

ولمَّا اشترى أبو بكرٍ بلالًا وهو مدفونٌ في الحِجارة بخمسِ أَوَاقٍ ذهبًا؛ قالوا : لو أبيتَ إلا أُوقِيَةً لبِعْناكَهُ؛ فقال : لو أبيتم إلا مِئَةَ أُوْقِيَةٍ لأخذتُه . . حبٌّ في اللَّه .

قال فُضَيلُ بنُ غَزْوَانَ : أتيتُ أبا إسحاقَ بعد ما كُفَّ بصرُه ، قال : قلتُ : تعرفُني؟ ، قال : فضيل؟ ، قلت : نعم . قال : إني واللَّه أحبُّك ، لولا الحياءُ منك لقبَّلْتُك . فضمَّني إلى صدرِه ، ثم قال : حدَّثني أبو الأحوص عن عبدِ اللَّه : ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣] نزلت في المتحابِّين .

وكان **أبو العالية** إذا دخل عليه أصحابُه يرحِّبُ بهم ويقرأ : ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٤] .

وكان **ابنُ عمرَ** يقولُ : إنِّي لأخرج وما لي حاجةٌ إلَّا أنْ أُسَلِّمَ على الناس ، ويُسلِّمُون عليَّ[1] . . حُبٌّ في اللَّه . . يُحِبُّ المسلمين ويُحِبُّ رؤيتَهم .

قال الأوزاعيُّ : كتب إليَّ قتادةُ من البصرة : إنْ كانت الدارُ فرَّقَتْ بيننا وبينك؛ فإنَّ أُلْفَةَ الإسلام بين أهلِها جامعة[2] .

---

(١) أخرجَهُ : الديلميُّ في «الفردوس» (٥/ ٣٣٩) .

(٢) تحفة العلماء بترتيب سير أعلام النبلاء ، جمع وترتيب : أحمد سليمان وأم صفية بنت محمد صفوات نور الدين - رَحِمَ اللَّه تعالى والدَها رحمةً سابغة - (٤٧١ - ٤٧٧) .

الحبُّ في اللّه والبغضُ في اللّه ، والموالاة في اللّه والمعاداةُ في اللّه . .
الحبُّ في اللّه أن تُحِبَّ اللّهَ - تعالىٰ - ورسولَه ﷺ وتحبَّ بحبِّهما المؤمنين؛ قال - تعالى - : ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥] .

والبغضُ في اللّه أن تكرَهَ الكفرَ والكافرين والشركَ والمشركين والفِسقَ والفاسقين ، حتىٰ ولو كانوا من أقربِ الأقربين إليك؛ قال - تعالى - : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤] .

وأبو عبيدةَ عامرُ بنُ عبد اللّه بنُ الجرَّاح . . أمينُ هذه الأمَّةِ . . حقَّقَ هذا الأصلَ العظيمَ يومَ بدرٍ . . أصلَ الموالاةِ في اللّه والمعاداةِ في اللّه . . هذا الأصلُ الذي يقولُ عنه العلماء : الولاءُ والبراءُ هو المقياسُ العمليُّ والحقيقيُّ للتَّوحيدِ الخالِص .

«عاش أبو عبيدةَ تجربةَ المسلمينَ القاسيةَ في مكةَ منذ بدايتِها إلىٰ نهايتِها ، وعانىٰ مع المسلمينَ السابقينَ من عُنفِها وضَرَاوَتِها ، وآلامِها وأحزانِها ما لمْ يُعانِه أتباعُ دينٍ علىٰ ظهرِ الأرض؛ فثبَتَ للابتلاء ، وصدقَ اللّهَ ورسولَه ﷺ في كلِّ موقف .

لكنَّ محنةَ أبي عبيدة يوم «بدرٍ» فاقتْ في عُنفِها حِسْبَانَ الحاسبين وتجاوزَتْ خيالَ المتخيِّلين .

انطلقَ أبو عبيدةَ يومَ بدرٍ يصولُ بين الصفوفِ صَوْلَةَ مَنْ لا يهابُ

الرَّدَي ، فهابَه المشركون ، ويجولُ جَوْلةَ مَنْ لا يحذرُ الموتَ ، فحَذِرَه فُرْسَانُ قريش ، وجعلوا يتنحَّوْنَ عنه كلَّما واجهَهم . .

لكنَّ رجلًا واحدًا منهم جعلَ يَبْرُزُ لأبي عبيدةَ في كلِّ اتجاهٍ ، فكان أبو عبيدةَ يتحرَّفُ عن طريقِه ويتحاشىٰ لقاءَهَ .

وَلَجَّ الرجلُ في الهجوم وأكثرَ أبو عبيدة من التنحِّي ، وسدَّ الرجلُ علىٰ أبي عبيدةَ المسالك ووقَفَ حائلًا بينه وبين قِتَالِ أعداءِ اللّهِ .

فلما ضاقَ به ذَرْعًا ضَرب رأسَه بالسيفِ ضَربةً فَلَقَتْ هامَتَه فَلْقتين؛ فخرَّ الرَّجُلُ صريعًا بين يديه .

لا تُحَاوِلْ - أيها القارئُ الكريمُ - أنْ تُخمِّنَ مَن يكونُ الرَّجُلُ الصَّرِيعُ . . أمَا قلتُ لك : إن عُنفَ التجرِبةِ فاقَ حِسْبَانَ الحاسبينَ وجاوزَ خيالَ المتخيِّلينَ؟ . .

ولقد يتصدَّعُ رأسُكَ إذا عَرَفْتَ أنَّ الرَّجُلَ الصَّرِيعَ هو عبدُ اللّه بنُ الجَرَّاحِ والدُ أبي عُبَيْدَةَ .

لم يقتُلْ أبو عبيدةَ أباه ؛ وإنما قتلَ الشِّركَ في شخصِ أبيه .

فأنزل اللّه - سبحانه - في شأنِ أبي عبيدةَ وشأنِ أبيه قرآنًا ؛ فقال - عَلَتْ كلمته - : ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢] .

لم يكن ذلك عجيبًا من أبي عبيدةَ ، فقد بلغَ من قُوَّةِ إيمانِه باللَّه ونصحِهِ لدينِه ، والأمانةِ علىٰ أمَّةِ محمدٍ ﷺ مَبْلغًا طَمَحَتْ إليه نفوسٌ كبيرةٌ عند اللَّه »[١] .

فاختاروا - إخوتاه - مَن يسرُّكُم في القيامةِ أن يكونوا معكم وتكونوا معهم ، وابتعدوا عن طريقِ الصادِّينَ عن سبيلِ اللَّهِ الذين يُحِبُّون أن تشيعَ الفاحشةُ في الذين آمنوا . . تبرءوا من الفَسَقةِ الفَجَرَةِ حتىٰ لا يجمعَكم اللَّهُ بهم . . اتركوا الاختلاطَ بهم ، واتركوا التشبّه بهم في الأعيادِ والاحتفالات ، والمَلْبَسِ والهيئةِ ، واستعمالِ كلماتِهم التي يكرهُها اللَّه .

قال - تعالىٰ - : ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣] . . فالآية : « فيها دليلٌ علىٰ وجوبِ هُجْران أَهْلِ الكفرِ والمعاصي ، وأهلِ البدع والأهواء؛ فإنّ صحبتَهم كفرٌ أو معصية؛ إذ الصُّحبة ، لا تكون إلّا عن مودَّةٍ »[٢] .

إخوتاه ، الطريقُ إلىٰ اللَّهِ لابدَّ فيها من البعدِ عن المثبِّطينَ المُقْعِدِينَ الذين ركنوا إلىٰ حبِّ الدنيا والْتَذُّوا بها ، فأحِبُّوا المؤمنينَ الطائعينَ الطاهرينَ يُعينوكم علىٰ الوصولِ ، ويُهوِّنوا عليكم مشاقَّ الطريقِ .

أخي في اللَّه ، حبيبي في اللَّه ، أحبِبْ للَّه ، واكرهْ للَّه ، فبهذا الأصلِ اخترْ حبيبَك من ها هنا ، واعلم أنَّ المسافرَ إلىٰ اللَّهِ يحتاجُ

(١) صور من حياة الصحابة ، لعبد الرحمن رأفت الباشا - رحمه اللَّه تعالىٰ - (٩٢ - ٩٣) .
(٢) أيسر التفاسير ، لأبي بكرٍ الجزائريِّ - حفظه اللَّه تعالىٰ - (٢/ ٥٨٤) .

ولابدَّ إلىٰ رُفقةٍ صالحةٍ وصُحْبةٍ طيِّبة . . يحتاجُ أن يعيشُ في مجتمعٍ تَسُودُهُ المَحَبَّةُ والأُخُوَّة[1] .

أخي في اللَّه ، المرءُ معَ مَنْ أَحَبَّ ؛ فمَن تُحِبُ ولماذا ؟

اللَّهمَّ ارزقنا حُبَّك ، وحبَّ من أحبَّك ، وحبَّ كلِّ عبدٍ صالحٍ يحبُّك ، وحبَّ كلِّ عملٍ يقرِّبُنا إلىٰ حُبِّك . . اللَّهمَّ اجعلْ حُبَّك أحبَّ إلينا من أنفسِنا وأهلينا ومن الماءِ الباردِ علىٰ الظَمَإ . . اللَّهمَّ واجعلنا ممَّن أحببتَهم فَرَضِيْتَ عنهم . . اللَّهمَّ وكما جمعْتنا علىٰ حُبِّك في الدنيا ؛ اجمعْنا في جنَّاتك جنَّاتِ النَّعيم علىٰ سُرُرٍ متقابلين مع النَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهَدَاءِ والصَّالحين ، وحَسُنَ أولئكَ رفيقًا . . اللَّهمَّ لا تحرِمْنا رؤيَةَ الصَّالحين ، ولا تَحْرِمْنَا - اللَّهُمَّ - من النَّظَرِ إلىٰ وجهِكَ الكريم . .

آمين . . آمين . . آمين . .

* * *

---

(١) راجع مزيدًا من الكلام عن الأُخُوَّةِ والمتآخِين في كتابنا «**الأُخُوَّة أيُّها الإخوَة**» ؛ فإنه مهمٌّ لكلِّ أخٍ مسلم ، ومُلتزمٍ علىٰ الخصوص .

الخَاتِمَة

صَحِبْتُكَ - أيُّهَا الحَبِيْبُ - رُبْعَ الطَّريق . . وهكذا تكونُ المُسَاعدة حقيقةً ؛ فإنَّ مَنْ يتعطَّل في بعضِ الطَّريق أو يسأل عن طريق ؛ فإنَّ الدَّليلَ لا يسيرُ مَعَهُ كُلَّ الطَّريق . . وكذلك مَنْ يُقَدِّمُ لنا المُسَاعدة لا يُتَمُّ به .

السِّفْرَةُ هذه سَبْعٌ وعِشرُونَ من مِئَة ، تُسْتَكْمَلُ - إنْ شاءَ اللَّهُ وقَدَّر . . ولكنِّي أُجَرِّبُك : هل تَصْلُحُ لهذا الطَّريق أم لا ؟!

لا تنتَظِرْ . . اسلُكْ وانْطَلِقْ . . وسيأتيكَ المَدَدُ من المَلِك . . وإيَّاكَ أن تتأخَّرَ أو تَلْتَفِت . . وبعدَ أن سِرْتَ معي أوَّلَ الطَّريق إيَّاكَ أن تنقطع .

ويُذَكِّرُكَ عُمَرُ بنُ عبدِ العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ . . ويُحَذِّرُكَ فيقول :

« **يا أخي** ، إنَّكَ قد قطعتَ عظيمَ السَّفر ، وبَقِيَ أقلُّه ، فاذْكُرْ - يا أخي - المَصَادِرَ والمَوَارِد ؛ فقد أُوحِيَ إلىٰ نبيِّكَ ﷺ في القرآن أنَّكَ من أهل الورود ، ولم يُخبر أنَّكَ من أهلِ الصدور والخروج ، وإيَّاك وأن تَغُرَّكَ الدنيا ؛ فإنَّ الدنيا دارُ مَنْ لا دارَ لَه ، ومالُ مَنْ لا مالَ له ، **يا أخي** ، إنَّ أجلَكَ قَدْ دَنَا ؛ فكن وَصِيَّ نَفْسِك ، ولا تجعلِ الرِّجالَ أَوْصِيَاءَك »[1] .

وأخطرُ من ذلكَ : تهديدُ ابنُ القيِّم الذي يقولُ فيه :

« ومَنْ ذاقَ شيئًا من ذلك وعرفَ طريقًا مُوَصِّلَةً إلىٰ اللَّه ثم تركها وأقبلَ

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي (٢٧٠) .

علىٰ إرادتِه وراحاتِه وشهواتِه ولَذَّاتِه ؛ وقع في آثار المَعَاطِب وأَوْدَعَ قلبَه سُجُونَ المضايق وعُذِّبَ في حياتِهِ عذابًا لم يُعَذَّب به أحدٌ من العالمين ؛ فَحَيَاتُهُ عَجْزٌ وغَمٌّ وحُزْن ، وموتُهُ كَدَرٌ وحَسْرَة ، ومَعَادُهُ أَسَفٌ وندامة ، قد فَرَّطَ عليه أمَره وشَتَّتَ عليه شَمْلَه ، وأحضرَ نفسَه الغُمُومَ والأحزانِ ؛ فلا لَذَّةَ الجاهلين ولا راحةَ العارفين ، يستغيثُ فلا يُغَاث ويشتكِي فلا يُشْتَكىٰ ، فقد ترحَّلَتْ أفراحُه ، وسروره مُدْبِرَة ، وأقبلت آلامُه وأحزانُه وحسراتُه ، فقد أبدْلَ بأُنسِهِ وحشةً ، وبِعِزِّهِ ذُلًّا ، وبِغِنَاهُ فَقْرًا وبِجَمْعِيَّتِهِ تشتيتًا ، وأبعدوه فلمْ يَظْفَرْ بقربهم ، وأبدلوه مكانَ الأنسِ إيحاشًا ؛ ذلك بأنه عَرَفَ طريقه إلىٰ اللَّه ثم تركها ناكِبًا عنها مُكِبًّا علىٰ وجهه ؛ فأبصرَ ثم عَمِي ، وعَرَفَ ثم أنكر ، وأقبلَ ثم أدْبَر ، ودُعِيَ فما أجاب ، وفُتِحَ له فَوَلَّى ظهرَه الباب ، قد تركَ طريقَ مولاه وأقبلَ بكُلِيَّتِهِ علىٰ هواه ، فلو نالَ بعضَ حظوظِه وتلذَّذَ براحاتِه وشئونِه ؛ فهو مُقَيَّدُ القلب عن انطلاقِهِ في فسيحِ التَّوحيد ، وميادينِ الأنس ، ورِياضِ المَحَبَّة ، وموائدِ القُرْب .

قد انْحَطَّ بسببِ إعراضِهِ عن إلهِهِ الحقِّ إلىٰ أسفلِ سافلين ، وحَصَلَ في عِدَادِ الهالكين ؛ فنَارُ الحجابِ تَطْلُعُ كُلَّ وقتٍ علىٰ فؤادِه ، وإعراضُ الكونِ عنه – إذا أعرضَ عن ربِّه – حائلٌ بينه وبين مُرَادِه ، فهو قَبْرٌ يمشي علىٰ وجهِ الأرض ، ورُوْحُهُ في وحشةٍ من جسمِه ، وقلبُهُ في مَلَالٍ من حياتِه ، يتمنَّىٰ الموتَ ويشتهيه ولو كان فيه ما فيه ، حتىٰ إذا جاءه الموتُ علىٰ تلكَ الحال – والعياذ باللَّه – فلا تسأل عما يَحِلُّ بهِ مِنَ العذابِ الأليم ، بسببِ وقوعِ الحجابِ بينه وبينَ مولاهُ الحقّ ، وإحراقِهِ بنارِ البُعدِ عن قُربِهِ والإعراضِ عنه ، وقد حِيْلَ بينهُ وبينَ سَعَادَتِهِ وأُمنِيَّتِه .

فلو توهَّمَ العبدُ المِسكينُ هذه الحال وصوَّرَتْهَا له نفسُهُ وأَرَتْهُ إِيَّاها علىٰ حقيقتِها ؛ لتَقَطَّعَ - واللَّهِ - قلبُه ، ولم يلتذَّ بطعام ولا شراب ، ولَخَرَجَ إلىٰ الصُعُدَاتِ يجأرُ إلىٰ اللَّه ويستغيثُ به ويستعْتِبُهُ في زمنِ الاستعتاب ، هذا مع أنه إذا آثرَ شهواتِهِ ولَذَّاتِهِ الفانية التي هي كخيالِ طَيْف أو مُزْنَةِ صَيْف ؛ نَغَّصَتْ عليه لَذَّتُها أحوج ما كان إليها ، وحِيْلَ بينه وبينها أقدر ما كان عليها ، وتلكَ سُنَّةُ اللَّه في خلقِه كما قال - تعالىٰ - : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤] .

وهذا هو غِبُّ إعراضِهِ وإيثارِ شهوتِهِ علىٰ مَرْضَاةِ ربِّه ، يعوقُ القَدَرُ عليه أسبابَ مُرَادِه فيخسرُ الأمرينِ جميعًا ، فيكون مُعَذَّبًا في الدنيا بتنغيصِ شهواته وشدة اهتمامِهِ بطلب ما لم يُقْسَم له ، وإن قُسِمَ له منه شيء فَحَشْوُهُ الخوفُ والحُزنُ والنَكَدُ والألم ؛ فهمٌّ لا ينقطع ، وحسرةٌ لا تنقضي ، وحِرْصٌ لا يَنْفَذ ، وذُلٌّ لا ينتهي ، وطمعٌ لا يُقْلِع . . هذا في هذه الدار .

وأمَّا في البرزخ فأضعافُ أضعافِ ذلك : قد حيل بينه وبين ما يشتهي ، وفاته ما كان يتمناه من قُرْبِ ربِّه وكرامته ونَيْلِ ثوابِه ، وأُحْضِرَ جميعُ غمومِهِ وأحزانِه . وأمَّا في دارِ الجزاء : فَسَجْنُ أمثالِهِ من المَبْعُودِين المطرودين . واغَوْثَاهُ ثُمَّ وَاغَوْثَاهُ بِغِيَاثِ المُسْتغيثين وأرحم الرَّاحمين .

فَمَنْ أعرضَ عن اللَّه بالكُليَّة أعرضَ اللَّه عنه بالكُليَّة ، ومن أعرضَ اللَّه عنه لَزِمَهُ الشقاءُ والبُؤْسُ والبَخْسُ في أحوالِه وأعمالِه ، وقَارَنَهُ سوءُ

الحَال ، وفساده في دينِهِ ومآلِه ، فإنَّ الرَّب إذا أعرضَ عن جِهَةٍ ؛ دارتْ بها النُّحُوس ، وأظلمتْ أرجاؤها ، وانكَسَفَتْ أنوارُها ، وظهرت عليها وحشةُ الأعراض ، وصارت مَأْوَىٰ للشياطين ، وهدفًا للشُّرور ، ومَصَبًّا للبلاء .

فالمحرومُ كُلُّ المحروم من عَرَفَ طريقًا إليه ثم أعرض عنها ، أو وجدَ بارقةً من حُبِّهِ ثم سلبها لم يَنْفَذْ إلىٰ ربِّهِ منها ، خصوصًا إذا مَالَ بتلك الإرادة إلىٰ شيءٍ من اللَّذات ، وانصرف بجُمْلَتِهِ إلىٰ تحصيلِ الأغراض والشَّهَوَات ، عاكفًا علىٰ ذلك في ليلِهِ ونهارِه وغُدُوِّهِ ورواحِه ، هابطًا من الأَوْجِ الأعلىٰ إلىٰ الحضيضِ الأدنىٰ ، قد مَضَتْ عليه بُرْهَةٌ من أوقاته وكان همُّهُ اللَّه وبُغيتُهُ قُرْبُهُ ورِضَاه وإيثارُه علىٰ كُلِّ ما سواه ، علىٰ ذلكَ يُصبحُ ويُمسي ويَظَلُّ ويُضْحِي ، وكانَ اللَّهُ في تلك الحال وَلِيَّه ؛ لأنه وَلِيُّ مَنْ تولَّاه وحبيبُ من أَحَبَّه ووالاه ؛ فأصبح في سجن الهوىٰ ثاويًا وفي أَسْرِ العدوِّ مُقِيمًا وفي بِئْرِ المعصيةِ ساقطًا ، وفي أوديةِ الحَيْرَة والتفرقة هائمًا ، مُعْرِضًا عن المطالبِ العالية إلىٰ الأغراض الخسيسةِ الفانية ، كان قلبُهُ يحومُ حولَ العَرْش ؛ فأصبحَ محبوسًا في أسفلِ الحُشّ :

فَأَصْبَحَ كَالْبَازِي المُنَتَّفِ رِيشَهُ ... يَرَىٰ حَسَرَاتٍ كُلَّمَا طَارَ طَائِرُ
وَقَدْ كَانَ دَهْرًا في الرِّيَاضِ مُنَعَّمًا ... عَلَىٰ كُلِّ مَا يَهْوَىٰ مِنَ الصَّيْدِ قَادِرُ
إِلَىٰ أَنْ أَصَابَتْهُ فِي الدَّهْرِ نَكْبَةٌ ... إِذَا هُوَ مَقْصُوصُ الجَنَاحَيْنِ حَاسِرُ

فيامَنْ ذاقَ شيئًا من معرفةِ ربِّه ومحبَّتِهِ ثُمَّ أعرضَ عنها واستبدلَ بغيرها منها ، يا عجبًا له بأيِّ شيء تَعَوَّض ، وكيف قَرَّ قرارُه فما طلب الرُّجُوعَ إلىٰ أَحْنِيَتِه وما تَعَرَّض . وكيف اتَّخَذَ سوىٰ أَحْنِيَتِهِ سَكَنًا ، وجعلَ قلبَهُ لِمَنْ

عاداه مولاهُ من أجلِهِ وَطَنًا . أم كيفَ طاوَعَهُ قلبُهُ على الاصطبار ، ووافقه علىٰ مُسَاكَنَةِ الأغيار .

فيا مُعْرِضًا عَنْ حياتِهِ الدَّائِمة ونعيمِهِ المُقِيم ، ويا بَائعًا سعادَتَهُ العظمىٰ بالعذابِ الأليم ويا مُسْخِطًا من حياته وراحته وفوزه في رضاه ، وطالبًا رِضَى مَنْ سعادتُهُ في إرضاءِ سِواه ؛ إنما هي لَذَّةٌ فانية وشهوةٌ مُنقضية تَذهبُ لَذَّاتُها وتبقىٰ تَبِعَاتُها ، فَرَحُ ساعة لا شهر ، وغَمُّ سَنَةٍ بل دَهْر ، طعامٌ لذيذٌ مسموم أو له لَذَّةٌ وآخِرُهُ هلاك ، فالعامل عليها والسَّاعي في تحصيلِها كدُوْدَةِ القَزّ يَسُدُّ علىٰ نفسِهِ المذاهب بما نَسَجَ عليها من المَعَاطِب ، فيَنْدَمُ حينَ لا تنفعُ النَّدامَة ، ويستقيلُ حين لا تُقْبَلُ الاستقالة .

فَطُوْبَىٰ لِمَنْ أقبلَ علىٰ اللَّهِ بكُلِيَّتِهِ وعَكَفَ عليهِ بإرادتِه ومَحَبَّتِه ؛ فإنَّ اللَّهَ يُقبِلُ عليهِ بتولِّيهِ ومحبَّتِه وعطفِه ورحمتِه ، وأنَّ اللَّه - سبحانه - إذا أَقْبَلَ علىٰ عبدٍ استنارت جهاتُهُ ، وأشرقت ساحَاتُه ، وتنوَّرَتْ ظُلُمَاتُه ، وظهرتْ عليه آثارُ إقبالِه من بهجةِ الجَلَال وآثارِ الجَمَال ، وتوجَّهَ إليه أهلُ المَلإِ الأعلىٰ بالمَحَبَّةِ والمُوَالاة لأنهم تَبَعٌ لمولاهم ، فإذا أَحَبَّ عبدًا أحبُّوه ، وإذا والىٰ وليًّا والوه ، إذا أحبَّ اللَّهُ العبدَ نادىٰ : يا جبرائيل إنِّي أُحِبُّ فلانًا فأَحِبَّه ، فينادِي جبرائيل في السَّماء : إنَّ اللَّه يُحِبُّ فلانًا فأَحِبُّوه . فيُحِبُّهُ أهلُ السَّماء ثم يُحِبُّهُ أهلُ الأرض ، فيُوضَعُ له القَبُولُ بينهم[(١)] ، ويَجْعَلُ اللَّهُ قلوبَ أوليائِه تَفِدُ إليه بالوُدّ والمَحَبَّةِ والرَّحْمَة ، ونَاهِيْكَ بِمَنْ يتوجَّهُ إليه مالِكُ المُلْكِ ذو الجَلَالِ والإِكْرَام بِمَحَبَّتِهِ ، ويُقْبِلُ

(١) متفق عليه : البخاريُّ (٣٢٠٩) ، ومسلم (٢٦٣٧) .

عليهِ بأنواعِ كرامَتِه ، ويَلْحَظُهُ الملأُ الأعلىٰ وأهلُ الأرضِ بالتَّبْجِيلِ والتَّكْرِيم ، وذلك فَضْلُ اللّٰهِ يُؤْتِيهِ مَن يشاء ، واللّٰهُ ذو الفَضْلِ العظيم »[1] .

أخي الحبيب . . إنَّهُ لتهديدٌ رَعِيبٌ . . يَذْكُرُهُ لكَ ابنُ القيِّم الأَرِيب . . وأنتَ مِمَّنْ ينفعُهُ التَّهديد . . فإنَّهُ صَوْتٌ يَسُوقُكَ إلىٰ اللّٰهِ - تَعَالىٰ .

اسْتَعِنْ باللّٰهِ وانْطَلِقْ . . ولَنْ أَدَعَك . . اطْمَئِنْ ؛ فأنا أُحِبُّكَ في اللّٰه ، وسأعُودُ إليكَ قريبًا ؛ لنواصِلَ السَّيْر . .

وَصِيَّتِي : احْفَظِ اللّٰهَ تَجِدْهُ تِجَاهَك . . أَسْتَوْدِعُكَ اللّٰهَ الذي لا تَضِيْعُ عندهُ الوَدَائِع . . ولِقَاؤُنا قَرِيبٌ - إنْ شَاءَ اللّٰهُ وقَدَّر . .

والسَّلَامُ عَلَيْكُمْ ورَحْمَةُ اللّٰهِ وبَرَكَاتُه

وصَلَّىٰ اللّٰهُ وسَلَّمَ علىٰ نبيِّنا مُحَمَّدٍ وعلىٰ آلِهِ وصحبهِ
والتَّابعينَ لهم بإِيمَانٍ وإِحْسَانٍ إلىٰ يوم الدِّين
وآخِرُ دَعْوَانا أنِ الحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ العَالَمِين

* * *

---

(١) طريق الهجرتين (١٧١ - ١٧٤) .

مِسْكُ الخِتَام

يَا وَاهِبَ المَوَاهِب ، ومُجْزِلَ الرَّغَائِب . . **أَعُوذُ بِكَ مِنَ النُّزُوْلِ بَعْدَ الوُصُول** . . ومِنَ الكَدَرِ بَعْدَ الصَّفَا . . ومِنَ الشَّوقِ بَعْدَ الأُنس . . ومِنْ طَائِفِ الحَسْرَةِ لِعَارِضِ الفَتْرَة . . ومِنْ تَغَيُّرِ الرِّضَا . . ومِنَ التَّخَلُّفِ عَنِ الحَادِي لَحْظَةً . . أَوْ الإِيْمَانِ دُوْنَ العِلْم . . ومِنْ مَوْقِعِ حَذَرٍ يُوجِبُ لِلْعَقْلِ بُطْئًا - يَا رَبّ - حَتَىٰ تَكْمُلَ النِّعَمُ عِندِي . . ورَقِّ فِي ذُرَىٰ الكَرَامَةِ مُهْجَتِي . . ونَضِّرْ اللَّهُمَّ بِالْكَمَالِ لَدَيْكَ بَهْجَتِي . . وعَزِّفْنِي عَنِ الدُّون . . ووَارِ عِلْمِي عَنِ الخَاطِرِ . . يَا مَنْ مَنَحَ الأَصْفِيَاءَ مَنَازِلَ الحَقِّ ومَدَىٰ الغَايَات . . أَصْفِ هِدَايَتِي مِنْ دَنَسِ العَارِض . . واحْسِمْ عَدُوِّيَ عَنْ مُلَاحَظَتِي . . وأَخْلِصْنِي بِكَمَالِ رَغْبَتِي . . وبِمَا لَا يَبْلُغُهُ سُؤَالِي . . **إِنَّكَ رَحِيمٌ وَدُوْدٌ** .

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الثانية	٥
مقدمة الطبعة الأولىٰ	٩
تمهيد	١١
■ **وَمَضَاتٌ علىٰ طريقِ السَّيْرِ إلىٰ اللَّه :**	١١
الوَمْضَةُ الأولىٰ : شُرُوطُ الطَّرِيق :	١٦
أوَّلًا : الدَّلِيل	١٦
- طبيعةُ الطَّرِيق	١٧
ثانيًا : الصَّاحِب	٢٣
- رُفْقَةُ الطَّرِيق	٢٥
الوَمْضَةُ الثَّانية : حَدِّدْ هَدَفَك	٢٧
الوَمْضَةُ الثَّالثة : مُقَوِّمَاتُ السَّفَر	٢٩
الوَمْضَةُ الرَّابعة : وتزوَّدوا	٣٢
- سَبِيلُ التَّزَوُّد :	٣٣
١- التَّوحيدُ والإِيمَان	٣٣
٢- اليَقِين	٣٤
٣- التَّقْوَىٰ	٣٥
٤- الإِخْلَاص	٣٦

٥- الخَبيئَة ٣٦
٦- الصَّبْر ٣٧
■ **آفاتٌ علىٰ الطَّريق :** ٣٩
الآفَةُ الأولىٰ : الخَوْفُ مِنْ وَحْشَةِ التَّفَرُّد ٤٠
الآفَةُ الثَّانية : فُضُولُ الكَلام والخُلْطَة ٤١
الآفَةُ الثَّالثة : النَّفَقُ المُظْلِم ٤١
الآفَةُ الرَّابعة : جِسْرٌ علىٰ الطَّريق ٤٢
■ **اسْتِرَاحةُ المُسَافِر :** ٤٩
● تَرْوِيحَاتٌ علىٰ جَنَبَاتِ الطَّريق : ٥٢
* علومٌ ليست في الكتب ٥٢
* المُدَارَاة . . والسَّتْر ٥٢
* اختبارات ٥٢
* ويْحَكَ . . ويْحَك ٥٤
* أَدْمَىٰ دِينَه بأظفَارِ شَكْوَاه ٥٥
* سِيَاطُ المَوَاعِظ ٥٦
* اطْلُبُوني في المَقَابِر ٥٧
* مِنْ شِعْرِ العَصْرِ الذَّهَبِيّ ٥٨
* الأَخْطَر ٥٩
* قِصَّةُ الحَيَّة والسَّكْرَان ٥٩
* دِيك سهل بن هارون ٦٠
■ **كَلِمَةٌ أَخِيرَة** ٦٢
أصول الوصول إلىٰ الله تعالىٰ ٦٧

الأصل الأول : عليكَ البداية وعليه التّمام ٦٩
الأصل الثاني : كن واحدًا لواحد على طريقٍ واحد ٧٦
الأصل الثالث : ما لا يكونُ باللّه لا يكون ،
وما لا يكونُ للّه لا ينفعُ ولا يدوم ٨٨
الأصل الرابع : الشكرُ أساسُ المزيد ١٠٠
الأصل الخامس : امْلُكْ عَصَا التَّحْوِيلَة ١٠٨
الأصل السادس : يَوْمَكَ يَوْمَك ١١٠
الأصل السابع : وَلْيَسَعْكَ بيتُك ١١٨
الأصل الثامن : الصَّادِقُ حبيبُ اللّه ١٢٤
الأصل التاسع : دَوْمًا في المعاملة السَّحْبُ مِنَ الرَّصِيد ١٣٦
الأصل العاشر : القُرآنُ قائِدٌ وسائِقٌ وحَادٍ ١٤١
الأصل الحادي عشر : لا تَلْبَسْ ثِيابَ الفراغِ أثناءَ العمل ١٥٠
الأصل الثاني عشر : في الطريقِ مواقف للتَّمييز ١٥٥
الأصل الثالث عشر : الاعتصامُ باللّهِ عقيدةٌ وعملٌ ودعاء ١٥٩
الأصل الرابع عشر : مَنِ استطالَ الطَّريقَ ضَعُفَ مَشْيُه ١٦٦
الأصل الخامس عشر : السِّرُّ الدَّفِين لِعَدَمِ القَبول
وجودُحظٍّ للنَّفسِ في العمل ١٧٢
الأصل السادس عشر : الأمرُ كُلُّهُ بِيَدِ اللّه ؛ فَسَلِّمْ تَسْلَمْ ١٧٧
الأصل السابع عشر : دليلُ عدمِ رِضاهُ عنك عدمُ رِضاكَ عنه ١٨٤
الأصل الثامن عشر : إيَّاكَ أنْ تَمْكُرَ به فيَمْكُرَ بك ١٩٣
الأصل التاسع عشر : اجْنِ العَسَلَ ولا تكْسِرِ الخليَّة ٢٠٦

الأصل العشرون : «ومِنْ كُلِّ شيءٍ خلقنا زوجينِ لعلكم تذكَّرون فَفِرُّوا إلىٰ اللّه» ٢٣٨

الأصل الحادي والعشرون : مَنْ صَفَّىٰ صُفِّيَ له ، ومَنْ كَدَّرَ كُدِّرَ عليه ٢٦٤

الأصل الثاني والعشرون : لا تتجاهَلْ جانبًا واحدًا مِنْ جوانبِ الدِّين ٢٦٩

الأصل الثالث والعشرون : أَنجِزْ كُلَّ يوم شيئًا جديدًا ٢٨٢

الأصل الرابع والعشرون : كُفَّ عنِ الشَّكْوىٰ وابْدإ العلاج ٢٨٦

الأصل الخامس والعشرون : لَيْسَ الشَّأْنُ أَنْ تُحِبَّه ؛ إنَّما الشأنَ أَنْ يُحِبَّك ٢٩١

الأصل السادس والعشرون : كُلُّ متاعٍ في الدُّنيا يَسْحَبُ مِنْ رصيدكَ في نعيمِ الآخرة ٣٠٦

الأصل السابع والعشرون : المرءُ معَ مَنْ أحبَّ ؛ فاخْتَرْ حبيبَك مِنْ هَاهُنا ٣١٧

الخَاتِمَة ٣٢٥

مِسْكُ الخِتَام ٣٣١

الفِهْرِس ٣٣٢

* * *